

بجته التأليف والترجمة والنشر

# الطاسم

تأليف: سيرو لترسكت  
تقريب: محمود محمود محمد  
مخرج جامعة أكستر بائنة

العدد الثاني

عيون الأدب العربي



بجته التأليف والترجمة والنشر

# الطاسم

تأليف : سيرة وترسكت  
تقريب : محمود محمود محمد  
فخرج جامعة أكستربا بملترا

العدد الثاني

عيون الأدب العربي

القاهرة  
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر  
١٩٣٨



## نقد المذهب

كان من أثر الثورة الفرنسية أن تحرر الفكر الأوروبي ، وانطلق من قيوده ، وظهرت الحركة الرومانتيكية في الأدب الغربي ، وأخذ أتباع هذا المذهب الجديد ينادون بحرية اللفظ وإطلاق الخيال من أسر التقليد .

ومن زعماء هذه الحركة في الأدب الإنجليزي « السير والتر سكوت » Sir Walter Scott صاحب هذه الرواية التي نحن بصددها نقلا إلى قراء العربية . بدأ حياته الأدبية بكتابة الأغاني الشعبية ، التي سرعان ما ترددت على كل لسان ، وزادت بين الناس جميعاً ؛ وكان يسوق في هذه الأغاني طرفاً من القصص التاريخية القديم ، مشيداً بذكر الأبطال الأقدمين ، وما وقع في سالف الأيام ؛ ولكنه لم يلتزم الصدق والدقة في رواية التاريخ ، بل كثيراً ما كان يطلق خياله العنان ، فيخلق شخصاً من المدم ، ويذكر أحداثاً لم تقع ؛ وكانت أحب فترات التاريخ إلى نفسه العصور الوسطى . كان يستهويه منها روح الفروسية ، وميوها العسكرية وحروبها التي لم تنقطع .

وظل سكوت في أعين الجمهور زعيم الشعراء ، حتى ظهر اللورد بايرون ، وبزءه ، واجتذب منه كثيراً من المعجبين بأناشيده الشعبية ، فانصرف سكوت من الشعر إلى النثر ، وهجر الأغاني إلى الرواية ؛ وكان في قصصه الروائي — كما كان في شعره — يعمد إلى إحياء التاريخ الأوسط ، ويرى فيه مجالاً واسعاً لإرسال الخيال وابتداع القصص ؛ ومن بين القصص التاريخية المديدة التي كتب قصة « الطليسم » التي تقدمها اليوم إلى القراء الناطقين بالضاد ، وقد وقع اختيارنا عليها دون غيرها لأن موضوعها يتصل بالقارئ الشرقي ، ويتناول موقفاً من المواقف المشهورة في الحروب الصليبية بين رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا

وصلاح الدين الأيوبي ؛ والقصة تبسط لنا كثيراً من مميزات المصور الوسطى ، وتبين كيف كان أبناء الغرب من المسيحيين ينظرون إلى أهل الشرق من المسلمين ، كما تبين الروح العسكرية السائدة في تلك العصور ، والاستهانة في الدفاع عن الدين ، والاعتقاد في الخرافة والسحر ، وطرفاً من حياة الرهبان المسيحيين وقسوتهم على أنفسهم في أسلوب توبتهم إلى الله وتكفيرهم عن ذنوبهم .

وترى في الرواية كذلك لونين متباينين من الحب : لوناً شهوانياً مجرداً يمزوه « سكت » إلى أهل الشرق عامة ، وآخر أفلاطونياً عذرياً ، ويمزوه إلى الغربيين في ذلك الزمان ، وهو حب لا يمس العاشق فيه معشوقته ، ويكاد يسجد لها من دون الله .

ولعل أدق ما ترويه لنا الرواية تحليلاً مفصلاً لشخصي رتشارد وصلاح الدين . يمرض لنا « سكت » « رتشارد » رجلاً قوى البنية ، غليظ الطبع ، شديد النفوذ على أتباع الصليب جميعاً ، سريع الغضب ، سليم الطوية ، صريح العبارة ، لا يعرف إلى الإدارة أو التواء المقصد سبيلاً . أما صلاح الدين فيمثل المكر والدهاء ، والصبر وطول الأناة ؛ يعرضه لنا المؤلف في مسهل القصة متخفياً في شخص مقاتل من المقاتلين المسلمين ، مقداماً شجاعاً ، لا يتهيب ولا يخاف ، ثم يخلع عنه زى المحارب ، ويأتى لنا به ثانية متكرراً في لباس الطبيب أو « الحكيم » ، كما يحب سكت أن يسميه عامداً ، لأنه يريد أن يوحى إلى أن العرب كانت تخلط بين « حكمة » الطب و « حكمة » الفلسفة ورواية الحكم والأمثال ؛ وفي غتمة القصة ينزع صلاح الدين كل معالم التنكر ويبرز لنا في شخصه الحر الكريم ، جواداً ، سياسياً محنكاً ، وحكماً عادلاً بين الصليبيين .

وكأن « سكت » يتندر لنا في مقدمة الرواية عن مسخه لحقائق التاريخ وتغييره وتبديله فيها ، ويقول إن في ذلك الفارق بين القصص التاريخي وعلم التاريخ ؛ فنحن نمتدر إلى القارىء المسلم عما قد يجد في القصة مما يسيئه ولنتمس

لسكت المذرة في ذلك ، لأنه يكتب عن حرب دينية بين الصليب والhalal وعن  
عصر كان التعصب الديني فيه على أشده ، فن الطيبى أن يسخر المسيحي من دين  
المسلم وأن يهزأ المسلم بمقيدة المسيحي .

والآن أتقل بالقارى\* إلى ما كتب سكُت\* ، آملاً أن يجد في القصة لذة  
ومتعة ؛ وأن يتسامح في شرود المؤلف وهفوات العرب .

المعرب

نوفبر سنة ١٩٣٧

## مقدمة المؤلف

لم ترق قصة « المخطوبة » كثيراً لصديق أو صديقين ، وظننا أنها لا تتلاءم كل الملاءمة وما أخرجنا أخيراً من قصص تحت عنوان « الصليبيين » ، وأكداً على أن هذا العنوان : « قصص الصليبيين <sup>(١)</sup> » دون الإشارة المباشرة إلى أخلاق قبائل الشرق ، وإلى الخصومات الخيالية في ذلك العهد ، يكون بمثابة اللوحة تعلن عن مأساة « هاملت » ولا تذكر شخصية أمير الدنمارك <sup>(٢)</sup> . ولكني ، من ناحية أخرى ، أدركت للشقة في رسم صورة حياة لجزء من العالم أجهله كل الجهل ، وليس لدى عنه إلا ذكريات باكرة لقصص ألف ليلة وليلة ؛ ولست أعاني من قصور الجهل فحسب ، ذلك الجهل الذي أحاطت بي غيومه كثيفة فيما يتعلق بأخلاق الشرق ، كما تحيط الغيوم بالمصري ، ولكن هناك كثيراً من معاصري على بينة من الموضوع كأنهم من أهل أرض « جوشن » للكفرة ، فلقد تغفلت حب الأسفار بين جميع الطبقات ، ودفع بأبناء بريطانيا إلى أنحاء العالم طراً ، وتطلعت عيون البريطانيين في العهد الأخير إلى بلاد اليونان ، التي تجذب النظر بما فيها من آثار الفنون ، وبمجاهداتها في سبيل الحرية في وجه حاكم مسلم طاغية ، بل وباسمها ذاته ، حيث لكل عين أسطورتها القديمة ، كما تطلعت إلى فلسطين التي تجبها إلى الخيال ذكريات أكثر من هذه قداسة ، والتي وصفها الرحالة في العصر الحديث . ولذا فاني لو حاولت هذا العمل الشاق : وهو أن أبذل بأساليب من بنات خيالي أزياء الشرق الحقيقية ، فإن كل رحلة ألاقى ممن ضربوا في الأسفار إلى وراء ما كان يعرف قديماً « بالرحلة العظمى » ، يحق له بشهادة العين أن يأخذ على

---

(١) هي مجموعة قصص أخرجها « سكوت » كلها يدور حول الحروب الصليبية ومنها قصة « الطلسم » هذه وقصة المخطوبة التي يشير إليها هنا .  
(٢) إحدى شخصيات رواية « هاملت » لشكسبير .

ما زعمت لنفسى ، وكل عضو من أعضاء « نادى الرحالة » يزعم أنه وطأ بقدميه أرض « آدم » له أن يقف منى موقف الناقد الشرعى ويراجعنى فيما أقول . ولما كان مؤلف « أناستاسيوس » ، وكاتب « الحاج بابا » ، قد وصفا عادات الأمم الشرقية ورذائلها وصفاً صادقاً صحيحاً ، تمازجه فكاهة « لى ساچ » ومقدرة « فيلدنج » على إثارة الضحك ، فقد عنى لى أن رجلاً كئيل ، الموضوع غريب عنه كل الغرابه ، لن يصدر ، وهو راغم ، إلا عما يباينها مباينة غير مستساغة ؛ أضف إلى هذا أن شاعر البلاط فى قصته الفاتنة « تلبسا » قد بين لنا كيف أن رجلاً عليماً موهوباً مثله يستطيع أن يبلغ فى بحثه بطريقة الاستقراء وحدها شأواً بعيداً فى معرفة العقائد القديمة — وتاريخ الشرق وعاداته ، وبلاذ الشرق هى المجال الذى يبنى لنا أن نبحت فيه عن مهد الإنسان . وسار « مور » على الدرب عينه موقفاً فى كتابه « للآروخ » كما سار « بيرون » وضم تجارب مشاهداته إلى واسع اطلاعه ؛ وكتب بعضاً من قصائده الخلابه الفاتنة . وقصارى الكلم إن موضوعات الشرق قد عالجها من قبل علاجاً ناجحاً أناس أقر لهم بالبراعة فى هذا الفن ، فبت أستحي من المحاولة فى هذه السبيل .

كانت هذه العقبات شديدة علىّ ، ولما أُمسيت أفكر فى الأمر جاداً لم تفتّر ولم تهن ؛ ولكنى قهرتها فى نهاية الأمر ؛ وما أملت أن أبارى من ذكرت من المعاصرين ، ولكنى رأيت ، من ناحية أخرى ، أن أخلص من الأمر الذى شغل خاطرى زمناً ، دون أن أدخل مع أحد فى ميدان المنافسة .

واستقر بى الرأى أخيراً على تلك الفترة التى تتصل بالحروب الصليبية اتصلاً وثيقاً ، والتى التقي فيها صلاح الدين برتشارد الأول ، ذلك الملك المقاتل ، ذلك الرجل الساذج الكريم ، ذلك المثال الصادق للفروسية بكل ما فيها من إسراف الفضائل ، وما فيها من رذائل لا تقل عنها إسرافاً ؛ وقد أظهر الملك السيسى الانجليزى كل قسوة وعنف ، وهما من صفات السلطان الشرقى ، بينما أبان صلاح الدين عن الحكمة والسياسة البعيدة ، وهما من مميزات الملك الأوروبى ؛

وتباريا أيهما يفضل الآخر في صفات الفروسية والشجاعة والكرم . هذا التباين الفريد بين الرجلين أمد المؤلف ، كما يظن ، بالمادة التي ينسج منها قصة خيالية لها لذة فائقة ؟ وكان من الشخصيات الثانوية التي أدخلت على الرواية فتاة زعموا أنها من ذوات قرني رتشارد قلب الأسد ، فكان في ذلك مسخ لحقائق التاريخ استاء له السخر « ملز » مؤلف « تاريخ الفروسية والحروب الصليبية » ، وما نحسب إلا أنه لا يدرى أن القصص الخيالي له ، بطبيعة الحال ، أن يتدع مثل هذا الابتداع ، وإنها حقاً لضرورة من ضرورات الفن .

وضمت قصتي كذلك الأمير « داود الاسكتلندي » الذي التحق بالجيش فعلاً ، والذي لعب دور البطولة في بعض المغامرات الخيالية وهو في طريق العودة إلى وطنه ، وقد جمعت منه شخصية من شخصيات الرواية .

وحقا لقد أُنزلت من قبل قلب الأسد إلى ميدان القصص ، ولكنني عرضت فيها مضى لصفاته الخاصة أكثر مما عرضت هنا في « الطلمس » . كان في القصص السالفة فارساً متكرراً ، أما هنا فهو بصفته الصريحة ، صفة الملك الغازي ؛ ولذا فما تسرب إلى الشك في أن اسماً كاسم الملك رتشارد الأول ، عزيزاً على الانجليز ، ربما عمل على إدخال السرور إلى نفوسهم أكثر من مرة .

وعالجت كل ما كان يعتقد القدماء ، من صدق ومن خرافة ، بشأن هذا المقاتل العظيم الذي كان أكبر نحر لأوروبا وفرسانها ، والذي أُلّف العرب — حسب ما يقول مؤرخ من بلادهم — أن يسبوا خيولهم إذا ذعرت باسمه المخوف ، فكانوا يقولون « هل تحسبن أن الملك رتشارد في طريقك فتجدين عنها أبدة ! » . وأعجب سجل لتاريخ رتشارد الملك قصة خيالية قديمة ترجمت عن أصل نورماندي ، وقد كانت أول أمرها أقرب ما تكون إلى رواية عمل من أعمال الفروسية ، ولكنها حُشيت فيما بعد بأعجب الأساطير وأشدّها فزعاً ، وربما لم تتوارد على الأيام قصة خيالية منظومة يختلط فيها التاريخ الحق العجيب بمحادثات أكثر من هذه مبالغة

وأشد عبثاً ؛ ولقد سقنا في ملحق بهذه المقدمة عبارة القصة التي يظهر فيها رتشارد يظهر القول يأكل بالفعل لحم البشر .

ومن الأحداث الهامة بالقصة ذلك الحدث الذي استمددنا منه العنوان ، وربما كان الفرس من بين جميع الأمم التي عاشت أكثرها شهرة بعقيدتهم التي لا تنزع في التمايم والرق وما إليها من التماويز ، التي كانت تُؤكِّفُ ، كما قيل ، تحت تأثير كوكب خاصة ، وكانت لها قدرة طبية فائقة ، كما كانت الوسيلة التي تسيطر على جود الرجال ؛ وكثيراً ما ترددت في غرب اسكتلندا أقصوصة من هذا الضرب ، تتعلق بمحارب صليبي من المحاربين المبرزين ، وما يزال الطلسم الذي يشار إليه موجوداً ، بل وما يزال له احترام وتقديس .

وكان السر « سَيِّمُنْ لُكْهَارْت » صاحب « لى » و « كلارتلاند » ، شخصية لها وزنها أيام حكم « روبرت بروس » وابنه « داود » ، وكان أحد زعماء تلك العصابة الاسكتلندية من الفرسان التي صحبت « جيمس » أو اللورد « دوجلاس » الطيب ، في حملته على الأرض المقدسة مؤيداً من الملك « روبرت بروس » ، وكان « دوجلاس » يتمتع الفتك بالعرب ، فاشتبك في حرب مع أهل أسبانيا ولاقى حتفه هناك ، أما « لُكْهَارْت » فقد استأنف مسيره إلى الأرض المقدسة مع من نجوا من الفرسان الاسكتلنديين مما أصاب قائدهم ، واشترك مدة من الزمن في الحروب المشتعلة ضد العرب .

وتواتر الخبر على أنه اشتبك في الغامرة التالية : أُسْرَ يوماً في الحرب أميراً ذا ثروة طائلة ونفوذ كبير ، فأنت إلى معسكر المسيحيين أم الأسير المجزؤ كي تخلص ابنها من أسره ، وحدد « لكهارت » ، كما قيل ، قدرًا ما لفداء السجين ، فأخرجت السيدة كيساً كبيراً مطرزاً وشرعت تعد نقد الفدية ، كأمر لا لقيم للذهب إلى حرية ابنها وزناً ، وإذ هي كذلك ، سقط من الكيس حجر موثق بقطعة من النقد ، يقال إنه من العالم السفلي ، فأظهرت الأم العربية عجلة شديدة في التقاطه ، مما جعل الفارس الاسكتلندي يعتقد في نفاسته وعلو قيمته ، إذا

قيس بالذهب أو بالفضة ، فقال : « إني لن أرضى باطلاق سراح ابنتك إلا إن ضمنت إلى قديته هذا الحرز » ، فقبلت السيدة ، بل وشرحت للسر « سيمين لكهارت » فضائل التيمة وطريقة استخدامها ، وقالت إنها إذا غمست في ماء استحلال الماء دواءً يوقف نزيف الدم ، ويخفف الحمى ، وأصبحت له خصائص أخرى كثيرة كتميمة طبية .

وبعدما اختبر السر « سيمين لكهارت » العجائب الكثيرة التي تفعلها هذه التيمة ، أتى بها إلى بلده ، وتركها لورثته ، فزوها ، هم وأبناء « كليدزديل » عامة ، وما يزالون يميزونها باسم « لي بتي » نسبة إلى وطنه « لي » .

وربما كان أعجب فصل في تاريخها أنها نجت خاصة من النعمة ، حينما أرادت الكنيسة في اسكتلندا أن نصب سخطها على كثير غيرها من أسباب العلاج ، التي كانت لها صفة الإيجاز وفعل السحر ، وأنكرت الكنيسة على الناس الالتجاء إليها جميعاً « ما خلا التيمة المعروفة باسم « لي بتي » فقد أراد الله أن يخصها ببعض فضائل الشفاء التي لا ترمح تحريمها الكنيسة » ، وهي ، كما قيل ، ما تزال موجودة ، ويلوذ بسلطانها الناس أحياناً ؛ وأخيراً انحصر فعلها خاصة في علاج من بعضه كلب مسعور ؛ ولما كان الرض في مثل هذه الأحوال كثيراً ما ينشأ عن الوهم ، فليس ثمت ما يدعو إلى الشك في أن الماء بعد أن يصب على « لي بتي » ، تصير له قوة العلاج الناجع .

هذا ما توارث به الأخبار عن التيمة (أو الطلسم) ، وقد استباح المؤلف لنفسه الحرية في تحويره ، وهو يستخدمه في أغراضه الخاصة .

واستبحنا لأنفسنا كذلك كثيراً من الحرية في حقائق التاريخ فيما يخص حياة « كنزاد منتسرا » ومماته ؛ أما أن « كنزاد » كان عدواً لرتشارد فهو ما يتفق عليه التاريخ وقصص الخيال . وتستطيع أن تقدر العقيدة التي سادت بين الناس بشأن ما كان بينهما من صلة ، من الاقتراح الذي تقوم به العرب ، وذلك أن يؤلى « مركز منتسرا » على أنحاء معينة من سوريا تنازلوا عنها للمسيحيين ، ولكن



رتشارد ، كما جاء في القصة الخيالية التي تحمل اسمه « لم يستطع بعد هذا أن يكتم غضبه ، فقال إن المركيز خائن اغتصب من فرسان « الاسبتارية » ستين ألف دينار ، وهي عطية من أبيه هنرى ، وقال إنه مرتد ، نجم عن غدره ضياع « عكا » ، وختم حديثه يمين غليظة أقسمها ليمزقنه إربا إربا بالخيول الآبدة ، لو أنه اجتراً يوماً على تدنيس معسكر المسيحيين بمثوله هناك ؛ وحاول « فيليب » أن يتوسط لجانب « المركيز » فرمى بقفازه وقدم نفسه رهينة لإخلاصه للمسيحيين ، ولكن هذا المرض لم ينل قبولا ، واضطر « فيليب » إلى أن يخجل السبيل لرتشارد وسورته — من « تاريخ الفروسية » .

و « كنزاد منتسرا » شخصية هامة في هذه الحروب ، وقد ألحق به الموت في آخر الأمر ، واحد من أتباع « الشيخ » ، رجل الجبل العجوز ، ولكن رتشارد لم يخجل من رية الناس في الإيماز إليه بالقتل .

ويمكننا على الجملة أن نقول إن أكثر الحوادث المسافة في القصة التالية هي من خلق الخيال ، وأن الحقيقة ، حينما توجد ؛ لا أثر لها إلا في أشخاص الرواية .

أول يوليو سنة ١٨٣٢

## ملحوظة بالمقدمة

أصيب رتشارد بالحمل وهو يحارب في الأرض المقدسة ، وعجز خير أطباء  
المسكر عن وصف الدواء الناجع لعلته ، بل لقد كان دعاء الجيش له أن يجمع علاجا  
فنقه من مرضه ، وكانت أولى علائم شفاؤه رغبة شديدة في أكل الخنزير ،  
ولكن لحم الخنزير لم يكن من اليسور أن يتوفر في بلد أهله بمقتونه .

« (١) ولو استأنت رجاله لم يجدوا في هذا البلد لحم الخنزير ولو وجدوه لشروه  
بالذهب والفضة والمال ، ولحلوه إلى رتشارد الملك ، فيأكل منه ما تيسر ؛  
وكان يقيم مع رتشارد فارس عجوز ، لما نأى إليه هذا الخبر ، وعرف أن رغبة  
الملك لم تنجب ، قال للحاجب سرا ، لقد اشتد المرض بمولانا الملك ، وأنا أعلم أنه  
يتوق إلى لحم الخنزير ، ولكنك لن تجده هنا قنشره ، وليس من بين الرجال  
من تبلغ به الشجاعة أن يخبره بهذا ، ولئن فعل ، لكان في قوله حتفه ، والآن  
ينبغي لكم أن تفعلوا كما أقول لكم ، ولكن بربكم لا تجربوه بشيء منه : خذوا  
عربيا شابا سمينا ، وتمجلوا بقتله ، وافتحوا جوفه ، واسلخوا جلده ، واسلقوه  
بأسره سريما بالديق والتوابل ، وبالزعفران الزاهي ، فإذا ما اشتم الملك  
نكهته فستزول عنه الحمل ويثوب إلى رشده ، وإذا ما استساخ الطعام وأكل  
أكلة طيبة وتمشى بالحساء ثم استغرق في النوم وابتل بالمرق ، فإنه بعمون الله ،  
وبمشورتى ، سوف ينتمش عما قريب ويشفى ؛ وإليك صدق ما تم في موجز من  
اللفظ : قُتل الكافر الزنيم ، ثم سلق وحجى به إلى المليك ، وقال له رجاله ، مولانا ،  
لقد آتيناك بلحم الخنزير ، فكل واظم من حلوا الحساء ، وبفضل الله وبركته  
ليكون لك فيه الشفاء ، وقبل أن يشرع رتشارد الملك ، شرّح اللحم فارس ،  
وأخذ يلهمه التهاما ، وأكل الملك اللحم ، وقرض العظام ، ثم أدمن في الشراب

---

(١) هذه قصة خيالية عن رتشارد بشأن هذا الحادث ، والأصل منظوم بالانجليزية القديمة .

ساعة ، وبمدا تناول ما أشبعه ، خلفه قومه ، وأخذوا يتضاحكون ، ثم استلقى  
مناكننا ، وجذب إليه ذراعه ، ولفه حاجبه وأدفاه ، ثم رقد ونام ، وتصبب منه  
المرق ، ودبت فيه الصحة والعافية ، ثم ارتدى ملبسه ، وهب من مرقده ، وأخذ  
يمشي هنا وهناك فيما جاوره « اه .

ودحر رتشارد بنفسه جماعة من الأعراب أتوا مهاجرين ، وتروى لنا الأسطر  
التالية ما انتهت إليه المعركة :

« (١) استراح الملك قليلا ، ثم شرع أحد الفرسان ينزع عنه أسلحته ،  
كي يريحه ويلهيه ، ثم جرى له بنقيع التبيذ ، وأمر طاهيه قائلا : هات لي رأس  
ذلك الخنزير عينه الذي أكلت منه ! فإني ضيف واهن مجنون ، وإني الآن  
لني خوف من آتائي . قدم لي ذلك الرأس مع طعام العشاء ! ، فقال الطاهي :  
« ليس عندي هذا الرأس » فقال الملك ، رحماك اللهم ! إني أرى رأس ذلك  
الخنزير ، فهاته وإلا فتالله لتفقد رأسك ! » . ولم ير الطاهي من مطلب  
الملك مهربا فأعد الرأس ، وقدمه إليه ، فخر على ركبتيه وصاح « هيا ، هيا ! هذا  
هو الرأس ! رحماك رباه ! » .

ولا مرأى في أن الطاهي كان له بعض المذرة في خوفه من سيده يصعق ذعرا  
لو عرف حقيقة الأكلة المروعة التي يدين لها بشفائه ، ولكن سرعان  
ما تقشعت مخاوفه .

« (٢) ولما رأى الملك الوجه الأسود ، ولحيته السوداء ، وأسنانه البيض ،  
وكيف تجهم وانفجرت شفتاه صاح « أي شيطان هذا ؟ » وشرع يضحك كعادته  
ثم قال : « ماذا ! هل لح الأعراب لذيذ هكذا ؟ والله ما عرفت من قبل هذا !  
أقسم بقضاء الله وقدره إنا لن نموت قط جوعا ، ما دمنا كلما هجمنا استطعنا أن  
نقتل العرب ، ونأخذ لحهم ؛ ونطهيه ونشويه ، ونجفقه ونقرض لحه حتى العظام !

(١) هذه القطعة منظومة في الأصل .

(٢) هذه الأسطر منظومة في الأصل .

والآن وقد جريته مرة فلا تكن وقوى منه مزيدا ، ونسند رمق الجوع قبل أن يقتلنا ! » .

وتقدم المحامرون يسلمون ويشرطون تأمين أهل البلاد ، وقدموا للظافرين ثروة الجمهور بأسرها ، والآلات الحربية والأسلحة ، وفدية قيمتها مائة ألف بزنط ؛ وبعد التسليم وقع الحادث الغريب الذى نرويهِ فيما يلي ، وسوف نسوقه إليك فى أسلوب « جورج آيس » الفكه المحبوب ، وهو جامع هذه القصص الخرافية وناشرها .

« أخلصت الحامية فى تنفيذ شروط الاتفاق جميعا ، إلا أنها عجزت عن ردّ الصليب ، إذ أنه لم يكن بجزائرتها ، فأغلظ لها المسيحيون فى المعاملة ، ونمت إلى صلاح الدين الأنباء كل يوم عما يكابد مقاتلوه ؛ ولما كان الكثير منهم رجلا ذوى مكانة عالية ، فقد بث ملكهم ، نزولا عند رجاء أصدقائهم ، بالرسل إلى الملك رتشارد ، ومعهم جليل الهدايا التى قدسها فداء للأسرى ؛ وكان السفراء رجلا ذوى هبة ووقار ، سنا ومرتبّة وفصاحة ، فبلغوا رسالتهم بكل آيات الخضوع ، ولم يتهموا عدالة الظافر فى معاملته الخشنة لبني جلدتهم ، وإنما اكتبوا بالتوسل إليه كى يحدد لهذه الشدة أجلا ، ووضعوا لدى قدميه الكنوز التى كانت أمانة فى أعناقهم ، وقدموا أنفسهم وزعيمهم رهائن لأى مبلغ آخر يريده الملك ثمنا لرحمته .

» (١) فقال الملك رتشارد بمنب اللفظ : كيف لى أن أخذ الذهب ؟ رحماك اللهم ! قسموا بينكم كل ما حلتكم ، فلقد أتيت مى فى السفن والمراكب بذهب وفضة أكثر مما يملك زعيمكم وثلاثة من أمثاله . ما بى إلى كنوزة حاجة ! ولكنى أمركم جبالى أن تقيموا مى زمنا ، ثم أخبركم بمد هذا بنبا ، وأجيبكم برأى سديد ، وأقول لكم بأية رسالة تمودون إلى مولاكم .

---

(١) هذه الأسطر منظومة فى الأصل .

« فقبل الوفد الدعوة شاكرآ ، وأصدر رتشارد في ذات الوقت أمراً سرياً إلى قائده بأن توجه إلى السجن ، وينتقى عدداً محدوداً من خير الأسرى ، وبعد ما يسجل أسماءهم بعناية في سجل من الورق ، يأمر بحز رقابهم فوراً ، ثم تسلم رؤوسهم إلى الطامى ، ويؤمر بأن يزيل شعورهم ، وبعد ما ينلى رؤوسهم في دست ، يوزعها على صحاف عديدة ، ويقدم لكل ضيف صحيفة ، ويربط على جبين كل رأس قطعة من الورق تبين اسم صاحبه وقبيلته .

« وهات <sup>(١)</sup> لى قبلهم جميعاً رأساً حاراً ، كأنى دفعت له ثمتنا عالياً ، ولآ كان منه النهما ، كأنه فرخ طرى ، ثم أرى ماذا يفعل الآخرون .

« ونفذ هذا الأمر الروح في حينه ، وفي منتصف النهار دعى الضيوف ليغتسلوا على أنغام الموسيقى يعزف بها الخدم ، ثم أخذ الملك له مقعداً ، وتبعه كبار ضباط بلاطه ، عند المائدة العليا ، واصطف بقية الحشد لدى مائدة طويلة دونه ؛ وعلى كساء الموائد وضعت مقادير من الملح على الأبعاد المألوفة ، ولم يكن هناك خبز ولا نبيذ ولا ماء ، فدهش السفراء لهذا النقص ، ولكنهم ما برحوا من الخوف خليين ، ولبثوا يرتقبون في صمت تقديم الغداء ، وقد أعلنت مقدمه أصوات المزامير والأبواق والدفوف ، ولشد ما كان رعبهم وفزعهم حيناً رأوا وليمة غير معهودة يقدمها شيخ الحجاب وضباطه ، وغلبهم التشوف ، فثارت مشاعرهم بالنفرة والاشمئزاز ، كما لبثت غناؤهم مكبوتة فترة من الزمن ، ووجهوا نحو الملك أبصارهم ، وما تغيرت ملامحه قيد شعرة وهو يتلعق اللقيات متلهفاً ، كلما شرّح الفارس قطعة وقدمها إليه .

« فتناضى <sup>(١)</sup> الرجال وقالوا إن هذا إلا أخو الشيطان ، يقتل رجالنا ويأكلهم كما نرى ! .

« ثم وجهوا بعد هذا انتباههم مكرهين إلى الرؤوس التى قدمت إليهم ، وقد

---

(١) هذه الأسطر منظومة بالإنجليزية .

تساعد منها الدخان ؟ وأرادوا أن يتعرفوا من ملامح الوجوه المنتفخة المشوهة علامتهم الشبه بصديق لهم أو قريب حميم ، فعرفوا من العبارات التي كانت تصحب الأطباق ما أكد لهم أن هذا الشبه لم يكن وهما ولا خيالا ، فعرتهم الكتابة وجلسوا في صمت وجود يترقبون قضاءهم ، كما قضى على بني وطنهم من قبل ، بينما كان مضيفهم الضاري ، والنضب ملء عينيه ، والظرف على شفثيه ، يسىء إليهم بالإلحاح في دعوتهم إلى اللو والمرح ؛ وبعد لآي ، أزيل هذا السباط الأول ، وجاء مكانه بلحم الغزال والسكرابي ، وغيرها مما لذ وطاب ، مصحوبا بأطيب الخور ، واعتذر لهم الملك عما فات ، وعزاه إلى جهله بنوقهم ، وأكد لهم احترامه الديني لأشخاصهم كسفراء ، واستمداده لأن بمدتهم برشد يهديهم في عودتهم وهم آمنون ، وكانت هذه المنحة هي كل ما رغبوا إذ ذاك في طلبه .

« ثم قال (١) الملك رتشارد إلى رجل عجوز ، امض نحو بلدك إلى سلطانك وخفف من أحزانه ، وقل له إنك جئتنا متأخرا ، وإنك أخطأت تقدير الزمن فأبطأت ، وإنا ، قبل أن تأتينا ، كنا قد طهينا اللحم ، وأعدناه الرجال ليقدموه لي ولصحابي في منتصف النهار ؛ قل له أن ليس وراء مسعاه من جدوى ، حتى وإن حبس عنا طعامنا من خبز وخمر وسمك ولحم وحيوت سليمان وثماين البحر ، فإن أحدا منا لن يموت جوعا مادما نستطيع أن نسير إلى الحروب ونقتل الأعراب تقتيلا ، فنطهر لحومهم ، ونشوى رؤوسهم . إنى بعربي واحد أستطيع أن أطعم تسعة أو عشرة من خيار رجالى المسيحيين وأشبهمهم . إن الملك رتشارد يشهد أن ليس هناك لحم من حجل أو قطقاط أو مالك الحزين أو الأوز العراقي ، أو الأبقار والثيرة ، أو الأغنام والخنازير ، أكثر تغذية للرجل الإنجليزي من رأس العربي ، فإنه سمين طري ، ورجلى هزيلون نحيلون . ما دام فوق سوريا هذه عربي واحد حتى فإننا لن نفكر في اللحوم ، فعليه لننقضن سريما ، وكل يوم نأكل منه بقدر

(١) هذه المقطوعة منظومة في الأصل .

ما نستطيع ، ولن نعود إلى إنجلترا حتى نأكلهم جميعا واحداً بعد الآخر » .  
من كتاب « أليس » — « أمثلة من القصص الخيالية الإنجليزية القديمة المنظومة » الجزء  
الثاني ، صفحة ٢٣٦ .

وربما تشوق القارئ إلى معرفة الظروف التي أدت إلى أن يختلط هذا الخيال  
الجامح — الذي يمزو أكل اللحوم البشرية إلى ملك إنجلترا — بتاريخ الملك ،  
ويظهر أن المستر « جيمس » ، الذي نحن مدينون له بالكثير مما هو عجيب  
غريب ، قد وصل إلى أصل هذه الإشاعة العجيبة .

يقول هذا المؤلف « . . . وكان مع جيش الصليب كذلك جمهور من الرجال  
لا عمل لهم إلا الإفلاس ، يسرون حفاة ولا يحملون سلاحا ، بل ويسبقون دواب  
الحمل في السير ، ويعيشون على الجنود والأعشاب ، ويظهرون بظهر تسمثر له  
النفوس وتشفق منه .

» واعتزم رجل نورماندى كان — كإروى — شريف النسب ، ولكنه أشاع  
جواده فتابع السير بجندى من المشاة ، أن يضع نفسه على رأس هذه الشرذمة من  
المتشردين الذين رضوا به ملكا عليهم عن طواعية ، وبات هؤلاء الرجال يعرفون  
بين الأعراب باسم « الظافرين » ( وترجمها جويرت إلى Trudentes ) ، وكانوا  
ينظرون إليهم برعب شديد ، لأنهم كانوا جميعا يميلون إلى الاعتقاد بأنهم يعيشون  
على جثث أعدائهم ، وهو نبأ كان يتحقق الحين بعد الآخر ، وكان ملك « الظافرين »  
يعني بتشجيعه ، وهذا الملك البجل كثيراً ما تعود أن يصف أتباعه واحداً بعد  
الآخر في خط واحد ضيق ، ثم يأمر بالبحث فيما يحملون بحثا دقيقا ، خشية أن  
يكون بحيازتهم ولو قليل من المال ، فلا يمجدر بهم أن يكونوا من رعيته ، وإذا ألقى  
مع أحدهم دافقا واحداً أبعدة في الحال عن مخالطة أبناء قبيله ، وأمره بإزدراء أن  
يشتري السلاح ويشارك في القتال .

» وهذه الكتيبة لم تكن بأية حال من عراقل الجيش ، بل لقد كانت خدماتها  
لا تعد ، فهم يحملون الأثقال ، ويأتون بالكلاء والمؤونة والخراج ، ويسبرون

الآلات وقت الحصار ، وفوق كل هذا ، كانوا ينشرون الرعب بين الأتراك وكان هؤلاء يخشون الموت من رماح الفرسان أقل مما يخشون هذا الفناء الشامل تحت أسنان « الظافرين » (١) .

ومن اليسير أن تتصور أن منشداً جاهلاً يجد أذواق هذه الطائفة وضرورتها مسجلة في روايات تاريخ الحروب المقدسة فينسب أعمالها ونزواتها إلى ملك إنجلترا الذي كانت شراسته من الموضوعات التي تجوز فيها البالفة كما تجوز في شجاعته وإقدامه .

---

(١) من « تاريخ الفروسية » لجيمس ، ص ١٧٢ .



## الفصل الأول

وأَوَّاهُمْ كَذَلِكَ إِلَى الْفَقْرِ ، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ<sup>(١)</sup>  
القرودوس الردود

لم تكن الشمس المحرقة في سوريا قد بلغت كبد السماء ، حينما كان فارس من فرسان الصليب الأحمر — وقد ترك بلاده النائية في الشمال ، والتحق بجماعة الصليبيين في فلسطين — يسير الهويني في الصحراء الرملية التي تقع على ضفاف البحر الميت (أو بحيرة «اسفلت» كما يطلق عليه أحيانا) حيث تتدفق أمواج الأردن في ذلك البحر الداخلى الذى ليس لسانه مخرج .

وفي الصباح الباكر كان هذا الحاج المجاهد يكافح الجروف والمنحدرات ، ثم لما تبين الضحى انطلق من هذه الأودية الصخرية الخطرة ، ودخل في ذلك السهل الفسيح ، حيث المدائن اللعينة التي أنزل الله عليها من عنده نقمة مروعة شديدة في سالف الأيام .

وتذكر مسافرا تلك الطامة الكبرى التي نزلت بوادى «سدوم» اليانع الخصب ، الذى كانت تتخلله الأنهار كأنه جنة الخلد ، فأحالته يبابا بلقما كثيبا ، وصبرته أرضا جرداء مجذبة لا زهر فيها ولا شجر ، وكأن الله قد أصابها بالاحمال أبد الآبدين . تذكر ذلك فنسى ما أصابه من إجهاد وعطش وما كان يحوطه من مخاطر الطريق .

ولما رأى المياه المظلمة يمجع عجاجها ، وهى في لونها وطبيعتها تختلف عن مياه

---

(١) الإشارة هنا إلى قصة المسيح عليه السلام حينما خرج إلى البادية وحيدا وقضى بها أربعين يوما .

البحيرات جميعاً ، رسم علامة الصليب على نفسه ، واتباعه رعدة حينما تذكر أن تحت تلك الأمواج التي تتكسر في هدوء ، تندثر مدن الوادى التي كانت تنبئ يوماً بمرضاها ، فأنزل عليها ربك الصواعق من السماء ، ونفث فيها من باطن الأرض ناراً حامية فدكها دكا ، ولم يبق منها إلا أطلال طمرها هذا البحر الذى ليس في جوفه سمك ولا على سطحه سفين ، ولا يجود — كما يجود غيره من البحار — بقطرة ماء على المحيطات ، كأن مياهه الكثيرة لن تستقر إلا في قاعه الموحش . وكل ما جاوره من يابس « كبريت وملح ، أرض لا زرع فيها ولا ثمر ولا يكسوها عشب <sup>(١)</sup> » كما كانت في عهد موسى . وتستطيع أن تسمى ذلك اليا بس « ميتاً » كذلك ، كما تسمى البحر ، فهو لا ينبت زرعاً ولا شبه زرع ، والهواء ذاته يخلو من كل ذات جناح ، كأن الطيور قد نفرت من رائحة القار والكبريت ، التي كانت تبعثها الشمس المحرقة من مياه البحيرة ، فتنتشر في سحب متكاثف كثيراً ما ينمقد على شكل الميازيب ، كما كانت كسف من المادة الكبريتية الفريزية ، التي تعرف بالنفط ، تطفو مسترخية فوق الأمواج المهادثة الموحشة ، وتمد تلك السحب المتدفقة بأبحر جديدة ، فتشهد شهادة قوية على صدق قصة موسى .

على هذا المكان المهجور أشرقت الشمس تتوهج توهجاً لا يكاد يحتمل ، وكأن كل كائن حي قد توارى عن أشعتها ، اللهم إلا ذلك الشبح الذى كان يسير وحده يشق الرمال السواقى بخطى وثيدة ، ويبدو كأنه المخلوق الفريد الذى يتنفس على سطح هذا الوادى الفسيح ؛ وكان لباس هذا الفارس الراكب ومعدات جواده لا تليق ألبتة بالأسافر فى مثل تلك البلاد . كان يرتدى سترة من حلق الحديد ، طويلة أكمامها ، وقفازا براقا ، وصدره من الحديد الصلب ؛ ولم يكنف بهذا التسليح ، بل كان يلقى كذلك على رقبته درعا ثلاثياً ، ويحمل على رأسه خوذة من قضبان الصلب . يغطيها بقلنسوة وبتيقة من الحديد ، يلف بها حلقه وكتفيه ، وتشغل ما بين لباس رأسه وسترته ؛ وكان يستر أطرافه السفلى ، كما

كان يستر جذعه ، بحلق من الحديد سهل الالتواء ، وهكذا كان يقي ساقيه ونفذه ، بينما كان يلبس على قدميه حذاء من الممدن اللامع ، ينسجم في شكله مع القفاز ، وعلى أحد جانبيه سيف طويل عريض . مستقيم ذو حدين ، له مقبض على هيئة الصليب ، يتسق وخنجرًا غليظًا على جنبه الآخر ؛ وكان هذا الفارس يحمل كذلك رمحًا طويلًا ، رأسه من الصلب ، يرتكز على سرجه ، ويستقر أحد طرفيه على ركابه ، وهذا الرمح هو سلاحه الشديد ، يهزه إلى الخلف وهو ممتط سهوة الجواد ، فيعرض العلم الصغير المعلق بطرفه ، ويرفرف العلم مع النسيم الليل ، أو يتدلى في السكون الميت ؛ وفوق هذا الزى العسكري المجدد ، كان صاحبنا يرتدي عباءة من القماش المزركش ، نخل وبرها وبدت عليها آثار القدم ، ولكنها كانت مع ذلك عظيمة النفع ، إذ كانت تحمي سلاحه من أشعة الشمس ، ولولا ذلك لشق عليه حمل السلاح من حرارة الشمس ؛ وفي هذه العباءة كان الفارس يملق هنا وهناك أسلحة تشوه ظاهرها ، ومنها سلاح « الثمر الرابض » وعليه هذا الشعار « إني نائم فلا توقظني » ، وعلى الدرع آثار من هذه العبارة عينها ، ولكنها كادت تحمي من كثرة الطعان ؛ أما خوذته الاسطوانية الثقيلة فكان سطحها مستويًا ، لا يجمّله زخرف أو ريش ، وكان الصليبيون من أهل الشمال — باحتفاظهم بهذا السلاح القوي يدفعون به عن أنفسهم — كانوا يتحدثون طبيعة المناخ والإقليم الذي جاءوا ينشبون فيه القتال .

ولم تكن عدة الجواد أقل صلابة أو قوة من زى راكبه ، فلقد كان يحمل سرجًا ثقيلًا عليه طلاء من الصلب ، يلتقي في مقدمته بدرع من الحديد ، وفي مؤخرته سلاح يتق به ويستر به خصرته ؛ ويتعلق بالسرج شئ كالقأس أو المطرقة أو العصا ، والزامام موثوق بما يشبه السلاسل ، ومقدمة العنان من الصلب الطلي ، وبه خروق يطل منها الجواد بعينه وأنفه ، وفي وسطه شوكة قصيرة حادة ، تبرز من جبهة الجواد كقرن الثور الوحشي المعروف في قصص الخيال .

ولكن هذا الفارس وجواده المقدام كانا قد تمودا حمل هذا السلاح الثقيل ،

حتى أضحى هذه المادة لها طبيعة ثانية . نعم إن عددا عديدا من المحاربين من أهل الغرب ، الذين خفّوا إلى فلسطين ، قد هلكوا قبل أن يمتدّوا هذا الجو الملهب ، ولكن هناك قوما آخرين ، بات هذا الجو خفيفا عليهم ، مألّوفا لديهم ، ومن بين هذا العدد المحدود كان هذا الخيّل ، الذى كان حينئذ يقطع حدود البحر الميت فريدا ، فإن الطبيعة التى صبت أعضاءه فى قالب من القوة غير مألّوف ، وأعدته لأن يرتدى تلك السترة المصنوعة من حلق الحديد دون عناء — وكأنّ عيونها قد حيكت من نسيج المنكبوت — قد جادت عليه كذلك ببنية قوية كأطرافه ، تتحدّى كل تقلّبات المناخ ، وتقف دون الكلال وشظف العيش على مختلف الضروب ؛ وكان له طبع يتصف بمعض الشيء ببعض صفات هيكله الجثامى ، فكما أن لجسمه قوة عظيمة وقدرة على الاحتمال ممزوجة بالقدرة على الاجتهاد العنيف ، فإن فى طبعه — تحت ستار الهدوء والاستقرار — الشيء الكثير من الحرارة والحاسة لحب المجد ، وهما من أبرز صفات أبناء النورمان المعروفين ، التى جعلتهم ملوكا فى كل زاوية من زوايا أوروبا شهروا فيها سيوفهم الباترة .

ولكن الجدّ لم يحدّ بمثل هذا الجزاء الوافر<sup>(١)</sup> على كل أبناء هذا الجنس ، ولم يكن حظ فارسنا هذا الفريد إبان السنتين اللتين قضاهما غازيا فى فلسطين غير ذكر فى هذه الدنيا ، ومزايها روحية نشأ على الاعتقاد فيها ؛ وكان حظه الضئيل من المال فى ذلك الوقت قد تبدد ، ولكنه — رغم ذلك — لم يعمد إلى الوسائل التى كان يلجأ إليها غيره من أتباع الصليبيين ، الذين كانوا يعوضون ما نقص من أموالهم على حساب أهل فلسطين ، فلم يبتز العطايا من الأهالى البائسين كي يطمئنهم على أملاكهم حينما كانوا يشبكون مع العرب فى الحروب ، ولم يحاول أن يقتنص الفرصة ويجمع الثروة بفرض الجزية على الأسرى . وكانت تبغ حاشية ضئيلة من مواطنيه ، أخذت تناقص شيئا فشيئا كلما قلت الموارد الضرورية للعيش ، ولم يبق له إلا خادم واحد ، كان إذ ذاك طريق الفراش ، لا يستطيع أن يقوم بخدمة سيده ، الذى كان

(١) يقصد مناصب الملكية فى أوروبا .

يسير — كما رأينا — وحيدا فريدا . ولكن فارسنا الصليبي لم يأبه لذلك كثيرا ، فلقد تعود أن يرى في مهنده الكريم خير حارس ، وفي عقيدته في الله خير رفيق .

ولكن للطبيعة ضروراتها ، فهي تتطلب الراحة والغذاء لكل جسم — حتى وإن كان من الحديد — ولكل طبع — حتى وإن صيغ من الصبر — كما صيغ هذا الفارس ، « فارس النمر الرابض » ؛ ففي الظهيرة ، والبحر الميت لما يزل بعيداً عن يمينه ، استبشر الفارس برأى مختلفين أو ثلاث نمت على حافة بر أراد أن يتخذها محطاً له في منتصف ذلك النهار ؛ وكذلك جواده الكريم ، بعد أن كان يسير قُدماً بصبر وطيد كصبر صاحبه ، رفع الآن رأسه ، ومد أنفه ، وسارع في خفيه ، كأنه اشتم على بعد ماء الحياة ، حيث الدعة والانتماش ، ولكن الله قدر للجواد وراكبه أن يصيبهما بالعناء ، ويحوطهما بالمخاطر ، قبل أن يلما ذلك المكان الرغيب .

وذلك أن فارس النمر الرابض ، الذي لم يفتأ يحدق ، ويمير التفاته إلى جماعة النخل النائية ، بدا له كأن شبحاً يتحرك خلالها ؛ ثم انفصل ذلك الشبح النافي عن تلك الأشجار التي كانت تخفي مسيره بمض الخفاء ، وتقدم نحو الفارس مسارعا ، وتبدى عن خيال على ظهر الجواد ، ولما اقترب دلت عمامته وحرفته الطويلة وقفطاناه الأخضر الذي يرفرف مع الريح ، على أنه فارس عربي ؛ ويقول للثل الشرق : « لا يلاقى الرجل صديقاً في الصحراء » ، ولم يأبه الصليبي ألبتة إن كان ذلك الكافر — وقد أقبل على حصان عداء ، كأنه ولد على جناح نسر — عدواً ، أو صديقاً ، بل لعله ، وهو بطل من الأبطال ، الذين أقسموا بيمين الولاء للصليب ، ودّ لو أنه كان عدواً ، فاستل رمحه من مرجه وأمسكه بيمينه ولبث به ، وساناه مرفوع إلى نصفه ؛ وجمع العنان يساره ، واستحث همه الجواد بمهمازه ، واستعد للقاء هذا الغريب بنفس مطمئنة ، لا يملكها إلا رجل حذاء الظفر في كثير من الممارك .

وأقبل العربي يمدو ، كما يمدو الفرسان من بني جنسه ، ما لكا زمام جواده بأطرافه وبكل جسمه ، غير معتمد على العنان الذي أرسله مرتهنيا في يسراه

بحيث يتسنى له أن يحرك درعه المستدير الرقيق المصنوع من جلد وحيد القرن المحلى بخيوط من الفضة ، الذى كان يحمله على ذراعه ويلوح به كأنه يريد أن يصد به ، على خفته ، ما قد يصوبه نحوه ذلك الفارس الغربى من طعنات مرعوعة . أما نصله الطويل فلم يكن مسدداً ولا مستقراً كنصل عدوه ، وإنما كان يقبض عليه من وسطه بيمينه ، ويهز به فوق رأسه على قيد ذراع ؛ وهزول هذا الفارس الغربى نحو عدوه ، ولما دنا منه ، كان يرتقب من فارس المر أن يهزم بجواده للنضال ، ولكن الفارس المسيحى ، وهو جدّ عليم بمادات جنود الشرق ، لم يرض أن ينهك جواده الكريم ببناء لا طائل تحته ، فوقف بثقة ، وهو على يقين أن فى سلاحه وفى عدة جواده القوى ما يكفل له الغلبة — دون أن يسارع فى عدوه — على العدو ، إن تقدم فعلاً للنضال ؛ وأحس الفارس الغربى باحتمال هذه العاقبة ، وأدركها كما أدركها زميله ، فاقرب من المسيحى حتى لم يكن بينهما إلا قاب قوسين أو أدنى ، واستدار بجواده يساراً بمحق لا يفوقه حنق ، ودار حول عدوه دورتين ، قالتفت الفارس الغربى وهو فى مكانه ، وجابه عدوه نغيب رجاءه ، إذ كان يحاول أن يطمعنه من الخلف ، وحينئذ ود العربى لو أنه دار بجواده ورجع القهقرى إلى بعد مائة ذراع ، ثم حاول الهجوم مرة أخرى وأقبل كالبازى على مالك الحزين ، واضطر للمرة الثانية أن يتقهقر دون سجال ؛ ثم اقترب ثلثة مهاجماً كما هاجم فى المرتين السابقتين ، فأمسك الفارس المسيحى توا بمطرقته المعلقة بسرجه ، وأراد أن ينتهى من هذه المراوغة التى قد ينهكه العدو فيها بمحركاته ، فصوب المطرقة بيد من حديد ، وهدف لا يحمى ، إلى رأس العدو الذى لم يخله إلا أميراً أو أرفع من أمير ، وأدرك العربى هذه الضربة المروعة التى قصد بها فرفع درعه الرقيق وحال بين المطرقة وبين رأسه ، ولكن الضربة كانت شديدة الوقع فهوت بالسرع على عمامته ، وقد خفت المامة من حدة الضربة ، ولكن الرجل سقط عن جواده مغلوباً ، وقبل أن ينتفع المسيحى من هذا الخذلان ، خفّ عدوه وهب من مصرعه وجذب جواده — وقد خف إلى جواره —

وامتطى صهونه دون أن يمس الركاب ، واسترد كل ميزة حاول فارس النمر أن يسلبه إياها ، ولكن الفارس كان بدوره قد تملك من مطرقة ثانية ، فحاول الرجل الشرقى — وقد تذكر قوة عدوه وحذقه في إصابة هدفه — أن يأخذ لنفسه حذرها ويظل يمتأى عن منال المطرقة التي أحس بوقوعها منذ حين ، وأبان عن رغبته في المقاتلة عن بعد برى السهام ، فذلك نصله الطويل في الرمال بعيداً عن ساحة الوغى ، وشد بقوة قوساً قصيرة كانت إلى ظهره ، ثم ركض بجواده ودار به دورتين أو ثلاثاً أوسع مدى من دوراته السالفة ، وفي خلالها أطلق النشاب ستاً على المسيحي بمهارة لا تخطئ ، ولولا زى متين بقى به المسيحي نفسه ما كان له أن ينجو من جراح ستة من طعن السهام ، ثم أطلق العربي سهماً سابغاً فصادف من لباس العدو مكاناً كان أقل من غيره صلاحية ، فسقط المسيحي سقطة شديدة من فوق الجواد ، ولشد ما كانت دهشة العربي حيناً نزل يتفرس حال صريمه فأنلى نفسه على حين غرة في قبضة ذلك الأوروبي ، الذى ما لجأ إلى تلك الحيلة إلا لكي يأتى بعدوه تحت مناله ؛ ولكن العربي ، وهو فى هذه القبضة المميته ، استطاع أن ينجو بخفته وسرعة خاطره ، فخلص نطاق سيفه من قبضة فارس النمر وأفلت من تلك اليد القاضية ، وامتطى جواده الذى كان يقرب حركاته بكاء كذاه الإنسان ، ثم انصرف ؛ ولكنه فقد فى هذه الممركة الأخيرة سيفه وجبة سهامه ، وكلاهما معلق بنطاقه الذى اضطر أن يخلفه وراءه ، وفقد كذلك عمامته أثناء النضال ، فرغبت هذه الخسارة هذا الرجل المسلم فى المهادنة ، فقارب المسيحي ومد إليه عناءه مسالماً لا متهدداً .

وباللغة الفرنسية التى كانت تستخدم عادة للتفاهم مع الصليبيين قال العربي :  
« إن بين أمتينا هدنة عن القتال ، فلماذا ينشب بيني وبينك النضال ، هلا عقدنا بيننا صلحاً ؟ » .

فأجاب فارس النمر الرابض وقال « لقد رضيت ، ولكن كيف تكفل لى رعابتك للهدنة حقها ؟ » .

فأجاب الأمير وقال : « نحن أتباع النبي لا نبحث في اليهود ؛ إنما ينبغي لي أنا ، أيها النصراني الشجاع ، أن أطلب إليك الضمان ، غير أنني أعترف أن الخيانة والشجاعة قلما يجتمعان » .

فأحس الصليبي حينئذ بأن ثقة المسلم فيه قد أخجلته من الشكوك التي ساورتها .

وأمسك بمقبض سيفه وقال : « وحق هذا الصليب ألا تكون لك رفيقا غلصا أيها العربي ما كتب علينا أن نبقى متلازمين » .

فأجاب عدوه قائلا : « أقسم بمحمد رسول الله وبرب محمد أن ليس لك في قلبي خيانة ، فسلم بنا إلى تلك المين ، فوقت الراحة قد وجب ، وما كاد الماء يمس شفتي حتي اضطررت أن أنازلك حينما اقتربت » .

فأجاب فارس النمر الرابض توا بالرضا والقبول ، وسار العدوان جنبا إلى جنب ، قاصدين مكان النخيل ، لا يبدو عليهما غضب ، ولا تلمس فيهما أثرا من شك .

---



## الفصل الثانى

كثيراً ما تتخلل الأزمان المصيبة فترات يسود فيها الأمن وتصفو فيها النفوس ، ولقد كانت الحال كذلك بنوع خاص فى عهود الأقطاع القديمة حينما كان السائد بين الناس أن الحرب يجب أن تكون للبشرية شغلها الشاغل وعملها المجيد ، فكان لفترات الصلح أو الهدنة لذة دونها أى لذة ، يستمتع بها على قلبها المحاربون فى تلك المصور ؛ بل إن الظروف عنها إذ ذاك ، التى كانت تجعل هذه الفترات عرضاً زائلاً ، كانت تجلبها إلى النفوس ؛ وكان البطل يرى أن من بذل الوقت فى غير طائل أن يكنّ فى قلبه ضغينة لعدوه — وقد التقى به فى القتال يوماً ، وقد يلتقى به فى معركة حامية الوطيس فى صبيحة اليوم التالى — وكان الرجال يعرفون أن فى عهدهم ، وفى ظروفهم ، مجالاً تنفجر فيه عواطفهم الملتهبة ، فكانوا يستمتعون بكل ما أوتوا من قوة ، بصحبة بعضهم بعضاً فى الفترات القصيرة التى كانت تليق لهم أن يتحدّثوا آمنين ، على قدر ما تسمح لهم به تلك الأوقات المصيبة ، اللهم إلا إذا احتدم النزاع بين الرجل وعدوه ، أو أثارت نفسيهما ذكرى إحن خاصة لا تتعلق بغيرهما .

وكان يفل من حدة الفروق الدينية ، بل والمصيبة الشديدة ، التى كانت تستفز أتباع الصليب وأتباع الهلال على السواء ، شعور سام ، هو من طبيعة أمثال هؤلاء المحاربين ، شعور كانت تلهبه وتقويه روح الفروسية حينذاك ؛ وهذا الدافع القوى أخذ يمتد أثره شيئاً فشيئاً من المسيحيين إلى أعدائهم الألداء من العرب من أهل أسبانيا أو فلسطين ، ولم يمد عرب فلسطين ، كما كانوا من قبل ، أولئك المتوحشين المتهوسين الذين هبوا من وسط صحراء العرب بالقرآن فى اليمين ، والسيف فى اليسار ، يعرضون للإسلام أو القتال ، أو الجزية والرق ، على كل من تحدّثه نفسه أن يقف

في وجه دين محمد نبي مكة<sup>(١)</sup>؛ وقد عرضوا ذلك على أهل الشام وأهل اليونان ،  
وهم قوم غير عارفين ؛ ولكنهم حينما التحموا بمسيحي الغرب — الذين كانت قلوبهم  
تشتعل حماسة للدين ، لا تقل عن حماسة العرب أنفسهم ، والذين يتصفون بالأقدام  
والشجاعة التي لا تقهر ، والذين إذا طعنوا أصابوا — أخذوا عنهم شيئاً من أخلاقهم ،  
وحذوا حذوهم خاصة في تقاليد الفروسية الكريمة التي كانت متأصلة في النفوس  
تأصلاً استهوى عقول أولئك القوم الفزاة الشائخين ؛ وهذا فضلاً عن أن العرب  
كان لهم سجلهم ، وكانت لهم ألماهم في عرض الفروسية ، بل وكان منهم «الفوارس»  
أو ما يشبههم في علو المرتبة ، وكانوا إلى ذلك يراعون حدود دينهم مراعاة ينجل  
من دقتها أناس كأهل الغرب ، لا يخلون بالهدنة إذا عقدوها بينهم وبين أمة غير  
أمتهم ، أو بين بعضهم وبعض ؛ وهكذا كانت الحرب — على أنها ربما كانت في ذاتها  
أعظم الشرور — تهيئ الفرصة لإظهار روح الإخلاص ، وكرم الخلق والرأفة ،  
بل وتبادل الود بين القلوب ، مما لا يتوفر في فترات الهدوء ، حينما تكمن في  
الصدور زمناً لإحزن الرجال الذين لا تقوا المهانة ، أو اشتبكوا في نزاع لم ينحصر في  
حينه وبلغ بهم نكد الطالع أن وقعوا فريسة لتلك الإحزن .

أحسن المسيحي والعربي بهذه المواطف الرقيقة التي تخفف من وطأة الحروب ،  
وانطلقا بعد ما سعى كل منهما جهده كي يقضى على أخيه ، وساراً راكبين بخطى  
وثيدة نحو العين التي نبئت حولها التخيل ، والتي كان يقصدها فارس النمر الرابض  
حينما باغته في مسيره ذلك العدو ، الذي جاءه مسارعاً والشرر يتطاير من عينيه ،  
واستمرسل كلاهما زمناً ، كل في تأملاته ، يتنفس الصعداء بعد نضال كاد أن يقضى  
على أحدهما أو كليهما ؛ وكان جواديهما لم يكونا أقل منهما استمتاعاً بذلك الهدوء  
الذي ساد بينهما ، أما جواد العربي فلم تبد عليه علامات الأعياء كما بدت على  
جواد الفارس الأوروبي ، رغم أنه أجهد بالحركة إجهاداً أوسع مدى وأشد عنفاً ،

---

(١) يدل هذا القول وما بعده على أن المؤلف — كما حدث عن نفسه في مقدمة الرواية —

عجل العالم العربي كل الجهد .

وتعصب العرق من أضلع جواد الفارس الغربى ، بينما كان جواد العربى الكريم قد جف عرقه أثناء مسيره فى تلك الفترة الهادئة ، ولم يبق منه إلا أثر ضئيل كان يبدو على عنانه وعدته ؛ وكانت الأرض التى وطئها الجوادان لينة ، فزداد جواد المسيح شقاء على شقاء ، إذ أنه كان يئن تحت عبء عدته الثقيلة وعبء راحته ؛ فاضطر الفارس أن يقفز من فوقه ويقوده فى تلك الأرض المتربة التى يغطيها الثرى ، والتى أحرقها الشمس فصيرتها أشد ليناً من أدق الرمال ؛ وهكذا استرد الجواد نشاطه على حساب صاحبه ، لأن الفارس ، لكثرة ما عليه من لبس الحديد ، كان يتمشى فى حذاءه الصلب فى كل خطوة ، وهو يمشى فوق تلك الأرض الرقيقة التى لا تتحمل المقاومة .

ومذ انقضت الهدنة بين العربى والمسيحى لم ينبس أحدهما ببنت شفة حتى قال العربى لصاحبه : « نعم ما فعلت ، فإن جوادك القوى يستحق منك العناية ، ولكن ماذا أنت فاعل به فى الصحراء وهو يسبح بأقدامه فى كل خطوة ، كأنه يريد أن يفرسها فى باطن الأرض كجذور النخيل ؟ »

فأجاب الفارس المسيحى ، وهو غير مطمئن إلى نفمة السخرية التى تحدث بها العربى عن جواده المحبوب ، وقال : « حقاً ما قلت أيها العربى ، ولقد أصبت بمقدار ما لديك من علم وملاحظة ، ولكن اعلم أن جوادى هذا قد حملنى قبل اليوم فى بلادى فوق بحيرة لا تقل سمة عن تلك التى خلفناها وراءنا ، ومع ذلك ، فلم تبطل منه شعرة واحدة فوق حوافره » .

فنظر إليه العربى مبدياً شيئاً من الدهشة على قدر ما يسمح به تأدبه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة خفيفة لم تكدهز شاربه الكثيف العريض الذى كان يغطى شفته العليا ؛ ولكنه سرعان ما استرد نظرة الجد التى لم تفارقه ، ثم قال : « حقاً ما قيل ، إذا أصخت إلى الفرنجى لم تسمع إلا هراء » .

فأجاب الصليبي : « ليس هذا من حسن التوق فى شيء أيها المناق ، أقرتاب فى كلمة ينطق بها فارس نال مرتبة الشرف ؟ تالله لولا أنك تصدر عن جهل لاعتن

سوء طوية ، لكنت هذه الآونة آخر ما بيننا من مهادة ، ولما يمض عليها إلا أمد قصير ؛ أفظن أنى أكذبك إذ أقول لك إننى أحد خمسة فارس مدججين بالسلاح ؛ قطعت بجوادى الفراسخ فوق ماء كالبلور صلابة ، ولكنه أقل من البلور هشاشة عشر مرات ؟ » .

فأجاب المسلم قائلا : « ماذا تقول ؟ إن ذلك البحر الداخلى الذى تشير إليه له خصيصة عجيبه ، وذلك أن الله قد صب عليه جام غضبه ، فهو لا يحتمل جسما يفيض فى موجه ، إنما يقذفه بعيدا ويرى به على شطآنه ؛ ومع ذلك فإن هذا البحر الميت عينه ، بل والمحيطات السبعة التى تحوط الأرض ، لا تحتمل وقع أقدام الخيل على سطحها أكثر مما احتمل البحر الأحمر مسير فرعون وجنوده » .

فأجاب الفارس السيجى : « هذا هو الحق فيما تعلم أيها العربي ؛ ولكن صدقنى ، إننى لا أحدثك حديث خرافة ؛ فى مناخكم هذا تتحول الأرض بفعل الحرارة إلى شيء كالسواء غير مستقر ؛ أما فى بلادنا فالبرودة كثيرا ما تحول الماء إلى جسم كالصخر فى صلابته ؛ ولكن دعنا من هذا ، فإن ذكر البحار فى الشتاء ، يهدوئها وصفائها ونقاء زرقها ، ليزايد من مفازع هذه الصحراء الحارة ، حيث يخيل لى أن الهواء الذى نستنشقه إن هو إلا بخار يتصاعد من أتون ، ماؤه يغلى كاللحم » .

فالتفت العربى حينئذ إلى صاحبه متنبها ، وكأنه يريد أن يستوضحه ما معنى من قوله هذا ، الذى ما أخل إلا أنه قد نزل من نفسه منزل السر الفاض أو الخداع ؛ ولكنه اطمأن أخبرا إلى كلام رفيقه وعرف كيف يتلقاه فقال : « إنك من قوم يحبون الضحك ، تتحدثون بالمستحيل وبما لم يقع فى الحسبان ، مازحين مع بعضكم بعضا أو مع غيركم ؛ أنت أحد فرسان فرنسا الذين يتبارون فى الخيال وأعمال الجن لاهين لاعبين ، ولقد أخطأت يا صديق إذ عارضتك فى حديثك ، فإن الزهو بالباطل أقرب إلى طبيعة نفسك من رواية الحق » .

فأجاب الفارس وقال : « إنى من بلاد غير هذه البلاد ، ومن قوم غير هؤلاء

الذين يزهون — كما تقول — بما لا يستطيعون ، أو بما لا يتقنون إذا استطاعوا ، ولكننى ، أيها العربي الجسور ، فيما قلت لك ، كنت أخذو حذوهم في المزاح ، وأظننى ما كنت فى عينيك إلا رجلا دعيًا وأنا أحدثك بمحدث لا تستطيع أن تدركه ، حتى حينما كنت أنطق عن صدق وسناجة ، ولذا فلندعها تذهب .

وفى تلك الآونة بلغ صاحبانا مكان النخيل ، وبدت العين فوارة بثألى ماؤها الغزير تحت ظليهما .

ويذكر القارىء أننا تحدثنا عن برهة سادت فيها الهدنة وسط القتال ؛ وكذلك كان هذا الموضع الذى بلغناه مكانًا جميلًا وسط صحراء مجدية ، عزيزًا على النفس كالمدينة ، ولم يكن المكان ليستوقف النظر لو أنه كان فى غير ذلك الموضع ، ولكنه كان هنا علا فريداً فى فضاء لا يبلغ مداه البصر ، يعد المسافر بالظل الظليل والساء النير ، وهما من نعم الله ، لا يقدرهما المرء حق قدرهما إن توفرا ، ولكنهما هنا قد أحالا العين وما جاورها جنة صغيرة من جنات الخلد ؛ وقبل أن تبدأ أيام فلسطين المظلمة فى التاريخ ، امتدت يد محسنة كريمة إلى تلك العين فأقامت حولها سياجا ، وفوقها سقيفة ، كي لا تبتلعها الأرض ، أو يفسدها التراب ، الذى يثور فى سحب متدافعة تنطلق فى مسيرها ، كلاهبت نسمة من ربح ، فتغطى سطح الصحراء ؛ أما السقيفة فكانت إذ ذاك محطمة ؛ وقد تهشم جانب منها ، ولكنها كانت مع ذلك تظلل العين وتحمى مياهها من وهج الشمس ، حتى إن الماء ل يبدو هادئا مطمئنا يسر العين والخيال ؛ لا يمسح شعاع من شمس ، بينما كان كل ما حوله متألقا وهاجا ، وانسل صاحبانا من تحت السقيفة ققابلا أول ما قابلا إناء من الرمرمر شأنه الوجه ، ولكنه يجذب النظر ، لأنه يدل بهيئته تلك على أن المكان كان فى قديم الزمان محطا ، وأن يد الإنسان قد لعبت هناك ، وأن المرء كان — ولو إلى حد — يرمى لنفسه حقها من الراحة والإيواء ؛ وكان المسافر العربى يلهث من الإعياء والمعطش ، فلما رأى تلك الأمارات ، تذكر أن هناك غيره من الناس ممن تعرضوا لثل ما تعرض له من مشاق فأووا حيث أوى ، ولا شك فى أنهم خلصوا بأنفسهم

آمنين إلى حيث الخصب والفاء ؛ وكان يتسرب من الإناء تيار خفيف من الماء ، يكاد يحتجب عن الرأى ، ويفضى تلك الأشجار القليلة التى كانت تحوط العين ، وإذا ما غاص ذلك التيار تحت الترى واختفى عن البصر ، دلّ على وجوده بساط من سندس أخضر يسر الناظرين .

فى هذا المكان اللين حط المحاربان رحلهما ، ثم أخذ كل منهما — على نهجه الخاص — يخلص جواده من عبء السرج والعنان وطرف الزمام ، ويهيئ له السبيل إلى الشراب من الإناء ، قبل أن يتولى من العين التى كانت تتفجر تحت القباء ، ثم خليا سبيل جواديهما ، وكأتهما على يقين أنهما لن يعبدا عن هذا الماء الصافى وذلك العشب الأخضر لحاجتهما إليهما ، ولما عهدا فيهما من طباع مستأنسة .

ثم جلس العربى والمسيحى فوق العشب ، وأخرج كل منهما زاده الضئيل الذى كان يحمله ليتبلغ به ، ولكنهما قبل أن يشرعا فى تناول هذا الطعام الزهيد ، تبادلوا النظر بطلعة ، أثارها فى نفسيهما ذلك الشجار الذى نشب بينهما من منذ حين ، وملأ قلبيهما شكا وريبة ؛ وكان كل منهما يود لو يستطيع أن يسبر غور غريعه المروع ، ويقدر خلقه ولو إلى حد ، وقد اضطر كل منهما أن يقر بأنه لو سقط مغلوبا فى ذلك النضال لكان ذلك بيد كريمة شريفة .

وكان الفارسان على طرفى تقيض فى شخصيهما وملاحهما ، وكلاهما يصلح مثالا دقيقا لأمنته . كان الفرنجى رجلا قويا كالقوطة الأقدمين فى هيئته ، شعره أحر اللون أدكنه ، بدا لما رفع خوذته عن رأسه مجعدا كثيفا غزيرا ، وقد لفحت وجهه حرارة الشمس فصيرته أشد سمرة من بعض رقبة التى لم تتعرض للفتحة الشمس ، ومما تم عنه عيناها الزرقاوان المنفرجتان ولون شعره وشاربه الذى كان يظلل شفته العليا ، ولم تكن له لحية على مثال النورمان ، أنه غريق جميل الصورة ، وتفره واسع الانفراج يكشف عن أسنان ناصعة البياض ، متينة جميلة الترتيب ، له رأس صغير يرتكز فوق رقبة فى أنفة وعظمة ، لا يزيد عن الثلاثين فى عمره ، ولكنك إذا حسبت للعناء والجهد حسابهما ، علمت أنه قد ينقص عن ذلك

ثلاث سنوات أو أربع ، طويل القامة ، قوى البنية كأنه من هواة الرياضة البدنية ، يشبه أن يكون رجلا قد تقدمت به السن فلم يعد له سلطان على قوته ، بمد أن كانت تلك القوة ممزوجة بالخفة والنشاط ؛ خلع القفاز الحديدي فإذا يدان طويلتان يعضوان في تناسق جميل ، وإذا عظام معصميه قوية كبيرة ، وذراعا مفتولتا المضلات جميلتا التكوين ، يتميز في كلامه وحركاته بمنف حربي واستهتار وصراحة في التعبير ، في صوته رنة الأمر لا ذلة الخاضع ، وكأنه تعود أن يعبر عن عواطفه بصوت مرتفع وبأس شديد كلما اقتضت الضرورة أن يفصح عنها .

أما الأمير العربي فكان على نقيض هذا الصليبي الغربي ؛ قامته فوق متوسط الرجال ، ولكنه كان أقصر من الفارس الأوروبي بما لا يقل عن ثلاث بوصات ، إذ كان هذا الأخير يقرب أن يكون عملاقا ؛ أطرافه دقيقة ، يده وذراعه طويلة رقيقة ، تنسق حجبا وجسمه ، وتناسب وطلعته ، ولكنها لا تبدل لأول وهلة على القوة والليونة اللتين أظهرهما الأمير قبل ذلك بقليل ؛ ولكنك إن أعمت في النظر ، رأيت ما بدا من أطرافه خفيفا لا يكسوه لحم ، وكأنه لم يبق منه إلا عظام وعضل مفتول وعروق ؛ رجل كأن الله قد أعدّه بهيئته هذه للعناء والإجهاد ، ليس ألبته بالفارس البدن تتبادل قوته وحجمه مع وزنه وقد أنهكه الإعياء ؛ وكان هذا العربي بطبيعة الحال يشبه في طلعته إجمالا قبائل الشرق التي هو من أبنائها ، وما كان أبعد عن تلك المبالغات التي كان يرددها المغنون في ذلك العهد في وصف فرسان العرب ؛ وعن تلك الصورة الخيالية التي ما زال الفن الشقيق <sup>(١)</sup> يعرضها على اللوحات على أنها تمثل رأس العربي ، كان دقيق الملامح ، جميل التكوين ، رقيقا ، تملوه سمرة شديدة من أثر شمس الشرق المحرقة ، له لحية مرسلة سوداء متموجة الشعر ، عني بتشذيب أطرافها ، وأنف مستو مستقيم ، وعينان حادتان ، سوداوان براقتان ؛ وأسنانه تنافس في جمالها وبياضها عاج المنحراء ؛ وقصارى الوصف ، كان العربي وهو يتمطى بجسمه فوق المشب ، إذا قيس بمنزلة القوى البنية ،

(١) يقصد فن التصوير .

كهنده البراق ذى الشكل الهلالى والحد الضيق الرقيق ، اللامع الدمشق الباتر ، إذا قورن بالسيف الطويل القوطى الثقيل ، الذى خلعه صاحبه وألقاه فوق الأديم . وكان الأمير فى زهرة العمر ، ولولا ضيق جبهته ، ورقة ملاعجه وحديثها — أول لعلها كانت كذلك من حيث تقدير الأوروميين للجمال — لمد آية فى الجمال .

كان المحارب الشرقى فى معاملته جاداً متعالياً شديد المراعاة للتقاليد ، يدل بسلوكة من بعض التواشى على ما فطر عليه أولئك القوم — الذين عرفوا بحدة المزاج وحرارته — من حرص يستمسكون به كى يقوا أنفسهم عما جبالوا عليه من حدة الطبع ، كما يدل على إحساسه بكرامة كانت تضطر صاحبها إلى أن يرتبط فى مسلكه ببعض القيود .

هذا الشعور السامى بملو النفس كان يحس به كذلك زميله الأوروبى ، ولكنه كان يختلف عنه فى مسلكه ، فبينما كان هذا الإحساس يعلى على الفارس المسيحى الجرأة والاقدام ، بل وعدم الاكتراث ، وكأنه لفرط إحساسه بملو مكانته لا يابه برأى غير رأيه ، كان يرسم للعربى نوعاً من الجمالة يجعله شديد المراعاة لأداب المعاشرة ؛ نعم لقد كان كل منهما يجمال الآخر ، ولكن جمالة المسيحى كانت تصدر عن روح التفسكه الظريف بما يجب عليه نحو غيره ، بينما كان المسلم فى جمالته يصدر عن إحساس قوى بما كان غيره يرتقب منه .

وتبلغ الرجلان بطعام خفيف ؛ ولكن طعام العربى كان جد زهيد ، حفنة من تمر ، ولقمة من خبز الشعير الخشن كانت تكفى لأن تسد رمق جوعه ، إذ أنه نشأ على تقشف الصحراء ، وذلك رغم أن بساطة العيش العربى كثيراً ما غلب عليها ، مذ فتح سوريا ، البذخ الوافر الذى ليس له حد ؛ ثم اختتم وجبته بقطرات قليلة من ماء العين الجلية التى أوى وصاحبه إليها . أما طعام المسيحى فكان شهيياً رغم خشوته ، وكان أهم ما يتألف منه لحم الخنزير المقدد ، الذى يحرمه المسلمون على أنفسهم ؛ ثم أخرج قنينة من الجلد وصب منها شراباً خيراً من الماء الصافى ،



وهكذا أخذ يتناول طعامه بنفس مقبلة ، ويستقى وعليه أمارات الرضا ، ولا كذلك العربي الذي كان يرى أن ليس من اللياقة أن يتظاهر المرء وهو يقضى حاجة من حاجات الجسم الدينثة ؛ ولا ريب أن كلا منهما كان في دخيلة نفسه يهزأ من زميله كيف يتبع ديننا باطلا ؛ وزاد من هذا الشعور ذلك الفارق الكبير بين مسلكيهما وطعاميهما ؛ ولكن اثنيهما قد أحسا كل بشقل ذراع صاحبه ، فكان من أثر ذلك النضال العنيف الذى نشب بينهما أن يتبادلا التقدير وأخفيا كل اعتبار دونه ، ولكن العربي مع ذلك لم يسمه إلا أن يشير بكلمة إلى ما لم يرقه من خلق المسيح ومسلكه ، وبعد أن تطلع مدة — دون أن ينبس ببنت شفة — إلى شهية الفارس القوية التى مدت من وجيته طويلا بعد أن فرغ هو من طعامه ، وجه إليه الخطاب وقال :

« أيها النصراني الجسور ! هل يليق بالمرء يقاتل كالرجال أن يكون حين تناول الطعام كالكلاب أو الذئاب ؟ والله إنى لأظن أنه حتى اليهودى الكافر ليقتصر بدنه إذا رآك وأنت تأكل بشهية كأنك تتناول من ثمر أشجار الجنة . فالتفت المسيح متعجبا من تلك التهمة التى ألقى عليه دون أن يترقبها ، ثم قال : « أيها العربي الجسور ! اعلم أنى إنما أستمتع بالحرية المسيحية ، وأن لى أن آتى ما لم يستطعه اليهود الذين يرزحون تحت نير ملة موسى البالية ، ولتعلم أيها العربي أننا نخضع لشريعة سامية ؛ حياك الله يا مريم ! إنا لله شاكرون ! » واختتم حديثه بعبارة لاتينية قصيرة ، ثم احتسى جرعة كبيرة من القنينة الجلدية كأنه يتحدى ما يساور زميله من وسواس .

فقال العربي : « أفهذا أيضا فى اعتبارك جزء من حريتك ؟ إنك إذ تطعم كالوحوش الضواري ، وإذ تحتسى هذا الشراب السام ، الذى تأباه البهائم ، إنما تهبط بنفسك إلى حضيض الحيوان » .

فأجاب المسيح دون تردد : « اعلم أيها العربي الناقل أنك إنما تلعب ما أسبغ الله علينا من نعم . إن عصير العنب حلال لمن كان حكيما فى تناوله ، فهو ينعش القلب

بعد عناء العمل ، ويرطب فؤاد المرء في مرضه ، ويخفف عنه وطأة الحزن . من يستمتع بالخمر يحمده على الكأس كما يحمده على قوت يومه ، ومن يُدمن في الشراب فليس في إدمانه بأقل منك غفلة في تحريك الحجر .

وأدرك العربي هذه السخرية فتطايّر الشرر من عينيه ، وامتدت يده إلى مقبض خنجره ، ولكنه لم يكن إلا خاطرا طارئا ، لم يلبث أن هداثا ثائرة لما ذكر قوة منازلها حينما بطش به ، واستوثق منه في قبضته ، ولم يبق له من أمل في الحياة ، تلك القبضة التي لم يزل أثرها ينبض في أطرافه وعروقه ، فاكثف العربي — إذ استعاد ذلك إلى ذاكرته — بأن يواصل النزاع شفاها ، فإن ذلك آمن له في ذلك الحين .

فقال : « والله أيها النصراني إن كلماتك هذه لتبث الغضب ، لولا أنك بجهاثك تستثير الرحمة ؛ أفلا ترى — وكيف ترى وأنت أشد عسى من أولئك الذين يفتنون بأبواب المساجد يسألون الصدقات — أن هذه الحرية التي تفخر بها لم تمتد إلى بيتك وإلى أنفس ما في سعادة الإنسان ، فإن شريعتكم — إذا اتبعتوها — فرضت على الرجل منكم أن لا ينكح غير زوجة واحدة ، يرتبط بها في صحتها وفي مرضها ، ولودا كانت أو طاقرا ، وسواء فاضت على ما كله ومبته بالدعة والسرور أو بالنازعة والشحشاء ؛ تالله إن هذا أيها النصراني إلا الرق عينه ، انظر إلى دين المسلمين ؛ لقد جاء النبي للمؤمنين في الأرض بملة أمينا إبراهيم القديمة وملة سليمان أحكم بني الإنسان فأحل لنا في الدنيا تمدد النساء الجميلات كيفنا شئنا ، ووعدا في الآخرة بالحدود العينية » .

فأجاب المسيحي وقال : « والذي أقدم في السماء فوق كل شيء ، وبإلتي أعبد في الأرض أكثر من كل شيء ، إن أنت إلا كافر عميت بصيرته وضل هداه — انظر إلى جوهرة هذا الخاتم الذي تلبس في إصبعك ؛ ألا تظن أن قيمتها تفوق كل تقدر ؟ » .

فأجاب العربي : « أجل ، وليس في البصرة أو بغداد ما يشبهها ، ولكن ما شأن هذه الجوهرة وما نحن فيه ؟ » .

فأجاب الفرنجي : « شأنها كبير ، وستشهد بذلك أنت نفسك الآن . خذ فأسمى هذه وهشم هذا الحجر الكريم إلى عشرين شظية ، ثم خبرني إن كنت تظن أن لكل شظية وحدها ما كان للجوهرة بأسرها من قيمة ، أو أن الشظايا كلها مجتمعة لها عشر ما كان لها من ثمن ؟ » .

فقال العربي : « هذا سؤال صياني . إن جزئيات هذا الحجر لن تعادل عشر معشار الجواهر سليما » .

فأجاب الفارس المسيحي : « كذلك ، أيها العربي ، الحب الذي يحمله الفارس الحق لامرأة واحدة جميلة مخلصه ، هو كهذه اللؤلؤة سليمة ، أما الحب الذي توزعه بين أزواجك اللاتي تستبدن ، وإمائك اللاتي تنظر إليهن كأصناف أزواج ، فما هو إلا بمثابة تلك الشظايا المتفرقة من هذا الجواهر الحر » .

فقال الأمير : « ورب الكعبة المقدسة إنك لجنون ، لا تفرق بين الذهب والحديد ، أمعن في النظر تجد أن هذه الجوهرة الكبرى وسط تلك اللآلئ الزرية هي التي تكسب الخاتم جلاله وتمطيه قيمته ، ولولاها لما كان له نصف جماله ؛ هذا الجواهر الأوسط هو الرجل في عزمه وكأله ، لا يستمد قيمته إلا من نفسه ، وأما هذه الحلقة من الجواهر الدنيا فهي النساء تستمد بريقها من بريقه ، يرسله عليهن كما يشاء ويهوى ؛ انزع الحجر الأوسط من الخاتم يبق له قدره ويهبط ما دونه من اللآلئ في قيمته ؛ وإنما هكذا يجب أن تفهم التشبيه الذي أتيت به . ولقد قال المنصور الشاعر ما معناه : « إنما جمال المرأة ورقتها من فضل الرجل ، فلولا ضياء الشمس ما تألق في البحار ماء » .

فأجاب الصليبي قائلا : « أيها العربي ، إنك إنما تتكلم كرجل لم يقع بصره يوما على امرأة جديرة بحب أبناء الحروب ، صدقتي أنك لو شهدت نبات أوروبا — اللآلئ لمن علينا بعد الله حق الإخلاص والولاء — لما بقي في قلبك ذرة من حب

لهاتيك الشهويات المسكينات اللاتي يتألف منهن « حريمك ». إن جال نساءنا يدب حرابنا ويحد سيوفنا ؛ كلتهن لنا شريعة ؛ وكان أن الصباح لا ينير إذا انظفا لهيه ، فكذلك الفارس إذا برز في القتال ولم تكن له فتاة يوليها حبه .

قال الأمير : « لقد نما إلى هذا الخيل الذي يعتور فرسان الغرب ، وكنت دائماً أعدّه عرضاً من أعراض ذلك الجنون الذي يدفعكم إلى هذه البلاد كي تستولوا على قبر أجوف ، ولكني — مع ذلك — من فرط ما سمعت من الفرنجة الذين التقيت بهم من الثناء يكيلونه كيلا على نساءهم ، أود لو رأيت بعيني رأسي أولئك الساحرات الفاتنات اللاتي يحملن من هؤلاء المحاررين أدوات لما يردن ، كي تطمئن نفسي ويرضى فؤادي » .

فأجاب الفارس : « أيها العربي الجسور ، والله لولا أني أقصد الحج إلى القبر المقدس لكان غرا لي أن أقودك آمناً إلى خيم رنشارد ملك إنجلترا ، الذي يعرف أكثر من كل من عده كيف يامل بالحسنى عدوا كريماً ؛ وإنك قد تراني مسكيناً لا تكلأني عين برعاية ، ولكني مع ذلك قين بأن أ كفل لك ، ولأمثالك ، كل أمن وتقدير وإجلال . هنالك ترى كثيراً من آيات الجمال الفرنسي والإنجليزي مجتمعات في حلقة صغيرة ، يشع منها نور يفوق في بريقه ولماعه المناجم المترعة بمثل تلك اللاتي التي تملك عشرة آلاف مرة » .

فقال العربي : « وركن الكعبة ، لو أنك بقيت على عهدك لألبين دعوتك طائماً ، كما وهبتها طائماً ، وصدقني ، أيها النصراني الجسور ، لقد كان خيراً لك أن تيمم جوادك شطر خيم قومك ، فإن مسيرك إلى بيت المقدس بغير جواز إن هو إلا تعريض بحياتك لا مبرر له » .

فأخرج الفارس ورقة ثم قال : « ها هو ذا جوازي عليه توقيع من صلاح الدين بيده وخاتمه » .

فعرف العربي خاتم سلطان مصر وسوريا وخط يده ، ذلك الحاكم الذي طبق صيته الآفاق ، فأنحنى برأسه نحو الأرض ، ثم لم الورقة بكل تبجيل ، ومس بها

حينئذ ، ثم ردها إلى المسيحي قائلا : « أيها الفريسي ، لقد اندفعت في تصرفك وأسأت إلى دمي ودمك ، إذ لم تطلني على هذه الورقة حينما التقينا » .

فقال الفارس : « لقد آتيتني رافعا سنائك ، ولو أن ثلة من جنود الأعراب هاجتني لكان من شرف النفس أن أظهر جواز السلطان ، أما وأنت رجل واحد فقد أبث كرامتي ذلك » .

فأجاب العربي بكبرياء وعظمة وقال : « ولكن رجلا واحدا قد استطاع أن يعترض سبيلك » .

فأجاب المسيحي : « صدقت أيها المسلم الجريء ، ولكن كم من الناس كشك؟ إن البزاة لا تطير في الأسراب ، وإذا أقبلت سرايا لن تنقض جماعة على واحد مفرد » .

ولا ريب أن العربي قد سرّ من هذا الثناء ، بعد أن كان قد انجرح في عزته حينما كان الأوروبي يفخر بنفسه ويحقّر من شأن صاحبه تليحا ، ثم قال : « هذا صواب وعدل ، وما كان لي أن أسىء إليك ؛ إنني كنت مجدودا حقا إذ لم أصبك بضربتي وشخصك في حبي ملك الملوك ، ولو أنني جندلتك لحقّت على النعمة جزاء هذا الجرم ، ولأصابني حد السيف » .

فقال الفارس : « يسرنى أن أسمع أن الأمر قد انتهى بما ينفعني ، فلقد بلغني أن الطريق موبوء بالكثير من قطاعها الذين لا يترددون في السلب إذا تهيأت لهم فرصة » .

قال العربي : « لقد صدقتك فيما خبرتك به ، أيها المسيحي الجسور ، ولكنني أقسم لك بالنبي الكريم أنك لو سقطت في أيدي هؤلاء الأشرار لأخذت على نفسي الانتقام لك بخمسة آلاف جواد ، ولقتلهم جميعا وأرسلت نساءهم أسيرات إلى مكان ناء ، ولن تسمع لتلك القبيلة بعد ذلك اسما يذكر في حدود خمسمائة فرسخ حول دمشق ، ولنشرت الموت في جذور بلادهم فلن ترى فيها كائنا حيا من بعد » .

فأجاب الفارس قائلا : « أيها الأمير النبيل ، ليت هذه الشقة التي تأخذها

على نفسك كانت في سبيل الانتقام لشخص آخر أعلى منى مكانة ، إنما أنا أمرى  
بيد الله ، إن أراد بي خيرا غير ، وإن أراد بي شرا فشر ، وإنى لمدن لك حقا  
لهذايتك إياى الطريق إلى مكان أستريح فيه هذا المساء .  
فقال العربي : « ستجد راحتك في خباء أبى تحت قبائه الأسود » .

فأجاب المسيح : « إنما ينبغي لى أن أقضى هذا المساء مصليا مستغفرا مع  
رجل قديس اسمه تيودوريك « بعين جدة » يسكن هذا القفر ويقضى العمر في  
عبادة الله » .

فقال العربي : « لا أقل من أن أبلغك هذا المكان آمنا » .  
فأجاب المسيح : « نعم الحارس ، ولكن ألا تدري أنه قد يكون في ذلك  
خطر على ذلك الأب الطيب في مستقبل سلامته ، فكم من مرة امتدت فيها أيدي  
قومك القساة إلى أتباع السيد المسيح ، وتلطخت بدمائهم ، ولذا فنحن لا نقصد هذه  
البلاد إلا مسلحين بالسيوف والحراب كي نفتح الطريق إلى القبر المقدس ، ونحصى  
القدسين الأخيار والرهبان الذين يقطنون هذه الأرض ، أرض الأمل والمعجزات » .  
فأجاب السلم وقال : « أبها النصراني ! ألا تعلم أن الروم وأهل الشام كثيرا  
ما حثثوا في عهودهم لنا ، ونحن إنما نتبع أبابكر الصديق خليفة النبي ، وأول  
خليفة للمسلمين من بعده ، إذ قال لذلك القائد الذائع الصيت حينما بعث به كي يستخلص  
سوريا من أيدي الكفار<sup>(١)</sup> : اذهب ورجالك يازيد بن سفيان ، وحاربوا كما تحارب  
الرجال في ساحة الوغى ، ولكن حذار أن تقتلوا الشيوخ والمرضى والنساء  
والأطفال ، ولا تخربوا البلاد ، ولا تدمروا أشجار الفاكهة والقمح فعلى من نعم  
الله ، وإذا عاهدتم فلتفوا بالهود — حتى وإن كانت في مضرركم — وإذا صادقم  
رجالا قديسين يعملون بأيديهم ويمبدون الله في الصحراء ، فلا تمسوم بأذى ولا  
تهدموا مساكنهم ؟ أما إن ألفتهم برؤوس حليقة ، فاعلموا أنهم من أتباع  
الشیطان واضربهم بسيفوفكم ، واقتلهم ولا تأخذكم بهم رافة حتى يؤمنوا

(١) يلاحظ أن «سكت» لايمعى الصدقة التاريخية — كما يشير في المقدمة — ولذا فإن  
هذه العبارة المنسوبة إلى أبى بكر رضى الله عنه قد لا يكون لها أصل عربى .

أو يدفعوا الجزية . هكذا أمرنا الخليفة رفيق النبي ، فأطعنا ، فعدلنا ، ولم تضرب إلا جنود الشيطان ، أما أولئك الرجال الأخيار أتباع عيسى بن مريم ، الذين لا يثيرون أمة على أمة وإنما يمدون الله مخلصين له الدين ، فقد كنا لهم ظلًا وحي . ولما كان صاحبك الذي تقصد رجلاً من هؤلاء ، فإني لا أحل له إلا المحبة والخير والتقدير وإن يكن نور النبي لم يئله » .

فقال الحاج المحارب : « لقد سمعت أن الراهب الذي أقصد ليس قسا ، ولكنه إن كان أحد أولئك الرجال المقدسين المباركين ، فتأله لأصدن عنه برعى هذا كل معتد أئيم من الكفرة أبناء المسلمين ... » .

فاعترض العربي كلامه وقال : « أخي ! خير لي ولك أن لا تتحداني ولا آتحدك ، فإن كلينا يستطيع أن يجد من بنى قومه من يكفيه للضرب بسيفه وسنانه . إن ثيودوريك — الذي حدثني عنه — في حي الترك والعرب ، وله بين الحين والآخر أطوار عجبية ، ولكنه على الجملة — كتابع من أتباع المسيح — يسلك سلوك الرجل الطيب ، ويستحق الحماية ممن يمشي الله ... » .

وهنا قاطعه المسيحي متعجباً وقال : « قسا بمرم لو أنك لفظت في نفس واحد اسم ذلك الحادى المكي مع ... » <sup>(١)</sup> .

وحينئذ تمشت في حنايا الأمير رعدة من الغضب كتيار الكهرباء ، لم تلبث لحظة حتى انقشمت ، وأجاب في هدوء يخالجه الوقار والحكمة « لا تذكر بسوء ممن لا تعرف ، إنما نحن نقدر نبيكم ، ولكننا ننكر العقائد التي ينسجها تمساستكم حول الدين الذي آتاكم به . سأذكرك بنفسى إلى الكهف الذى ينزل به الناسك ، واعلم أنه لولا معونتى لشق عليك أن تبلغه ؛ وإذا ما ضربنا في طريقنا فلننخلّ للشيوخ والرهبان الجدل في الدين ، ولننحدث في أمور تليق بأبطال أحداث . لننحدث بمواقع القتال وفتنة الحسان ، ولننحدث بظباء السيف وبريق السلاح » .

(١) هكذا يشير الفارس المسيحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم مما يدل على شدة تعصب الصليبيين وجهلهم بشؤون العرب في ذلك الحين .

## الفصل الثالث

استراح المحاربان قليلا ، وتناولوا طعاما خفيفا انتعشا بعده ، ثم هبا من مكانيهما وأخذ كل منهما يد المساعدة إلى أخيه — وهما يجهزان جواديهما بعديتهما ويحسبان الجهاز ، بعد أن تخلص الجوادان الأمينان من هذا العبء مدة من الزمن — وكان كلا الرجلين خبيراً بهذا العمل الذى كان فى ذلك العهد واجبا لا مندوحة عنه ولا غناء ؛ وكان الجوادان — وهما رفيقان ملازمان لصاحبيهما فى القتال والترحال — يوليانهما تقيتهما ومحبتهما على قدر ما بين الحيوان والإنسان العاقل من فرق فى إظهار مثل هذا الشعور . أما العربى فقد شب على هذه المودة وذلك الإلف ، ففى خيام القبائل الشرقية المحاربة كان حصان الجندى يلى فى أهميته زوجة وأهله ؛ أما الفارس الأوروبى ، فإن الظروف والحاجة قد رفعت جواده إلى مكانة لا تقل عن مكانة زميله فى الحرب ؛ ولذا فلم يشقّ على الجوادين كثيرا أن يتبعدا عن الطعام ، ويحرما الحرية ، بل لقد اقتربا من صاحبيهما وأخذوا يصهلان جذلا ، بينما كان الرجلان يمدان عديتهما لاستئناف الرحيل ومواصلة العمل ، وكلاهما يعدّ نفسه ، أو يماون زميله فى رفق ، وهو يتطلع إلى عدة رفيقه فى السفر ويلحظ طريقته فى تهئية معدات الركوب .

وقبل أن ينطلقا جواديهما لمواصلة الرحيل ، بلّل الفارس المسيحي شفّيته ، وأغرق يديه فى ماء العين ، ثم قال للرجل الوثني <sup>(١)</sup> زميله فى السفر : « وددت لو عرفتُ اسم هذه العين ذات الماء النثير ، حتى أحفظ لها جميل الذكر ، فوالله ما ازوتويت حياتى بماء أشدّ عذوبة من مائها الذى أطفأت به نار العطش الذى أحسست به اليوم » .

---

(١) هكذا يشير « سكت » إلى الرجل العربى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان يجهل الإسلام والمسلمين .



فأجاب العربي : « اسمها درّة الصحراء » .

فقال المسيحي : « نَعَمْ الاسم . إن بالوادي الذي أتيت منه ألف عين ، ولكنني لن أحمل بعد هذا لأنها مثل هذه الذكرى العزيزة التي أحملها لهذه العين الثائية ، التي تمد النفس بكنوزها السائلة ، ففسر القلب وتسد لبانة من لباناته التي ليس له عنها غنى » .

فقال العربي : « حقا ما قلت ، ولمنة الله على ذلك البحر الميت ، الذي لا يستقي منه — ولا من النهر الذي لا يفتأ يصب فيه ولا يملأ جوفه — إنسان أو حيوان . حتى يخرج من هذه الصحراء الجافة » .

ركب صاحبانا واستأنفا السير بقطمان أرضا رملية خلاء ، وقد تبدد وهج الظهيرة ، وأخذ يهب نسيم عليل ، يهون عليهما مشقة الصحراء ، ولكنه يحمل على جناحيه ترابا دقيقا لم يكن يأبه له العربي ، بينما كان رفيقه المثلث بالسلاح يضجر منه ، فخلع خوذته وعلقها بجانب سرجه ، واستبدل بها تقيّة ركوب خفيفة ، تشبه في شكلها الماون ، ثم سارا معا برهة من الزمن صامتين لا يتحدثان ، والعربي يقوم بوظيفة المرشد أو القائد في السفر ، مستعينا بمشاهدة دقيق العلام ومواقع الصخور الثائية التي كانا يسيران رويدا نحو حافتها ، وظل كذلك فترة قصيرة ، وكأنه لا يفكر إلا في هذا العمل ، كرتبان السفينة وهو يعبر قناة عسيرة ؛ ولكنه ولما يقطعا نصف فرسخ — استوثق من طريقه ، وأظهر الرغبة في فتح باب الحديث بصراحة غير معهودة بين بني قومه .

فقال : « لقد سألتني اسم عين ساكنة لها هيئة الكائن الحي ولكنها ليست بالكائن الحي ، فهل لي أنت أسأل عن اسم الرميل الذي صادفته اليوم ورافقته في الضراء والسرائ ، وما أخال إلا أن هذا الاسم ذائع الصيت حتى هنا في صحراوات فلسطين » .

فقال المسيحي : « كلا ، إن هذا الاسم لم يحق له الذبوع بعد ، ولكن اعلم أن جنود الصليب يسمونني « كَتَث » صاحب النمر الرابض » ، ولي في بلادى .

ألقاب أخرى لا تستسيغ مسمعا أذن شرقية ؛ أيها العربي المقدام ! من أى قبائل العرب أنت وما اسمك ؟ »

فأجاب المسلم وقال : « يسرني أن اسمك هين على شفقي أن تنطقا به ياسير كنت ؛ أما أنا فلست بعربي ، وإنما أنا أتمنى إلى جماعة لا تقل عن العرب إقداما ولا حبا في القتال ؛ اعلم يا فارس النمر أنني شيركوه ، أسد الجبل ، وأن ليس بكردستان التي أنتسب إليها أسرة أشرف من أسرة سلجوق » .

فأجاب المسيحي : « لقد نما إلى أن سلطانكم العظيم يمت إلى هذه الأسرة بصلة الرحم ، فهل هذا صحيح ؟ »

قال المسلم : « حمدا لرسول الله الذي شرف جبالنا بأن يمت من بطنها رجلا ، الظفر معقود بمنطقته . ما أنا إلا كالدودة الحقيمة أمام ملك مصر والشام ، ومع ذلك ، فإن لاسمى في بلادى بعض المكانة — أيها الرجل الغريب ، خبرني مع كم من الرجال أتيت إلى هذه الحرب ؟ »

قال السر كنت : « أقسم لك إنني — بكل ماقدم إلى أهلى وصحبي من معونة — لم أستطع أن أجمع عشرة من الرجال المدربين على حمل الحراب ، ونحو من خمسين رجلا آخرين — ومنهم النبالون والخدم — إلا بعد جهد جهيد ؛ ومن هؤلاء من لم يرقه أن ينضم إلى لوائى التمس ، ومنهم من سقط في القتال ، وكثير أهلكتهم المرض — ومن بينهم رجل من حملة السلاح أثق فيه ، وهو الآن عليل طريق الفراش ، ومن أجله أتيت حاجا إلى هنا » .

فقال شيركوه : « أيها المسيحي ، إن في جيبتي خمسة سهام ، كلها مريشة بأجنحة النسور ، لو بعثت منها بواحدة إلى خيائى جاءنى ألف مقاتل على ظهور الخيل ، ولو بعثت بالأخرى هبت طائفة أخرى تملأ الأولى عدا ، فلو أتى أرسلتها جميعا لأصبح تحت إمراتي خمسة آلاف رجل ، وإذا أرسلت قومي دب في جوف الصحراء عشرة آلاف راكب ؛ وأنت على رأس خمسين من أتباعك أتيت تنزو جلادا ، أنا من أقل أبنائها شأنا ! » .

فرد عليه الفارس الغربى وقال : « وحق الصليب ، أيها العربى ، لتعلمن — قبل أن تفخر بنفسك — أنا نستطيع بقفاز واحد من الحديد أن نقضى على حفنة من هذه الحشرات التى ذكرت » .

فقال العربى : « ولكن هذه اليد الحديدية ينبى لها أن تحتلك هذه الحشرات فى قبضتها قبل القضاء عليها » وارتسمت على شفثيه ابتسامة ساخرة كادت أن تودى بالحلف الذى عقدها بينهما حديثا ، لولا أنه حول مجرى الحديث وأردف قائلا : « وهل للشجاعة عند الأمراء المسيحيين مكانة عالية ، فتتمهد — كما وعدتني — وأنت لا سلاح لديك ولا رجال ، بحمايتى وسلامتى فى غيم زملائك ؟ » . فأجاب المسيحى : « أما وقد سألتنى هذا ، فأعلم أيها العربى ، أن اسم الفارس ودم الرجل الكريم يخولان له أن يرفع نفسه إلى منزلة كبار الملوك فى كل أمر ، عدا ما يتمتمون به من سلطان ونفوذ ؛ ولو جرح رتشارد ملك إنجلترا نفسه غرة فارس مسكين كمثل ، ما كان له — وفقا لقانون الفروسية — أن يتكر عليه حقه فى النزال » .

فقال الأمير : « والله إني لأحب أن أشهد مثل هذا المنظر العجيب ، حيث يستطيع الرجل الفقير بنطاق من الجلد ، ومهمازين ، أن يرتفع إلى مستوى أقوى الأقوياء » .

فأجاب المسيحى : « أضف إلى ذلك دما حرا ، وقلبا لا يرتاع ، يصدق قولك عن كرامة الفروسية » .

ثم سأله العربى : « وهل تخالطون نساء سادتكم وقادتكم بهذه الجرأة عينها ؟ » . فأجاب فارس النمر : « إن أشد فرسان العالم المسيحى فقرا فى كل عمل نبيل يقوم به ، ولكنه يقف يده وسيفه وذكر أعماله وإخلاص قلبه الذى لا يجيد لأجل من حلين جبينهن بتاج من أميرات » .

فقال العربى : « ألم تقل لى منذ حين إن الحب هو أعز ما يملك القلب ؟ فما أشك فى أنك قد وهبت قلبك لامرأة كريمة نبيلة » .

فأجاب المسيحي وقد علت وجنتيه حمرة الخجل : « أيها الغريب ، اعلم أننا لا نندفع في الكلام فتتحدث عن موضع حبنا الذي وهبناه أنفس ما نملك ، ويكتفيك أن تعرف أن حبى — كما قلت — قد خصصت به امرأة نبيلة كريمة ، بل وغاية في النبل والكرم ، وإن كنت لم تسمع بالحب وتكسير النصال في سبيله . نغاطر بنفسك — على حد قولك — واذهب إلى معسكر الصليبيين ، وهناك تسمع بأذنك ما يرضيك ، وتجد ليديك — إن أردت — مرانا . »

وهنا هب المقاتل الشرقى عن ركابه وهز برعه إلى أعلى ، ثم أجاب قائلا : « إننى أحشى أن لا أجد من أبناء الصليب من يبادلنى الثزال بالجريد . »

فأجاب الفارس : « إننى لا أعدك بذلك ، رغم أن بالمعسكر بعضا من الأسبان . ذوى المهارة الفائقة في هذا الفن الشرقى ، فن الضرب بالحراة . »

فانفجر العربى قائلا : « هيه يا كلاب ويا أبناء الكلاب ! ما لهؤلاء الأسبان . يأتون إلى هنا لمنازلة المؤمنين المخلصين ، وهم في بلادهم السادة وأصحاب الرأى ؟ إننى لن أنزل معهم في لهُو الفرسان . »

فقال فارس النمر : « حذار أن يسممك فرسان « ليدن » أو « أستورياس » وأنت تتحدث عنهم كذلك » ؛ ثم ابتسم إذ تذكر ما كان بينه وبين العربى من قتال . صبيحة ذلك اليوم ، وأردف قائلا : « لو أنك قبلت أن تستبدل القصب بالقووس لألفت من القاتلين أبناء الغرب من يكتفيك لسد هذه اللجاجة في نفسك . »

فقال العربى وهو يتأمل للضحك : « ولحياة أبى ، ياسيدى كنت ، إن هذا الضرب من اللعب لأشد عنفاً من أن يكون لهُو المجرد — إننى لن أفر منهم في ميدان القتال ، ولكن عقلى (وهنا وضع يده على جبينه) لا يسمح لى أن أقصدهم لهُو حتى حين . »

فرد عليه المقاتل الغربى وقال : « وددت لو أنك رأيت فأس الملك رتشارد ، تلك الفأس التى لو قيسَت بها فأسى المعلقة بسرعى لم ترد هذه الأخيرة عن وزن الريشة . »

فقال العربي : « إننا سمعنا الشيء الكثير عن هذا الملك الذى يحكم فى جزيرة ؛  
خبرنى هل أنت من رعيته ؟ » .

فأجاب الفارس وقال : « أنا من أتباعه فى هذه الحملة ، وإياها من خدمة  
شريفة ؛ ولكننى لست من رعايا الملك مولداً ، وإن كنت من أهل الجزيرة التى  
يسود فيها » .

فقال الجندى الشرقى : « ماذا تعنى ؟ أفيتسودّ عليكم ملكان فى جزيرة  
واحدة فقيرة ؟ » .

فأجاب السر كنث ، وهو اسكتلندى المولد : « هو كذلك كما تقول ، وكثيراً  
ما يقتل أهل الشمال مع أهل الجنوب فى تلك الجزيرة ، ولكن الأمة تستطيع  
— كما ترى — أن تبعث إلى أقصى البلاد بكتيبة من الرجال المسلحين تهز هذه  
اليد الدنسة ، يد سيدكم ، التى تستولى على مدائن صهيون » .

« ولحية صلاح الدين ، أيها النصرانى ، إن هذه إلا غفلة صيبانية منكم ، ليس  
فيها لمحة من سداد الرأى ، وإننى ليضحكنى من سلطانكم العظيم سداجته ، وإنى  
لأنجب كيف عنّ له أن يطلب الظفر فى هذه الصحراوات وتلك الصخور ، وينازع  
فى امتلاكها قوما ، إن أرادوا جموعاً من الرجال عشرة أمثال رجاله ، ويخلف جزءاً  
من جزيرته الضيقة — التى ولد فيها ملكاً — إلى بلاد الصولة فيها لغيره ؛ ولكنى  
أعتقد جزماً ، ياسير كنث ، أنك وغيرك من الرجال الطيبين من أهل بلدك قد  
خضعتهم لنفوذ الملك رتشارد قبل أن ترحلوا عن وطنكم وتقوموا بهذه الحملة ، وقد  
تركتم بلادكم مقسمة بعضها فى وجه بعض » .

فأجابه كنث فى حدة ولهجة سريعة وقال : « كلا وضياء السماء المنير ! لو أن  
ملك انجلترا لم يقم بهذه الحرب الصليبية إلا بعد أن يملك على اسكتلندا لما عبأت  
— ولا عبأ كل اسكتلندى بخلص — بالهلال يتألق أبداً على أسوار صهيون » .  
واسترسل الفارس فى حديثه إلى هذا الحد ، ثم استجمع ذاكرته وتعمّق قائلاً :

« أستغفر الله ، أستغفر الله ! ما لي — وأنا جندي من جنود الصليب — وما لذي كرى الحرب بين الأمم المسيحية ؟ » (١) .

هذا الشعور الفياض الذي أحس به المسيحي ، ثم كتمه بوحى الواجب ، لم يغب عن الرجل المسلم ، فهو — وإن لم يدرك كل ما دمدم به صاحبه — إلا أنه شاهد ما دل دلالة قاطعة على أن المسيحيين — كالمسلمين — لهم من الشاعر الخاصة ما قد يوخز ضمائرهم ، ولهم في أوطانهم من المنازعات ما لا سبيل إلى حسمه ؛ ولكن العرب أمة مهذبة إلى أقصى حد يسمح به دينهم الذي يمتنقون ، وهم قادرون خاصة على التحلي بفضيلة المجاملة والتأدب ، وهكذا كان صاحبنا العربي ، فأبى على نفسه أن يتطلع إلى النزاع الذي قام بين السر كنث وبين مشاعره ، إذ كان كنث يجمع في شخصه شخصين متناقضين : أحدهما الاسكتلندي والآخر الصليبي .

ثم ضرب صاحبنا في السير ، وأخذت المناظر حولها تتغير وتبدل ، وقد عرجا إذ ذاك شرقا ، وسارا حتى بلغا سلسلة من التلال جرداء ، شديدة الانحدار ، تمتد في سهل قاحل ، وهي تباين بارتفاعها سطح البلاد ، ولكنها لا تختلف عنها في إحاطتها . وبدت أمام المسافرَين صخور ناتئة حادة ، وبعد فترة وجيزة ، أشرفا على منحدرات سحيقة ومرتفعات يرتفع لعلوها البصر ، وليس من اليسير أن تجتاز ممراتها الضيقة ، فكانت عقبة في سبيلهما ، تختلف عن غيرها من العقبات التي كانا يغالباها منذ حين ؛ وبينما هما يسيران ، بدت لهما على جانبي الطريق كهوف مظلمة ، وشقوق بين الصخور منفرجة مروعة . وهي تلك النيران التي كثيراً ما يشار إليها في الكتاب المقدس ؛ وهنا قال الأمير للفراس الاسكتلندي إن تلك الكهوف كثيراً ما تأوى إليها الوحوش الضارية ، أو يلجأ إليها رجال أشد من الوحوش شراسة ، تدفعهم إلى اليأس حروب لا تنقطع ، وجور يلحق بهم من جنود الصليب والهلل ، فينقلبون لصوماً يهبون كل من يلاقون ، ولا يقلت منهم أحد ، رفيماً كان أو وضيعاً ، مؤمناً أو كافراً ، رجلاً أو نساء ، شياً أو شاباً .

---

(١) يقصد الحرب التي كانت قائمة بين إنجلترا واسكتلندا .

وأخذ الفارس الاسكتلندى يستمع ، غير آبه ، لما يروى له عن أعمال النهب التي يرتكبها الوحش الضارى والإنسان الشرير ، إذ أحس في نفسه بالشجاعة وقوة البنية يطمئن إليهما ، ولكن لشد ما كان هلمه حيناً مر بخاطره أنه كان إذ ذاك يسير في القفر الموحش الذى أمسك فيه المسيح أربعين يوماً عن الطعام والشراب ، وأن تحت بصره ذلك المكان الذى تسنى فيه للشيطان أن يهاجم المسيح ويسرف في إغرائه وإغوائه ، فانصرف بذهنه شيئاً فشيئاً عن ذلك الحديث الساذج ، حديث الدنيا الذى كان يتحدث به إليه المقاتل العربى ، وهو يسير إلى جانبه ؛ وأحس السر كنث أنه في تلك الجاهل الجافة الجرداء ، التى تهيم فيها الأرواح الخبيثة بعد أن تخرج من الأبدان التى كانت محل فيها ، أحوج إلى مرافقة قس عارى القدمين منه إلى ذلك السلم المرح المنافق ، مهما كان حبيباً إلى النفس بروحه الخفيفة ، وشجاعته النادرة ، التى قد تجمل منه زميلاً تستحب زمالاته فى أى مكان غير هذا المكان .

استولت على المسيحي هذه الشاعر فارتبك في نفسه ، وزاده ارتباكاً أنه كلما أمعن وصاحبه في السير ، زاد العربى من مرحه وسروره ؛ وكلما توغلا في حنايا الجبال المظلمة ، استخف في حديثه ؛ ولما لم يفز من المسيحي بجواب على سؤال ، أخذ يتغنى ويرفع الصوت فى الغناء ؛ وكان للسر كنث من الإلمام باللغات الشرقية ما يكفى لأن يؤكد له أن العربى كان يتغنى بأناشيد الحب المليئة بكل معنى من معانى الثناء على الجمال ، التى يغرم شعراء الشرق بالإغراق فيها ، والتى كانت — من أجل ذلك — لا تلقى ألبتة بالفكر يحلق في مباء الجد والإخلاص لله ، وهو ذلك الإحساس الذى يبنى للمرء أن يحس به وهو فى القفر الذى امتحن الشيطان فيه المسيح ؛ ولكن العربى لم يرع للمكان حرمة ، فأخذ يتغنى كذلك بما أثر الحجر ويشبهه بالياقوت كشعراء الفرس ؛ وهكذا استرسل العربى فى نشوة السرور إلى حد لم يمد يقيقه السر كنث — وقد استولى عليه إحساس غير هذا الإحساس ؛ ولولا أنه قطع على نفسه من قبل عهداً أن يبقى على المودة التى تبادلها لما تردد فى أن يطلب إلى العربى أن يضرب على وتر آخر ؛ وهكذا أحس الصليبي كأن إلى جانبه شيطاناً

خبيثا مستهترا في اللهو ، يحاول أن يوقع روحه في حباله ، ويحرمه من غفران الله ، بما كان يتمسك به من ملذات الحياة الدنيا ، يلوث بها طهارة قلبه ، في وقت تناشده فيه عقيدته المسيحية ، وميثاقه كحاج ، أن يذكر الله مستغفرا جادا ؛ فاشتدت حيرته وتردد ماذا يصنع ، وأخيرا شق سكون نفسه ، وفي لهجة الناقم الحادة اعترض العربي وهو يتغنى بالأنشودة الشهيرة التي يؤثر فيها الشاعر الخال على صدر معشوقته على كنوز بخاري وسمرقند .

فقال الصليبي محتدا : « أيها العربي ! مهما أظلمت عيناك ، ومهما ضللتك مهامه شريعة خرقاء ، أفلا تدرك أن من بين بلاد الله بلادا أكثر تقديسا ، وأن من بين الأماكن أماكن ، الشيطان فيها أشد سلطانا على النفوس الأماراة بالسوء ؟ إنني لن أخبرك بالسبب المروع الذي من أجله اتخذ الشيطان هذا المكان ، وهذه الصخور ، وهذه الكهوف ذات القباب المظلمة ، التي توهم الرائي أنها تؤدي إلى أغوار سحيقة ، مرتعا خاصا له ولجنوده ؛ وحسبك أن رجلا قديسين حكام ، يملكون حق العلم خصائص هذا المكان الدنس ، قد حذروني منه منذ زمن بعيد ؛ فهل لك أيها العربي أن تقلع عن غيك ، وعن هذا المزح الذي ليس هذا بجينه ، وأن تنصرف بفكرك إلى ما هو أليق بهذا المكان ، وإن تكن خير دعواتك ما هي — واحسرتاه ! — إلا إثم وكفران » .

وأصنى العربي لهذا الحديث بشيء من الدهشة ، ثم رد بروح من الدعابة والفكاهة لم يُخفها إلا بقدار ما تقتضيه المجاملة وقال : « إنك يا سركنث رجل طيب ، ولكنك لم ترع لرفيقك حق الزمالة ، وإلا ، فأنتم معشر الغرب لا تكثرثون بأدب اللياقة . إنني لم أر أنك قد أسأت إلى حينا أخذت تلهم لحم الجزير وتشرب الخمر على مرأى مني ، بل لقد سمحت لنفسك أن تستمتع بطعام قلت إنه من حرية المسيحية ، ولم أعد أن أسفقت عليك في نفسى من متعتك الدميمة ، فلماذا إذن تضجر مني وتشكو ، وأنا إنما أسرى عنا — بكل ما وسعت من شجر جدل — هذه الطريق الموحشة ؟ ولقد قال الشاعر ما معناه : « إنما القناء كقطر الندى يساقط



من السماء على صدر الصحراء فيجمل طريق المسافر بردا وسلاما .

فأجاب المسيحي : « اسمع يا صاح ! أنا لا أكره الله أو الفناء ، بل إننا لنوليها من قلوبنا مكانة عليا ، قد يكون أولى بها ما هو خير منهما ؛ ولكن الدعاء لله والأناشيد الدينية أليق بك من أغاني الحب وكؤوس الخمر ، وأنت تحترق هذا الوادي ، وادى ظل الموت ، الملىء بالأبالسة والشياطين ، الذين أصابهم دعوات القديسين فطردتهم من مساكن الانسان يهيمون في بلاد عليها وعليهم لعنة الله » .

فأجاب العربي قائلا : « لا تتحدث عن الجن بمثل هذا أيها المسيحي ، واعلم أنك توجه الخطاب إلى رجل هو وأمته يرجعون بأصلهم إلى جنس مخلد ، تخشونه في مذهبكم ، وتستزلون عليه غضب الله » .

فأجاب المسيحي : أعلم أن أمتكم العمياء تنتسب إلى الشيطان الرجيم ، الذي مد إليكم يد المساعدة ، فكنتكم من الاحتفاظ بهذه الأرض المكفرة ، أرض فلسطين ، فوققم في وجه عدد عديد من جنود الله الأبطال . إنني لا أتحدث عنك خاصة أيها العربي ، وإنما عن قومك عامة وعن دينك ، وليس العجيب أنكم تنتمون إلى الشيطان ، وإنما العجيب أنكم تفخرون بذلك » .

فأجاب العربي : « نحن أشجع الشجعان ؛ بمن نفخر في كرم المحدث إن لم نفخر بأشد المخلوقات إقداما ؟ نحن الجبابرة التكبرون ؛ إلى من ننتهي إن لم ننتهي إلى إبليس ، الذي آثر أن يخرج من الجنة مدحورا على أن يسجد لأدم طائما ؟ إن إبليس ذميم مكروه ، ولكنه مهيب الجانب ، وكإبليس نحن أبناؤه أهل كردستان » .

وكان العلم السائد في هذا العصر هو قصص السحر والاتصال بالأرواح ، ولذا فقد استمع السركنت إلى رفيقه حينما اعترف بأصله الشيطاني ، ولم تساور نفسه خليجة من شك ، أو أثر من عجب ، ولكنه مع ذلك قد أحس بفرائصه ترتد ، حينما ألقي نفسه في هذا المكان المروع برفقة رجل أعلن صراحة عن أصله الذي ذكرنا ؛ وكان السركنت لا يعرف الخوف بطبعه ، فرسم علامة الصليب على

نفسه ، وطلب إلى العربى فى جرأة أن يحدّثه شيئا عن أصله الذى يفتخر به ، وسرعان ما لى العربى مطلبه فقال :

« اعلم أيها الغريب الشجاع أن (الضحّاك) ، أحد أبناء جمشيد ، لما اعتلى عرش فارس ، عقد مجمعا من الشياطين تحت قباب (اصطخر) الخفية ، تلك القباب التى نحتها الأرواح الأولى فى عين الصخر ، قبل أن يخلق الله آدم نفسه ، وهنا كان للضحّاك حيّتان ضاريتان ، أخذ يطعمهما ويقدم لهما القربان كل يوم من دم الإنسان ؛ حتى صارا — كما يحدّثنا الشعراء — جزءا من نفسه ، وأراد أن يُبقى عليهما ، فأخذ يجمع لهما الضحايا البشرية كل يوم ، حتى نفذ صبر رعيته ؛ فرفعوا فى وجهه راية العصيان ، وكان من بينهم أمثال الحداد المقدام ، و(فريدون) الظافر ، اللذين استطاعا آخر الأمر أن يخلّصا هذا الظالم المستبد عن عرشه ، ويحبّسا طوال حياته فى الكهوف المظلمة فى جبال (راموند) ، ولكن هذا الرجل المتمطش للدماء كان قد بـث وهو فى أوج قوته — قبل أن تخلص البلاد من حيفه — بثلة من أتباعه للصوب ، كي يأتوه بالفرائس يقدمها ضحايا كما اعتاد كل يوم ، فجاءوا إلى أبهاء قصر (اصطخر) بسبع أخوات ، تحبهن من فرط جالهن من حور الجنان . هاتيك الفتيات السبع هن بنات رجل حكيم ، لا يملك من الثروة غير حكيمته وجمال بناته ولكنه — على حكيمته — لم يستطع أن يتوقع الكرب الذى حل به ، والبنات لم يعلكن أن يدفنن الشر ، ولم تعد كبراهن المشرين ، ولم تكذب ببلغ صغراهن الثالثة عشرة ، وكن جميعا على صورة واحدة ، لاستطيع أن تفرق بين الواحدة والأخرى إلا باختلاف القد ، إذ كن يتوالين فى طولهن متتابعات ، مثلن فى ذلك مثل المصمد الذى يؤدى إلى أبواب الجنة ؛ وما كان أجملهن حين وقفن تحت القبة المظلمة ، وقد خلعن ثيابهن ، ولم يتسترن إلا بقمص من الحرير الأبيض ، يهززن بجمالهن قلوب البشر ؛ إذ ذاك جلبل الرعد ، وزلزل الأرض ، وتشقق حائط البهو ، ومن بين تلك الشقوق تسلل رجل فى زى صائد ، يده قوس ونشاب ، وفى إثره ستة من إخوته ، وكانوا جميعا رجالا طوالا ، سود الوجوه ، محياهم جميل الطلعة ، إلا

أن في أعينهم طريق الموت ، لا كذلك الضياء الذي يثألني تحت جفون الأحياء ؛ ثم أمسك زعيمهم بيد كبرى الأخوات السبع ، وقال في صوت ناعم خافت فيه رنة الأمي : « زينب ! أنا ( كُثْرَب ) ملك العالم السفلي ، ورئيس الجن الأعلى ؛ أنا وإخوتي هؤلاء — وقد خلقنا الله من النار الأولى — قد أينا ، حينما أمرنا العزيز القادر ، أن نسجد لكائن خلقه من طين وسماء الإنسان . وما أخالك قد سمعت عنا إلا أنا قساة لا نلين ، نوقع الشر بالنفوس ، وما هذا إلا باطل ، إنما نحن بطيئتنا كرام رحيمون ، لا ننقم إلا إذا لحقتنا إهانة ، ولا نقسو إلا إذا مسنا أذى ، من وثق فينا أخلصنا له ، وقد دعانا أبوك ، « مِثْرَاب » الحكيم ، فلبينا الدعاء ، وأبوك بحكمته لا يمد أصل الخير فحسب ، وإنما يعيد منبت الشر كذلك ؛ إنك وأخوانك على حافة الموت ، ولكنكن إن أعطينا كل واحدة منكن شجرة من فرعها الجليل ، دليلا على الولاء ، حملنا كن فراسخ من هنا إلى مكان آمن تتحدين منه الضحاك ووزراءه » ولقد قال الشاعر إن الخوف من الموت العاجل كالخوف من عصا موسى نبي الله ، التي ابتلعت كل عصاة انقلبت أمام فرعون الملك إلى حية تسمى ؛ وهكذا كان بنات الحكيم الفارسي ، فلم يرعن لخطاب كُثْرَب ، كما ارتاع غيرهن ، فأعطينه ما فرض عليهن ، وفي أسرع من لمح البصر انتقل الأخوات إلى قصر مسحور فوق جبل « تَجَرَّت » بكردستان ، ولم تقع عليهن من بعدُ عينُ إنسان ؛ ثم انقضى زمن طويل ، وذات يوم ظهر إلى جوار هذا القصر — قصر العفاريث — سبعة شباب ، لهم صيت في الحرب والطراد ، أشد حلوكة وأعلى ارتفاعا وأشد بأسا وأقوى عزيمته من كل من زل بأودية كردستان من إنسان ، فاتخذوا البنات السبع زوجات لهم ، وأصبحوا آباء لقبائل الكرد السبع ، التي طبق ذكر شجاعتها الآفاق .

استمع الفارس المسيحي متعجبا إلى هذه القصة الوحشية ، التي مازال لها أثر بأرض كردستان ، ثم أطرق هنيهة وقال « أصبت فيما قلت أنها الفارس ؛ قد يخشى المرء منبتكم وينبذه ، ولكنه لا يستطيع أن يحقر من شأنه ، ولني أعجب ، بعد

الذى سمعت ، من تشبثكم بدين باطل ، فلا ريب أن ذلك ماهو إلا ناجية من ميولكم الشيطانية ، التى ورثتموها عن آباءكم ، الذين وصفتمكم كأشبه صيادون من الجحيم ، ميولكم التى تحجب إليكم الباطل دون الحق ، ولنى أعجب بعدُ منك تنقشى وتطرب وتنفس عن مكنون نفسك برواية الشعر ، مترنما به فى آونة أنت تدنو فيها من إمكانية ترادها الأرواح الخبيثة التى توغرُ مسالكها ، تلك الأرواح التى تبعث فىك مراحا وجذلا يحس بهما المرء وهو يدنو من موطن أسلافه .

هذه الحرية التى عجز بها المسيحي عن رأيه سرٌّ منها العربى ، ولم تجرح كرامته ، فقال « حقا ما قلت ولحية أبى ، فإننا ، على خلاف غيرنا من المسلمين ، لا نريد أن نقضى بضربة لازب على تلك الأرواح الأولى القوية العالية التى نعتقد انا منها نشأنا ، وذلك رغم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد آتانا بدين خير من دين آباءنا الذى تعلموه فى أبهاء « بمرت » المفعمة بالأشباح ؛ نحن نعتقد ونؤمن أن هؤلاء الجن لم يتردوا فى شر لا يحصى عنه ، وإنما هم ما برحوا فى طريق الحنة والاختبار ، وقد يجزون فى الآخرة خيرا ، وقد يجزون شرا ؛ ولكن دع هذا « لرجال الدين » والأئمة ، وحسبنا أن تقدس هذه الأرواح لم يحرمه ماتعلمنا من القرآن كل التحريم ، وأن كثيرا منا ما فنى يتغنى بمثل هذا الشعر الذى يذكر بدين آباءنا الأولين . » ثم أخذ ينشد — فى لغة قدمة جدا فى لفظها ومعناها — أبيتا من الشعر ، يعتقد بعض الناس أنها ترجع فى أصلها إلى عبدة « أهرمان أصل الشر » .

— أهرمان —

أى أهرمان الأسود ،

يا من يرى فىك العراق منبع الشر والسوء !

إذا ما سجدنا لك عند معبدك ،

شهدنا الدنيا بعيون كليلية ،

وعلمنا أن ليس تحت قبة البهاء

دولة تنافس دولتك !

إذا كانت بقوة الرحمن الرحيم ،  
تتفجر العيون في أرض خلاء ،  
يرتوى منها رحالة متعبون ،  
فمنك تصدر الأمواج تططم الصخور ،  
ومنك تهب رياح صرصر عاتية ،  
فتتكفن في جوف الماء جنود البحار .

وإذا أنبت الرحمن من الأرض بلسم ،  
تشتفي منه النفوس الحائرة ،  
فيا ما أقل من تشفيه البلاسم  
من ألم لا يبرح ومن عذاب مقيم ،  
ومن نار الحتمي ومن فتك الطاعون :  
وتلك هي سهامك في جيبك !

في قلوب البشر لك سلطان فوق كل سلطان ،  
وإذا ما اتبهننا بالصلاة  
إلى عرش غير عرشك ،  
ودعونا فأسر فنافي الدماء ،  
فإن خفي المعنى في الصلاة  
لك وحدك يا أهرمان .

خبرني إن يكن لك حسنة أو شكل أو شعور ،  
وهل صوتك الرعد وجلبابك المواصف ،  
كما يحدثنا في الشرق المجوس ؟

وهل لك قلب ينبض بالبنفساء والشحناء ،  
وأجنحة ترفرف بها في طريقك ، طريق الموت ،  
وأسنان تنفش منها في فريستك السم الزخاف ؟

وهل أنت من بدء الخليفة منقلب الطباع ،  
قوة لا تكل ولا تنى ،  
تحول شرا كل خير ؟  
عنصر الأذى في دماغك ،  
إذا أصابنا خير تصارعه ،  
وأنت أبدأ تصرعه .

ومهما يكن فلا طائل تحت النضال ؛  
لك سلطان على كل ما ظهر ،  
ونفوذ على كل ما بطن ؛  
كل عاطفة قوية في قلب البشر ،  
من حب أو بغض أو طموح أو خوف أو جذل ،  
تدفع بها نحو الإثم والذيلة .

كلما بدت بارقة من ضياء  
تنير ما يتحدّر من مآقي الدموع ،  
إذا أنت قريب المنال ،  
وسط هذه القنبلة في بيداء الحياة ،  
ترهف كل سكين على مائدة الطعام  
وتجعل منها آلة للحرب والفتناء .

مذ نفع الله فينا الحياة ،  
ومد لنا على وجه الأرض الأجل ،  
وأنت تقضى في الرجال ؛  
وإذا صار للموت حين ،  
منك كان الألم ؛

فهل اتقضى في الأرض سلطانك يا روح الظلام ؛  
عجياً ! من ذا الذى يتصدى للجواب ؟ (١)

ولربما كانت هذه الأنشودة تعبيراً طبيعياً صادراً عن قلب فيلسوف لا يعلأ  
النور كل أرجاء صدره ، فيلسوف لا يرى في ألوهية أهرمان الكاذبة إلا سيادة  
الشر الخلقى والأذى الجفاني ، ولكنها في أذن السركنت كان لها أثر آخر ،  
فقد كان لها في مسمعه — إذ كان يتغنى بها رجل يفخر بانتسابه إلى الجن — رنين  
كأنه رنين الدماء إلى الشيطان عينه ، وقد استمع كنت إلى هذا الكفران في قلب  
الصحراء عينها ، التي وقف فيها الشيطان يطلب إلى الناس الولاء له ، فصب الله عليه  
نقمته ، فأخذ ( كنت ) يوازن بين نفسه ونفسه إن كان خيراً له أن يفصل في الحال  
عن رفقة العربي الكافر ، كي يشعوه بضجره ، أو يتحداه للزال دون توان ، ويتركه  
في القفر طعاماً للوحوش — إن كان حتماً عليه ذلك وفاء لميثاقه كحارب صليبي —  
وإذ هو كذلك ، إذا بشبح لم يكن في الحسبان يجذب منه التفاته .

وكانت الشمس إذ ذاك آيلة للغروب ، ولكن فارسنا استطاع رغم ذلك أن

(١) ترجم هذه الأنشودة إلى الإنجليزية فس عالم ذو منزلة رفيعة ، وقد طلب إلى تقادياً  
لسوء الفهم ، أن أذكر القارئ بأن هذه القطعة من وضع رجل ينكر وجود الله ، ولا يعرف  
لانحطاط الخلق وشرور الجسد من سبب حق ، وإنما هو ينظر إلى سلطانها على نظام الكون ،  
كما ينظر من لا يميز قلبه نور المسيحية إلى هذه الحقيقة المرة ؛ وأنا من ناحيتي أزيد على ذلك أنني  
أعلم أن المترجم قد تصرف في الترجمة وزاد فيها زيادة لا يوافق عليها أولئك الذين يعرفون القطعة  
في أصلها العجيب الفريد ، ويحتمل لي أن المترجم قد يتأس من أن ينقل إلى نظم إنجليزي شعراً  
شريعياً يخلق في الخيال ، وربما استفاض بمسانيه الخاصة مصانئ كانت في الأصل وأدرك استحالة  
الكشف عن معناها ؛ وهكذا يفعل الكثير من عباقرة العلم — المؤلف .

يرى أنه لم يعد وصاحبه وحدهما في القاب ، وإنما كان يرقبهما عن كشب جسم بالغ الطول ، جد نحيل ، يقفز على الصخور وفوق الأشجار ، ويذكر الفارس — بحفته ومظهره الخشن النليظ — بألهة الحقول وأرباب القاب ، الذين شاهد لهم صوراً في معابد روما القديمة ؛ وكان هذا الرجل الاسكتلندي ساذج القلب ، لم يشك لحظة في أن آلهة القداى المارقين على الدين كانت أبالسة في حقيقتها ، وهو الآن كذلك يمتقد دون تردد أن المقطوعة اللعينة ، التى تقف بها العربى ، قد أخرجت روحاً من أرواح الجحيم .

فقال لنفسه في صراحة : « وماذا يعننى ! ليهلك الشيطان وعبد الشيطان » ولكنه — بطبيعة الحال — لم ير ضرورة لأن ينذر عدوين ويتحداهما بالهجة عينا التى يخاطب بها عدوا واحداً ؛ وامتدت يده إلى عصاه ، وكاد العربى أن يلقى جزاء شعره الفارسى ، وهو غافل ، تهشيم رأسه فى الحين تهشياً لا مبرر له ؛ ولكن الفارس الاسكتلندى تحاشى إنما لو اقترفه لكان ثمة فى شرفه الحربى ، وذلك أن الشبح ، الذى ظل الفارس مدة وعيناه لا تحيدان عنه ، كان يمترض طريقهما بآدى الأمر ، متخفياً خلف الصخور والأشجار ، مستغلاً طبيعة الأرض بحذق شديد ، ومتغلباً على نشازها بخفة عجينة ؛ ولكنه — حينما سكنت العربى عن الفناء — تبدى عن رجل طويل القامة ، يرتدى جلد عنز ، ثم قفز إلى وسط الطريق ، وأمسك بزمام من أزمة العربى بكلتا يديه ، وجابه الجواد النحيل ، ورده إلى الوراء ، فرأى الجواد أنه غير قادر على أن يصمد لمهاجه — وقد أناه على حين غرة وضغط على طرف عنائه السنون الطويل ، وسلسلته المتينة التى كانت على الطراز الشرقى — فتقهقر لساعته ، ثم سقط إلى الخلف فوق صاحبه ، ولكن صاحبه أسرع وقفز جانباً كي ينجو من خطر الوقوع .

حينئذ رفع المهاجم قبضته عن زمام الجواد ومكنها من حلق رأكبه ، وهوى بنفسه فوق العربى وهو يدفع عن نفسه ، واستطاع أن يقيه تحته طريق الأرض ، وطوقه بذراعيه الطويلتين ، فبات العربى فى قبضته ، وصاح غاضباً وهو يتكلف



الضحك : « أى (هاماكو) يالعين ، اطلقنى ، ليس هذا من حقك — اعزب عني وإلا سللت خنجرى » .

فأجاب الرجل المرتدى جلد العنز : « أى خنجر أيها الوغد الخائن ، اقبض عليه إن استطعت » وبأسرع من لمح البصر استل خنجر العربي من يده ، وهزه فوق رأسه .

فصاح شيركوه مذعوراً : « النجدة ! النجدة ! أيها النصرانى ، وإلا قتلتى ها ماكو » .

فأجاب ساكن الصحراء : « أقتلك ! حقاً إنك لتستحق الموت ؛ كيف تنفى بهذه الأناشيد اللعينة ، وتترنم بمآثر إله الشر ؟ » .

وكان الفارس المسيحي حتى ذلك الحين يتطلع فى دهشة وذ هول ، ولشد ما كان يحبه ، لأن هذه المحمة فى تطورها ونهايتها قد أتت على خلاف ما كان يتوقع من قبل ؛ ولكنه لم يلبث طويلاً حتى أحس بأن الكرامة تقضى عليه بأن ينضم إلى جانب زميله المهزوم ، فالتفت إلى الرجل المرتدى جلد العنز ، وقد ظفر ، ووجه إليه الخطاب قائلاً : « كن من شئت ، كن من أبناء الخير أو من أبناء السوء ؛ ولكن اعلم أننى قد أخذت على نفسى فى هذا الظرف أن أخلص فى صحبتى لهذا العربي الذى أرديته تحتك ، ولذا فإنى أتوسل إليك أن تخلى عنه ، وإلا قاتلتك دفاعاً عنه » .

فأجاب هاماكو قائلاً : « مرحباً بالقتال ! مرحباً بالقتال يمترك فيه صليبي ويشترج مع واحد من أبناء دينه الحنيف فى سبيل وغد لم يمتنق دين المسيح ! هل أتيت إلى هذا القفر تحارب للهِلال ضد الصليب ؟ أكرم بك جندياً من جنود الله تنصت إلى أولئك الذين يتننون بحماد الشيطان ! » .

واتصّب قائماً وهو يفوه بهذا الحديث ، فسمح للعربى كذلك أن يهب من مرقدته ، ورد إليه خنجره . ثم واصل الحديث موجه خطابه الآن إلى شيركوه

وقال : « لقد رأيت كيف أدى بك ادعاؤك إلى شفا الخطر ، ورأيت كيف — إن أراد الله بك سوءاً — يكون اندحارك بأضعف الوسائل ، على حذقك ومهارتك وخفتك التي تفخر بها ، فحذار يا (ضريم) واعلم أنه لولا لحظة من بريق تألق بها نجمك يوم مولدك بشيراً لك بخير ونعمة قدرها لك الله في علاه ، لما افترقنا إلا بعد أن مزلقت حلقك هذا ، الذي كان يلفظ آيات الكفر منذ حين » .

فأجاب العربي ، ولم تبد عليه أمارات البغض لهذا اللفظ الشديد وذاك الهجوم العنيف الذي صوّب إليه ، وقال « أى هاما كوايها الرجل الطيب ، حذار أن ترهو ثانية بفضائلك إلى هذا الحد ، واعلم أنني كسلم مؤمن بالله أجل المرء إذا أعاضه الله بروح التنبؤ عن نعمة العقل ، ولكنني لا أحب أن تمتد إلى زمام جوادى أو إلى شخصى يد غير يدي . خبرني إذن ماذا تريد ، وثق أنك في مأمن من غضي ، واعلم أنك إن هددتني بالتمف دقت رأسك المشعث وفصلته عن كتفك النحيلتين » ، ثم اعتلى صهوة جواده واستطرد قائلاً : « أما أنت يا صديقي كنت ، فاعلم أنني أحب في رفيق الصحراء الإخلاص في العمل أكثر مما أحب التطرف في الكلام ، وحسبي ما أممتني من طيب الحديث ، وإنما كان خيراً لي أن تسارع إلى نجدي في عراك مع هاما كوا ، وقد أوشك أن يقضى على حياتي وهو في نشوة الجنون »

قال الفارس : « خفا لقد خارت عزيمتي ، بل قل لقد أبطأت في إسمافاك بالنجدة ، ولكن غرابة مهاجك ومفاجأته بالقتال — وكأن أنشودتك الدنيمة بتوحشها قد أنبتت بيننا شيطانا — أربكت عقلي ، فانقضت دقيقتان أو ثلاث قبل أن أسل سلاحى » .

فأجاب العربي : « ما أنت يا صاح إلا رفيق متبلد الإحساس ، شديد الحرص . لو أن هاما كوا تفرأ في جنونه ذرة واحدة ، ولبتت ممتظيا جوادك ، شاهرا سلاحك دون أن تحرك إصبعاً لنجدي ، نحر زميلك إلى جوارك صريما ، ولحقك العار ما دمت حيا » .

فأجاب المسيحي : « وحق مهتدى أيها العربي لأصارحك القول ، لقد ظننت ذلك الجسم الغريب شيطانا من بنى جنسك ، ولم أدر أى سر عاظم بينكما يتبادلان فيه الحديث ، وأنتم تتمرغان معا فوق الرمال » .

فقال العربي : « هذه السخريّة منك يا أخى كنت ردّ غير مقبول ؛ ولتعلم أن لو كان مهاجى هو الشيطان عينه ، لكان حتماً عليك — مع ذلك — أن تنازله القتال فى سبيل رفيقك ، واعلم كذلك أنه إن كان بها ما كوس من جن أو شيطان ، فهو أقرب إلى منبتك منه إلى منبتى ، فهاهما كو هذا فى الحق إلا الناسك الذى أتيت إليه حاجا » .

فأجاب السر كنت ، وقد نظر إلى الجسم السائل أمامه ممشوق القد ، وإن يكن منهوك القوى ، وقال : « هذا ! ! هذا ! ! إنما أنت تهزأ أيها العربي ، وما هذا بتيودوريك الوقور ! »

فرد عليه شيركوه وقال : « سله إن كنت لا تصدقنى » ، ولم تكذب فخرج الكلمات من فيه حتى شهد الناسك على نفسه وقال :

« أنا تيودوريك ، رجل عين جدة ، أنا الشاء فى الصحراء ، أنا صاحب الصليب ، وسوط الكفار والنافقين وأتباع الشيطان . عنى ! عنى ! ليهلك الكفرة جميعا » ، ثم استل — وهو يتكلم — من تحت جلبابه الشمع شيئا يشبه أن يكون مطرقة أو هراوة ذات مفاصل موثوقة بالحديد ، وهزها فوق رأسه بمهارة فائقة .

وقال العربي : « ها أنت ذا تشهد قديسك » ثم خحك لأول مرة من السر كنت ، وقد نظر ( كنت ) بدهشة ما بعدها دهشة إلى حركات تيودوريك الوحشية ، وأنصت إليه يتمم تتممة عجيبية ، بعدما لوح بعصاه هنا وهناك ، وكأنه لا يباأ أعلى رأس العربي وقت أم على رأس المسيح ، وأخيرا ضرب بها صخرها إلى جانبه ، فتهشم الصخر فتاتا ، وظهرت من الرجل قوته ومثانة سلاحه .

فقال السر كنت : « هذا رجل مجنون » .

ورد عليه السلم ، وتكلم وفقا للعقيدة الشرقية المعروفة ، التي ترى أن المجنون رجل تحت تأثير الوحي المباشر وقال : « وليس هذا بأسوأ القديسين ، أعلم أيها المسيحي أنه إذا انطفأ من إحدى المئين نور اتقد فى الأخرى الضياء ، وإذا بترت إحدى اليدين قويت اليد الأخرى ، وكذلك إذا اضطرب العقل أو فسد تفكيره فى أمور البشر ، اتجهت البصرة نحو السماء وهى أشد نفاذا وأتم كالا » .

وهنا غاص صوت العربى فى صوت الراهب إذ أخذ هذا يهلل بصوت عال ويترنم بنغم خشن ويقول : « أنا تيودوريك ، رجل عين جيدة ، أنا جنوة الصحراء ، أنا سوط المناققين ، الأسد والنمر — رفيقاي — يدنوان من غارقى يحتميان ، ولن تحشى مخالهما بعد اليوم عز ؛ أنا المشعل والمصباح ، رحماك اللهم ! » . ولما فرغ من غنائه هزول قليلا ، ثم قفز إلى الأمام ثلاث قفزات ، لو أنه أداها فى حفل رياضى لحاز عليها كثير الثناء ، ولكنها لم تليق به كراهب ، حتى إن الفارس الاسكتلندى تحير واربتك » .

وكان العربى قد كان لحركاته هذه أدق فهما فقال . « ألا ترى أنه يريدنا على أن تبمعه إلى غاره فتحتمى هناك ليلتنا ؟ أنت النمر ، ويشهد بذلك هذا الرسم فوق درعك ؟ وأنا الأسد ، ويدل على هذا اسمي ؟ وبالعز يشير إلى ردائه — وهو من جلدها -- ويعنى نفسه ؛ لنجعله أبدا تحت أبصارنا فهو سريع العدو كالفحين » . وكان ذلك عليهما شاقا ، إذ أن قائدهما الوقور كان حقا يقف الفينة بعد الفينة ، ويلوح بيده يحشهما على السير ، ولكنه كان جد خبير بالأودية اللثوية وطرق الصحراء ، وقد وهبه الله خفة غير مألوفة ، ربما ساعده على الإبقاء عليها دائبة النشاط عقل غير مترن ؛ ولكنه كان يسير بهما فى خلوات وطرقات ، أحس فيها العربى — على خفة سلاحه ودرية جواده — بالخطر الشديد ، فابالك بالأوروبى ، وهو مدرع بالحديد ، وجواده مقل بالأحمال ؛ لقد ألغى نفسه والخطر يحقد به فود لو استماض بهذه المخاطر معركة حامية الوطيس ؛ ولشد ما كان سروره حينما رأى — بعد هذا العدو الوحشى — ذلك الرجل المقدس ، الذى هدهما الطريق ، وقد

وقف لدى كهف ، ويده مشعل يتألف من عصا خشبية منغمسة في القار ، يشع منها ضياء يتذبذب في شدة ، وتقوح منه رائحة الكبريت في قوة .

لم يرد الفارس من هذا البخار الخائق ، وإنما رمى بنفسه من فوق جواده وويلج الكهف الذي كان ظاهره لا يدل على توفر الراحة فيه ؛ وكان النار مقسما قسمين : خارجيا به مذبح من الحجر وصلب من القصب ، وكان الناسك يتخذ من هذا المكان كنيسة له ؛ وإلى جانب هذا الكهف الخارجي وثق الفارس المسيحي جواده ، وأعد له لمبيت ، محتفيا في ذلك حذو العربي الذي أفهمه أن هذا من تقاليد ذلك المكان ، ولكن المسيحي لم يخل من وسواس الشك ، دب فيه مما كان يحوطه من مظاهر كان لها في نفسه احترام ديني ؛ وفي غضون ذلك كان الناسك يشغل بتنسيق الغرفة الداخلية كي يستقبل فيها ضيفه ، وسرعان ما لحقا به هناك ؛ وكان في داخل الكهف الخارجي فرجة صغيرة تغلق بباب من الخشب الخشن ، وتؤدي إلى غرفة فسيحة كان يتخذها الناسك للنوم ؛ وكان سطح الأرض بالكهف خشنا رغم جهد ساكنه في تسويته ، مفروشا برمل أبيض اعتاد أن ينثر الناسك الماء فوقه كل يوم ، يأتي به من عين صغيرة تنفجر في الصخر في إحدى زوايا المكان ، وتعد الانسان في ذلك الجو الخائق بماء عذب المذاق ، خيره لذيذ السمع ؛ وفي جانب من جوانب القار وضعت بعض الحشايا المصنوعة من الأعلام الملتفة ؛ وجدر الكهف — كأديمه — خشنة اللبس ، رغم جهد باذٍ في تسويتها ، وقد علفت عليها الأعشاب والزهور ، وأشمل الناسك مشعلين من الشمع نشرها جوا طيبا في المكان ، الذي بات يشذاه وبرودته حبيبا إلى النفس .

وكانت في إحدى زوايا الغرفة أدوات من آلات العمل ، وفي زاوية أخرى فجوة ينتصب فيها تمثال للمذراء خشن غليظ ؛ وبالعرفة كذلك مائدة ومقعدان ، يدل ظاهرهما على أنها من صنع الناسك ، فهي تختلف في هيئتها عن الأثاث الشرقي . أما المائدة فكان ينثر عليها القصب والبقل ، وعليها لحم مجفف ، أحكم تيودوريك وضعه بحيث يسيل لعاب زائريه ؛ ولم يستطع المركنت ألبنة أن يوفى بين مظاهر

الجود هذه — على أن الناسك كان يقوم بها في صمت ، ولا يبرعها إلا بالإشارة — وبين مسلكه التوحش العنيف من قبل ؛ وقد أضحى الراهب بعد ذلك مترن الحركات ؛ ولئن كان هزيل الملامح من أثر العيش الشظيف ، لا تبدو عليه امارات النبل والجلال ، فما ذلك إلا لإحساسه بضرورة التواضع الذي يمليه عليه الدين ؛ وكان ينتقل في كهفه ، وكأنه رجل ولد ليحكم بين الناس ، ولكنه تخلى عن دولته كي يخلص لعبادة الله ؛ ولكنه كان رغم ذلك رجلا كبير الحجم ، له خصل من الشعر مرسلة طويلة ، ولحية لم يعد إليها يده بالتشذيب ، وعينان وحشيتان غائرتان يتطاير منهما الشرر — وهذه من صفات الجندية لا من صفات الرهبنة .

حتى إن العربي نفسه لم يسمعه إلا أن ينظر إلى هذا الناسك ، وهو مشتغل بعمله — بعين التبجيل ، فأمر إلى السر كنت في صوت خافت ، وقال : « ألا ترى أن هاما كوا الآن هادي البال ، إنه لن يتحدث إلينا حتى نفرغ من الطعام ، وهذا عهد أخذه على نفسه » .

وبعدئذ أشار تيودوريك في صمت إلى الرجل الاسكتلندي كي يستوى على مقعد من المقاعد المنخفضة ، بينما جلس شيركوه — كما يجلس بنو قومه — على حشية من الحصير ، وعندئذ رفع الراهب بكلتا يديه كأنه يبارك الطعام الذي قدمه إلى ضيفيه ، وشرعا يأكلان في صمت عميق كصمت المضيف ، وكان هذا الجدد الخيم فوق المكان أمرا طبيعيا للرجل العربي ، فلبث صامتا ، وحذا المسيحي حذوه ، ولكنه أخذ يفكر في هذا الموقف الشاذ الذي انتهى إليه ، وفي التباين الشاسع بين تيودوريك ، لما التقيا به أول الأمر ، وهو كالوحش يلوح بالإشارة من شدة الغضب ، على الصرخات ، عتيف الحركات ، وبينه الآن ، وهو يقوم بواجب الجود والضيافة في ثبات وحزم ، وقورا كريم الوفاة .

وفرغا من تناول الطعام ، ولم يتبلغ الناسك بلقمة ، وأخذ يزيل الفتات من المائدة ، ثم وضع أمام العربي إبريقا من شراب سائع ، وخص الاسكتلندي بزجاجة من النبيذ .

وشق صمته بهذا الخطاب : « اشربا ، ابني » ، فان لنا أن نستمتع بنعم الله ما دمتا له ذا كرين » .

ولما أتم حديثه أوى إلى الكهف الخارجى كى يؤدى صلاته لله ، وخلف ضيفيه معا فى الغرفة الداخلية ؛ وحينئذ أخذ السر كنث يحاول بمختلف الأسئلة أن يستخلص من الأمير شيركوه كل ما يعرف عن مضيفه ، ولم يكن فى استجوابه هذا مدفوعا بحب التطلع غصب ، إذ كان عسيرا على السر كنث أن يلائم بين الراهب فى تهور خلقه حينما بدا لها بادی الأمر ، وبينه وهو فى تواضعه وسكونه من بعد ، ومحال عليه أن يوفق بين ذلك وبين ما كان يعلم من قبل مما لهذا الراهب من المكانة المالية فى قلوب الكثير من رجال الدين المستنيرين فى العالم المسيحى ، فلقد كان تيودوريك راهب عين جده — كما عرفه السر كنث — يرأس البابوات وجامع الدين ، ويصف لهم فى رسائله ، فى بلاغة وحماسة ، ما كان يصيب به الكافرون المسيحيين اللاتين فى الأرض المقدسة من ألوان من الشقاء لا تكاد تقل شدة عما كان يوقعه بطرس الناسك فى مجمع « كليرمنت » حينما كان يبشر بالحرب الصليبية الأولى ؛ فلما رأى الفارس المسيحى من تيودوريك — وهو ذلك الرجل الوقور ، وذلك الشخص المبجل — من حركات الجنون ما لا يليق إلا « بفقر » مخبول ، تردد قبل أن تصح عزيمته على أن يبلغه تلك الأمور الهامة التى حملها إياه جماعة من قواد الحرب الصليبية .

وكان من أولى الأغراض التى أتى من أجلها السر كنث حاجا ، سالكا طريقا غير مطروقة ، أن يبلغ الناسك ما حل من رسائل ، ولكن ما شاهده فى ذلك المساء دفعه إلى الصمت والتبصر قبل أن يبوح بما عهد إليه ؛ ولم يستخلص من الأمير كثيرا من الحقائق ، ومجمل ما قال العربى إن الناسك — كما روى له — كان فى يوم من الأيام جنديا شجاعا جسورا ، حكما فى مشورته ، ومجدودا فى ساحات القتال ؛ وأنه ( أى العربى ) آمن بذلك لما شاهد من القوة الباردة والحركة الخفيفة يديهما الناسك فى كثير من الأحيان ، وقال : « إنه لم يظهر فى بيت

المقدس في شخص حاج ، وإنما في شخص رجل وقف بقية العمر للإقامة بالأرض المقدسة ، وبعد زمن وحيز استقر به المقام وسط تلك المجهول المهجورة التي أُلْفِيا بها ، وأن اللاتين يجعلونه لشدة إخلاصه لربه ، كما يحترمه الترك والعرب لما يبدو عليه من أعراض الجنون التي ينسبون لها إلى الوحي ، وهم الذين أطلقوا عليه اسم (هاماكو) وهي كلمة تركية تدل على هذه الصفات ، وقد تحير شيركوه نفسه كيف يقدر مضيقه ، فقد كان — كما قال — رجلاً حكماً ، يستطيع حيناً أن يلقى دروساً في القضية والحكمة ساعات متواصلة دون أن يزل ولو قليلاً ، وحيناً آخر تراه متوحشاً عنيفاً ؛ ولكنه لم يشاهده قط من قبل شديد الميل لفعل الشر كما بدا لهما في ذلك اليوم ؛ وأشد ما كان يثير غضبه إهانة تلحق بدينه ، ومما يروى عنه أن جماعة من العرب الرحل اعتدوا عليه في الصلاة ، وشوهوا له ظاهر مذهبهم ، فهاجمهم وقضى عليهم بسوطه القصير الذي كان يحمله عوضاً عن كل سلاح آخر . وقد أثار هذا الحادث ضجيجاً قوياً ، وباتت القبائل الجواله تحشى من الناسك وقع مطرقة الحديدية ، كما تنظر إليه (كهاماكو) ، فأصبحوا يحترمون مسكنه ومعبده ؛ وقد اتسع مدى صيته حتى إن صلاح الدين أصدر أمراً خاصاً بحمايته والتخلي عنه ، وقد أتى بنفسه أكثر من مرة ، مع غيره من كبار المسلمين ، زائرًا للغار ، مدفوعين بحب التطلع من ناحية ، ومرتقبين من ناحية أخرى ، من رجل عليم كهاماكو المسيحي أن ينفذ ببصيرته في غياهب النيب ؛ ثم استطرد العربي قائلاً : « وكان له مرصد عظيم الارتفاع ، يرقب منه نجوم السماء وكواكبها ، وهي التي بحركاتها وتأثيرها ، تسير كل ما يقع للانسان من أحداث ، وتعيننا على التنبؤ ، وذلك من عقائد المسيحيين والمسلمين على السواء » .

هذه خلاصة ما كان يعلم الأمير شيركوه عن الناسك ، سمعها السر كنث فدخلته الريبة في طبيعة الجنون الذي تلبس به الراهب : هل هو من فرط حمي الحماسة تنتابه الحين بعد الآخر ، أو هو وهم يشكفه كي يفيد من حصائته ، وعلى أي الحالين ، يظهر أن المسلمين قد بالغوا في اجترامه مبالغة شديدة رغم عداوته



«الصريحة لما يعتقدون ، وظن السركنث كذلك أن بين العربي والناسك تعارفاً وقرباً أكثر مما كان العربي بكلماته يريد على أن يعتقد ، ولم يفته أن الناسك كان يدعو العربي باسم يختلف عما ادعى هذا لنفسه ؛ هذه الظروف جميعاً أوحث إلى السركنث بالحرص ، بل وبالشك ، فعزم على أن يقرب مضيفه عن كذب وأن لا يتعجل بإبلاغه الرسالة الهامة التي وكلت إليه .

فقال : « حذار أيها العربي ! إنني يخيل لي أن مضيفنا يسبح بخياله في الأسماء كما يسبح في غيرها من أمور ، أليس اسمك شيركوه ، وقد ناداك الآن باسم آخر ؟ » .

فأجاب الكردى : « كان اسمي في خباء أبي « الضريم » وما زال الكثير يناديني بهذا الاسم ؛ أما في ساحة الوغى وبين الجنود ، فأنا أعرف (بأسد الجبل) ، وهو اسم أكسبنيه حسامى الباتر ، ولكن صه الآن يا صاح ، فإني أرى هاماكو مقبلاً يدعونا إلى الراحة ، وأنا أعرف عادته ، وهى أن لا يرقبه أحد وهو ساهر على ذكر الله » .

وأتتدخل الناسك ومثل أمامهما ، ويداه على صدره ، ثم قال بصوت وقور « الحمد لله الذى جعل الليل لباساً ، وجعل النهار معاشاً ؛ وجعل لنا فى هدأة النوم راحة للجسم النهوك ، وطمأنينة للنفس المضطربة » .

فرد عليه المحاربان معاً وقالوا : « اللهم آمين » ثم نهضا من المائدة وتأهباً لأن يأويا إلى فراشهما ، وقد أشار إليه مضيفهما بيده ، ثم ترك الفرقة ثانية بعد أن سحياهما معاً .

وحينئذ جرد فارس النمر نفسه من سلاحه الثقيل ، وقد أخذ زميله العربي يماونه برفق فى خلع درعه وحل أربطته ، حتى لم يعد يستتر إلا برداء ضيق من جلد الغزال ، كان الفرسان ورجال الحرب يلبسونه تحت السلاح ، وإذا كان العربي قد أعجب بقوة نده — وهو مسلح بالحديد — فهو الآن أشد إعجاباً بدة التناسق

البادية في جسمه المروق المقتول المضل ؛ وكأن الفارس بدوره قد أراد أن يرد  
الجيل بالجيل ، فديد المعونة إلى العربي يمينه على خلع ما تدثر به من لباس حتى  
يستطيع أن ينام وهو طليق الجسم ، ولشد ما كانت دهشته إذ رأى أطرافا رقيقة  
وجسما نحिला ، لا يتفق وما أبدى صاحبه من بأس في النزال .

وقبل أن يأوى الفارسان إلى الفراش توجهوا إلى الله بالصلاة ؛ أما المسلم فيصلي  
شطر « القبلة » وهي المركز الذي يتوجه إليه أتباع محمد في الصلاة ، وتتم بالدعاء  
— بينما انسلخ المسيحي من المكان — وقد تدنس بجوار صاحبه الملحد<sup>(١)</sup> ونصب  
حساما ضخما ، له يد على هيئة الصليب ، جعل منه رمزاً للخلاص ، وسجد أمامه  
وأخذ يدعو الله بقلب خاشع ، زاده خشوعا ذكرى الفياقي التي شق عبايها ،  
والمخاطر التي نجا منها أثناء النهار ؛ وسرعان ما غلب على صاحبتنا النعاس ، وقد  
رقد كل منهما على سرير من الحطب ، منهوكا من تعب الرحيل وشدة الإعياء .

---

(١) هذا ما كان يراه السركنت في زميله العربي .

## الفصل الرابع

لم يدر السر كنث الاسكتلندي كم لبث غارقاً في سبات عميق ، حيناً أحس بضغط على صدره ، فثاب إلى يقظته ، وقد ظن ذلك الضغط أول الأمر أضغاث أحلام بصارع فيها خصماً قوياً ، ثم تنهت حواسه أخيراً ، وكاد أن يسأل : « من هنا ؟ » حيناً فتح عينيه فشهد شبح الناسك ، وحشي المظهر ، مقترس النظرات — كما وصفنا — ما ثلاً بجانبه ، وقد ضغط يميناه على صدره ، وأمسك ييسراه مصباحاً صغيراً من الفضة .

رفع الفارس عينيه مذهولاً وهو مستلق على ظهره ، فقال الناسك : « مه ! إنني أريد أن أحدثك حديثاً لا يسمعه هذا السلم » .  
وتكلم بالفرنسية ولم يلجأ إلى اللغة الفرنسية ، وهي مزيج من لهجات الشرق والغرب كانت حتى ذلك الحين وسيلة التفاهم بينهما .  
ثم استأنف الحديث وقال : « أنهض وارثد عباءتك ولا تنبس ببنت شفة وخفف الوطأ واتبعني » .

فنهض السر كنث وامتشق حسامه .  
ثم همس الناسك في أذنه وقال : « دع هذا ، إنما نحن ذاهبون إلى حيث سلاح الروح يفنيك عن الشيء الكثير ، وما هذه الأسلحة الساذجة إلا قصب وقشور هشة » .

فطرح الفارس حسامه إلى جوار سريره حيث كان من قبل ، وتأهب لمراقبة مضيقه غريب الأطوار ، ولم يتسلح بغير خنجره الذي لم يفارقه طوال مسيره في هذه البلاد المحفوفة بالآخطار .

وحينئذ تقدم الناسك إلى الأمام على مهل ، والفارس يتبعه ، وما زالت تساوره الظنون ، ويخشى أن يكون الشبح المظلم ، الذي يتسلل أمامه كي يهديه

الطريق ، ما هو إلا من خلق الأحلام المزججة ، ثم مرّاً بالفرقة الخارجية ، وكأنهما ظل يتحرك ، فلم يزججا الأمير المسلم — وقد ظل مستلقيا غارقا في سباته — وبلغا الصليب والمذبح في الفرقة الخارجية ، وكان أمامهما مصباح ما فتئ يتحرك ، وإلى جواره كتاب من كتب الدعوات الدينية ، وعلى الأرض سوط أو ألحوب للتوبة مفتول من الجبال والأسلاك الدقيقة ، خيوطه ملطخة بدم لم يجف ، دليلا قاطعا على صرامة الناسك على نفسه في توبته ؛ وهنا خر تيودوريك راكعا ، وأشار إلى الفارس أن يتخذ لنفسه مكانا إلى جواره فوق الرناد المذهب ، وكأنه إنما ألقى هناك كي يبلغ العسر أشده حينما يتأهب الراهب للتوجه إلى الله بالدعاء ، ثم قرأ كثيرا من دعوات الكنيسة الكاثوليكية ، وأخذ يترنم في صوت خافت ، تمازجه نغمات الجذ ، بثلاثة من مزامير التوبة ، وقد اختلط ترنيمه بالتأوه والدموع ، وتهدج صوته بالبكاء المرير ، وكان في ذلك شاهد على شدة تأثره بالشعر الديني الذي كان يرتله ، وحينئذ دب في قلب الفارس الاسكتلندي إخلاص عميق من أثر هذه الحركات في تنسك الراهب ، وأخذت ظنونه في مضيفه إذ ذاك تتحول وتبدل ، حتى أوشك أن يعتقد فيه القداسة من قسوته في التوبة ، وإخلاصه في الصلاة ؛ ولما هبا من صلاتهما وقف أمامه إجلالا له ، كأنه طالب أمام أستاذ وقور ؛ أما الناسك فقد لزم الصمت واسترسل للفكر بضع لحظات ، ثم قال ، وقد أشار إلى ركن بعيد من أركان الكهف : « قش في تلك الفجوة يا بني تجمد حجابا . هاته هنا » .

فانصاع الفارس وألقى الحجاب المطلوب في فرجة ضيقة قدت في الحائط ، واستترت يباب من أغصان الصفصاف المجدولة ، ولما ألقى به إلى الضياء ألقاه عرقا وملطخا في بعض أتحائه بمادة سوداء ، ثم تفرسه الناسك بماطفة قوية مكبوتة ، واضطر أن ينفس عن مشاعره بأنة من الأعماق قبل أن يتحدث إلى الفارس الاسكتلندي .

وأخيرا قال : « عما قريب تشهد أغني ما ملكت الأرض من كنوز ؛ يا ويلتي !

إن عيني غير جديرتين بالنظر إليه ! يا حصرتي ! إنما أنا مرشد حقير وضيع ، ليس لي إلا أن أهدي السافر التهوك إلى موئل الدعة والراحة ، وأن أظل أبدا طريد الديار ؛ عبثا أفر إلى حنايا الصخور ، أو إلى قلب الصحراء المجردة ؛ لقد عثر في خصبي وطاردني إلى حصني رغم تنكري له ! »

وسكت هنيهة ثم التفت إلى الفارس الاسكتلندي وقال في صوت أشد ثباتا في نغمه : « هل أتيتني بتحية من رتشارد ملك إنجلترا . »

فأجاب الفارس : « إنما أتيت من مجمع الأمراء المسيحيين ، وأما ملك إنجلترا فلم أتشرف بأن أثمر لجلالته ، فهو عن ذلك راغب . »  
فأجابه الناسك وقال : « هات دليلك » .

فتردد السر كنث ، واندفعت توا إلى رأسه الشكوك التي ساورتها من قبل ، وتذكر أمارات الجنون التي بدت على الراهب آنفا ، ولكن كيف له أن يرتاب في رجل له هذه القداسة في مسلكه ؟ وأخيرا قال : « جوازي هذه الكلمة : الملوك يتوسلون إلى المتسولة » .

ثم سكت ورد الناسك قائلا : « لقد أصبت ، وإنني لأعرفك حق المعرفة ، ولكنني قائم على أمر هام ؛ والحارس في حراسته يتحدى الصديق كما يتحدى العدو » .

ثم سار قدما والمصباح في يده ، وتقدم قصد الغرفة التي خلفها ، والعربي ما يزال راقدًا في سريره ، غارقًا في نومه ، فوقف الناسك إلى جواره ورمقه بنظرة ثم قال : « إنه ينام في الظلام ويجب أن لا يستيقظ » .

وكان الأمير في رقدته يوحى إلى الرأي أنه حقا في سبات عميق ، فقد استلقى متجها نحو الحائط بنصف وجهه ، وإحدى ذراعيه ممتدة عبر جسمه ، وقد حجب أكثر وجهه بكفه الراسع الطويل ، ولكن جبينه المالى ما زال باديا ، وسكنت عروقه التي كانت دائمة التدفق وهو في يقظته ، وأضحي وجهه كالمرمر الأسود ، وأهداب جفونه الطويلة الناعمة كالحرير تنطبق على أعين نافذة كميون الصقر ،

ويده مبسوطة مسترخية ، وأنفاسه عميقة هادئة تتوالى فى انتظام ؛ وكل ذلك دليل على سبات عميق ، وما كان أعجب تلك الجماعة التى تتألف من هذا النائم وذئب الشبحين الطويلين ، أحدهما الناسك مرتديا جلد العنز المشعث ويده المصباح ، والآخر الفارس فى ستره ضيقة من الجلد ، وعلى وجه الناسك أماراة قوية من اكنتاب التقشف ، وأما الفارس فقد انطبعت طلعة المشوق على ملامحه المسترجلة انطبعا قويا .

وقال الناسك بنغم خافت كالذى كان من قبل : « إنه فى نوم عميق » ثم ردد هذه الكلمات ، ولكنه لم يقصد بها هذه المرة إلى معناها اللفظى ، وإنما كان يرى إلى معنى مجازى ، قال : « إنه ينام فى الظلام ، ولكن عما قريب يطالعه الفجر — أيها (الضريم) ! ما أشبه أحلام يقطتك فى عبثها وتوحشها بالرؤى التى ترقص مترنحة فى خيالك وأنت نائم ، ولكن عما قريب تدق الطبول وتبديد الأحلام » . وهكذا أتم الناسك حديثه وأشار إلى الفارس أن يتبعه ، ثم سار نحو المذبح ومر وراءه وضغط على زنبرك ، فانفرج — دون ضجيج — عن باب صغير من الحديد شق فى قلب الكهف ، ويكاد لا يلحظه البصر بنير الإيمعان الدقيق ، وقبل أن يجسر الراهب على فتح الباب على مصراعيه صب على مفاصله من المصباح قليلا من الزيت ، ولما افتتح الباب الحديدى أخيراً بأكمله ، انكشف للرأى سلم صغير نحت فى الصخر .

وهنا قال الناسك فى صوت حزين : « خذ هذا القناع من يدي واحجب به عينى فليس لى أن أشهد الكنز الذى سوف تقع عليه عيناك عما قريب ، وإلا كان إثمنا منى وعدوانا » .

ولم يجبه الفارس بكلمة وإنما أسرع إليه وكم رأسه بالحجاب ، ثم شرع الناسك يصعد السلم ، وكأنه رجل تعود الطريق بحيث لا يحتاج إلى ضياء ، ولكنه كان يحسك بالمصباح للاسكتلندى الذى تابع خطاه على الدرج متسلقا ذلك المصعد الضيق ، وأخيراً بلغا بهوا صغيراً ليس له هيئة منظمة ، ينتهى الدرج إلى أحد

أركانها ، ويرى في ركن آخر درج آخر يقابله ويستأنف صعوده ، وفي زاوية ثالثة باب قوطى يتجمل جمالا ساذجا بما تتميز به عادة العمد والصخور المنحوتة ويحتمى بباب صغير اشتبكت فيه قضبان الحديد ودقت فيه المسامير ، وقد قصد الناسك إلى هذا المكان الأخير ، وكلما اقترب منه تثرى في خطاه .

ثم قال لرفيقه : « اخلع نعليك فإن الأرض التي تطؤها أرض مقدسة ، واطرد من دخيلة قلبك كل فكر أو شهوة دنسة ، فإنه كفر ما بعده كفر أن تضم إلى صدرك مثل هذه الرغبات في هذا المكان » .

فصعد الفارس بما أمر ، وخلع نعليه ، ووقف الناسك حينذاك وكأنه قد أرسل الروح في صلاة صامته ، ثم تحرك ثانية وأمر الفارس أن يقرع الباب الصغير ثلاثا ، ففعل الرجل ، وخيل للسر كنث أن الباب قد انفتح من تلقائه ، إذ لم تقع عينه على أحد ، وهب على حواسه تيار من ضياء قى يخطف البصر ، وشذى عبق قوى يأخذ بمجامع الحس ، فرجع القهقري خطوتين أو ثلاثا ، ولم تمض دقيقة حتى أحس بالتغير المفاجئ من ظلام إلى ضياء يكاد من شدته يهر البصر ويهد القوى .

ثم دخل الغرفة التي كان يخرج منها هذا الضياء البراق ، ورأى أن النور كان يشع من مجموعة من المصابيح الفضية ، تشتعل بزيت تقي ، وتشر أنفاس المطور ، معلقة بسلاسل من الفضة بسقف كنيسة صغيرة قوطية شقت — كأكثر أرجاء دار الناسك الفريدة — في الصخر المصمت الصلب ؛ وبينما كانت الصخور في كل مكان آخر وقع عليه بصر السر كنث تدل على أن يد الإنسان لم تمتد إليها إلا بتسوية خشنة ساذجة ، كانت هذه الكنيسة تشهد بأن الإنسان قد استخدم فيها أقدر المختصين بفن البناء بأزاييلهم وكل مبتكر من فهم ، فلقد كانت السقوف ذات الأضلاع المتصالبة ترتكز على ستة أعمدة في كل جانب ، نقشت بمهارة نادرة ، والقباب المقعرة تتقاطع في جمال متنسق ، وكل شيء يدل على انسجام تام في الفن وملاءمة لروح العصر ، ويقابل صف الأعمدة على كلا الجانبين فجوات ست بديعة

الصنع ، في كل منها تمثال لواحد من الرسل الاثني عشر .  
وأقيم مذبح الكنيسة في طرفها الأعلى ناحية الشرق ، وإلى ورائه ستار نفيس .  
من الحرير الفارسي مزركش بالذهب الكثير ، ويحجب مكانا خفيا لا شك في  
أنه يحتوي على تمثال أو أثر له قدسية غير مألوفة ، وقد أقيم هذا المعبد الفريد تمجيدا  
له ؛ وتوهم الفارس ذلك ، فتقدم إلى الضريح وركع أمامه ، وردد دعاءه بجمارة من  
القلب ؛ وإذا هو كذلك ، إذا بالستار يرتفع بفتة ، أو لعله جذب إلى أحد الجانبين ،  
فاضطرب الفارس في انتباهه ، ولم يركف ارتفع الستار ، أو من ذا الذي أزاحه ،  
ولكنه رأى في المكان الذي انكشف خزانة من الفضة والأبنوس لها باب مزدوج ،  
وكل شيء صنع على غمار كنيسة قوطية .

تطلع الفارس إلى الضريح بشوق قلق ، وإذا بالباب المزدوج ينفرج ويكشف  
عن كتلة من الخشب نقش عليها هذه الكلمات « الصليب الحق » . وفي تلك  
الآونة كانت بطانة من النساء ترتل نشيد (المجد لله) ؛ وفي اللحظة التي انقطع فيها  
الفناء ، أغلق الضريح وأرخی السجاف ثانية ، وكان الفارس — وقد ركع لدى  
المذبح — يستطيع أن يواصل دعاءه دون اضطراب تمجيدا للأثر المقدس الذي يجلي  
لبصره منذ حين ، وقد فعل ذلك تحت تأثير عظيم ، يحس به كل من رأى بيمين رأسه .  
شاهدا قويا على صدق دينه ، واختتم صلاته ، ثم هب وقد تشجع على أن يبحث  
حواليه عن الراهب الذي أتى به إلى هذا المكان المقدس المسحور ، فوقعت عليه  
عينه وما فتئ رأسه مكما بالقناع الذي كان قد لفه بنفسه حوله ، واستلقى كالكلب .  
الدليل لدى باب الكنيسة ، ولكنه لم يجسر على وطئها ؛ وقد كان في ذلك الوضع  
الذي اتخذته دلالة قوية على مقدار قداسته ، وعلى توبته وندمه ، فقد استلقى كرجل  
آدم عبء فادح من إحساس باطن عميق ، فخر طريق الأرض مغلوبا على أمره ،  
وخيل للاسكتلندي أن الرجل ينيته القوية وروحه المشتعل ، لن ينكب على  
وجهه إلا إذا غلبه إحساس عميق بالتوبة والندم والخضوع .

فاقترب منه وكأنه يريد أن يتحدث إليه ، ولكن الناسك أدرك مرماه ،



فتمتم في صوت محتق من خلف الوثاق الذي كان يكتم رأسه ، فرنت نبراته وكأنها صوت ينبعث من جثة هامدة في كفن وقال : « انتظر ، فالشهد لا ينته ، ولتسعد بمرآه » ثم نهض من فوق الأرض ، وتقهقر من لدى المدخل حيث كان منكبا على وجهه ، وأغلق باب الكنيسة ، الذي كان يحكمه من الداخل مزلاج حلزوى كان له صرير رن صدهاء في أرجاء المكان ، وهذا الباب لا يختلف في ظاهره عن الصخر ذاته الذي شق فيه الكهف ، حتى إن كنت لم يكذبين أن هناك منفذا ، وأصبح الآن وحيداً في الكنيسة المضادة التي كان بداخلها الأثر الذي أدى له واجب الطاعة منذ حين ، ولا سلاح له غير خنجره ، ولا رفيق غير فكر ديني يخالجه ، وشجاعة لا تعرف الخوف تملكه .

ولم يدرك السر كنت ماذا عسى أن يقع بعد ذلك من حدث ، وإنما اعترم أن يتابع مسير الحوادث ، فضرب في أرجاء هذه الكنيسة المهجورة ، حتى أوشكت الديكة أن تصيح عند منبثق الصباح ، وفي ذلك الزمن الموات ، حيناً يمانق الليل النهار ، رن في أذن السركنت صوت لم يتبين مآناه ، صوت يشبه رنين جرس صغير من الفضة ، يدق حين يهب مضيفه من مرقدته كي يقيم الصلاة أو يقدم القربان — على حد تعبيره — ، ولقد جعلت ظروف الزمان والمكان ذلك الصوت جد جليل ، فأنكمش الفارس — رغم جرأته — إلى أقصى أركان المبد في الطرف المقابل للمذبح كي يقرب بغير اضطراب ما قد ينجم عن ذلك النذر .

ولم يلبث طويلاً حتى أزعج الستار الحريري ثانية ، ومثل الأثر لعينيه من جديد ، فخر على ركبتيه إجلالاً واستمع إلى أصوات نسوية ترتل نشيداً أو ترسل دعاء الكنيسة الكاثوليكية مبكرة ، وقد تألفت في الأداء كما تألفت في الصلاة الأولى ، وسرعان ما أدرك الفارس أن الأصوات لم تعد تنبعث من مكان ثابت ، وإنما كانت تدنو من الكنيسة وتعلو رويداً رويداً ، وإذا يباب في الجانب الآخر من البهو ينفتح ثم يوصد فلا يظهر له أثر ، كذلك الباب الذي دخل منه ، فتجد بذلك أنغام المراتلات فمسحة ترن فيها ، ثم ترددها قباب السقف ذات الضلوع .

وحينئذ صوب الفارس بصره نحو الباب ، وأنفاسه تكاد تنقطع من شدة  
 الملح ، ولكنه ظل راكما على هيئة المصل ، وهي الهيئة التي كان يتطلبها هذا  
 المكان وذلك المشهد ، ثم أخذ يتقرب ماذا عسى أن ينتهي إليه ذلك الإعداد ،  
 وإذا بموكب يتراءى له ، وقد أوشك أن يلج من الباب ، يتقدمه ولدان أربعة ،  
 عليهم سيا الجمال ، مخرمى الأذرع والرقاب والسوق ، فبدأ منهم ذلك اللون البرزى  
 — لون أهل الشرق — تقابله قص قصيرة فاصمة البياض ، كانوا يرتدونها وهم  
 مقبلون على المبد مثنى مثنى ، وقد حمل الاثنان المتقدمان ميخرتين لو حاهما عينة  
 ويسرة ، فانتشر في الكنيسة عبق على العبق الذى كان من قبل يفعمها ، ثم أقبل  
 الاثنان الآخران ينثران الزهور .

وعلى أثر هؤلاء أقبلت النساء اللائى كن يرتلن متتابعات على خير نظام وأحسن  
 ترتيب ، وكنت ستا ، يرتدين على أكتافهن أردية سودا ، ويتحجبين فوق ملابسهن  
 البيض بسُر قاتمة ، فدللن بأزيائهن على أنهن راهبات محترفات ، يتيمن دير  
 « جبل كرمل » ويشبهن الكثيرات غيرهن ، اللائى يفصحن بأفتمهن البيض  
 على أنهن حديثات التره ، أو زائرات للدير عارضات ، لا يربطن به عهد  
 أو ميثاق ، وقد أمسك السابقات منهن فى أيديهن بالساج الكبيرة ، ولحق بهن  
 الصغريات ، رشيقات القد ، ومع كل واحدة منهن إكليل من الزهر الأبيض  
 والأحمر ، ثم سرن جميعا فى حفل يطوقن بالمبد ، ولم يبد عليهن أنهن قد أعرن  
 كنث أدنى الثفات ، رغم أنهن ممدن إلى جواره حتى كادت ملابسهن أن تمسه ،  
 وإذ هن يتننن ، لم يشك الفارس فى أنه إنما كان فى دير من الأديرة التى كان الفتيات  
 المسيحيات النبيلات فى الزمن الماضى يقفن أنفسهن صراحة لخدمة الكنيسة  
 فيها ، وقد اضطر أكثرهن لأن ينقطعن مذأعاد السلمون فتح فلسطين ، ولكن  
 كثيرات منهن اشتترن الإغضاء عنهن بالهدايا ، أو لحقتهن رأفة الظافرين  
 أو احتقارهم لشأنهن ، فبقين دون أذى ، وواصلن فى الخفاء مراعاة الطقوس التى  
 كانت لزاما عليهن بما أخذن على أنفسهن من عهود ، وكان كنث يعلم ذلك ، ولكن

رهبة المكان والزمان ، والدهشة التي استولت عليه من مباغته أولئك الراهبات ، بظهورهن ومسيرهن إلى جواره وكأُنهن أطيان الخيال — كل ذلك كان له على خياله تأثير تفسر عليه معه أن يعتقد أن ذلك الموكب الجليل الذي وقعت عليه عينه كان يتألف من مخلوقات من هذه الدنيا ، فما كان أشبهن بزتل من كائنات من غير هذا الوجود أتت بالولاء لله المعبود من كل الوجود .

هذا أول ما خطر للفارس لما أن مر به موكب النسوة ، وقد كدن أن يتقدمن بمقدار ما يقمن متحركات خصب ، حتى بدون وكأُنهن ينزلن ولا يمشين ، وقد أظهرن للعيان الضياء المقدس القائم الذي كان ينبعث من المصاييح خلال سحب البخور التي كانت تشر في الغرفة الظلام .

ولكنهن لما درن بالمعد ثانية ، ومررن بالمكان الذي كان يجثو فيه ، نزعن إحدى الفتيات اللاتي كن يرتدين القمص البيضاء — وهي تسير الهوينى إلى جواره — زهرة ورد من الإكليل الذي كان بيدها ، وسقطت الزهرة من بين أصابعها على قدم السركنث ، ولعلها سقطت منها على غير عمد ، فذعر الفارس كأن سهما قد أصابه فجأة ، وذلك لأن الإنسان إذا أرفح حسه وكان عقله في ارتقاب ، كان أنفه الأحداث — إذا وقع على غير انتظار — وقوداً لنار الفكر التي يؤججها الخيال ، ولكن الفارس أخذ عاطفته إذ أدرك أن أمراً كهذا لا يؤبه له ما أسره أن يحدث ، وأنه لولا أن المرتلات كن يسرن في حركة متكررة مملولة لما كان له أثر يذكر .

ورغم ذلك فقد تابع السركنث بفكره وبصره واحدة دون سواها من بين أولئك الراهبات الصغيرات ، وهن يحطن بموكبهن المبدثة ، وتلك هي التي أسقطت زهرة الورد من يدها ، ولكنها كانت في خطوها ووجهها وقوامها على شبه تام بغيرها من الفتيات حتى تسر على السركنث أن يلحظ أقل إشارة من مميزاتها الخاصة ، ومع ذلك فقد أخذ قلبه يرفرف ، كطير حبيس في قفس يريد أن ينطلق ، وكأُنه يؤكد له بإيجاء ميوله أن الفتاة التي تسير عن يمين الصف

الثاني بين الراهبات أقرب إلى قلبه من كل من عداها من الحاضرات ، بل ومن كل بنات الجنس اللطيف قاطبة ، وتراعى قواعد الفروسية ، بل وتحتم على الفارس ، أن يوثق الروابط بين عاطفة الحب الشعرية ، وشعور الإخلاص لله ، الذى لا يقل خيالاً وشعراً عن عاطفة الحب نفسها ، وهما إخصاسان يقوى أحدهما الآخر ولا يتمازجان ، ولذا فقد كان السركنت ، ببارقة من الأمل يمازجها إحساس ديني وعاطفة حارة تهزه من قلبه إلى أطراف أنامله ، يرتقب لحظة ثانية من تلك التى توهم بكل نفسه أنها جادت عليه بلحمة الرضا مرة من قبل ؛ وأنهم موكب الفتيات دورة ثالثة حول المبدى فى زمن وجيز ، ولكنه كان للسركنت دهرها غملاً ؛ وأخيراً دنامنه ذلك الشبح الذى كان يرقبه بعين لا تنى ، ولم يكن ثمة فارق بين هذا الجسم المتلفع بالثياب وبين غيره — وقد كن جميعاً يسرن مرئلات فى صوت واحد مؤتلف النغم — حتى مرت بالصليبي الجاثى على ركبتيه مرة ثالثة واستلت من ثنايا ثوبها الحريرى طرفاً من يد دقيقة متناسقة ، تدل ببراعة جمالها دلالة قوية على كمال التناسق فى جسم صاحبها ؛ وبهذه اليد التى انسرفت ، كما ينسرق شعاع القمر من سحب كاشها المهن المنفوش فى ليلة صائفة ، رمت ثانية زهرة ورد على قدمى فارس النمر .

وليس من شك فى أن الإيماء لم يكن هذه المرة عارضا ، أو جاء مصادفة واتفاقاً ؛ وما كان أشبه تلك اليد النسوية الجميلة ، التى لم بيد غير نصفها ، بيد مد إليها بالتقبيل شفتيه يوما ، وهو يقسم بقلبه عينا الإخلاص والولاء لصاحبة اليد المعشوقة ؛ وهل يحتاج السركنت إلى دليل آخر ؟ وذلك هو الخاتم الياقوتى منقطع النظير يتألق على إصبع ناصع البياض كالجليد ، إصبع لو أشارت به صاحبه أدنى إشارة لكان لهذه الإشارة فى عين السركنت قدر يفوق ما للياقوة التى لا تقدر بضمن ؛ وهذا وقد استطاع الفارس ، رغم أن الفتاة كانت مقنعة ، أن يرى إما مصادفة ، أو متأماً منها ، ذؤابة من فرعها الفاحم ، كل شعرة من شعراتها أنفوس لديه مائة مرة من سلسلة من الذهب الخالص . إذن لقد كانت فتاته التى هوى !

ولكن أننى لما أن تطرق هذا المكان ، هذه الصحراء المغفرة النائية ، بين أولئك  
المنازى اللأى أتمدن الجاهل والكهوف لمن موئلا كي يستطعن أن يؤدين فى  
الخفاء طقوسا مسيحية لا يجروئن على أدائها علانية وجهرا ؟ أحقا وصدقا مايرى ؟  
إنه لا يستطيع التصديق ، إنه لا ريب فى حلم من الأحلام وغاشية خداعة من  
غواشي الخيال ؛ وبينما كانت هذه الخواطر تساور السر كنه ، إذا بالمسك الذى  
زلف منه الفتيات حين دخلن المبد يتلقاهن ثانية عائذات ؛ وأخذ النلمان الصنار  
والراهبات المكتنبات ينسلون من الباب المفتوح ، ويحتفون واحدا بعد الآخر ،  
وأخيرا توارت كذلك تلك التى ألمت إليه مرتين ، وهى إذ تتوارى التفتت الفتاة  
خفيفة بادية صوب المكان الذى لبث فيه السر كنهت راسخا كالصنم ، وقد رأى  
فتاعها وهو يرفوف لآخر مرة -- إذن لقد غابت عن عينيه ، وحينئذ أحاط بروحه  
ظلام دامس لا يقل حلوكة عن ذلك الظلام الذى غشى آتئذ ظاهر حواسه ، إذ  
لم تكده تعبر أخرى المراتل عتبة الباب حتى أوصد الباب بصوت مرتفع ، وفى  
هذه اللحظة عينها سككت الغنيات عن الترتيل وأطقت فى الحين أضواء المبد ،  
ولبت السر كنهت وحيدا فى ذلك الظلام الشامل ، ولكن العزلة والظلام وغموض  
الموقف المبهم الذى آل إليه ، كل ذلك لم يكن للسر كنهت شيئا مذكورا ، فلم  
يشغل به الفكر ولم يعبأ به ، ولم يكن ليأبه إلا لشيء واحد فى هذا الوجود ،  
وذلك هو المشهد الذى مرق منذ حين وانسل من جواره ، وما منحتة الفتاة من  
علامات الرضا ، فأخذ يتحسس فى الظلام فوق الأديم ، لعله يثر على الزهور التى  
سقطت من يدها ، ثم يضم إحداها أو جميعها إلى شفثيه مرة وإلى صدره أخرى ،  
ثم يلمص شفثيه بكل صخر بارد تحدثه نفسه أنها وطئته بقدمها ، ثم يقوم بكل  
عمل شاذ يوحى به الحب المبرح ويبرره لكل من أسلم نفسه للشوق ؛ وكان فى  
هذا كله دليل على حرارة الحب ، دليل معروف منذ الأزل ؛ ولكن من العجيب  
فى عهود الفروسية أن الفارس ، وهو فى فرط السرور ، لا يتطرق إلى خياله أن  
يتعقب أو يتأثر عادة تعلق بها قلبه هذا التعلق الشعرى ، حتى أصبح ينظر إليها

وكأنها إلهة تمطفت فبدت هنيئة لعابد من عبادها المخلصين ، ثم آبت إلى ظلام معبدها المقدس ، أو كأنها كوكب سيار ، بالغ الأثر ، أرسل شعاع الرضا لحظة من لحظات الطالع السعيد ، ثم تدّثر ثانية في قناع من الضباب ؛ وكانت إشارات هذه الغادة التي تعلق بها قلبه كأنها تصدر عن كائن علوى يتحرك ولا رقيب عليه ولا عتيد ، إذا تبدى أغم قلبه بالسرور ، وإذا تقيب غلبه الاكتئاب والخور ، فإن رافت به بمث في الحياة ، وإن قست عليه تملكه اليأس والقنوط — كل شيء وفق ما تريد ، ليس إلى الإلحاف أو للمارضة إليها من سبيل ، وليس عليه إلا أن يتوجه إليها غلصا ، يخدمها بقلبه وبسيف الفروسية ، وليس له في الحياة إلا مرمى واحد ، هو أن ياتمر لها بما تأمر ، ويذيع في العالمين صيتها بكل ما يستطيع أن يقوم به من عمل جليل .

تلك كانت قواعد الفروسية ، وأصول الحب — وهو أسمى مبادئها — ولكن ظروفها خاصة أخرى أحاطت بالسر كنهث ، فأكسبت تعلقه بهذه الفتاة خيالا وشعرا ، ذلك أنه لم يستمع حتى لرنين صوتها ، رغم أنه كثيرا ما تأمل جمالها بقلب طروب ؛ وكانت تعيش بين جماعة ، تخول له مرتبته في سلك الفروسية أن يدنو منها ولا يخالطها ؛ وكان حتما على هذا الجندي الاسكتلندي الساكنين — رغم علو كعبه في المهارة الحربية وخطط الفروسية — أن يمدد إلهته وهو منها على بعد يكاد يبلغ في مداه تلك الهوة التي تفصل بين الفارسي والشمس التي يمدد — ولكن متى بلغ بالمرأة الخيلاء حدا تهمل معه مثل هذا الإخلاص الحار يصدر عن قلب عاشق مهما يكن وضع المقام ؟ فلقد كانت ترمقه وهو يتبارى في الطمان ، وتستمتع إلى حمامه فيما يروى كل يوم عن معارك القتال ؛ وبينما كان كل « كونت » أو « دوق » أو « لورد » يكافح كي يحظى بنظرة منها ، كانت تميل بكل قلبها نحو فارس النهر الساكنين ، الذي لم يكده يكن له غير حسام يمشقه ويؤيده مكاتته ؛ وربما كانت في حبا أول الأمر راغمة ، بل ومدفوعة بشعور غير محسوس ؛ وكانت إذا نظرت أو أصغت ، رأته وصمته ما يكفي لأن يدفع بها في ميلها هذا الذي تطرق إلى قلبها

أول الأمر على حين غرة ؛ وإذا رددت يوما أكثر السيدات احتشاما في بلاط  
انجلترا العسكرية ذكر فارس من الفرسان ، وامتدحن فيه جماله ، استثنين كنث  
الاسكتلندي ؛ وكثيرا ما كان الأمراء والأشراف يبذلون جزيل العطايا على  
المنشدين كي يتغنوا بفضائلهم ، فيتملك الشعراء روح العدل واستقلال الحكم ،  
ويضربون الأوتار إشادة بذكر رجل لا يملك خيلا ولا حلالا يخلمها عليهم جزاء  
لهم على مدحهم إياه .

بانت اللحظات التي كانت « أديث » بنت الأشراف تستمع فيها إلى الثناء .  
يكال لحبيبها كيلا أحب إلى نفسها بما كان قبل ، إذ كانت هذه اللحظات تسرى  
عن قلبها الملئ الذي كلت من مسممه ، وتمدها بموضوع جدير بالتأمل العميق ، فلقد  
كان السر كنث — باجماع الرواة — رجلا أحق بالإجلال من كل من علاه مرتبة  
أو كان أوفر منه حظا ، فأوضحت وكل انتباهها معقود بالسر كنث ، لا تفكر إلا فيه ،  
وإن تملكها الحرص ؛ وكلما أمنت في التأمل ازدادت وثوقا من ولائه لها ، وبقيناه  
أن لها فيه الفارص الذي كتب له أن يقاسمها الحياة ، سراءها وضراءها ( ومستقبل  
الأيام مظلم وخطير ) ، وأن يعقد هواه بهواها ، ذلك الهوى الذي عثرنا إليه شعراء  
العصر سلطانا شاملا ، والذي يكاد بتقاليده وفضائله يرتفع إلى حد الإخلاص لله ..  
ودعنى بمد هذا لا أستر على القراء حقيقة الأمر ، فليعلموا أن « أديث »  
كانت فتاة قرية الصلة بعرش انجلترا ، يحتم عليها كرم الأصل وعزة النفس أن  
تكتفى بالولاء والإخلاص بظهرها لها دوما ، في صمت ، فارسها الذي اختارته  
لنفسها ، ولكنها أدركت كنه ميولها — وهي ذات الميول النبيلة الشريفة —  
وعلمت أن من اللحظات ما تتحرك فيها مشاعر المرأة في نفسها ، المرأة التي تحب  
وتُحَب ، فتثور عواطفها في وجه قيود العظمة وتقاليدها ، التي كانت تحوطها  
من كل جانب ، وتنحى على حبيبها باللائمة لحياه الذي يوسوس له أن لا يحطم  
تلك القيود ؛ وإذا جاز لنا أن نعبّر بلفظ حديث قلنا إن « آتيكيت » مولدها ومكانتها  
رسم حولها دائرة سحرية ، للسر كنث أن يخفض الرأس أو يرفع البصر ما دام

بعيداً عنها ، فإن تخطاها فليس له إلا أن يمر ، كما يمر الروح إذا استدعاه الساحر العظيم وحظر عليه أن يتخطى الحدود التي رسمها بعصاه ، فبدا لها — وهي كارهة — أن تُقدم هي ، وتمد ولو طرف قدمها الدقيق ، وتخرجه عن الحد الرسوم إن أرادت أن تصيب عشيقها الحي الحجول بلحمة خفيفة من فضلها ، وتبهي له الفرصة كي يقبل رباط حذاءها ؛ ولقد كان لها في بنت ملك المجر أسوة ، إذ تعطفت على شريف من صغار الأشراف وحشته على الإقدام ، و« أدبث » وإن يكن يجري فيها دم الملوك ، إلا أنها ليست من بنات الملوك ، وليس كذلك حبیب قلبها من أبناء السوق ، فلم يقدّر في سبيلهما حاجزاً قوياً يعترض تبادل الحب بينهما ، ولكن إحساساً بالأنفة المتواضعة التي كثيراً ما تكبل الحب بسلاسل من حديد ، إحساساً نهاها — رغم علو مكانتها — عن أن تخطو هي الخطوات التي يقضي الاحتشام أن تكون دائماً من اختصاص الجنس الآخر ، وفوق هذا فإن السر كنهث فارس رقيق نبيل ، فائق التهذيب ، أو قل إن خيالها قد أوحى إليها بذلك وبث فيها شمعوراً دقيقاً بما له وما لها ، فن واجبها — مهما تملك قلبها العاطفة — أن تتقبل منه صلواته ، وهي كتمثال الآلهة التي يسلم المرء بأنها لا تحس ولا تجيب لمباذها ما يقدمون من ولاء ، أو كالوثن ، تحشى إن هي بكرت بالنزول عن قاعدتها أن ينحط شأنها في عيني عبدها المتفاني .

ولكن العابد المخلص إذا توسل إلى وثن حق ، انكشفت له من الوثن أمارات الرضا في ملائح صورته المرصية ، التي لا تلين ولا تتحرك ؛ فلا يحب إذن إذا لاحت إشارة في خفاياها معنى القبول من عين أدبث البراقة اللامعة ، أدبث بارعة الجلال ، التي كان لها في سحر سبيلها جمال يفوق جمال الاتساق والوسامة في ملائحتها ، والبريق والضياء في بشرتها ؛ ولذا بددت منها — رغم غيرتها وحذرهما — دلالات خفيفة ؛ ولولا ذلك لما تسنى للسركنث أن يعرف منها على الفور والحين ، وبغير ارتياب ، يدها الجميلة التي لم يكدها يدها منها أصبعان من تحت القناع ، ولما قر في نفسه اليقين بأن الزهرتين اللتين سقطتا متواليتين في



مكان واحد إنما كانتا إلهاماً من حبيبة قلبه . ولن نحاول هنا أن نقص كل ما أدى إلى هذا التفاهم المتبادل بين أدب وحييها من ملاحظات متوالية ، وإشارات خفية ، ونظر وتلويح ، ومؤاخذة غريزية في الحب ، فأنما نحن في ذيل العمر ، ولو تحدثنا عن رموز الحب الخفية ، تحدثنا في القدرة على ذلك شباب له عيون سريعة الملح في هذه الشؤون ؛ وحسبنا أن نقول إن هذا الحب قام بين شخصين لم يبادلا كلمة واحدة ، وكانت أدب من ناحيتها يحبس الكلام لإحساسها القوي بالصعاب والأخطار التي لم يكن بد من أن تترصها في توثيق عرى الروابط بين قلبيهما ؛ والفارس من ناحيته تساوره ألوف الشكوك والخاوف ، ويخشى أن يكون مبالغاً في تقديره للإشارات الخفيفة التي أومأت بها فتاته ، والتي كانت تتخللها — بحكم الضرورة — فترات طويلة يغلب عليها الفتور ، وتبدو في غضونها أدب قليلة الاكتراث ، وكأنها لا تلاحظ وجوده ، إما لأنها كانت تخشى أن تثير بمسلكتها تنبه الآخرين ، وتجرب بذلك على عشيقها الأخطار ، أو لأنها كانت لا تحب أن تسقط في اعتباره لشدة لهفتها على أن تملك منه قلبه .

ربما كانت هذه القصة طويلة مملولة ، ولكنها ضرورية للرواية ، وتمعينا على إيضاح ما كان بين المحبين — إن كان هذا أمراً يستحق العناية — حيناً بدت أدب على غير انتظار في المبد ، وكان لها على مشاعر الفارس هذا الأثر البليغ .

## الفصل الخامس

إذا ما ضربنا في الوادي الخيام ،  
فصبأً يحرقنا من القيد الحسن القوام .  
ولن بنا لنا « اشتاروث » أو « ترماجون » ،  
قلنا لطيفهما احزبا عن هذا المكان .  
وارتون

لبث السكون العميق والظلام الدامس ساعة وبعض ساعة يخنجان على المبدى الذى خلفنا فيه فارس النمر جائياً على ركبتيه ، تارة يتوجه إلى الله بالجدة ، وطوراً يذكر فتاته بالشكر ، اعترافاً بالنعمة التى أسبغت عليه ؛ أما سلامته ، أما نصيبه — وقد كان أبداً قليل الاكتراث بهما — فلم يعد لها الآن فى اعتباره وزن ذرة من تراب ، فهو فى جوار السيدة أدبث ، وقد جادت عليه يعض شاربات العطف ، وهو الآن فى مكان مبارك بما فيه من آثار لها أجل تقديس ، وهو بكندى مسيحي ، ومحب مخلص ، لا يخشى شيئاً ، ولا يفكر فى شيء ، إلا فى واجبه نحو السماء وفى حق فتاته عليه .

وفى الفترة التى انقضت بعد ذلك ، رنت فى أرجاء المبدى ذى القبور رنيناً قوياً جلجلة صغير كصغير صائد النزاة ، وهو ينادى الصقور ، ولم يكن هذا الصوت مما يليق بجلال المكان ، وقد ذكر السر كنث بوجوب تيقظه ، فهب من سجدته ، ومد يده إلى خنجره ، ثم سمع صرير لولب أو بكرة ، وسطع إلى أعلى نور كأنه ينبعث من فجوة فى الأرض ، وظهر للعين كأن باباً أرضياً قد ارتفع إلى أعلى أو انخفض إلى أسفل ، وفى أسرع من لمح البصر ، امتدت من الفجوة ذراع هزيلة ، بعضها عار وبعضها مدثر فى كم من الحرير الأحمر الموشى بالذهب ، ممسكة بمصباح رفقه إلى أقصى ما تستطيع أن تمتد إلى أعلى ، ثم أخذ الشبح صاحب تلك الذراع يصعد خطوة خطوة ، حتى بلغ مستوى أرض المبدى ؛ وكان لهذا المخلوق الذى

بدا الآن جسم ووجه كأنهما لقزم مروع الهيئة ، ذى رأس كبير ، عليه غطاء مزين بثلاث ريشات من ريش الطاوس زينة رائعة جميلة ، يرتدى ثوباً من الحرير النفيس الأحمر الموشى بالذهب ، مما جعل كآبة منظره أشد وضوحاً ، وتجذب العين منه أساور من ذهب تطوق معصميه وعضديه ، ويتشح بوشاح من الحرير الأبيض يعلق به خنجرأ ذا مقبض ذهبي ؛ ويحمل هذا الرجل ذو الهيئة العجيبة يسراه شيئاً يشبه أن يكون مكنسة ، ولم يكد يطل من الفجوة التى ارتفع منها حتى وقف ساكناً ، وكأنه أراد أن يظهر جلياً فحرك المصباح الذى كان بيده حركة خفيفة أمام وجهه وصورته ، حتى يسطع الضوء على ملامحه الممجة الحوشية أولاً ، ثم على أطرافه المروقة المشوهة ثانياً ؛ وكان لهذا القزم جسم غير متنسق الأجزاء ، ولكن خلقه لم يبلغ به الانحراف حدا يشك معه الرأى أنه فاقد القوة والنشاط ؛ وبينما كان السر كئت يتأمل هذا النظر الدميم ، طرأت على ذا كرتة تلك العقيدة السائدة التى كانت تؤمن بالجن أو عفاريت الأرض ، التى كانت تقطن الكهوف ، وكان الشبح المائل أمامه يطابق الصورة التى كانت فى ذهنه عن هيئة هذه العفاريت ، فحدق فيه بتقزز لا يخالطه الخوف ، وإنما يمازجه نوع من الرعب قد يشبه مثل هذا المخلوق الخارق للطبيعة فى أشد القلوب ثباتاً وحزمًا .

وصفر القزم ثانية ، ثم استدعى زميلاً من زملائه من باطن الأرض ، فصعد هذا الشبح الثانى — كما صعد الشبح الأول — ولكنها كانت يد امرأة تلك التى امتدت هذه المرة رافعة مصباحاً من البهو السفلى الذى صدرت عنه هذه المناظر ، وكان شبحاً نسوياً ذلك الذى برز متنداً من جوف الأرض ، شديد الشبه بالشبح الأول فى هيئته وتناسق أعضائه ، وكان لباسها كذلك من الحرير الأحمر الموشى بالذهب ، مهلهلاً مهدباً على صورة عجيبة ، كأن صاحبته قد أزيّنت كي تعرض نفسها فى حفل من المثلين والمشعوذين ؛ وكما فعل الشبح الأول من قبل ، حركت المصباح بأناقة ودقة أمام وجهها وجسمها ، التى يارى جسم الرجل دمامة وقبحاً ، ولكن ، رغم هذا المظهر الدميم ، كان فى ملاحظتهما كليهما مسحة تدل على تنبه نادر وذكاء

غير مألوف ؛ هذه المسحة تراها في بريق عيون غائرة تحت أهذاب غزيرة حالكة السواد ، يتألق فيها ضياء لامع كذلك الذي يشع من عيون الضفادع ، وكأنه بعض الموض عن قبح بليغ باد في البرة والهيئة .

لبث السر كنت مشدوها مذهولا ، بينما كان هذان الشبحان القيمتان يطوفان بالمبد متلاصقين تكادمين أجيرين قد كلفا نظافة المكان ؛ ولم يعد كل منهما غير يد واحدة للعمل ، فلبثت الأرض ولما تنتفع من هذا الجهد الضئيل الذي تأبرا عليه في حركات غير مألوفة ، وطريقة عجبية ، تليق بالمظهر الشاذ الغريب الذي تبديا فيه ؛ ولما دنا من الفارس ، وهما يؤديان هذا العمل ، أوقفا مكنتيهما عن الحركة ، وتجاورا قبالة السر كنت ، ثم رفا المشعلين اللذين كانا بيديهما ثانية في أثناء وتؤدة ، فهيات له الفرصة أن يتأمل ملامحهما جليا ، ولكن هذه الملامح لم تردد جمالا في نظره بعد أن باتت على مقربة منه ، وأتيحت له الفرصة كذلك أن يلحظ السرعة القصوى والحدة التي كانت عيونهما المتألقة السود تمكس بهما ضوء المصباحين ، وبعد ذلك صوباً شماعات المصباحين على الفارس ، وبعد أن أنما فيه النظر ، التفت كل منهما إلى الآخر ، وانفجرا يقهقهان بصوت يكاد يبلغ عتات السماء ، فرت الضحكات في أذني السر كنت ، وكان صداها كريها ، ففزع لسمعها وسارع بالسؤال ، مستحلفا بالله ، من ذا عسى أن يكون ذاك الشخصان اللذان دنسا ذلك المكان المقدس بمثل هذا الهريج وتلك الصيحات المزعجة .

فأجاب القزم الذي ذكر في صوت يلثم وهيئة جسيمة ، وهو بصوت غراب الليل أشبه منه بأى صوت آخر يطرق الأذن في النهار ، وقال : « أنا القزم نكتابانوس » . وأجابت الأنثى في نغم أخشن وأشد توحشا من صوت رفيقها وقالت : « وأنا جنفرا امرأته وموضع جبه » .

وسأل الفارس ثانية ، ولم يكده يعتقد أنهما من أبناء البشر وقال : « وما الذي أتى بكما إلى هذا المكان ؟ »

فأجاب القزم الذي ذكر متكلفا الجذ والوقار وقال : « أنا الإمام الثاني عشر ،

أنا محمد المهدي زعيم المؤمنين ورائدهم ، لى ولأتباعى ألف من الخيل المطهمة على أهبة لدى المدينة المقدسة ، وألف عند « مدينة الخلاص » ، أنا ذلك الرجل الذى سوف يشهد على بنى الإنسان ، وهذه حوراء من حورى » (١) .

فقاطعت امرأته وأجابت فى صوت أخشن من صوته وقالت : « أنت كذاب أشر ، لست من حورك ، ولست أنت رجلا مناققا من سقط المتاع كما ذكرت . هلا أخبرك من أنت يا حمار » إسخار ؟ أنت الملك « أرثر » ملك بريطانيا الذى سرقته بنات الجن من فيافى « أفالون » وفررن به ، وأنا السيدة جنفرا ، التى طبق صيت جمالها الآفاق » .

فقال الرجل : « أجل يا سيدى الفاضل ، حقا إننا من الأمراء ، أحاطت بنا الموموم ومرت بنا هنا تحت جناح الملك « جاى » ملك بيت المقدس ، وقد لبثنا كذلك حتى أخرجه من مكنته جماعة من الكفار المدنسين ، اللهم أنزل عليهم من السماء الصواعق وأهلكهم جميعا » .

فانبعث صوت من الجانب الذى دخل منه الفارس من قبل ، وقال : « صه ! صه ! أيها النافلون ، اعزبوا عن هذا المكان فقد دالت دولتكم » .

ولم يكده القزمان يستمعان إلى هذا الأمر ، حتى همس كل منهما للآخر فى وسوسة متقطعة ، واطفأ مصباحيهما بنير توان ، وخلفا الفارس فى ظلام دامس ثم قفلا راجعين ، ولما انقطع وقع أقدامهما خيم على المبد صمت شامل هو أشد ما يكون الثامنا وحلوكة ظلام .

ولما انجلى هذان المخلوقان الشقيان ، أحس الفارس ببعض الترويح عن النفس ، وهما مظهرهما ومسلكهما ولسانهما لم يتركاه مجالا للشك فى أنهما يمتان بصلة إلى تلك الطائفة الوضيعة من الكائنات ، التى سيقبت بتشويه الخلق وضعف الخلق إلى هذه المسكاة الأليمة ، وأصبحت من ذبول الأمر الرفيعة ، التى يجعل أبنائها من ظاهرها وضعفها بواعث للرح والسرور ؛ ولو كان الفارس الاسكتلندى فى عصر

---

(١) هذا كلام لا أساس له من الصمة التاريخية ، وإنما هو من اجداع الخيال .

غير عصره لكان من المحتمل أن يسر غاية السرور من جنون هذه الصور الانسانية الوضيعة ، ولكنه لم يكن يملوه — في أية ناحية من النواحي — على زمانه ، في الفكر أو في الطباع ، ولذا فإن هذين المخلوقين الشقيين بمظهريهما وإشارتهما ولتفهما قد قطعاً عليه سلسلة من المشاعر العميقة الجليلة ، كانت قائمة في نفسه ؛ ولشد ما كان ابتهاجه عند ما اختفيا عن مرآه .

وبعد ما انجليا يضع دقائق ، انفتح الباب ، الذي ولج منه من قبل في تودة وتوان ، ولبت متفرجاً ، وقد ظهر من خلفه نور خافت يشع من مصباح لدى عتبه ، وبجلي في هذا الضياء المتقطع ، الذي يتراوح بين الظلمة والنور ، شبح أسود مسترخ لدى المدخل بعيداً عن حدود المبد ، ولما دنا الفارس منه ، عرف أنه الناسك ما برح مستلقياً على الهيئة المتواضعة عينها التي اتخذها من أول الأمر ، والتي لا ريب أنه لبث عليها ما بقي ضيفه في المبد .

ولما سمع الناسك الفارس وهو يدنونه قال : « لقد انتهى كل شيء ، وأن لأشقى من أذنب فوق الأرض أن يؤوب من هذا المكان مع رجل يحق له أن يمتد الآن ، أنه أنبل وأسمد بنى الإنسان جميعاً . أمسك المصباح واهدني الطريق في هذا المهبط ، فليس لي أن أكشف عن بصرى حتى أبتعد عن هذا المكان المقدس » .

فصدع الفارس الاسكتلندي بالأمر في صمت ومكون ، وقد أخرسه إحساس بالنشوة والتسامي مما رأى ، غمد في نفسه حتى روح التطلع إلى ما يتحوطه ، ثم أخذ يشق طريقه بدقة بالغة خلال المسالك الخفية العديدة ، وعلى السروج الذي تسلقاه من قبل ، حتى ألقى نفسه وصاحبه في الفرفة الخارجة من كهف الناسك .

و « يؤوب المجرم الآثم إلى جبهه ، ويستأخر العقوبة من يوم نحس إلى يوم آخر ، حتى ينفذ فيه قضاء ربه ، ويميزه الله العادل بما قدمت يداه » .

بهذه الكلمات تفوه الناسك ، ثم طرح عن عينيه الحجاب الذي تقنع به ، ونظر إليه وفي نفسه آهة حارة مكبوحة ، ولم يكدر الحجاب إلى السرداب الذي كان قد طلب إلى الاسكتلندي أن يأتي له به منه ، حتى سارع ووجهه إلى زميله

الخطاب في حزم وقال : « اذهب عني ، اذهب عني ، إلى الراحة والسكون ؛ إن في  
وسمك أن تنام ، ومن حقك أن تنام ، أما أنا فليس ذلك في وسى أو من حق » .  
فانسل الفارس إلى الغرفة الداخلية احتراماً لهذه الكلمات التي نطق بها  
الناسك في اضطراب شديد ، ولكنه أدار يصره إلى الوراء وهو يخرج من النار  
الخارجي ، فألقى الناسك بمجرد عن كتفيه العباء الملهمة في عجلة المحبول ؛ وقيل أن  
يفلق الباب الضميف الذي يفصل ما بين حجرتي الكهف ، سمع ألحواً يفرق  
وتأباً يئن من كفارة ألية فرضها على نفسه فرضاً ، وفكر الفارس في نفسه ماذا  
عسى يا ترى أن تكون هذه الخطيئة الدنسة ، وما هذا الندم الشديد على ذنب  
لا تحموه ولا تخفف عنه هذه الكفارة القاسية ، فشمع برعدة باردة تدب في أطرافه  
ثم سبغ لله خاشعاً متورعاً ، وارتبى على سريره الخشن — بعد أن رمق بعينه الرجل  
المسلم الذي لم يزل في سباته — وسرعان ما غط في نماسه كالطفل ، منهوكاً من أثر  
المشاهد المختلفة التي تراءت له في يومه هذا وليله ، ولما استيقظ في الصبح اجتمع  
بالناسك يشاوره في مهام الأمور ، وأسفر الحديث عن عزمه على أن يبق بالكهف  
يومين آخرين ، كان خلالها شديد المحافظة على إقامة الصلاة ، كما يليق بالحاج ،  
ولكنه لم يعد إلى المبد الذي شاهد به تلك المجائب .

## الفصل السادس

أما هذا المهد فمدل ، وفي البوق فانفخ ،  
قد حق علينا أن نستفز الليث من مريضه .  
من رواية تشيلية قديمة .

وهنا ننتقل بالقارىء من مكان إلى آخر كما أشرنا في عنوان هذا الفصل ،  
ننتقل به من جبال الأردن المقفرة إلى خيام رتشارد ملك إنجلترا ، التي كانت مضروبة  
إذ ذاك بين جون ميناء عكا وعسقلان ، والتي كانت تضم تحت لواؤها جيشا ، أخذ  
قلب الأسد على نفسه من قبل أن يسير به ظافرا إلى بيت المقدس ، وكان من  
المحتمل أن يتجسع فيها شرع ، لولا أن وقفت في سبيله الغيرة المتبادلة بين الأمراء  
المسيحيين الذين اشتركوا في هذا المشروع عينه ، ولولا أن عرقل مسماه ما كان  
يحص به هؤلاء الأمراء من ألم النفس من تعالى الملك الإنجليزي عليهم تماليا لا يكبح  
له جماع ، ومن تحقير رتشارد — في غير موارد — من شأن إخوانه الملوك ،  
الذين كانوا يبادلونه مرتبة ، ولكنهم لا يلقون شأوه في الشجاعة والإقدام  
والمواهب الحربية . وأمثال هذه الشاحنات وما إليها — وبخاصة ما كان منها بين  
رتشارد وفيليب ملك فرنسا — خلقت من الحصومات والعقبات ما كان حجب عثرة  
لكل خطوة عملية يتقدم بها رتشارد ، الذي عرف بالبطولة وعدم التريث معا ،  
بينما كانت صفوف المسيحيين تتخلخل يوما بعد يوم ، ويهجرها المجاهدون زرافات  
ووحدا ، وفي طليمة كل فرقة قائد من قواد الاقطاع ، هو زعيمها ، وقد انسحبوا  
بعد نضال أطفأ فيهم كل بارقة من الأمل في النجاح .

وبات أثر المناخ — كما كان دائما — مهلكا للمقاتلين الآتين من الشمال ،  
وزاد من وطأة الجو أن الصليبيين أطلقوا لشهواتهم العنان وأنحلت أخلاقهم ،  
وإن يكن هذا ينافي كل المناهضة البادى والأغراض التي شهروا من أجلها السلاح ،



فباتوا فرائس سائفة لمحارة القيط المحرقة ، وقطرات الندى الباردة ، وما لها من أثر  
وبيل ؛ وأضف إلى هذه البواعث التي كانت تفت في الأعضاء ، وتؤدي إلى  
الخسران والدمار ، سيف العدو الباتر ، وذلك أن صلاح الدين ، الذي ليس في  
سجل تاريخ الشرق اسم يملو على اسمه ، كان قد عرف — وإلهاماً من معرفة قاضية —  
أن أتباعه — بسلاحهم الخفيف — أضعف من أن يلاقوا الفرنجة المدججين بالحديد ،  
وجهاً لوجه في ملحمة أو معركة ، كما عرف كذلك كيف يخشى شخص خصمه  
رتشارد الجسور ويحسب له حساب ؛ ولكن إن كانت الفرنجة قد انقضت على  
جيوشه أكثر من مرة ذبحاً وتقتيلاً ، فلقد انتصر لكثرة عديده في تلك  
الناوشات الخفيفة التي كان الكثير منها حتماً لا يحصى عنه .

ولما نقص جيش العدو المهاجم ، زاد السلطان من مدى خططه في هذه  
الحرب الخفيفة ، وجعلها أشد جرأة ، فأحاطت بمعسكر الصليبيين — وكادت  
تحصاه — جموع من الفرسان أقبلت كأمراب الزناير ، يسير سحقتها إذا وقعت  
في قبضة اليد ، ولكن لها أجنحة تمكنها من الإفلات من أشد القوى بأساً ، كما  
أن لها أشواكاً تنفث منها السوء والأذى ؛ ولم تنقطع الحروب بين طلائع المسيحيين  
ورعاة حروب الخيل هلكت فيها أرواح كثيرة قيمة دون طائل أو جدوى ؛ وكثيراً  
ما حيل بين الرسل ومواصلة السير ، وتقطعت سبل المواصلات ، وكان على الصليبيين  
أن يشتروا أود الحياة ينذل الحياة ، وإن أرادوا ماء من عين كمين بيت لحم ، التي كان  
يتشوق إليها داود الملك أحد حكامها الأقدمين ، أراقوا لذلك الدماء .

وكان يعادل هذه الشرور — إلى حد كبير — عزم كالحديد ونشاط لا يستقر من  
جانب الملك رتشارد ، الذي كان دائماً على صهوة جواده بصحبة جماعة من خيار  
فرسانه ، على أهبة لأن يكر إلى أى مكان تحمل به الأخطار ، وغالباً ما يعود  
للمسيحيين بمعونة لم تقع لهم في الحسبان ، بل ويهزم المنافقين ، وهم من النصر قاب  
قوسين أو أدنى ، ولكن حتى قلب الأسد ، ذو الجسم الحديدى ، لم يستطع أن  
يحتمل بغير أذى تقلبات المناخ الويلة ، فضلاً عن إجهاد جنائى وعقل متواصل ،

فلقد أصابته إحدى تلك الحيات المنتشرة في آسيا ، وألتي تفتك بالجسم شيئا فشيئا ؛ ورغم قوة شديدة وشجاعة أشد منها ، بات أول الأمر ضعيفا لا يستطيع أن يعتلى ظهر الجواد ، ثم انقطع عن حضور مجالس الشورى في شؤون الحرب ، التي كان يعقدها الصليبيون بين الحين والحين ، ولم يكن من اليسير أن تعرف إن كان ما استقر عليه المجلس — وهو أن يعقدوا مع السلطان صلاح الدين هدنة مداهما ثلاثون يوما — قد جعل هذا الفتور ، الذي اعتور ملك الإنجليز ، أشد فتكا أو أخف وقعا ؛ فلئن كانت هذه الهدنة تثيره لأنها تعرض سير الخطة الواسعة المدى التي رسمها لنفسه ، وتؤجلها إلى حين ، فهو من ناحية أخرى يجد فيها بعض العزاء ، لأنه عرف أنه إن لبث عاطلا لا يتحرك في سرير المرض ، فلن يظفر غيره بأكليل النصر .

وأما ما لم يرض عنه قلب الأسد فهو هذا التبلد الشامل ، الذي ضرب بجراحه في معسكر الصليبيين ، حينما أقبل على دور خطير من أدوار المرض ؛ وقد علم من البيان الذي استخلصه من أتباعه — وهم كارهون — أنه كلما اشتد به المرض ، هبطت آمال الجيش المحارب ، وأنهم لم يشتغلوا أيام الهدنة بتقوية صفوفهم ، أو بإحياء ما خمد من روح البسالة والإقدام ، أو بتغذية روح الفطرف في النفوس ، أو بالتأهب للزحف على المدينة المقدسة زحفا حازما لا ونية فيه — والمدينة المقدسة هي مقصد حملهم ؛ لم يشتغلوا بهذا أو بذاك ، وإنما اشتغلوا بتأمين المعسكر ، الذي بات تشغله جماعة هزيلة من الأتباع ، بحفر الخنادق وإقامة الحسائلك وغيرها من وسائل التحصين ، كأنهم يتأهبون — إذا ما عاد القتال — لرد عدد قوى معتد ، ولا يعدون العدة لأن يقفوا موقف الفرزة المغيرين المفاخرين .

هاج الملك الإنجليزي وماج من هذا البيان ، وكان كالأسد الجبب في التفتص ينظر إلى الفريسة من وراء قضبان من الحديد ؛ ولما كان بطبيعته مندفعاً متهوراً ، فقد انعكس هياج طبعه على نفسه ، وكان أتباعه يخشونه ، وحتى أطباؤه الذين كانوا يباشرونه ، كانوا يخافون أن يتخذوا لأنفسهم ذلك النفوذ الذي لا بد منه لكل

طبيب على مريضه إن أراد به خيراً ؛ ولم يستطع أن يقف بين الأفئوان وثأرته إلا رجل واحد من الأشراف المخلصين ، وربما كان ذلك لواءة بين ميوله وميول ريتشارد ، مما قرب به إلى الدات الملكية ووصل بين قلبيهما ، فكان له — في سكن وثبات — سلطان على الملك المريض الفاضب ، لم يجرؤ عليه غيره ؛ هذا النفوذ لم يباشره غير توماس دى ملتن ، لأنه كان يقدر حياة الملك وشره أكثر مما كان يقدر ما قد يفقد من جراء ذلك من رضاه ، وما قد يجر على نفسه من أخطار ، وهو يعرض عالياً كهذا ، شديد المراس ، جسيم الأخطار إذا غضب .

كان السر توماس لورد جلزلاند ، في كبرلاند ، في عصر لم تكن فيه الأنساب والألقاب شديدة الالتصاق بأربابها كما هي اليوم ، وكان النورمان يسمونه لورد دى فو ، ويلقبه بالإنجليزية السكسون — الذين كانوا يتعلقون بلقنهم الوطنية ويفخرون بيمض الدم السكسونى الذى يجرى في عروق هذا المحارب الدائم الصيت — توماس ، وأحياناً يرفعون الكلفة ويسمونه « توم » رجل « الجزر » أو « الأودية الضيقة » التى اشتقت منها أملاكه الواسعة اسمها المعروف .

وقد تدرب هذا الزعيم في أكثر الحروب ، مانشب منها بين إنجلترا واسكتلندا أو بين الأحزاب الداخلية العديدة ، التى كانت إذ ذاك تمزق البلاد تمزيقاً ؛ وفي هذه الحروب جميعاً برز وتفوق ، سواء في مسلكه الحربى أو نفوذه الشخصى ، وكانت من ناحية أخرى جتدياً خشناً فظاً ، لا يأبه بهندامه ، كتبوا مكتباً في معاشرته ، وينكر — في ظاهر حديثه على الأقل — كل علم بالسياسة أو بدسائس البلاط ؛ وكانت هناك من الرجال جماعة تزعم أنها تستطيع أن تنفذ إلى دوائر الطباع ، وتؤكد أن لورد دى فو لم يكن في مكره وطموحه أقل منه في خشونة طبيعه وجسارته ، وتظن أنه — وهو يتشبه بخلق الملك في البسالة وعدم المبالاة — إنعما يرى إلى الفوز برضا الملك ، وإلى إشباع آماله ، وتحقيق مطامعه الواسعة ؛ ولكن أحداً لم يجرؤ على ممارسته في أغراضه أية كانت ، أو يتنافس في ذلك العمل الخطر ، وهو مباشرة سرير المريض كل يوم ، وعلة المريض معدية كما ذاع

بينهم ، والمريض هو قلب الأسد ، يئن من جزع غاضب بتملك الجتدى إذا حيل بينه وبين القتال ، والملك إذا تجرد من كل سلطان ؛ وعامةُ الجند في جيش الانجليز على الأقل كانوا يعتقدون إجمالاً أن دى فو يباشر الملك مباشرة الند للند ، وليس بينهما إلا مودة حربية خالصة ، نزهة غير مفروضة ، تنمقد بين اثنين يتقسامان المخاطر كل يوم .

وذاث يوم في سوريا ، وقد مالت الشمس نحو الغروب ، استلقي رتشارد على فراش المرض ، والفراش إلى نفسه بفيض ، والمرض على جسمه شاق ثقيل ، وعيناه الزرقاوان اللامعتان — اللتان لم ينقطع لهما من قبل ضياء لامع ولا بهجة متلاثلة — فيهما حيوية زادت منها الحمى وقواها الجزع ، وقد أطلتا من خلال تجاعيد شعره الأصفر الطويل وخصله المسترسلة ، بنظرات زاهية متقطعة نكيوط النور ترسلها الشمس ساعة الغروب فتشقى السحب التي ترجيها العواصف المطيرة ، والتي يوشى حواشيها بالذهب — رغم ذلك — ضياء الشمس اللامع ؛ ويبدو على ملامحه المسترجلة سير المرض العضال ، وقد أهمل لحيته ولم يشذبها ، فتمت وطغت على شفثيه وذقنه ، وأخذ يترنح ذات اليمين وذات اليسار ، تارة يجر على نفسه القطاء ، وطوراً يطرحه جزعا وهلمأ ؛ ويدل سريره الذى يتأرجح ، وحركاته التى تنم عن القلق ، على ميل إلى النشاط والاندفاع بغير اكتراث ، ميل ليس له مجال طبيعى إلا حيث الجهد العنيف .

وإلى جوار سريره وقف توماس دى فو ، وهو فى محياء وهيثته ومسلكه أشد ما يكون تباينا للملك المريض . هو كالمعلق فى قوامه ، ويكاد شعره يشبه فى كثافته شعر شمشون بطل الإسرائيليين بعد ما جزه الفلسطينيون ، لأن دى فو قد قص شعره حتى يستطيع أن يضمه تحت خوذته ، وله عيان كبيرتان واسمتان . لونهما كلون البندق ؛ يشع منهما ضياء كضياء الخريف فى الصباح ، يضطرب الفينة . بعد الفينة ، لحظة أو بعض لحظة ، كلما جذبت التفاته إلى رتشارد شاربات عنيفة من القلق والهياج ، وملامحه قوية غليظة كشخصه ، فيها جمال وجاذبية ، إلا أنها قد

تشوهت من أثر الجراح ، ويفطى شفته العليا — على الطراز النورماندى — شارب كثيف ، اختلط من غزارته وطوله بشعر رأسه ، وهو — ككته — داكن يضرب إلى الحمرة ، تخططه قليل من الشعرات البيض ، ويلوح على بناء جسمه أنه من ذلك الطراز الذى يقاوم المشقة والمناخ بصدر رحيب ، فلقد كان نحيل الخصر ، عريض الصدر ، طويل الذراع ، عميق الأنفاس ، قوى الأطراف ، ولم يخلع سترته الجلدية ، التى يظهر على كتفها صليب مرسوم ، لأكثر من ثلاث ليال ؛ ولم يستمتع بالراحة إلا فى فترات متقطعة ، هى كل ما يظفر به اختلاسا رجل يقوم على حراسة ملك طريق الفراس ، وقل أن بدل هذا البارون من وقته ، اللهم إلا حينما كان يتناول رتشارد دواء أو شرابا منعشا . ولم يجرؤ أحد غيره ، ممن ليست لهم هذه المكانة من أتباع الملك الجزوع ، على أن يحمل الملك على تناول الدواء ، وكانت له طريقة شنيعة ، لها أثرها رغم نبوها ، يؤدى بها واجبه ، وهى تبين عاداته وأخلاقه العسكرية الصريحة أشد البايئة .

كان هذان الرجلان فى سرادق بلائم روح العصر ، كما يلائم طبيعة رتشارد الشخصية ، عليه من سيا الحرب والقتال أكثر من أمارات البذخ والملك ؛ فكنت ترى أسلحة للدفاع والهجوم ، كثير منها غريب الشكل من الطراز الحديث ، منتثرة فى أرجاء الخيم ، أو معلقة بالعمد التى يقوم عليها ؛ وجلود الحيوانات التى قتلت فى الطراد ملقاة على الأرض ، أو منشورة على جدر السرادق ، وفوق كدس من هذه الننائم الحرشية كلاب ثلاثة كبيرة الحجم ، ناصعة البياض كالثلج ، على وجوهها آثار من خدوش الخالب والأنياب ، تشهد على مساهمتها فى جمع الصيد الذى رقدت على بقاياها ، وقد امتدت بجسومها فاعرة أفواهها ، ومعبوة عيونها ، الحين بعد الآخر ، نحو رتشارد ، مبينة عن تعجبها وأسفها على هذا الخمود الذى لم تمهده ، والذى لا بد لها أن تشارك فيه ، وكانت هذه الكلاب من رفاق الجندى الصائد ؛ وعلى مائدة صغيرة إلى جوار السرير درع من الحديد الرتب ، ثلاثى الشكل ، عليه رسم ليوث ثلاثة ناهضة ، كان يتخذها هذا الملك الفارسشارة له ،

وأمام الدرع قرص من الذهب شديد الشبه بتيجان الأمراء ، إلا أن مقدمته كانت أعلى من مؤخرته ، وهو ومخل بنفسجي ، وتاج مثلث مزركش ، تكون جميعاً شارة الملكية في إنجلترا ، وإلى جوار القرص فأس غليظة أعدت للذود عن رمز الملكية ، تسكل الذراع من حملها ، إلا إن كانت ذراع قلب الأسد .

وفي جزء خارجي من الرواق ضباط ثلاثة من حاشية الملك ، يرتقبون في اكتئاب ، يبدو عليهم الجزع على صحة مولايم . ولم يكونوا على سلامتهم أقل جزعاً لو أن مليكهم قضى نحبه ؛ وانتشرت هذه المخاوف الكثيفة خارج السرادق بين الحراس الذين كانوا يضربون في الأرض بطرف مفضوض ، وهم يفكرون صامتين ، أو يستندون إلى رماحهم ويقفون في أما كنهم لا يتحركون ، كأنهم تمائيل مسلحة ، لا جنود من الأحياء .

وبعد هذا الصمت الطويل المضطرب ، الذي انقضى في هياج كهياج الحى ، حاولنا وصفه للقارئ ، قال الملك : « إذن لم تأت لى من الخارج ياسر توماس نبأ خير من هذا ؛ لقد بات فرساننا جميعاً نساء ، وأصبحت نساؤنا مترهبات ، وليس في الخيم شرارة من إقدام أو شهامة تنشر في أرجائه الضوء ، والخيم يضم خيار فرسان أوروبا ، أليس كذلك ؟ » .

فأجابه دى فو بصبر تملكه قبل ذلك عشرين مرة وهو يكرر للملك شرح الموقف وقال : « إن الهدنة ياسيدى تحتم علينا نحن الرجال أن لا نحرك ساكناً ، وأما عن النسوة فلست ، مولاي — كما تعلم جلالتك — بمن ينغمسون فيهن ، وقلما أبدل الحديد والجلد بالذهب والخمّل ؛ ومع ذلك فقد دعا إلى أن خيار الفانتات من نساتنا قد التحقن بجميع جلالة الملكة والأميرة ، وهما في طريقهما حاجتين إلى دير (عين جدة) كي يرسل الدعوات ويطلباً إلى الله أن ينقذ جلالتك من هذه المحنة » . ولم يرق لرتشارد هذا الجواب ، فتملكه القلق ورد قائلاً : « أفهكذا تخاطر بأنفسهن ربات الخلدور والمذارى من بنات الملوك ، ويردن أرضاً تدينها أوغاد ، لإخلاصها لبنى الإنسان ضعيف كما يمانها بالله ؟ » .

فأجاب دى فو : « كلا ياسيدى ، لقد وعدهن صلاح الدين بالأمن والطمأنينة »  
فرد عليه رتشارد قائلا : « حقا ، حقا ! ولقد أسأت إلى هذا السلطان ،  
وأنا مدين له بمحو هذه الإساءة . ياليتنى أستطيع أن أقدم له هذا الجليل وأد  
طريح بين جيشين ، جيش المسيحيين وجيش المسلمين ، وكلاهما ينظر إلى » .

وبينا كان رتشارد يتكلم ، دفع ذراعه اليمنى خارج الفراش ، وكانت عارية إلى  
الكف ، ثم هب من مرقده متألما ، وهز يده مقبوضة كأنها ممسكة سيفاً أو فأساً  
تلوح به فوق عمامة السلطان المرصعة بالجواهر ، نجف له دى فو ، وبصفته ممرضاً  
حمل سيده الملك بنصف يمازجه اللطف ، ما كان الملك ليحتمله من غيره ، على أن  
يمود إلى فراشه ، ثم ستر له ذراعه المفتولة ورقبته وكتفيه بمناية كمناية الأم تحنو  
على وليدها الجزوع .

فقال الملك وهو يضحك ضحكا مرأ وبلين للقوة التي لم يستطع لها ردا : « إنما  
أنت يادى فو ممرض غشوم ، ولكنك محب للملك ، وإني لأظن أن تقية المرض  
تليق بمحياك الخافض كما تليق بى تقية الطفل ، وإنا لنصلح أن نكون رضيعاً  
ومرضته يروّع بهما البنات » .

فأجاب دى فو : « كنا فى زماننا نرزع الرجال ياسيدى ، وإني لأمل أن نعيش  
حتى نرزعهم مرة ثانية . ما نوبة حمى حتى لا نستطيع أن نحتملها بصبر جميل كي  
نخلص منها فى سهولة ويسر ! » .

فتمجّب رتشارد وأجاب مندفا : « نوبة حمى ! قد ترى — وأنت غير مخطئ —  
فيما ترى — أنها ليست إلا نوبة حمى حلت بى ، ولكن أظنّها كذلك مع الأمراء  
المسيحيين قاطبة ، مع فيليب ملك فرنسا ، ومع ذلك النمساوى البليد ، ومع رجل  
منسراً ، ومع الاسبتارية ، ورجال المبد ؟ ما ذا عسى أن تكون مع هؤلاء جميعاً ؟  
استمع إلى أخبرك ، إنما هى فالج بارد وفثور مميت — إنما هى مرض يمنعهم عن  
الكلام والحركة — هى قرحة تأكل كل ما فى قلوبهم من نبل وفروسية وفضيلة ،

وتجمل منهم خونة لكل عهد نبيل يُقسم الفوارس على حفظه ، وتجميلهم لا يابسون لك كرام ولا يذكر الله .

فقال دى فو : « وحق السماء لتهون على نفسك يا مولاي ، وحذار أن يسمعك أحد خارج هذا السرادق حيث تجرى على الألسنة أمثال هذه الأحاديث بين عامة الجند ، وتولد الشقاق والنزاع في صفوف المسيحيين ، واعلم أن مرضك يحول دون مواصلتهم ما شرعوا فيه ، وإذا أمكن أن يتحرك المنجنيق بنير لولب أو رافع ، تحرك جيش المسيحيين بنير الملك رتشارد » .

فقال رتشارد : « أنت تداهني يادى فو » ، ولكنه مع ذلك أحس بأثر الثناء وقوته ، فمال برأسه إلى الوسادة وهو يحاول جهده أن يستقر ، محاولة لم يدها من قبل ، ولكن توماس دى فو لم يكن من ندماء الملوك ، وقد اندفعت إلى شفتيه عبارة الثناء التي فاه بها من تلقاء ذاتها ، ولم يعرف كيف يواصل هذا الحديث المسول ، حتى يروى هذه الرغبة الدفينة التي أثارها ، ويشبها ؛ فزمل الصمت حتى سأله الملك محتدا بعد أن استرسل في تأملاته الكثيرة وقال : « يا إلهي ! هذا حديث شهي سائق لرجل مريض ، ولكن كيف أن عصبه من الملوك ، وجما من الأشراف ، وحشدا من فرسان أوروبا بأسرها ، تنخور قواهم من أجل رجل واحد قد وهن ، حتى وإن يكن هذا الرجل هو ملك إنجلترا ؟ ولم يوقف مرض رتشارد أو موت رتشارد مسير ثلاثين ألف رجل ، كلهم كثره بسالة وإقداما ؟ أفن خر زعيم الأيايل صريما تشقت القطيع لمصرعه ؟ إذا أصاب البازي كبير الكراكي تقدم غيره الرهط يتصدره ؟ لماذا إذن لا تجتمع القوى وتنتخب من بينها رجلا تمهد إليه بقيادة الصفوف ؟ » .

فأجاب دى فو قائلا : « وأيم الحق لقد نما إلى أن القادة الملوك قد عقدوا المجامع يتشاورون في مثل هذا الغرض ، ولعل هذا يرضى جلالتك » .  
فصاح رتشارد متمجبا ، وقد تحركت الغيرة في نفسه وتوجه بنزق عقله وجهة أخرى وقال : « ها ! إذن لقد نسيت أحلاف قبلي أن أتناول المشاء الرباني الأخير ؟



أفيحسبونني قد قضيت ؟ ولكن ، كلا ! كلا ! لقد صدقوا ؛ ومن هذا الذى وقع عليه اختيارهم ليكون لجيش المسيحيين قائدا وزعيما ؟ » .

فأجاب دى فو : « الرمة والعزة تشيران إلى ملك فرنسا » .

فأجاب ملك الانجليز : « اى نعم ، فيليب ملك فرنسا ونافارا ، ونيس منت جوا ، صاحب الجلالة المسيحية العظمى ! يا لها من كلات تمتلئ بها الأشداق ! ولكن هناك خطرا واحدا أحشاء ، وذلك أن يتخذ شعاره « إلى الخلف » لا « إلى الأمام » ويعود بنا إلى باريس بدلا من أن يتقدم بنا إلى بيت المقدس ، فلقد علمته حكته السياسية حتى الآن أن الجور على أمراء الاقطاع ، وسلب حلفائه أجدى له من مقاتلة الأتراك فى سبيل القبر المقدس » .

فقال دى فو : « وقد يختارون أرشيدوق النمسا » .

« ماذا تقول ! لأنه ضخم الجسم ، كبير الحجم ، مثلك يا توماس ؟ نعم إنه قرينك فى الخرق والغباء ، ولكنه ليس كمثلك سهلا لا يبالى بالمخاطر ، مستهترا لا يأبه للضر والأذى ، صدقنى أن النمسا ليس لها فى هذه الكتلة اللحمية من ديب الحياة إلا بمقدار ما فى الزنبور الصاحب من جرأة ، أو العصفور الصغير من إقدام ، تباه بها ! أفيكون قائد الفرسان إلى عمل مجيد ! أعطه ابريقا من نبيذ الرين يحسبه هو ورجاله الأذنياء من قتلة الديدية ورماة الرماح » .

واستأنف البارون الكلام غير آسف على أن يشغل انتباه سيده بأمور أخرى غير مرضه ، حتى وإن يكن ذلك على حساب أشخاص الأمراء وأرباب النفوذ ، فقال : « وهناك أيضا كبير فرسان المبد ، مقدم صادق باسل فى مواقع القتال ، حكيم فى مجالس الشورى ، ليس له مُلك خاص يصرف جهده عن استرداد الأرض المقدسة — ماذا ترى جلالتيكم فى هذا الرجل قائدا عاما لجيوش المسيحيين ؟ » .

فأجاب الملك وقال : « ها ! نعم الاختيار ! إنما لا نستثنى الأخ « جيلزأمورى » نعم إنه يعلم قواعد الحرب ، ويعرف كيف يقاتل فى الطليعة إذا نشبت المعركة ؛ ولكن هل من العدل يا سر توماس أن نستخلص الأرض المقدسة من يد الرجل

المسلم صلاح الدين — وهو يفيض كرما وفضلا — ونسلمها « جيلز أمورى » ، وهو أشد من صلاح الدين شركا بالله ، وثنى بعبد الشيطان ، عرف ، يرتكب أشد الجرائم سوادا وأكثرها شذوذا تحت القباب ، وفي الأماكن الخفية الدميمة ؟ » .

فرد توماس دى فو وقال : « إن كبير الاستتارية أتباع القديس يوحنا بيت المقدس له صيت لم يلوته السحر ولا الضلال » .

فأجاب رتشارد على عجل وقال : « ولكنه ضنين خسيس ، أليس كذلك ؟ ألم يساورنا فيه الشك — بل اليقين — بأنه قد باع المسلمين ، تلك المزايا التي ما كان لهم أن يظفروا بها بالقوة الصراح ؟ صه ، صه ، يارجل ! تالله إنه لخير لنا أن نسلم الجيش للملاحى البندقية وباعة لومباردى المتجولين من أن نوكل به كبير أتباع القديس يوحنا » .

فقال البارون دى فو : « إذن فلا أقدم باقتراح آخر ، ماذا تقول في المركز منتسرا الشهم الحكيم ، ذلك الرجل الرشيق البرز في القتال ؟ » .

فأجاب رتشارد قائلا : « الرجل الحكيم ؟ بل قل الساكر — رشيق في خدور النساء إن شئت ، أى والله ! كتراد منتسرا ، من ذا الذى لا يعرف الأخيل جميل الهندام ؟ أجل ، إنه سياسى متلون ، يبدل من أغراضه كما يبدل من حواشى صدره بحيث لا تستطيع أن تعرف من ظاهر حلتة لونها في الباطن ؛ وتقول إنه رجل محارب ، أجل ، إن له لقدما ممشوقا على ظهر الجواد ، وإنه لجرى تحت الخيام وداخل الحصون ، حيث تكون السيوف مثلومة القلابة والشفرات ، وتكون الرماح مركبة أطرافها من ألواح الخشب لا من أسنان الحديد ؛ ألم تكن مى يوم قلت لهذا المركز الطروب ، هانحن ثلاثة من خيار المسيحيين ، وهناك في ذلك السهل ترى عصابة من الأعراب تبلغ الستين عدا ، يضربون في الأرض ، هلاهممت لتحمل عليهم — ولن يلتقى الفارس الحق منا بأكثر من عشرين من اللثام الكفرة الجاحدين ؟ » .

فقال دى فو : « أذكر أن المركز أجاب بأن جوارحه من لحم البشر لا من صلب الحديد ؛ وأنه يضم بين جنبه قلب إنسان لا قلب حيوان ، حتى وإن يكن ليثاً ذلك الحيوان ؛ ولكنى الآن أرى الأمر واضحاً جلياً ، سننتهى حيث ابتدأنا ، ولا أمل لنا فى إقامة الصلاة عند قبر المسيح حتى يرد الله الملك رتشارد الصحة والسلامة » .

وبعد هذا القول الخطير ، انفجر رتشارد ضاحكاً من الأعماق ضحكاً لم يفقهه مثله من منذ زمن طويل ، ثم قال : « عجيباً لهذا الذى يُعرف بالضمير ، فمن سبيله استطعت — وأنت رجل من أشراف الشمال ، قليل الفطنة والحصافة — أن تحمل ملكك على أن يقر بعروته ! حقاً إنهم لو لم يروا أنفسهم — ككشلى — أكفاء لأن يحملوا عصا القيادة ، ما اقتصرت قليلاً ولا كثيراً لأن أجرد هذا الرتل من التماثيل البشرية الحقةرة ، التى عرضت على ، واحداً بعد الآخر ، مما أزيئت به من زخرف الحرير — ماذا يعنينى من هذه الحلال المزركشة يختالون فيها ؟ إنها لا تعنينى إلا إذا ذكر أربابها كنظرألى فى هذا العمل الجليل الذى وقفت له حياتى ؟ اى دى فو ! إني أقر بضغنى وجوح مطامى ، ولا ريب أن معسكر المسيحيين يضم كثيراً من الفرسان ممن يفضلون رتشارد ملك إنجلترا ، وإنه لمن الحكمة والعدل أن تسند إلى خيرهم قيادة الجيش ، ولكن . . . » .

وهنا واصل الملك المحارب حديثه ، وقد هب من مرقدته ، وخلع عن رأسه غطاءه ، وتطأ بالشر من عينيه — وكان هذا أبداً شأنهما فى عشيات المواقع — وقال : « ولكن لو أن هذا الفارس أراد أن ينصب علم الصليب فوق معبد بيت المقدس حيث أكون أنا عاجزاً عن أن آخذ بنصيبى فى هذا العمل النبيل ، إذن ليكابذن نزالى فى ضراب قاتل ، حينما بيت فى طوق أن أظن برحى ، لحطه من ذكرى ، واستبقاه إلى هدفى ومرماى — دع هذا واستمع ! إني لأسمع أبواقاً على بعد ، ماذا عساها يأتى أن تكون ؟ » .

فأجاب الرجل الانجليزى البدين وقال : « إني لأخاطبها بامولاي أبواق الملك فيليب »

فقال الملك وهو يحاول النهوض : « إنما أنت أصم يا توماس ، ألا تسمع هذا الصليل وذاك الرنين ؟ وحق السماء لقد حل الترك في المسكر ، وإني لأسمع هتافهم .  
ثم حاول أن ينهض من فراشه مرة ثانية ، فاضطر دى فو أن يلجأ إلى قوته الفشومة ، وأن يستمين كذلك برهط من الحجاب ، فاستدعاهم من الفسطاق الداخلى كي يكبحوه .

فقال الملك وهو حائق — وقد تعلق أنفاسه وأنهكه المراك ، فاضطر أن يخضع لقوة فوق قوته ، وأن يستقر على فراشه فى سكون : « أنت خائن غدار يادى فو ، ياليت لى من الطاقة ما يكفى لأن أهشم رأسك بسيفى » .  
فقال دى فو : « ياليت لك هذه الطاقة يا مولاي ، بل وياليتك تصرفها كما ذكرت وتمرضنى لأخطارها ؛ لو مات توماس ملتن ، وعاد قلب الأسد كما كان ، إذن رجحت كفة العالم المسيحى » .

فقال رتشارد وقد مديده ولثما البارون إكراما وتبجيلا : « إنما أنت خادم مخلص أمين ، فهل تمفو عن سيدك وقد انتابه الجزع ؟ إن هى إلا هذه الحمى المحرقة التى ترجرك ، أما سيدك رتشارد ملك انجلترا فرؤوف بك رحيم ؛ ولكنى أرجوك أن تذهب وتأتينى بالخبر اليقين : من هؤلاء الأغراب الذين حلوا بالخيم ، فأنى لا أظن هذه الأصوات من أصوات المسيحيين » .

وخرج دى فو من السرادق بهذه الرسالة التى كلفها ، ووكل إلى الحجاب والأصفياء والأتباع أن يضاعفوا رعاية المليك إبان غيبته — وقد اعتزم أن لا يطل أمدما — وتوعد أن يحملهم تبعات الإهمال ، فزار ذلك — بل زاد من تهيبهم وقلقهم على أداء واجهم ، إذ كانوا يخشون من المليك حنقه وغضبه أولا ، ومن لورد جزلانند<sup>(١)</sup> صرامته وصلابته ثانيا .

---

(١) هو السر توماس ملتن الجزلاندى .

## الفصل السابع

لم يعض على النجوم<sup>(١)</sup> فترة من الزمن .  
التحم فيها الاسكتلنديون مع الانجليز ،  
إلا وكان من عجيب الأمور  
ألا يجري الدم الثانى فى الطريق  
متدفقا كما تتدفق مياه الأمطار .  
موقعة أوتر بورن

انضم إلى صفوف المسيحيين عدد عديد من المقاتلين الاسكتلنديين ، وكان من الطبيعى أن ينضوا تحت لواء ملك الانجليز ، فلقد كان أكثرهم — كما كان الجنود من مواطنيه — من أصل سكسونى أو نورماندى ، وينطقون بلسانهم ، وبعضهم يمتلك عقارا فى انجلترا كما يملك فى اسكتلندا ، وتربط بعضهم ببعض أواصر الدم وعرى الزواج ؛ كما أن عصرنا هذا يسبق العصر الذى امتدت فيه مطامح ادوارد الأول العظيمة ، واتسعت حتى نفشت بين الأمتين بما زعافا ، وجعلت الحرب بينهما مهلكة ضروسا ، فكان الانجليز يحاربون لإخضاع اسكتلندا ، والاسكتلنديون — بعزمهم الصارم — وعنادهم الذى تميزت به أمتهم فى كل المصور ، يحاربون للدفاع عن استقلالهم ، بأعنف الوسائل وتحت أسوأ الظروف ، مستهدفين لأشد المخاطر . أما الآن فكانت الحروب بين الأمتين — رغم حدتها وتكرار وقوعها — تقوم على مبادئ العداوة العادلة ، وتتسع رقعتها لظلال دمهنة ، تجدد فيها الألفة والاحترام الواجب نحو خصوم صرحاء كرماء ، سيبلهما لأن يلطفا ويخفقا من مغازع القتال ؛ ولذا فى أوقات السلم ، وبخاصة حينما تكون الأمتان — كما هما الآن — مشبكتين فى حرب نشبت فى سبيل دواع واحد مشترك ، حرب جعلتها عقائدهم الدينية عزيزة على النفوس ، كان المخاطرون البواسل من

---

(١) المقصود هنا بالنجوم ما بين انجلترا واسكتلندا .

الدولتين يقاتلون جنبا إلى جنب ، وليس للمنافسة الوطنية من أثر ، إلا أن تعمل على حثهما على أن تترك كل منهما الأخرى في جهادها في وجه العدو المشترك . وكان ريتشارد يتصف بالصراحة والخلق الحربي ، لا يفرق بين رعيته الخاصة ، وبين رعية وليم ملك اسكتلندا ، إلا بمقدار ما يظهرون من شجاعة وإقدام في ساحة الوغى ؛ يسمى جهده لأن يوفق بين الأمتين ؛ ولكن لما وقع الملك فريسة للمرض ، وساءت ظروف الصليبيين ، عاد إلى الظهور ذلك التنافر بين الفرقتين اللتين لم يؤلف بين صفوفهما إلا الحرب الصليبية — كما تنفجر الجراح العتيقة من جديد في جسم الانسان من تأثير مرض أو هزال .

والاسكتلنديون والانجليز كلاهما غيور حاد الطبع ؛ في نفسه أهبة لأن يسمى الظن بالآخر ، والاسكتلنديون أشد من الانجليز إحساسا بهذا ، لأنهم أكثر الأمتين ضعفا وعوزا — فأخذ أبناء الأمتين يشغلون بالشقاق الداخلي تلك الفترة التي حرمت عليهم الهدنة فيها القتال مع العرب . والاسكتلنديون — كزعماء الرومان الأقدمين — لا يرضون لغيرهم أن يملو عليهم ، كما أن جيرانهم ، أهل الجنوب ، لا يطبقون المساواة ، فتبادلو التهم والسباب ، وحط كل فريق من شأن الآخر ، سواء في ذلك عامة الجند وقادتهم وزعمائهم ، الذين كانوا خير صحاب وقت الظفر ، كأن وحدتهم لم تكن حينئذ أثم لهم من أى زمن مضى ، لالنجاح مسعاهم المشترك فحسب ، وإنما لسلامتهم جميعا كذلك . وبدأ مثل هذا التنافر يظهر كذلك بين الفرنسيين والانجليز ، والإيطاليين والألمان ، بل وبين الدنماركيين والسويديين ، ولكننا سنمضي في روايتنا هنا قبل كل شيء بما كان من شقاق وانقسام بين أمتين تنفيذهما جزيرة واحدة ، وهما لذلك أشد تحرشا لإحداها بالآخرى .

وكان دي فو من بين أشراف الانجليز جميعا ، الذين ساروا وراء مليكهم إلى فلسطين ، أشدهم تاملًا على الاسكتلنديين . كانوا جيرانه الأقربين ، وقد اشتبك معهم طوال حياته ، في حروب خاصة أو عامة ، وأوقع بهم كثيرا من المصائب ،

وتحمل على أيديهم غير قليل من الأرزاء ، وكان حبه وإخلاصه للملكة قويا شديدا كحب الكلب الإنجليزي قديما لصاحبه ، وكان شرسا لا يقربه أحد غير سيده ، حتى أولئك الذين لم يكن له شعور خاص نحوهم من حب أو بغض ، وكان فظا خطرا على كل من لم يكن معه هواء ؛ وما رأى دى فو مليكة قط يظهر أية إشارة من شارات الرضا والرافة لذلك الجنس اللثيم الفادر المتوحش<sup>(١)</sup> الذى نشأ على الضفة الأخرى للنهر الذى يفصل بين بلاده وبلادهم ، أو على الجانب الآخر لأى خط وهمي يشق الفيافي والقفار ويفصل بينه وبينهم ، إلا وتعلكته الغيرة والسخط ؛ بل إنه كان يشك فى نجاح الحملة الصليبية ، التى كان أولئك القوم يحملون فيها السلاح ، وكان ينظر إليهم فى دخيلة نفسه وكأنهم لا يفضلون كثيرا الأعراب الذين أتى لنزالهم ، بل وفوق ذلك كان دى فو يرى نفسه رجلا إنجليزيا صريحا هادئ الطبع ، لم يتعود أن يخفى أية إشارة — مهما خفت — من شارات الحب أو البغض ، ولذا فقد كان ينظر إلى التطرف والتلطف فى الحديث — الذى تعلمه الاسكتلنديون من تشبههم بالفرنسيين حلفائهم الدائمين ، أو الذى ربما كان ينبعث عن إعجاب بالنفس وتكتم فى الخلق — كأنه دليل على خطط ما كره يدبرونها ضد جيرانهم الذين كان دى فو يعتقد — والثقة الإنجليزية الحق تملأ نفسه — أن الاسكتلنديين لن يتفوقوا عليهم بمحض الرجولة الخالصة .

ومع أن دى فو كان يتأثر بهذه العواطف نحو جيرانه أهل الشمال — بل وكان يبالغ فيها ويثق عليها غير منقوصة ، حتى كانت تشمل أولئك الذين يتضوون منهم تحت لواء الصليب — فقد كان احترامه للملك ، وإحساسه بالواجب الذى يفرضه عليه عهد أخذه على نفسه للصليبيين ، يحرم أن عليه أن يظهر هذه العواطف بأية وسيلة ما ، إلا أنه أصر على أن يتحاشى غائلة الاسكتلنديين زملائه فى القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكان يتكتم ويكتئب إذا اضطرت الظروف أن يلاقهم حيناً ما ، وكان ينظر إليهم شزراً إذا التقى بهم فى المسير

(١) يقصد الاسكتلنديين .

أو النخيم ؛ ولم يكن أشرف الاسكتلنديين وفرسانهم ليتقبلوا هذا الازدراء بالتفاخي أو إهمال الجواب ، فكان أن أصبحوا ينظرون إليه كأنه عدو دائب لسود لأمة لم يحمل لها في الواقع أكثر من البفض وشيء من التحقير ؛ بل إن كل من أمعن ودقق ، عرف أنه وإن لم يعاملهم ببر المسيحية ، الذي يقضى على المرء أن يقاسى كثيرا ويطلب الرأفة والشفقة إذا تحكّم — إلا أنه لم يفته بأية حال أن يكرمهم — ولو قليلا وإلى مدى محدود — إكراما يخفف من عوز المحتاجين ، ويفرج من هم المكرويين ؛ وكان لتوماس الجزلاندى من الثروة ما يمدّه بالثؤونة والدواء ، فكان شيء من هذا المدد يتسرب سرا إلى منازل الاسكتلنديين ، وهذا الإحسان الجاني كان يقوم على عقيدة أن العدو على الصديق فى الأهمية ، ولا يتوسطهما رجال هم بين بين ، فإنما هؤلاء لاهم إلى أولئك ولا هم إلى هؤلاء ، وليسوا أهلا حتى للحجة من الفكر أو الاعتبار . وهذا البيان ضرورى للقارى كي يفهم جد الفهم ما ستفصله فيما على .

لم يبعد توماس دى فو كثيرا عن مدخل السراق الملوك حتى أدرك ما أدركته فى لمح البصر أذن ملك إنجلترا الحسادة ذات الخبرة والمعرفة بفن العزف والغناء ، وذلك أن الألحان الموسيقية التى طرقت أذنيه ، كانت تنبعث من مزامير العرب وقصباتهم وطبولهم ، وفى نهاية طريق طويلة ضربت الخيام على جانبيها ، متصلة بفسطاط رتشارد ، وقعت عيناه على حشد من الجنود الكسالى ، يجمعوا حول المكان الذى كانت أنغام الموسيقى تنبعث منه ، وهو يتوسط المعسكر ؛ ولشد ما كانت دهشته حين رأى بين الخوذات المتعددة الأشكال — التى كانت على رؤوس الصليبيين من الأمم المختلفة — عمامات بيضا وحرا با طولا ، مما كان يدل على وجود الأعراب المسلحين ؛ كما رأى كثير من رؤوس الجبال والإبل الضخمة المشوهة ، وقد مكنتها أعناقها الطويلة القبيحة من الإشراف على الجمع المحتشد .

عجب البارون لهذا المشهد واشتد سخطه ، إذ رأى منظرأ فريدا لم يكن يتوقعه ؛



ذلك لأن المادة جرت بأن تلقى أعلام الهدنة جميعاً ، وغير ذلك من رسائل العدو ، في مكان معين خارج الحدود . وتلفت شغوباً ذات اليمين وذات اليسار ، على يرى أحداً يستفسر منه عن علة هذه الظاهرة الجديدة الخطيرة .

وكان أول من وقعت عليه عيناه من الناس رجل يتقدم نحوه ، ظنه لأول وهلة من خطوه الرزين المتعجرف أسبانيا أو اسكتلندا ، ثم تمّ لنفسه وقال : « إنه اسكتلندي ؛ إنه فارس النمر ، لقد شاهدته مرة يقاتل في سبيل رجل من بني وطنه فيحسن القتال ولا يبالى » .

وقد كره أن يتندر القادم حتى بسؤال عارض ، وأوشك أن يمر بالسركنت وعلى سباه الاكتئاب والتكبر ، وكان لسان حاله يقول : « إني أعرفك ، ولكني لن أبذلك الخطاب » . ولكن فارس الشمال أفسد عليه خطته إذ أقبل عليه يقصده ، وبدأه بالمجاملة وقال : « سيدي دى فو الجزلاندي ، في ذمتي رسالة على أن أبلفك إياها » .

فرد عليه البارون الإنجليزى وقال : « ها ! رسالة تبلغنيها ؟ قل ما شئت وأوجز إنما أنا في خدمة الملك » .

فأجاب السركنت « إنما رسالتى أمس بالملك رتشارد مما تقوم أنت عليه ، لقد أتيتك بالصحة والعافية ، إن صح أُملى » .

وهنا رمق لورد جزلاندي الرجل الاسكتلندي بعين الرية والإنكار وقال : « لست بالطبيب المداوى على ما أعتقد يا سيدي الاسكتلندي — إنه لأقرب إلى ظني أن تأتى لملك إنجلترا بالمال والثراء » .

ولم يرض السركنت عن الأسلوب الذى أجابه به البارون ، فرد عليه في هدوء وقال : « إنما الصحة لرتشارد غفار وثروة للعالم المسيحي طرا — ولكني على عجل ، وأتوسل إليك أن تأذن لي برؤية الملك » .

فقال البارون : « كلا يا سيدي الكريم ، لن تراه حتى تُففى إلى رسالتك

بأكثر من ذلك جلاء . ليست غرف الأمراء الرضى مفتحة الأبواب لكل طارق  
كأنها نزل من منازل الشمال .

فأجاب المركنت وقال : « إن الصليب الذى أحمله يا سيدى — كما تحمله  
أنت — والأمر الجلل الذى أتيت لتبليغه ، يمتحان على الآن أن أتقاضى عن أسلوبك  
هذا ، الذى ما كنت لولا ذلك لأصبر عليه ؛ واعلم فى صريح العبارة بعد هذا أنى  
أتيت مى بطبيب من بلاد المغرب أخذ على نفسه أن يرى لنا الملك رتشارد .  
فقال دى فو : « طبيب من بلاد المغرب ! ومن ذا الذى يكفل لنا أنه لم يأت  
بالسم الناقع عوضا عن الدواء الناجع ؟ » .

« حياته ياسيدى — إنه يقدم رأسه كفالة لما يقول » .

فقال دى فو « كم من رجل خبيث ، ثابت العزم ، عرفت ، لم يُقم حياته  
وزنا ، بل يسيرُ إلى المقصلة مرحا كأن الجلالد رفيق له فى حلبة الرقص » .

فأجاب الرجل الاسكتلندى وقال : « حقيقة الأمر ياسيدى أن صلاح الدين  
— الذى لا يتكر عليه أحد أنه عدو كريم شجاع — قد بعث بهذا الطبيب إلى  
هنا ، ومعه حاشية شريفة وحرس نبيل ، ممن يليق بالمكانة العليا التى يرفع  
السلطان إليها « الحكيم » ، ومعه كذلك فاكهة وطعام وشراب لفرقة الملك  
الخاصة ، كما أنه يحمل رسالة جديرة بأن تصدر من عدو نبيل إلى عدو نبيل ، يرجو  
له فيها أن يسلم من الحى معافى ، حتى يتهيا لزيارة السلطان الذى سوف يأتيه ويده  
أحبد مسالو ، وخلفه مائة ألف فارس ؛ فهل تأذن — وأنت من أعضاء المجلس  
الملكى السرى — بأن تطرح عن هذى البعير أحمالها ، وأن تُمد المدة للقاء  
الطبيب النظامى ؟ » .

فأجاب دى فو وكأنه يحدث نفسه : « يا للمعجب ! ومن ذا الذى يكفل لنا شرف  
صلاح الدين فى أمر ، لو ساء فيه مقصده ، تلخص فى الحال من أشد خصومه  
وأقوام ؟ » .

فأجاب السر كنث : « سأكون أنا نفسي له ضميماً بشرى وحياتي ومالي » .  
فتتم دى فو ثانية وقال : « عجيباً ، رجل من أهل الشمال يكفل رجلاً من أهل  
الجنوب — اسكتلندى يضمن تركيا ! هل لى ياسيدى الفارس أن أسألك كيف  
أخفى بهمك هذا الأمر ؟ » .

فأجاب السر كنث : « كنت متغنياً فى الحج ، وكانت لدىّ حينذاك رسالة  
أبلغها ناسك (عين جدة المقدس) » .

« هلا تستأمننى على هذه الرسالة يا سر كنث ، وعلى ما أجاب به الناسك عليها ؟ » .

فأجاب الاسكتلندى قائلاً : « كلا ياسيدى » .

ورد عليه الرجل الأنجليزى فى أنفة وكبرياء وقال : « إني من أعضاء الجمع  
السرى فى إنجلترا » .

فقال السر كنث : « ليس علىّ لهذه البلاد حق الولاء ؛ وإن كنت قد تبعت  
جانب ملك إنجلترا فى هذه الحرب طائفاً ، إلا أنى مرسل من قبل المجمع العام للملوك  
والأمراء وكبار القوادى جيش الصليب المبارك ، ولهو لاء وحدهم أقوم برسالتى » .  
فأجاب البارون دى فو نفورا شاعها بأنفه وقال : « ها ! ماذا تقول ؟ اعلم يا من  
قد تكون رسول الملوك والأمراء ، أن ليس لطبيب أن يقرب فراش رتشارد ملك  
إنجلترا دون قبول رجل جزلاندا ، ولن يجسر على اعتراض مشيئتي إلا من أتى  
برسالة السوء » .

ثم هم بالانصراف فى كبر وخيلاء ، ولكن الرجل الاسكتلندى دنا منه ،  
واعترض سبيله ، ووجه إليه الخطاب فى صوت خافت ، ولكنه لم يخل من نبرة  
تم عن بعض الاعتزاز بالنفس ، وسأله إن كان يقدره كرجل كريم وفارس نبيل .  
فأجاب توماس دى فو فى شىء من التهمك والسخرية وقال : « الاسكتلنديون  
جميعاً أشرف بلاء بفضل مولدهم ونشأهم » ؛ ولكنه أحس بالحيف فى كلامه ،  
ورأى الدم يعلو فى وجنتى كنث ، فاستطرد قائلاً : « من الجرم أن يرتاب المرء فى أنك

فارس نبيل ، وإنه لا يتم على الأقل من رجل رآك وأنت تؤدي واجبك حق الأداء في جرأة وأقدام .

وصادت هذه الصراحة في هذا الاعتراف الأخير من نفس الفارس الاسكتلندي قبولا فقال : « إذن فاني أقسم لك يا توماس الجزلاني — وأنا رجل حسيب نسيب ، وأنا فارس ارتديت نطالقي وأتيت إلى هنا طلبا للشهرة والصيت في هذه الحياة الفانية ، والعفو عن ذنوبي في الحياة الآخرة — أني ، بحق هذا الصليب المبارك الذي أحل ، حين أوصى بخدمة هذا الطبيب المسلم ، لا أرى إلا إلى سلامة رتشارد قلب الأسد » .

فصق الرجل الانجليزي من هيئة هذه الضراعة ، وأجاب باخلاص أشد مما أظهره حتى آنئذ وقال : « خبرني يا فارس النمر لو أني سلّمت بأنك عن نفسك مقتنع بهذا الأمر ، فهل تظن أني أصيب في بلاد ، فنّ التسمم فيها ذائع بين الناس ذبوع فن الطهي ، إن أنا أتيت بهذا الطبيب المجهول ، يجرب عقاقيره في رجل ، محتمة لها قيمتها في العالم المسيحي » .

فأجاب الاسكتلندي قائلا : « سيدي — لا يسعى إلا أن أجيب بأن حامل ترسي وهو الوحيد من أتباعي الذي أفلت من الحروب والأوبئة وبقى لي يسهر على — قد أصيب منذ عهد قريب بهذه الحمى ذاتها ، التي حلت بالملك رتشارد الصنديد فشلت أهم الأعضاء في هذا المشروع المقدس ، وقامى منها كثيرا وتعرض لأخطارها ، فأمدته الحكيم بالدواء من منذ أقل من ساعتين ، وهو الآن يفت في نوم هادي ؛ أما أن هذا الحكيم يستطيع أن يشفي هذه العلة القاتلة فاني لا أشك في ذلك ، وأما أنه يرغب في الأداء فهذا ما يكفله — على ما أظن — أنه رسول من السلطان صاحب النفوذ ، وهو رجل طيب القلب مخلص أمين ، إن صح أن تطلق هذه الصفات على كافر أعمى البصيرة ؛ وكفينا ضمين أنه إن نجح في علاجه فله ثواب مؤكد ، وإن فشل عامدا فعليه الجزاء » .

وكان الرجل الانجليزي يصني مطرق النظرات ، كأنه يشك فيما يسمع ؛

ولكنه لم يكن عن الاقتناع راغبا ، وأخيرا رفع بصره وقال : « هل لي أن أرى خادمك المريض يا سيدي الكريم ؟ » .

فتردد الفارس الاسكتلندي وعلا الدم في وجتيه وأجاب أخيراً وقال : « بكل ارتياح يا لورد جزلاندا ، ولكنك يجب أن تذكر ، حين ترى حقارة مسكني ، أن نبلاء اسكتلندا وفرسانها لا يسرفون في الطعام ، ولا يتقلبون على الحرير ، ولا يأبهون لجلال المقام ، إنما هذى من خواص جيرانهم أهل الجنوب » ، ثم استطرد وقال : « إنى أقطن في بيت حقير يا لورد جزلاندا » ، وشدد التأكيد على كلمة « حقير » في عبارته وهو يسير نحو مقر إقامته المؤقت في شيء من التأني والتعنت .

وهما تسكن أهواءى فو ضد الأمة التي كان منها هذا الرفيق الجديد - ونشهد أننا لا ننكر أن بعض هذه الأهواء يرجع إلى ما سار عن هذه الأمة في المثل من الفقر والموز - فلقد كان فيه لديه من نبل المقصد ما لم يجب إليه إذلال رجل باسل جرىء ، أكرهته الظروف على أن ييوح بفاقة كان يود إخفاءها .

فقال : « عار على مقاتل الصليب أن يفكر في زخرف الدنيا أو في رغد العيش وهو يشق الطريق للاستيلاء على الأرض المقدسة ؛ إنما مهما تكبدنا من مشقة فنحن خير من جماعة الشهداء والقديسين الذين وطئوا هذه الأرض من قبلنا ، وهم الآن يسكون بمصاييح من ذهب وبنخيل دائم الاخضرار » .

ولم ينطق قط توماس الجزلاندى حياته بمحدث فيه من الكناية والاستمارة مثل ما في هذا الكلام ، وربما كان ذلك لأن هذا الحديث لم يعبر عن كل ما كان يجيش في نفسه من إحساس وعاطفة ، لأنه كان على شيء من حب اللهو وورع العيش ؛ وقد بلغنا حينئذ مكان الخيم الذي اتخذته فارس النمر له مسكنا .

وكان ظاهر المكان هنا يدل على أن قواعد التقشف ، التي كان الجزلاندى يرى أن الصليبيين جميعاً يجب أن يلزموها ، قد روعيت جميعاً : مساحة من الأرض قد تنسع لأن تقام فيها ثلاثون خيمة ، تُترك بعضها خلاء وفقاً لقواعد

الصليبيين في ضرب الخيام — وذلك لأن الفارس كان قد طلب أرضاً تتسع في ظاهر الأمر لحاشيته الأولى — وأقيم في بعضها الآخر قليل من الأكواخ الحقبيرة المصنوعة من غصون الأشجار ، والتي تظلها أوراق النخيل ، وكان يبدو على هذه المساكن أنها قد هُجرت كل الهجران ، فغرب الكثير منها وتدمر ، وكان الكوخ الأوسط — وهو يمثل مرادق القائد — يتميز بعلم صغير له ذيل كذيل السنونو ، رفع على رأس رمح وتهدلت ثناباه الطويلة على الأرض في مسكون ، كأنه يتألم من حرارة شمس آسيا المحرقة ؛ ولم يقف إلى جوار هذا الكوخ — وهو رمز نفوذ الاقطاع وشرف الفروسية — حاجب أو خادم أو حتى حارس واحد ؛ فإذا كان اسم المكان لا يدفع عنه المدوان ، فهو مكان لا يستحق الحراسة . أرسل السركنث حواليه نظرة كثيفة ، ولكنه كبح إحساسه ودخل الكوخ ، وأشار إلى البارون جزلاندا أن يتبعه ، ثم تلفت حواليه ثانية ، وأرسل نظرة فيها تمنن ، ثم عن إشفاف مشوب بشيء من الازدراء ، والإشفاف — كالحب — يسير دوماً مع الازدراء كما يقولون ؛ ثم نكس رأسه الشامخ ، ودخل كوخاً منخفضاً كاد جسمه الضخم أن يملأ كل فراغه .

وكان أهم ما يشغل داخل الكوخ سريران ، أحدهما خال ، وقد انتشرت عليه مجموعة من أوراق الأشجار وانتشر فوقه جلد ظبي ؛ وتدل الأسلحة الملقاة إلى جانبه ، والصليب الفضي المرفوع إلى رأسه في عناية ووقار ، على أن هذا السرير هو فراش الفارس نفسه ؛ أما السرير الآخر فكان يضم الليل الذي تحدث عنه السركنث ، وهو رجل قوى البنية ، غليظ الملامح ، تدل نظراته على أنه قد تجاوز سن الكهولة ؛ وكان سريره أكثر هنداماً وأشد نعمة من سرير سيده ، وقد بدا للعيان أن السركنث قد وقف ثيابه الفاخرة وعباءته الفضفاضة ، التي كان الفرسان يرتدونها في أوقات السلم ، وغيرها من الأشياء الدقيقة التي تتعلق باللباس والزين ، على توفير الراحة لخادمه الليل ؛ وفي مكان خارج الكوخ ، يقع تحت بصر البارون ، كان يجثو على ركبتيه غلام خشن الكساء ، يلبس حذاء طويلاً

من جلد الغزال ، وقلنسوة زرقاء ، وصدار له مشبك من الحديد انطقاً بريقه ، إلى جوار صحيفة بالية مملوءة بالفحم ، وكان يطهى في طبق من الصلب خبزاً من الشعير كان إذ ذاك — ولا يزال — طعاماً مستحباً لأهل اسكتلندا ، وكان جانب من ظبي يتعلق بدعامة من دعامات الكوخ الكبيرة ، ولم يكن من المسير على الرأى أن يعرف من أين كان هذا الظبي ، فلقد كان هناك كلب كبير من كلاب الصيد أكبر حجماً وأنبيل مظهرها من غيره ، حتى من تلك التى تقوم على حراسة الملك رتشارد وهو فى فراش المرض ، وكان الكلب يرقد وهو يقرب بينيه الفطير وهو يجف ، وحينما دخل الفارس وصاحبه الكوخ ، أرسل الكلب الأريب نباحاً مختنقاً ينبعث من صدره العميق كأنه رعد يقصف على أمد بعيد ، ولكنه لمح صاحبه ، فهز ذيله ونكس رأسه اعترافاً بوجوده ، وسكت عن تحيته ذات المجيح والضجيج كأن غريزته النبيلة قد علمته حشمة الصمت فى غرفة المريض .

وعلى حشية من الجلد إلى جانب السرير كان يجلس الطبيب المغربى الذى تحدث عنه السركنث ، وقد وضع ساقاً فوق الأخرى كما يفعل أهل الشرق عادة ، ولم يبد منه فى النور الضئيل غير قليل ، إلا أن النصف الأدنى من وجهه كانت تحجبه لحية طويلة سوداء ، أرسلها على صدره ، وكان يرتدى تقيّة قترية من صوف الغنم ، صنعت فى « استراخان » لونها قاتم ، وقطائنه الفضفاض — أو ثوبه التركى — كان كذلك ذا صبغة معتمة ؛ وفى هذا الظلام ، الذى كان يفسى ملامحه ، لم يبد من أسارير وجهه غير عيتين نافذتين ، يتألق فيهما بريق غير موهود ، فوق اللورد الانجليزى صامتا فى تهيب ووقار ، لأن هذا الرجل المائل أمام دى فو — رغم خشونة هيئته — كان عليه سبأ الكرب والموز يقاسهما برابطة جأش دون شكوى أو أنين ، ومثل هذا المشهد ، فى أى وقت كان ، يدعو توماس دى فو إلى احترام لا تثيره فى نفسه المظاهر الفاخرة التى تحيط بغرف الملوك ، مع استثناء غرفة الملك رتشارد وحدها .

ولم يُسمع لفترة من الزمن صوت غير أنفاس مطردة وثيدة يرددها العليل ، الذى كان ظاهره يدل على أنه فى سبات عميق .

وقال السر كنت : « لم يأخذ الكرى بمقد جفنيه لست ليال مضت ، كما يؤكّد لي الشاب الذي يباشره » .

فقال توماس دى فو وقد أمسك بيد الفارس الاسكتلندى وضغط عليها ضغطاً فيه من الإخلاص ما لم يبدُ في كلامه : « أيها الاسكتلندى النبيل ، ينبغي لك أن تعنى بخادمك هذا ، فهو لا يأخذ من الطعام ما يكفيه ؛ ولا من العناية ما يفتنيه » .

ورفع صوته بطبيعة الحال إلى نبرته المألوفة الحاسمة في العبارة الأخيرة من كلامه ، وحينئذ اضطرب الليل في سباته .

فقال : وكأنه يدمدم في حلم : « سيدى ، اى سر كنت النبيل ، هلا نشرب أنا وأنت من ماء الكليد<sup>(١)</sup> البارد الشافى بعد مياه الميون الآسنة في فلسطين ؟ » . فأمر السر كنت إلى دى فو وقال : « إنه يحلم بموطنه ، وإنه لسعيد في نفاسه » . ولم يكده يلفظ بهذه الكلمات حتى هب الطبيب من مكانه بجوار سرير المريض ، ووضع يد العليل — التي كان يرقب نبضها بعناية وحذر — على الفراش ، في هدوء وسكينة ، ثم أقبل على الفارسين وأمسك كلا منهما من ذراعه ، وأشار إليهما أن يلزما الصمت ، وسار بهما إلى خارج الكوخ .

ثم قال : « باسم عيسى ابن مريم ، الذى نكرم كما تكرمون ، ولسكتنا لا نحوطه بالخرافة العمياء ، لا تفسدا أثر الدواء الناجع الذى تناول منه المريض . في يقطته الآن إما حفته أو فقدان عقله ؛ اذهبا وعودا حيناً ينادى المؤذن من فوق المنارة بصلاة المغرب في المسجد ؛ وإذا بقى المريض دون قلق حتى آتئذ ، فاني أعدكم أن هذا الجندى الفرنجى سوف يقوى — دون إجهاد لصحته — على أن يتبادل معكما حديثاً قصيراً في أى أمر تسألانه فيه ، وبخاصة إن كان السائل سيده » .

فترجع الفارسان طوعاً للأمر الجازم الذى أمرهما به الطبيب ، وكان يبدو

(١) الكليد نهر في اسكتلندا .



عليه أنه يفهم جد الفهم أهمية الحكمة الشرقية السائرة ، وهي أن غرفة المريض مملكة الطبيب .

وتوقف الفارسان عن المسير ، ولبثا واقفين معاً لدى باب الكوخ ، وعلى سبيل السر كنت أنه كان يتوقع من زائر أن يودعه ، ويبدو على ذي فوكأن في نفسه شيئاً يحول بينه وبين أن يفعل ذلك ؛ ولكن الكلب انطلق من الخيمة وراءهما ورمى بوجهه الطويل الخشن في يد صاحبه ، كأنه يتوسل إليه خاشعاً أن يخلع عليه بعض عطفه ، ولم يكد الكلب يحظى من صاحبه بالرعاية التي أراد ، في كلمة طيبة ، وترتبت خفيف ، حتى ود أن يظهز غرफانه للتجميل وسروره بمجاوبة سيده له ، فخرج مسرعاً ، وهرب في مسيرة ، ومد ذيله ولوح به يمينا ويساراً ، وأداره هنا وهناك ، وهزه إلى أعلى وإلى أسفل ، وهو يجوس خلال الأكواخ التهيدة والرحبة التي وصفنا ، ولكنه لم يتخط حدود المنطقة التي عرف بفطنته أن علم صاحبه يحميها ، وبعد بضع وثبات من هذا القبيل ، دنا الكلب من صاحبه وتخلى لحينه عن مجونه ، وعاد إلى الجد الذي ألف ، وإلى حركاته الوثيدة ومسلكه المتواني ، وبدأ عليه الخجل لأنه تنحى إلى هذا الحد البعيد عن الرزاة وحكم النفس ، أيا كان الباعث على ذلك .

فنظر الفارسان جذلين ؛ أما السر كنت فقد حق له أن يفخر بكلية النبيل ، وأما البارون الانجليزى — وهو من أهل الشمال — فقد كان بطبيعة الحال ممن يعجبون بالصيد ، فيستطيع أن يقدر ماثل هذا الكلب من جدارة .

فقال : « إنه كلب سليم قدير ، وإنى لأظن بإسيدي أن لو كان لهذا الكلب من القوة ماله من سرعة العدو ، إذن فلن يكون له لدى الملك رتشارد صنو أو نظير ، ولكنى أرجوك — وأنا أكلك بالشرف والكرامة — أن تخبرنى هلاً سمعت بالبيان الذى يحتم على كل من هم دون مرتبة « الأيرل » أن لا يقتنوا كلاب الصيد فى دائرة الملك رتشارد بغير إذن منه ، وما أظن ياسير كنت أنك استصدرت من المليك هذا الإذن ، وإنى أكلك الآن كتابع من أتباع الملك » .

فقال السركنت محتدا : « وإني أجيئك كفارس اسكتلندي حر ؛ إني أسير اليوم تحت لواء إنجلترا ، ولكنني لا أذكر أنني خضعت يوما لقوانين الغاب التي تسود في هذه الدولة ، بل وإني لا أحمل لها من الاحترام ما يدفعني إلى ذلك ؛ إذا نفخ في البوق لحمل السلاح خفت قدماي إلى ركابي كما يخف غيري ، وإذا رن رنينه للحمل على العدو ما تخلف رجلي وراء غيره أو استكن ؛ ولكنني إذا فرغت من واجبي وكانت ساعة التراخي ، فليس من حقك تشارد أن يحول بيني وبين زهقي وراحتي » .

فقال دى فو : « ومع ذلك فإنه من الحق أن لا تطيع سنة المليك ، ولذا فهل تسمح لي — بصفتي صاحب النفوذ في هذا الأمر — أن أبث إليك بما يحمي صاحبي هنا ؟ » .

فأجاب الاسكتلندي في برود : « شكرا لك ، ولكنه يعرف الحى الذى يخصني ، وفي حدود هذا الحى أستطيع أن أدفع عنه بنفسى ، ومع ذلك . . . » وهنا بدل أسلوب كلامه واستطرد قائلا : « ومع ذلك فما هذا إلا رد بارد منى لمطف نبيل المقصد ؛ إني أشكرك يا سيدى بكل قلبي ، إن رؤساء الاصطبل الملكى قديرون في «رزوال» ( اسم الكلب ) بعض المضرة فيلحقون به الأذى ، ولكنني قد لا أتوانى في رد هذا الأذى ، وقد يتجم الشر عن ذلك ، لقد رأيت الكثير من شؤون دارى يا سيدى » ، وهنا تبسم واستأنف الحديث وقال : « فلا أرى بي حاجة إلى أن أستحي من أن أقول بأن «رزوال» هو أهم ما يمدنا بالوئونة ، وإني لشديد الأمل في أن تشارد الأسد لن يكون كاللث الذى نسمع به في الأغاني الخرافية ، الذى خرج للصيد وعاد بالفنيمة كلها لنفسه ؛ إني لا أظن أنه يرضن على رجل كريم فقير ، من اتباعه الخلعين ، بساعة يلهو فيها ، وجناح طائر يتبلغ به ، وبخاصة إذا كانت الأطعمة الأخرى عسيرة التناول » .

فقال البارون : « وحق ما أعبد إنك إنما تنصف الملك ، ولكن في ثنايا لفظك — رغم رفته وعذوبته — ما يشير ثائرة كل أمير نورماندى » .

فقال الاسكتلندى : « لقد سمعنا أخيرا من أفواه النشدين والحجاج أن جماعة من طريدى الدهماء فى بلادكم قد ألفوا عصابات كبيرة فى مقاطعتى يورك وتنجهام وعلى رأسهم نبال شديد البأس يدعى « روبن هود » ، ووكيله « جون الصغير » ، وإنى لأظن أنه خير لرتشارد أن يتراخى فى تطبيق قانون القاب فى إنجلترا من أن يفرضه فى الأرض المقدسة » .

فأجاب دى فو وقد هز كتفيه كأنه يود أن يتحاشى التضبط فى جدل خطر كرهه وقال : « حقا إنه لعمل عنيف يا سر كنث ، وإنها لدنيا جنون يا سيدى — والآن يجب أن أودعك ، إذ لا بدلى أن أسارع بالعودة إلى سرادق الملك ، وسأعودك فى مسكنك إن رضيت ساعة الغروب ، وأحدث إلى هذا الطبيب المشرك ؛ وإنى لأحب بطيب الخاطر أن أبعث إليك بما يسرى عنك ولو قليلا ، إذا كنت لا ترى فى ذلك إيذاء لنفسك » .

فقال السر كنث : « أشكرك يا سيدى ، لا حاجة بى إلى ذلك ، لقد أتى « رزوال » إلى خزانه ما كلى بما يكفينى أربعة عشر يوما ، فإن شمس فلسطين ، التى تجلب الأمراض ، تساعد على حفظ لحم الغزال مقددا جافا » .

ثم اقترق المحاربان وهما أشد صداقة مما التقيا أول الأمر ، وقبل أن ينفصلا ، وقف توماس دى فو يتعرف بشيء من الأسهاب الظروف التى تلبس بمشة هذا الطبيب الشرقى ، وتسلم من الفارس الاسكتلندى وثائق الاعتماد التى أتى بها من صلاح الدين للملك رتشارد .

## الفصل الثامن

الطبيب الحكيم يحقق شفاء الجروح  
أجدى على الإنسان من جيوش وجيوش .  
من الايالة ترجمة « بوب »

استمع الملك المريض إلى ما نبأه به بارون جزلاندا الصادق الأمين ، ثم قال :  
« هذه قصة عجيبية يا سر توماس ، هل أنت على يقين من أن هذا الرجل الاسكتلندي  
صادق أمين ؟ » .

فرد عليه الرجل الفيور ساكن الحدود وقال : « لا أستطيع أن أجيبك على  
ذلك ياسيدى ، إنى أسكن بلدا شديداً القرب من الاسكتلنديين ، ولكنى لم أتبين  
فيهم كثيراً من الصدق ، وقد وجدتهم أبداً يتذبذبون بين الحق والباطل ؛ ولكن  
هذا الرجل يتخلق بالصدق ، وسواء كان شيطانا أم اسكتلنديا ، فإن من واجبي  
أن أعترف له بهذا إرضاء لضميرى » .

ثم سأله الملك وقال : « وماذا ترى في هيئته كفارس يا دى فو ؟ » .  
« إن جلالتهم أعرف مني بهيئات الرجال وسلوكهم ، وإنى على ثقة من أنكم  
قد لحظتم كيف كان مسلح رجل النمر هذا ، فلقد تحدث الناس عنه طويلا » .  
قال الملك : « حق ما قلت يا توماس ؛ إنا شهدناه بأنفسنا ، ولقد كان مرمانا

أبداً من تصد المارك أن نرى كيف يقوم موالينا وأنباعنا بواجباتهم ، ولم نتقدم  
قط الصفوف مدفوعين بشهوة الزهو والفرو ، كما قد يتطرق إلى أذهان بعضكم ؛  
إننا نعلم أن ثناء الانسان زهو باطل ، وإن هو إلا كبخار الماء ، ولذا فلقد شككنا  
السلاح لأغراض أخرى ، لا طمعا في اجتلاب المدح والثناء » .

فصمق دى فو حينما سمع الملك وهو يلقي هذا البيان الذى لا يتفق وطبيعته ،  
وظن لأول وهلة أنه لم يعمد إلى هذا الحديث المهيمن عن الشهرة العسكرية — وقد  
كانت له بمثابة الأنفاس يستنشقها — إلا لاقتراب الموت منه على الأقل ، ولكنه

تذكر أنه التقي في السراشق الخارجي بالقس الذي تعود الملك أن يعترف له ، ففطن إلى أن إذلال النفس هذا ، الذي تملك الملك إذ ذاك ، هو من أثر الوعظ الذي ألقاه ذلك الرجل المقدس ، فلم يحرجوا ، وإنما أخذ يكابد الملك وقد استأنف الحديث . وقال رتشارد مستطردا : « أى نعم ، لقد شهدتُ حقا بأى أسلوب كان هذا الفارس يقوم بواجبه ، والله لولا ملازمته لى لما كان لمصا قيادتى شأن يذكر ؛ لقد أصابه قبل اليوم شيء من جودنا ، ولكنى لحظت فيه الاعتداد بالنفس والصلف والإقدام » :

وهنا لحظ بارون جازلاند أن الملك قد تغيرت ملامحه فقال : « مولاي ، إنى لأخشى أن أكون قد اعتديت على جلالكم باغضائى قليلا عن تجاوزه وعدوانه . فأجاب الملك وقد قطب جبينه وتكلم بلمحة الدهشة والغضب وقال : « كيف هذا يا دى ملتن ؟ هل أنت تتجاوز عن صحته ؟ إن هذا لن يكون » .

« هل لمولاي أن يأذن لى أن أذكره أن من حق وظيفتى أن أسمح لمن كان من دم كريم أن يقتنى كلبا أو كليبن فى المسكر ، وذلك إبقاء على الفن النبيل ، فن الصيد والقتص ؛ بل إنه لمن الجرم أن نشوه أو تؤذى مخلوقا ودبما ككلب هذا الرجل الكريم » .

فقال الملك : « إذن إن له لكلباً مليح المنظر » .

فأجاب البارون ، وهو رجل شديد الحب للقتص فى الخلوات ، وقال : « إنه لمخلوق سماوى وافر الكمال ، وهو من أنبل الفصائل الشمالية ، عريض الصدر ، قوى العجز ، أسود اللون ، مرقش من قُبُل وعلى الأقدام بخطوط داكنة ، عليه سمات شهباء تضرب إلى البياض ، فيه قوة يصرع بها الفحل ، وسرعة يطارد بها الوعل » .

فضحك الملك من هذه الحساسة وقال : « وقصارى القول إنك قد أذنت له باقتناء الكلب وانتهى الأمر . ولكنى أحذرك ألا تهانوا فى إصدارك إذنك كل هذا التهانوا بين هؤلاء الفرسان ، الذين ليس لهم أمير أو قائد يركنون

إليه ؟ إنهم قوم شديدو المراس ، وقد لا يخلّفون في فلسطين بأسرها صيداً يقتنص  
— ولكن دعنا من هذا ، وخبرني عن علم هذا الرجل المشرك ، إنك تقول إن  
الاسكتلندي قد لاقاه في الصحراء ، أليس كذلك ؟ » .

« كلا ياسيدي ، قصة الاسكتلندي كما يلي : كان في طريقه رسولا إلى ناسك  
عين جده الذي يتحدث الناس عنه كثيراً — » .

وهنا هب رتشارد من مرقدته وقال : « يالفداحة الخطب ! من الذي بعث به ،  
وفي أي أمر من الأمور ؟ من ذا الذي يجروّ على إرسال رجل أيا كان إلى هناك ،  
وملكتي في دير عين جدة ، وقد حجت إليه تدعوني بالشفاء ؟ » .

فأجاب البارون دي فو وقال : « هو رسول من قبل مجمع الصليبيين ياسيدي ،  
وقد أبى أن يخبرني بالفرض من بعثته ، ويخيل لي أن أحداً في المعسكر لا يعلم أن  
الملكة زوجكم قد رحلت إلى الحج ، وحتى الأمراء أنفسهم قد لا يعلمون ذلك ،  
إذ أن الملكة قد تنحّت عن الجماعة مذ حرمت عليها جلالتهم أن تدنو منهم حفاظاً  
لها من العدوى » .

فقال رتشارد : « إن هذا لأمر يتطلب النظر . إذن لقد التقى هذا الرجل  
الاسكتلندي ، هذا الرسول ، بطبيب متجول لدى كهف عين جدة ، أليس كذلك ؟  
خبرني ؟ » .

فأجاب دي فو وقال : « كلا ياسيدي ، إنما التقى هذا الرسول ، حسب ظني ،  
قريباً من ذلك المكان بأمر عربي ، وكان بينهما عراك ، قصداً به امتحان ما هما  
عليه من جرأة وشجاعة ، ولما ألقاه جديراً برقة الشجمان ، انطلقا معاً إلى غار عين  
جدة ، كما ينطلق فارسان شاردان » .

وهنا سكّت دي فو ، لأنه لم يكن ذلك الرجل الذي يستطيع أن يروي قصة  
طويلة في عبارة وجيزة .

فسأله الملك وقد نفذ صبره : « وهل التقيا بالطبيب هناك ؟ » .

فأجاب دي فو : « كلا ياسيدي ، ولكن العربي حينما علم بمرض جلالتهم

المضال ، وعد بأن يبعث صلاح الدين بطبيبه الخاص إليك ، مؤكدا لك أشد التأكيد براعته وحذقه . فجاء الطبيب إلى القار بعد أن لبث الفارس الاسكتلندي يترقبه يوما وبعض يوم ؛ جاء تحوطه الرعاية كأنه أمير تدق له الطبول ويتبعه الحشم راكبين وراجلين ، ومعه خطابات الاعتماد من صلاح الدين .

« وهل خصها جيا كرمو لورداني ؟ » .

« لقد عرضتها على الترجمان قبل أن آتى بها إلى هنا ، وإليك ما اشتملت عليه » . فتناول رتشارد قرطاسا دونت عليه هذه الكلمات : « سلام الله ورسوله محمد . تحية من صلاح الدين ملك الملوك ، سلطان مصر وسوريا ، نور الدنيا وملاذها ، إلى رتشارد العظيم ملك إنجلترا . أما بعد ، لقد نما إلينا ، يا أخانا في الملك ، أن المرض قد مد إليك يدا ثقيلة لا تحتمل ، وأن ليس لديك من الأطباء غير النصارى واليهود ، الذين يعملون بغير بركة الله ونبيينا الكريم ولذا فإننا مرسلون إليك بطبيبيننا الخاصين يقوم برعايتك ، ويسهر على راحتك ، وهو ( أدُنْبَكْ ) الحكيم الذي إن رآه عزرائيل نشر جناحيه ورحل عن غرفة المريض ، والذي يعلم مزايا الأعشاب والأحجار ، ومسير الشمس والقمر والنجوم ، وفي وسعه أن ينقذ الإنسان من كل ما لم يكتب على الجبين ؛ وإنا لهذا فاعلون ، متوسلين إليك من أعماق القلوب ، أن تكرمه وتنفيد من حذقه ، وإنا لم نفعل ذلك خدمة لقدرك وشجاعتك فحسب — وهما نغر دول الفرنجة قاطبة — وإنما فعلناه كي نقضى على الخصومة القائمة بيننا الآن ، إما باتفاق شريف وإما علناً بحد السيف في ساحة القتال ، وذلك لأننا نرى أنه لا يليق بمكانتك وشجاعتك أن تموت ميتة العبد قد أنهكه سيده بالعمل ، ولا يلائم اسمنا بين الناس أن يتزعزع المرض من أسنة رماحنا خصما جريئاً مثلك . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » .

فصاح رتشارد : « كفى ، كفى . والله إنه ليضعاف من مرضى أن هذا السلطان الشجاع ، صاحب المقام الرفيع ، يعتقد في دين الإسلام ؛ أجل سوف أرى طبيبه ، وسوف أسلم نفسي لهذا الحكيم ، وسوف أرد لهذا السلطان النبيل

جوده ونواله ، وسوف ألتقي بصلاح الدين في ميدان القتال وفقاً لرأيه السديد ؛ ولن تترك له مجالاً كي يسم رتشارد ملك إنجلترا بالجهود ونكران الجليل ، وسوف أدق عنقه وألقيه طريح الأرض بفأسي ، وسوف أردّه إلى حرم المسيحية بضربات لا أظنه عانى لها من قبل مثيلاً ، وسوف ينبذ ضلاله أمام سيّفى الكريم ، ذى اليد الصليبية ، وسوف أعمّده بالمسيحية في ساحة الوغى من خوذتى ، حتى وإن امتزجت مياه الطهور بدى ودمه ؛ هيا يادى فو ، ولا تؤخر عني هذه النهاية الراضية البهيجة ، هات الحكيم هنا .

فقال البارون وقد رأى أثر الحلى في هذه الثقة بالنفس المتدفقة : « اعلم مولاي أن السلطان من المسلمين وأنت خصمه اللدود — » .

« ولهذا حق عليه أن يخدمنى في هذا الشأن ، كي لا تحسم هذه الحلى الطفيفة نزاعاً بين ملكين مثلى ومثله ؛ اعلم أنه يجبنى كما أحبه — وكما يتحاب الخصوم النبلاء في كل حين — وشرفى إنه لمن الجرم أن أرتاب في حسن طويته ! » .  
فقال لورد جزلاندا : « ومع ذلك فإنى أرى من الحكمة يامولاي أن تترى حتى ترى أثر هذا الدواء في الخادم الاسكتلندى ، إن هذا أمر تتعلق به حياتى ، فإنى لو اندفعت في هذه السبيل ، وتحطمت سفينة العالم المسيحية على يدى ، لحقّ على أن أموت كما يموت الوغد اللدود » .

فرد عليه ريتشارد وهو يؤنبه : « لم أعرفك قبل اليوم متردداً خشية الموت » .  
فأجاب البارون ذو القلب الحديدى : « وما كنت لأتردد الآن يامولاي لولا أن حياتك مع حياتى على كف عفريت » .

فقال رتشارد : « إذن فلتذهب عني ما دمت رجلاً تداخله الريبة ، وارقب سير هذا الدواء ؛ والله إنى لأود لو شفانى أو أودى بحياتى ، فلقد كللت من رقدتى هنا كالثور يقضى عليه الطاعون في وقت تدق فيه خارج السرادق الطبول ، وتدوس فيه الأرض الخمول ، ويرن فيه رنين الأبواق » .

حينئذ سارع البارون بالرحيل واعتزم أن يبلغ رسالته رجلاً من رجال



الكنيسة ، إذ قد أحس بعض الوخر في ضميره لأنه أدرك أن سيده سوف يكون تحت رعاية رجل من الناققين .

وكان رئيس أساقفة (صور) هو أول من بث إليه شكوكه ، إذ كان يعرف عنه اهتمامه بمولاه وتشارد ، الذي كان يحب هذا الأسقف الحكيم وبجمله ، فاستمع الأسقف إلى هذه الشكوك التي حدثه بها دى فو ، متنبها ذلك التنبيه الدقيق الذي يتميز به رجال الدين من الرومان الكاثوليك ، ونظر إلى هذه الريب الدينية التي كانت تساور دى فو بالاستخفاف الذي يلائم نيافته أن يقابل به أمراً كهذا من أمور الدنيا .

فقال : « إنعما الأطباء — كالدواء الذي يستخدمونه — عظيمو النفع ، ولكنهم من أذلل بنى الانسان مولداً ونشأة ، كما أن الدواء كثيراً ما يستخرج من أحط المواد » ثم قال : « ولكم معشر الرجال أن تستعينوا عند الحاجة بالكفار والمشركين ، بل إنى ليخيل لى أن من أسباب استبقائهم على وجه الأرض أنهم قد يعملون على راحة المسيحيين المخلصين ، ولذا فنحن نستبعد الأسمى من الكفار شرها » .

واستطرد قائلاً : « هذا إلى أنه ليس من شك فى أن المسيحيين فى جاهليتهم كانوا يستغلون الكفار الذين لم يعتنقوا المسيحية ، ولك مثل فى سفينة الإسكندرية التى أبحر فيها إلى ايطاليا بولس الرسول — بارك الله فيه — فلقد كان ملاحو السفينة كفاراً ، ولا مشاحة فى ذلك ، وهل تدرى ماذا قال هذا القديس المكرم حيناً أحس بالحاجة إلى خدمتهم ؟ قال لاسبيل إلى خلاصكم إلا إن كان معكم هؤلاء الرجال على ظهر السفين ، وفضلاً عن ذلك فإن اليهود كالمسلمين ، كلاهما مارق من المسيحية ، وليس بالمسكر إلا قليل من الأطباء من غير اليهود ، ونحن نستخدم هؤلاء دون رية أو عار ، ولذا فإنى أستبيح الإفادة من المسلمين فى هذا الشأن ، وقد بينت لك جواز ذلك <sup>(١)</sup> » .

---

(١) هذه العبارة باللاتينية فى الأصل .

هذه الأدلة أزالته عن توماس دى فوكل شك قائم في ضميره ، وقد كانت للمعتبسات اللاتينية خاصة أثر شديد على نفسه لأنه لم يفقه منها كلمة واحدة .

ثم استطرد الأسقف الحديث ، وهو أقل طلاقة من ذي قبل ، وعرض له أن الرجل العربي قد يتقدم إلى العمل بنية سيئة ، ولكنه لم يستطع أن يحسم في الأمر على عجل ، وقدم له البارون خطابات الاعتماد فقرأها وقرأها وقارن بين الأصل والترجمة .

ثم قال : « والله إنها لمكيدة قد دبرت على هوى الملك رتشارد ، وإني لا أسمعني إلا أن أرتاب في هذا العربي الماكر ؛ إنهم قوم برعوا في فن السموم ، ويستطيعون أن يخفّفوها حتى تلبث الأسابيع وهي تسرى في الجسم ، فيتسنى لمحضّر السم إبان ذلك أن يلوذ بالفرار ؛ إنهم يستطيعون أن يدسوا في الأقمشة والجلود ، بل وفي الورق والرق خفي السموم — غفرانك يا مريم ! — كيف لي وأنا بهذا علم أن أمسك بخطابات الاعتماد هذه وأدّنها من عيني — خذها مني يا سر توماس ، خلصني منها سرّيا » .

ثم سلمها للبارون ، وهي منه على بعد ذراع ، وعليه لفة العاجل ، واستطرد قائلاً : « ولكن هيا بنا يا سيدى دى فو إلى خيمة الخادم المريض ، حيث نستطيع أن نعرف إن كان هذا الحكيم خبيراً حقاً بفنون العلاج التي يدعيها لنفسه ، قبل أن نفكر في سلامة الملك إذا نحن أذنا له أن يباشره بفنه — ولكن كف اودعني أولاً آتني بصندوق عطوري ، فإن هذه الحميات تنتشر انتشار الدوى ، وإني أشير عليك يا سيدى بأن تتناول حصى البان منقوما في الخل فإنني كذلك أعلم شيئاً عن فنون العلاج » .

فأجاب توماس الجزلاندى وقال : « أشكرك يا نيافة الأسقف ؛ إني أظن أن لو كان لهذه الحصى أن تنال مني لأصابتني منذ زمن طويل وأنا ملازم جوار فراش سيدى » .

فجعل أسقف صور من هذا الجواب لأنه كان يتحاشى الملك المريض ، ثم أمر البارون أن يتابع السير .

ولما مر بالكوخ الحقير ، الذى كان يقطن به كنت صاحب النمر وتابعه ، قال الأسقف لى فو : « والآن اعلم يا سيدى يقينا أنت هؤلاء الفرسان الاسكتلنديين أقل بأتباعهم عناية منا بكلابنا ، فهذا فارس يقولون إنه جرىء فى القتال ، ويرويه جديرا بأن يتحمل جسم التبعات فى زمن الهدنة ، وهذا تابع من أتباعه يسكن فى كوخ أحط من أسوار بيوت الكلاب فى إنجلترا ، فإذا أنت قاتل فى جيرانك هؤلاء ؟ » .

فقال دى فو : « إني أرى أن السيد يقوم بما يكتفى نحو خادمه إذا أسكنه فى بيت لا يقل عن بيته » ثم دخل الكوخ وتبعه الأسقف ، وعليه إمارات التأتبي والإحجام بادية ، فهو ، وإن لم تنقصه الشجاعة من بعض نواحيها ، إلا أنها كانت شجاعة ممزوجة باعتبار قوى شديد لسلامته وأمنه ، ولكنه تذكر أن من واجبه أن يحكم بنفسه على حذق الطبيب العربى ، فدخل الكوخ متعاليا بذاته شاخا بأنفه ، متكلفا ذلك ، ظنا منه أن فى هذا ما يدعو إلى احترام القادم الغريب .

وكان الأسقف حقا رجلا يجذب النظر ، عليه سيما الهيبة والنفوذ ؛ كان فى شبابه فارط الجمال ، وحتى فى شيخوخته لم تقل رغبته فى النظاهر بالجمال ، فكان زيه الكنسى من أنفاس طراز ، حواشيه مزركشة بالفراء الثمين ، ويتلفع بمباءة جميلة التطريز ، وعلى أصابعه خواتم تليق برجل يتأمر على مقاطعة من المقاطعات الكبيرة ، ويلبس على رأسه قلنسوة كانت إذ ذاك محمولة الرباط ، ومطروحة إلى الخلف من حمارة القبط ، وللقلنسوة أضرار من الذهب الخالص يوتقها بها حول رقبتة وتحت ذقنه وقما يشاء ؛ ولحيته الطويلة التى فضضها العمر تتدلى على صدره ؛ وكان له سادنان شابان يريانه ، أحدهما يحمل فوق رأسه مظلة من أوراق النخيل الهندى ينشر بها ظلا مصطنعا ، كانت تألفه بلاد الشرق حينذاك ، والآخر ييده مروحة من ديش الطاووس يهز بها كى يروح عن سيده الكريم .

وحينما دخل الأسقف كوخ الفارس الاسكتلندى كان صاحب الدار متنبئاً ، والطبيب العربى — الذى جاء لرؤيته — يجلس الجلسة عينها التى خلفه عليها دى فو منذ ساعات عديدة ، متصالب الساقين فوق حصير من أوراق الأشجار المقصوصة ، إلى جوار العليل الذى كان فى سبات عميق ، والذى كان يحس نبضه حيناً بعد حين ؛ ولبت الأسقف منتصباً قبالة فى سكون مدة دقيقتين أو ثلاث كأنه يرتقب منه تحية شريفة يحببها ، أو كأنه كان على الأقل ينتظر من هذا العربى أن يذهل لنبل مظهره ، ولكن أدنبك الحكيم لم يمرر التفاته ، اللهم إلا لحة عجلي ، وأخيراً لما حياه الأسقف باللغة الفرنجية السائدة فى تلك البلاد ، لم يجبه بأكثر من التحية الشرقية المألوفة ، وقال : « عليكم السلام » .

فقال الأسقف وقد صمق من هذا الاستقبال الفاتر : « أنت طبيب أيها الكافر ؟ أريد أن أحدث إليك فى هذا الفن » .

فأجاب الحكيم وقال : « لو كنت تعلم فذلك من الطب لعرفت أن الأطباء لا يتشاورون ولا يتجادلون فى غرف مرضاهم » . ثم قال وقد سمع للكلب من الكوخ الداخلى دمدمة خافته « اصغ ! حتى الكلب يملك التعمق ، فهل علمت ؟ إن غريزته تهديه أن يكتم نباحه حتى لا يسمعه الرجل المريض » . ثم قال وقد هب من مكانه وتقدم نحو الطريق : « هيا بنا خارج الخيمة إن كان لديك شيء تريد أن تحدثنى عنه » .

ورغم سذاجة الطبيب العربى فى ملبسه ، وضوؤة جسمه إذا قيس بالأسقف الطويل القامة والبارون الأنجليزى الضخم ، فلقد كان فى مسلكه وطلعته شيء يجذب الأنظار ، شيء حال بين أسقف صور وبين أن يحتج على هذه الإهانة التى لحقت من الاستخفاف بمقدمه ؛ ولما بعدا عن الكوخ ، صوب نظره بضع دقائق فى صمت نحو « أدنبك » ، وذلك قبل أن يستقر بينه وبين نفسه على خير أسلوب يجد به ما انقطع بينهما من حديث ؛ وكان العربى يلبس فوق رأسه عمامة كبيرة لا تظهر

من تحتها خصل الشعر ؛ وكانت العمامة تخفى كذلك أحد حاجبيه ، وكان غزيراً طويلاً ناعماً خالياً من التجاعيد ، كما كانت وجنتاه الباديتان تحت ظل لحيته الطويلة ، هذا وقد ذكرنا من قبل نقاذ عينييه السوداوين .

وكان الأسقف مأخوذاً بالفتوة البادية على صاحبه ، ولكنه تمكن أخيراً من شق السكون الخيم — ولم يبد على العربي أنه كان يتعجل تكبير صفوه — وسأل الأسقف العربي عن عمره ؛ فأجاب : « إنما تقاس أعمار عامة الرجال بتفضن البشرة ، أما العلماء فتقاس أعمارهم بما يحصلون من علم . وإنى لا أجرو على الظن بأنى أزيد على مائة حول بعد الهجرة <sup>(١)</sup> » .

وفهم بارون جزلان هذه العبارة على ظاهر معناها ، وظن أن العربي قد عاش قرناً من الزمان ، فنظر إلى الأسقف نظرة الشك والريبة ، ورغم أن الأسقف كان خيراً منه فهماً لما رمى إليه الحكيم ، إلا أنه رد عليه نظره بهز رأسه هزة الدهشة والتعجب ؛ ثم استرد هيئة الجد وأعاد السؤال على أدنك بصيغة الجزم والأمر ، وطلب إليه أن يقدم الدليل على كفاءته في طبه .

فرد عليه الرجل الحكيم — وقد وضع يده على عمامته دليلاً على الاحترام والتقدير — وقال : « إن لديك كلمة صلاح الدين العظيم ، وهي كلمة لم يحنث فيها قط لعدو أو صديق ، فهل تريد شيئاً أكثر من ذلك أيها النصراني ؟ » . فقال البارون : « أريد منك دليلاً على مهارتك أشهده بعيني ، ولن تقرب سرير الملك رتشارد بغير ذلك » .

فقال العربي : « جزاء الطبيب شفاء المريض ؛ انظر إلى هذا الجندي الذى جفنت دماءه الحمى — وقد أصابت تخيمكم فيبضت أديمه بمظالم الموتى — تلك الحمى التى وقف فن أطباؤكم المسيحيين إزاءها كما تقف الصدرة الحمرية في وجه الرمح الصلب ؛ انظر إلى أصابعه وذراعيه وقد هزلت وباتت كخطاب الكركى وعظام سوقه ؛ والله لقد حلق الموت هذا الصباح فوق رأسه ، ولكن لو أن غزرائيل بجانب سريريه ، وأنا

---

(١) يقصد بذلك أن له من الاطلاع والعلم ما يحصل في مائة عام .

بجانبه الآخر ، ما فارت الروح منه الجسد ؛ لا ترجعني بسؤال بعد هذا ، وإنما تريث حتى تحمل ساعة الفصل واشهد الخاتمة العجيبة وأنت صامت ذاهل .

ثم لجأ الطبيب إلى الإسطرلاب ، وهو مصدر الوحي للعلم في الشرق ، ولبث يرقب بجذو وإيمان ، حتى إذا ما حان وقت صلاة العشاء ، خر على ركبتيه وعم وجهه شطر مكة ، وصلى لله الصلاة التي يحتتم بها المسلمون اليوم بعد العمل ، فتبادل الأسقف والبارون الانجليزى النظر ، وعليهما إمارات الازدراء والحنق ، ولكن أحداً منهما لم ير أن من اللياقة فى شيء أن يعترض الحكيم فى صلواته مهما تكن فى اعتبارها خالية من كل تقديس .

ونهض العربى من الأرض التى خر عليها ساجدا ، وولج الكوخ حيث كان الليل ممتداً على فراشه ، ثم أخرج من صندوق صغير من الفضة اسفنجة مشربة بقطرات المطر ، ووضعها على أنف النائم ، فطمس وتيقظ ، ثم تلفت حواليه هاأنجا مذعوراً ، وكانت مرآة مرهوبا ، وقد هب على سريريه شبه عار ، عظامه وغضاريفه ينم عنها ظاهر الجلد ، كأنها لم تكن يوماً بلحم ، ووجهه طويل ، تشققه الفصون أخاديد ، وكانت عيناه أول الأمر حاثرتين ، ولكنهما أخذتا يهدآن شيئاً فشيئاً ، ويظهر أنه قد أحس بوجود زائريه ذوى المكانة الرفيعة ، لأنه حاول - فى دهش - أن يزرع النطاء عن رأسه احتراماً لهما ، وسأل عن سيده بصوت فيه ذلة وخضوع ، فقال له لورد جزلاندا : « هل تعرفنا أيها التابع ؟ » .

فأجابه التابع بصوت خافت : « لا أعرفكما حق المعرفة ، إن سباقى كان طويلاً ومليئاً بالأحلام ، ولكنى أعرف أنك من كبار اللوردات الانجليز ، كما يدل على ذلك صليبك الأحمر ؛ وصاحبك أسقف مقدس يتوق إلى بركاتك آثم مسكين مثلى » .

فقال الأسقف : « لك منى البركات ، وغفر الله لك » ثم رسم علامة الصليب ولكنه لم يدن من فراش المريض .

فقال العربى : « ها أنت ذا تشهد بعينيك أن الحى قد غلبت على أمرها

وقهرت ، وما هو ذا الرجل يتكلم في طمانينة وروية ، وخفقات قلبه هادئة  
تكفقات قلبك ، وتستطيع أن تخبر نبضها بنفسك » .

فأبى الأسقف أن يقوم بهذه التجربة ، ولكن توماس الجزلاندى — وقد  
كان أشد إصرارا على هذا الاختبار — جس نبض المريض ، واقتنع بأن الحمى قد  
أدبرت وتولت .

ثم نظر الفارس إلى الأسقف وقال : « إن هذا لشيء عجيب ؛ لقد تم شفاء  
الرجل ولا ريب في ذلك ؛ لا بد لي أن أصطحب هذا الطبيب توا إلى خيمة الملك  
رتشارد — ماذا ترى يا نيافة الأسقف ؟ » .

فقال العربي : « البتة قليلا ودعاني أتم علاجا قبل أن أشرع في الآخر ؛ سوف  
أصحبكما بعد أن أناول مريض الكأس الثانية من هذا الإكسير المبارك » .

وبعد أن فرغ من حديثه ، استخرج كأسا فضية وملأها بالماء من جرة كانت  
إلى جانب السرير ، ثم أخرج كيسا صغيرا من الحرير الطرز مجدولا بالفضة ، ولم  
يعلم الحاضرون ما بداخله ، ثم غمره في الكأس ولبث يرقبه في سكون مدة  
خمس دقائق ، وخيل للنظارة أن الماء قد فار وجاش من هذا العمل ، ثم هدا  
بعد لحظة .

وقال الطبيب للرجل المريض : « اشرب ونم ثم اصح بريثا من المرض » .  
فقال أسقف صور : « أفهذه الجرعة الهينة تأخذ على نفسك علاج الملك ؟ » .  
فرد عليه الرجل الحكيم وقال : « لقد شهدت أنى عالجت بها رجلا بالسا ،  
فهل ملوك الفرنجة من طينة غير الطينة التي خلق منها أدنى رعائهم ؟ » .

فقال بارون جلزلاند « لنسقه توا إلى الملك ؛ لقد دل على أنه يعرف سر  
السييل إلى استرداد صحته ، ولو أنه أبى مباشرة العلاج لأرديته حيث لا يجدى  
فعل الدواء » .

وبينا هم يتأهبون لمغادرة الكوخ ، صاح الرجل المريض وقد رفع صوته بقدر  
ما سمح له ضعفه وقال : « أبانا المقدس ، ويا أيها الفارس النبيل ، وأنت أيها الطبيب

الرؤوف ، إن أردتوني على أن أنام وأشفى فبروني برا متكم وإحسانا ؛ ماذا دى  
سيدى العزيز ؟ »

فأجاب القس : « لقد رحل يا صديقى إلى بلاد نائية يحمل رسالة نبيلة قد  
تستقيه بضعة أيام » .

وقال بارون جزلاندى : « كلا ، ولماذا تخدع هذا الرجل المسكين ؛ لقد عاد  
سيدك إلى المعسكر وعما قريب تراه » .

فرجع المريض إلى السباء يديه المهزيتين حمدا لله ، ولم يعد يقدر على مقاومة فعل  
الأكسير المنوم ، واستولى عليه نعاس خفيف وديع » .

وقال الأسقف : « إنما أنت يا سر توماس طبيب خير منى ، وللباطل المرضى  
أليق بحجرة المريض من الحق الكريه » .

فأجاب دى فو متعجلا : « ماذا تعنى يا سيدى الموقر ، أفنتظن أنى أقول كذبا  
كى أقتد عشرة من أمثال هذا الرجل ؟ » .

فقال الأسقف وإمارات الذعر بادية عليه : « إنك تقول إن سيد هذا التابع  
— أعنى فارس النمر الرابض — قد عاد ، أليس كذلك ؟ » .

قال دى فو : « وحقا لقد عاد ، وتحدثت إليه من منذ بضع ساعات مضت ،  
وقد عاد برقة هذا الطبيب النظامى » .

فقال الأسقف وهو بادى الاضطراب : « يا للعدراء البتول ! ولماذا لم  
تنبئنى بإيابه ؟ » .

فأجاب دى فو غير مبال وقال : « ألم أقل لك إن هذا الفارس ، فارس النمر ،  
قد عاد بصحبة الطبيب ؟ أبظنتى خبرتك بذلك ، ولكن ماشأن إيابه وحقق الطبيب  
أو شفاء الملك ؟ » .

فرد عليه الأسقف وقد أمسك إحدى يديه بالأخرى ، وضرب بقدمه الأرض ،  
وبدت عليه دلائل الجزع ، وقال ، وكأنه مكره على ما يقول « شأن كبير يا سر



توماس ، ولكن هلا خبرتني آتى ذهب هذا الفارس ؟ رحماك اللهم ! لقد نفع الآن  
في إثم ما بعده إثم ا » .

فأجاب دى فو وقد أدهشه انفعال الأسقف وقال : ربما خبرنا ذلك التابع  
الواقف بميدا في الخلاء آتى ذهب سيده » .

ودعى الصبي للحضور ، وأخذ يتحدثهم بلغة لا يكادون يفقهون لها معنى ،  
واستطاع بعد لآى أن يفهمهم أن ضابطا جاء لسيده واستدعاه إلى السراىق الملكى  
قبل قدومهما إلى خيمة مولاه بزمن وجيز ، وحينئذ ازداد بالأسقف القلق حتى بلغ  
أقصاه ، واستطاع دى فو أن يتبينه ، رغم أنه لم يكن بالرجل الدقيق الملاحظة ،  
ولا بالمرتاب الظنين ، وكلا ترأىد قلق الأسقف اشتدت رغبته فى كبته وكتابه  
عن الميان ؛ ثم استأذن دى فو فى الانصراف على عجل ، فنظر إليه دى فو  
حائرا مذهولا ، وهز كتفيه إلى أعلى فى صمت وعجب ، ثم شرع يرشد الطبيب  
العربى إلى خيمة الملك رتشارد .

## الفصل التاسع

هنا أمير الأطباء ،  
إن شهدته حي أو طاعون ،  
أو قهرس أو زكام ،  
تولى الدواء عن جسم العليل .  
لكاتب غير معروف

سار البارون جازلاند بخطوات وثيدة نحو السراشق الملكي ، وعليه سيم القلق والجزع ، وكان البارون قليل الثقة بنفسه وبكفاياته إلا في ساحة القتال ، يحس من نفسه افتقار الذكاء المتوقع ، ويكفيه أن يقف من الظروف موقف التمتع والدهشة حيث يسمى غيره من الرجال من ذوى الخيال الحى إلى التفهم والتعقيب ، أو إلى التأمل والتفكير على الأقل ؛ ولكنه كان أمرا شاذا — حتى في نظره — أن يحول الأسقف انتباهه من التفكير في العلاج العجيب الذى شهداه وفي احتمال شفاء رتشارد واسترداده صحته بذلك الدواء ، إلى نبأ نافه عن توجه فارس اسكتلندى بائس من مكان إلى مكان ، فارس لم يعلم عنه توماس الجزلاندى أنه من دم كريم ، ولم يكن في نظره أكثر من رجل قليل الأهمية حقير ؛ ورغم أن البارون قد تعود أن ينظر إلى ما قد يمر به من أحداث نظرة سلبية ، إلا أنه أخذ الآن يكدح الدهن كدحا لم يألوه متخرسا بحقيقة الأمر .

وأخيرا عرض له بقتة أن الأمر ربما كان مؤامرة تدبر لرتشارد وتمتص في معسكر الحلفاء ، وليس من البعيد أن يكون الأسقف عضوا من أعضائها لما عرف عنه بعضهم من أنه رجل سياسى لا يتورع فيما يريد ، وكان يرى أن ليس بين الجميع رجل كامل الخلق كسيده ، فلقد كان رتشارد زهرة الفرسان طرا ، ورأس القواد المسيحيين جميعا ، مطيما في كل أمر لأحكام الكنيسة المقدسة ، ولم ير « دى فو » بعد هذا الكمال كمالا ؛ ومع ذلك فهو يعرف أن سيده كان دائما يجب على نفسه

— بنبر حق — لوما وكرها ، بقدر ما يجلب شرفا وجبا ، لما يبدى من جليل الصفات ؛ ويعلم أن في المسكر ذاته ، وبين أولئك الأمراء الذين أقسموا بين الولاء للحرب الصليبية ، الكثير ممن يود لو يضحي بكل أمل في الظفر على العرب في سبيل إرضاء نفسه بالقضاء على رتشارد ملك إنجلترا ، أو بإذلاله على الأقل .

وقال البارون محدثا نفسه : « ليس من المحال أن يكون هذا الحكيم ، وهذا الشفاء — أو شبه الشفاء — الذى أدخله في جسم الخادم الاسكتلندى ، ما هما إلا خدعة ، ينضم إليها فارس النمر ، ويساهم فيها أسقف صور ، رغم وظيفته الدينية » .

ولكن لم يكن من اليسير حقا أن يوفق البارون بين هذا الظن وبين ما أبداه الأسقف من هلع وذعر حينما علم — على غير انتظار — أن الفارس الاسكتلندى قد عاد بشفة إلى مسكر الصليبيين ؛ ولكن دى فو لم يكن يتأثر بنبر أهوائه عامة ، وكانت أهوائه توحى إليه يقينا لا يداخله الشك بأن قسا إيطاليا ما كرا محتالا ، ورجلا اسكتلنديا حيث الطوية ، وطيبيا مسلما ، إنما يؤلفون مجموعة لا يصدر عن أفرادها غير الشر ، ولا يرجى أن ينبع منها الخير ، فاعتزم أن يصارح بشكوكه مليكه ، وكانت يقدر إصابته في الحكم قدرا عاليا لا يقل عن عقيدته في شجاعته وإقدامه .

ولكن الأحداث التى وقعت إبان ذلك جرت مجرى يناقض الظنون التى لعبت برأس توماس دى فو ، فلم يكد يترك السراق الملقى حتى بدأ رتشارد — وهو بين جزع أنشبهته الحمى وجزع هو من طبيعة نفسه — يشكو غياب البارون ، ويث شديد رغبته في عودته ؛ وقد عانى من قبل كثيرا ، فحاول الآن أن يخلص من هذا الهياج الذى زاد من علة جسمه زيادة كبيرة ، وأضنى أتباعه بكثرة ما طلب إليهم من ألوان اللهو ، وعبثا ما استمان القس بدعوانه ، والكاهن بقصص الخيال ، بل ومغنيه المحبوب بقيثارته ؛ وأخيرا ، قبيل انحدار الشمس بنحو ساعتين — وكان ذلك قبل الوقت الذى كان يرتقب فيه نبأ يسره عن سير العلاج الذى يياشره المغربى (أو العربى) بزمن طويل — أرسل كما سمعنا رسولا يأمر فارس

النمر بالحضور ؛ واعتزم أن يهدى من جزعه بمصوله من السر كنث على بيان مفصل عن سبب تقييه عن العسكر ، وعن ظروف التقائه بهذا الطبيب الدائع الصيت .

أستدعى الفارس الاسكتلندى ومثل لدى حضرة الملك ، وكأنه ليس بالغريب على أشباه هذه المقابلات ؛ لكن ملك إنجلترا لم يكده يعرف منه حتى مرآه ، وذلك رغم أنه (الفارس) كان شديد الاحتفاظ بمرتبه ، وكان متفانيا في إخلاصه للسيدة التى تملكته منه سويداء القلب ، فلم يغف في ظرف واحد من الظروف التى كانت أريحية إنجلترا وسخاؤها تفتح فيها بلاط مليكها لكل من بلغ مرتبة خاصة في سلك الفروسية ؛ ونظر الملك وأمن في النظر إلى السر كنث وهو يقترب من فراشه ، وقد ثنى الفارس ركبته لحظة من الزمن ، ثم نهض ووقف أمام الملك موقفاً يليق بضابط في حضرة مليكه ، موقف الإجلال ولكن بغير ذلة أو خنوع .

قال الملك : « اسمك كنث فارس النمر — أننى لك مرتبة الفروسية ؟ » .  
فأجاب الاسكتلندى : « لقد نلتها من حسام ولیم الأسد ملك اسكتلندا » .  
فرد عليه الملك وقال : « والله إنه ل سلاح ما أجدره بمنح الشرف ، والله إنه لم يوضع على كتف ليست له أهلا <sup>(١)</sup> فلقد شهدناك وأنت في موقف الفروسية والشجاعة لما حى وطيس القتال واشتدت الحاجة ؛ ولكنك قبل أن تعرف أنا بكفاءتك علماء ، بلغت بك القحة في بعض الأمور جداً لا يجوز لك أن تطلب لخدماتك جزاء خيراً من المعفو عن عدوانك ، فإذا تقول في هذا ؟ » .

فحاول كنث أن يجيب عن ذلك ، ولكن عجز عن أن يفصح عن نفسه ، وقد تأخر على بلبته إحساسه بحب على المطامح ، ونظرة ناقبة كنظرة البازى رمقه بها قلب الأسد ، وكأنه يريد أن ينفذ إلى دخيلة نفسه .

ثم قال الملك : « ومع ذلك ، ورغم أن الجند عليهم طاعة الأمر ، وعلى الأتباع

(١) كان الملك في العصور الوسطى يمس بيفه كتف الرجل علامة على منحه شرف الفروسية .

احترام أولى الأمر ، فإننا نستطيع أن نفعو عن فارس مقدام جرما أخطر من اقتنائه لكلب غر ، مع مافي ذلك من مخالفة لما فرضناه على الناس فرضا صريحا لا يحتمل التأويل .

وظل رتشارد يحدق في وجه الاسكتلندي ، ويادله النظر ، وُسْرَ في دخيلة نفسه واطمأن للأسلوب الذي ساق فيه اتهامه .

فقال الاسكتلندي : « إن جلالتك يا مولاي ، إن شئت ، ينبغي أن تنهاون معنا نحن قراء اسكتلندا من النبلاء في هذا الشأن ، فنحن عن الوطن بמידون ، مواردنا قليلة ، ولا نستطيع أن نقيم أودنا كما يستطيع أشرافكم الأغنياء الذين لهم ثروة اللعبارد ؛ وإن ضرابنا ليكون على الأعراب أشد وقعا لو أننا تناولنا من لحم الغزال المجفف الحين بعد الآخر مع ما نأكل من المشب ومن خبز الشعير » .

فقال رتشارد : « لست بحاجة إلى رضاي مادام توماس دى فو — كثيره ممن يتحوطى من الرجال — يعمل مايروق في عينيه ، وقد أذن لك بالصيد والقنص » .

فأجاب الاسكتلندي وقال : « إنما أذن لي بالصيد فقط يا مولاي ، ولكن إن أردت جلالتك أن تمن على بمئة القنص ، وكذلك إن بدا لكم أن تأذنوا لي باستخدام البزاة ، فاني آخذ على نفسي أن أمد سرادقكم الملكي بخير طيور الماء »

فقال الملك : « لو كان لك باز ما كنت تنتظر منا الإذن ، وأنا أعرف جيدا أنه يقال عنا خارج بلادنا إننا أبناء أنجو نستكر الاعتداء على ما شرعنا للغاب من سنن ، كما نستكر الحياة لتاج الملك ، ولكننا نفعو عن هذه الإساءة — كما نفعو عن تلك — للرجال الشجعان ذوى الكفاءة ؛ ولكن دعنا من هذا ، إنما أريد أن أعرف منك أيها الفارس لماذا ومن ذا الذي أذن لك أن تقوم برحلتك الحديثة العهد إلى قفار البحر الأحمر وإلى عين جدة ؟ » .

فقال الفارس : « بأمر من مجمع أمراء الحروب الصليبية المقدسة » .

« وكيف يجسر امرؤ على إصدار مثل هذا الأمر وأنا — ولست قطعا بأقلمهم

شأننا في هذا المجمع — غير عالم به ؟ » .

فقال الاسكتلندي : « لم يكن من شأني يا جلالة الملك أن أسأل عن مثل هذه الدقائق ، إنما أنا جندي من جنود الصليب ، ولا ريب أني أخدم الآن تحت لواء جلالتك ، وأنا فخور لأنكم قد أذنتم لي بذلك ، ولكنني لست مع ذلك إلا رجلا يحمل الرمز المقدس في سبيل حقوق المسيحية واسترداد القبر المقدس ، وأنا لذلك مكروه على أن أطيع طاعة عمياء أوامر الأمراء والزعماء الذين يدبرون هذا المشروع المبارك ، وإنني والعالم المسيحي بأجمعه تندب انحرافهم عن جلالتك ، وإبعادهم إياكم لفترة وجيزة — على ما أرى — عن مجامعهم التي لجلالتكم فيها صوت قوى مسموع ، ولكنني جندى يجب أن أطيع أولئك الذين يؤول إليهم حق الحكم شرما ، وإلا كنت مثالا سيئا في معسكر المسيحيين » .

فقال الملك رتشارد : « حق ما تقول ، ولا لوم عليك في ذلك ولا تتريب ، وإنما التنب على أولئك الذين أرجو أن أواجههم عَيْنَ عَيْنٍ حينما يكتب لي الله أن أنهض من هذا الفراش اللعين ، فراش المرض والفتور ، ولكن هلا خبرتني فحوى رسالتك ؟ » .

فأجاب السركنت وقال : « أظن يا جلالة الملك أن هذا السؤال جدير به أولئك الذين أنا رسول منهم ، فهم أقدر على إبداء العلة في رسالتي ، أما أنا فلا أستطيع إلا أن أحدث عن ظاهر معناها ومغزاها وحسب » .

فقال الملك الترق : « لا تراوغني أيها السيد الاسكتلندي ، إن في هذا لخطرا على سلامتك » .

فأجاب الفارس رابط الجأش وقال : « سلامتي يا مولاي أنا لا أكرث لها ، فما هي إلا من توافه الأمور إزاء عَيْنِ أقسمتها لهذا المشروع ، وإنني لا أنظر إلا إلى نعم الخلافة في الدار الباقية ، ولا تمنيني سعادة الجسد في هذه الدنيا الفانية . »  
فقال الملك رتشارد : « وحق القداس إنك لرجل شجاع ! استمع إلى ياسيدي الفارس ، إنني أحب أهل اسكتلندا ، فإنهم قوم أشداء ، إلا أنهم يتصفون بالعناد وصلابة الرأي ، وإنهم لقوم مخلصون في قلوبهم ، إلا أن ظروف دولتهم تضطرم

أحيانا إلى اصطناع الخداع والرياء ، وإني أستحق منهم المحبة والتقدير ، فلقد قت لهم طوعا بما لم يكونوا يستطيعون ابتزازه كرها بحمد السيف منى أو من أسلاني ، فأعدت بناء قلعتي (ركبره) و (رك) اللتين تدينان لآنجلترا بالولاء ، وأعدت لكم التخوم القديمة ، وخلصتكم أخيراً من واجب الولاء لثاج انجلترا ، وهو واجب رأيته أنه قد فرض عليكم ظلماً وجوراً ، وسميت في أن أجعل منكم أصدقاء أشرافاً مستقلين ؛ ولم يرم ملوك انجلترا السابقون إلى أكثر من أن يرغموكم على الطاعة كارهين ، ويعقوكم أتباعاً لهم ناقلين .

فقال السر كنت وقد أحنى رأسه إجلالا : « أجل ، لقد فعلت هذا كله ياسيدي المليك ، ولقد فعلته وعقدت عليه معاهدة ملكية مع ملك بلادنا في (كنتربرى) ولذا فهنا طوع أمرك ، وهام من هم خير منى من الاسكتلنديين يأتمرون لك ، ويشنون النارة على المسلمين تحت لوائك ، هانحن رهن إرادتك ، ولولا ما ذكرت لكننا الآن نعيث فسادا في حدود بلادك بأنجلترا ، ولئن كنا الآن قليل عديدنا فما ذلك إلا لأننا وهبنا في سبيلك حياتنا وأزھقناها راضين طائعين . فقال الملك : « صدقت فيما تقول ، ولكن بحق ما أدت لبلادكم من جليل الخدمات ، أود أن أذكرك أن من حقى — كمضو رئيسى فى عصابة المسيحيين — أن أعرف ما يتفاوض فيه خلانى ، فهل لك بمد هذا أن تنصفنى وتخبرنى بما هو من حقى أن أعرفه ، وإنى لعلى ثقة من أنك سوف تصدقنى فى هذا أكثر من كل من عداك » .

فأجاب الاسكتلندى وقال : « مولاي ، أما وقد ناشدتنى هكذا ، فسامدقك القول ، وإنى أعتقد أن مراميك من حملتنا هذه نبيلة خالصة لوجه الله ، وإن هذا لأكثر مما أظن فى الآخرين من أعضاء العصبة المقدسة ؛ وإذن فليسرك يا مولاي أن تعرف أن مهمتى كانت أن أقترح بوساطة ناسك عين جدة — وهو رجل يحبه ويذود عنه صلاح الدين نفسه — .. » .

وهنا سارع رتشارد معترضاً وقال : « مدّ أجل الهدنة ولا ريب » .

فأجاب الفارس الاسكتلندى وقال : « كلا ياسيدى وحق القديس اندراوس ، بل عقد صلح دائم ، وسحب جيوشنا من فلسطين » .

فرد عليه رتشارد دهشاً وقال : « يا لله ! لقد ساء ظنى بهم حقاً ، ولكنى لم أكن لأحلم أنهم سيدلون أنفسهم إلى مثل هذا الخزى والهوان ، خبرنى يا سر كنت بأية طوية حملت هذه الرسالة ؟ » .

فقال كنت : « بطوية خالصة طيبة يامولاي ، لأننا بعد ما افتقدنا زعيمنا النبيل ، الذى كنت أمل فى الظفر تحت قيادته وحده ، لم أر أن أحداً يستطيع أن يخلفه ، أو أن نرجو منه أن يقودنا إلى النصر ، فرأيت أنه خير لنا فى مثل هذه الظروف أن تتجنب الهزيمة » .

فقال رتشارد وقد كتم غيظاً أليماً يكاد قلبه يتميز منه : « وما هى الشروط التى أردتم أن تعقدوا عليها هذا الصلح المرجو ؟ » .

فأجاب فارس النمر الرابض وقال : « هذه لم يهد إلى بها يامولاي ، إنما سلمتها للناسك مخومة مثقلة » .

فقال رتشارد : « وماذا ترى فى هذا الناسك الوقور ، وهل هو غافل أو مجنون أو خائن أو قديس ؟ » .

فأجاب الرجل الاسكتلندى الماكر وقال : « يخيل لى أنه يدعى المغلة ياسيدى كي يكتسب من المسلمين رضاهم واحترامهم ، وهم قوم ينظرون إلى الرجل الممتوه وكأنه يوحى إليه من السماء ، ولقد بدا لى على الأقل أن جنون هذا الراهب لا يظهر إلا لاساما ، وهو ليس — كالجنون المألوف — جزءاً من طبيعة عقل صاحبه » .  
فقال الملك وقد ارتدى إلى الوراء على سريره ، وكان قد نهض منه إلى نصفه : « أمكر بك فى هذا الجواب ، والآلن هلا حدثتني طرفاً عن توبته ؟ » .

فاستطرد كنت الحديث وقال : « أما توبته فقد بدا لى أنه مخلص فيها ، وهى ثمرة لندمه على ذنب مروع يحسب — فيما يرى — أنه يقضى عليه بأن ينتبذ من الناس مكاناً قصياً » .



فقال الملك رتشارد : « وما سياسته ؟ » .

فأجاب الفارس الاسكتلندي وقال : « أظن يا سيدي أنه قد يئس من استخلاص فلسطين ، كما يئس من خلاص نفسه ، اللهم إلا بمعجزة من السماء ، أو هو يرى ذلك على الأقل منذ انقطعت ذراع رتشارد ملك انجلترا عن أن يجاهد في سبيله » .

« وإذن فسياسة هذا الناسك هي سياسة الجبن والخور ، وهو كأولئك الأمراء الأشقياء الذين نسوا فروسياتهم ودينهم ولم تصح منهم العزيمة ، ولم يثبتوا إلا على أمر واحد ، وذلك أن يكروا راجعين ، أولئك خير لهم أن يقهقروا على جثة حليف لهم ينازع الروح من أن يتقدموا ويلتحموا بالأعراب المسلحين ! » .  
فقال الفارس الاسكتلندي : « هل لي يا سيدي المليك أن أذكر لك أن هذا الحديث إنما يزيد من حرارة مرضك ، وما مرضك إلا عدو يخشى العالم المسيحي منه شراً أكثر مما يخشى من جيوش الكفار المجهزين بالسلاح » .

وحينئذ علا الدم في وجه الملك رتشارد ، واستشرى في حركته ، وأمسك إحدى يديه بالأخرى ، ومد ذراعيه ، وتطاير الشرر من عينيه ، وظهر عليه في الحين أنه يعاني ألماً جثانياً شديداً وثورة نفسية عنيفة في آن واحد ، ولكن حماسه دفعته إلى أن يواصل حديثه كأنه لم يأبه لهذا أو لتلك .

وقال : « تستطيع يا سيدي الفارس أن تداهن ، ولكنك لن تفلت مني ، ولا بد لي أن أعرف منك أكثر مما ذكرت ، هل رأيت زوجي الملكة وأنت لدى عين جدة ؟ » .

فأجاب السر كنث ، وقد تملكه ارتباك شديد إذ تذكر الموكب الذي مر به في منتصف الليل في المعبد الصخري وقال ، « لا أعلم أي رأيها يامولاي » .  
فقال الملك بصوت حازم : « إني أسألك ألم تكن في معبد راهبات « كرمل » لدى عين جدة ، وهل لم تر هناك « برنجاريا » ملكة انجلترا ووصيفات بلاطها اللاتي قصدن إلى هناك حاجات ؟ »

فرد عليه السر كنث وقال : « سيدى ، سأصدقك القول كأني أعترف لك !  
فى معبد تحت الأرض ، هداى إلى الناسك ، شاهدت رتلا من النساء ينفين  
ويظهرن ولاءهن لأثر مقدس كريم ، ولكنى لم أر وجوههن ، ولم أسمع أصواتهن ،  
إلا وهن يرتلن الأناشيد ، ولذا فأنى لا أستطيع أن أقول هل كانت ملكة انجلترا  
فى هذا السرب أو لم تكن » .

« وهل لم تتعرف واحدة من هؤلاء السيدات ؟ » .  
فسكت السر كنث ولم يحرجوا .

فقال رتشارد وقد نهض على مرفقيه : « إنى أسألك كفارس وكرجل كريم  
— وسوف أعرف من جوابك كيف تقدر هاتين الخلتين — هل عرفت أية سيدة  
من بين هذه الزمرة من العابدات أو لم تعرف ؟ » .

فقال كنث وقد خالجه كثير من التردد : « مولاي ، إنى أستطيع أن أرى  
بالظن » .

فرد عليه الملك وقد قطب جبينه وعبس وقال : « وأنا كذلك أستطيع أن  
أرى بالظن ، ولكن كفالك هذا ، قد تكون نمرا يا سر كنث ، ولكن حذار  
أن تتحرش بكف الأسد . استمع إلى ، إنك إن شُغفت بالقمر حبا فلقد أتيت  
أمرا إذا ، وإنك إن قفزت من أسوار برج شاهق أملأ فى الدنو من هالته فلقد  
هلكت رعونة ونزقا » .

وفى تلك الآونة علا فى الغرفة الخارجية بعض الضجيج ، فسارع الملك وارتد  
إلى أسلوبة اليهود وقال : « كنى ، كنى ، واعزب عنى ؟ سارع إلى دى فو  
وابحث به إلى مع الطبيب العربى . حياى لدين السلطان ! تالله لو أنكر السلطان  
عقيدته لمدته بمهندى يطرد به هذا الزبد من الفرنسين والنسوايين من مُلكه ،  
وما أظن إلا أن فلسطين ستنتم تحت حكمه كما كانت تنتم حينما كان يتأمر عليها  
ملوك مباركون بتفويض من الله » .

وحينئذ تراجع فارس النمر ، ولم تمض دقائق معدودات حتى أعلن الحاجب قدوم وفد من المجمع أتى ليمثل لدى جلالة ملك الانجليز .

فأجاب الملك قائلا : « يسرنى أنهم يعترفون بأنى ما زلت على قيد الحياة ، ولكن من هم أولاء السفراء الموقرون ؟ » .

« ها الرئيس الأعلى لرجال المعبود ومركز منتسرا » .

فقال رتشارد : « إن أخانا ملك فرنسا لا يحب فراش المرضى ، ولو كان فيليب هو العليل لوقفت إلى جوار سريريه أمدًا طويلا ، أى (جوسلينف) مهد سريرى خيرا من هذا ، فلقد انقلب كبصر عاصف ، وهات لى تلك المرأة الصلبة ، ومشط شعر رأسى ولحيتى فأنهما حقا ليدوان كعرفة الأسد ، لا كغداثر الرجل المسيحي ، ناولنى ماء » .

فقال الحاجب وهو يرتعد : « إن الأطباء يقولون يا مولاي إن الماء البارد قد يكون فيه الهلاك » .

فأجاب الملك : « إذهب بالأطباء إلى الشيطان الرجيم ! إذا كانوا لا يعرفون لى شفاء ، أفتظن أنى أسمح لهم بإيلاى وتمذيبى ؟ هات الماء وحسبك هذا ! » وبعد ما اغتسل بالماء قال : « أدخل على الرسولين الكرميين ، وما أخال إلا أنهما سوف يريان الآن أن المرض لم يحدُ برتشارد إلى أن يهاون فى مظهره » .

وكان رئيس رجال المعبود الشهير رجلا طويلا نحيلًا ، برته الحروب ، نظراته وئيدة إلا أنها نافذة ، وله حاجبان طبعت عليهما ألوف الدسائس المظلمة لمحمة من خفائها ودجنتها ، وهو على رأس تلك الجماعة الفريدة التى ترى فى نفسها متكاتفه كل شيء ، ولا ترى فى نفسها أفرادا شيئا ، تلك الجماعة التى تسمى لإعلاء كلمتها حتى وإن استهدف للخطر فى سبيل ذلك الدين ذاته ، وقد تألقوا متآخين من أول الأمر للذود عنه ، وهم قوم يهتمون بالزئذقة والسحر رغم ما لهم من صفة القساوسة المسيحيين ، ويظن بعض الناس أنهم متآمرون مع السلطان سرا رغم اليقين التى أقسموها للإخلاص فى الدفاع عن المعبود المقدس أو استرداده ؛ هذه

الجماعة كلها ، وشخص زعيمها — أو قل سيدها الأعلى — كانت لنزا ، إذا ذكر ارتعدت منه الفرائص ؛ وكان الرئيس مرتديا ثيابا بيضاء تكسبه وقارا ، ويحمل في يده عصا الحكم السحرية ، التي كثيرا ما أثارت بشكها المجيب التأويلات والظنون ، مما كان يؤدي إلى الشك بأن هؤلاء الإخوة من الفرسان المسيحيين المروفين ، إنما يألفون تحت أحط رموز الوثنية .

أما كتراد منتسرا فكان ظاهره أسر للنفس من صاحبه الجندي القس ذي اللون القاتم الذي يحوطه الإيهام والغموض ؛ كان منتسرا رجلا مليح الوجه ، في شرح الشباب أو جاوزة قليلا إلى الكهولة ، جريئا في القتال ، حكما في المشورة ، مرحا جذلا في أوقات اللو والسرور ؛ إلا أنه كثيرا ما كان يتهم بالتلون وبالأطماع الداتية الضيقة ، وبرغبته في مد إمارته دون اعتبار لخير المملكة اللاتينية في فلسطين ، وبسعيه وراء صالحه الداني بإجراء المفاوضة الخاصة مع صلاح الدين معتديا بذلك على حقوق الحلفاء المسيحيين .

تقدم هذان الرجلان ذوا المقام الرفيع إلى رتشارد بالتحية المألوفة ، فردها الملك بلطف وبشاشة ، ثم شرع مركز منتسرا يشرح ما حدا بهما إلى تلك الزيارة ، وقال إنهما مرسلان من قبل الملوك والأمراء الذين يتألف منهم مجمع الصليبيين ، وقد ازداد قلقهم ، « كي يستفسروا عن صحة حليفهم الكريم ملك إنجلترا الجسور » .

فأجاب الملك الإنجليزي قائلا : « إنا نعرف ما لصحتنا من أهمية لدى أمراء المجمع ، وإنا نعلم حق العلم كم ذا يكابدون من كتمان كل ما بهم من طُلعة بشأنها مدة أربعة عشر يوما ، خشية منهم — دون ريب — أن تشتد بنا العلة لإظهارهم الجزع لما أصابنا » .

وهكذا أوقف الملك تيار البيان الذي كان يتدفق على لسان الركيز ، وتخير الركيز نفسه واضطرب لهذا الجواب ، فوصل صاحبه — وهو أشد منه صراحة — ما انقطع من جبل الحديث ، وفي هيئة جافة ، وصيغة موجزة توأمت الحضرة التي يوجه

إليها الخطاب ، قال للملك إنهما جاءا من قبل المجمع يتوسلان إليه باسم العالم المسيحي : « أن لا يمرض سحنته لطبيب مسلم يعيث بها ، طيب قيل إن السلطان قد بحث به إليه ، وأن يترى حتى يتدبر المجلس الرب التي يرون الآن أنها تلبس بمئة مثل هذا الرجل ، فأما أزالوها أو أيدوها » .

فأجاب رتشارد : « أي رئيس فرسان العبد الشجيمان المقدسين ، وأنت يا مركيز منتسرا إذا النبل الرفيع ، لو تفضلنا وعرجنا على السراق المجاور ، رأينا أي وزن نقيم لهذا العتب الرقيق من زملائنا في هذه الحرب الدينية من ملوك وأمرأ » .

فانسحب على أثر ذلك المركيز ورئيس الفرسان ، ولم يتفيا طويلا في السراق الخارجي حتى وصل الطبيب الشرقى يصحبه بارون جازلاند وكنت الاسكتلندي ، وقد تأخر البارون في مقدمه إلى الخيمة قليلا عن الرجلين الآخرين ، وربما تريت كي يصدر إلى الحراس خارج السراق أمرأما .

ولما دخل الطبيب العربي ، انحنى على الطريقة الشرقية امتثالا وإجلالا للمركيز ورئيس الفرسان ، وكانا بادي الوقار مظهرأ ومخبرأ ، فرد رئيس الفرسان التحية بصيغة فيها بروة الأنفة والازدراء ، أما المركيز فقد ردها بلطفه المهود الذي ألف التقدم به إلى الرجال على اختلاف مراتبهم وأوطانهم ، ثم كان سكون ، لأن الفارس الاسكتلندي كان يرتقب دى فو ، ولم يجرؤ على أن يدخل من تلقاء نفسه خيمة ملك إنجلترا ؛ وفي غضون تلك الفترة ، سأل رئيس الفرسان الرجل المسلم مقطبا عابسا وقال له : « أيها الرجل ، هل لديك من الشجاعة ما يمكنك من ممارسة فنك في شخص ملك مبارك من جيوش المسيحيين ؟ » .

فأجابه الحكيم وقال : « إن شمس الله تضيء على النصراني كما تضيء على المسلم المؤمن ، وليس لعبد الله أن يفرق بين هذا وذاك إذا دعى الداعي لأن يمارس فن الشفاء » .

فقال رئيس الفرسان : « يا أيها الحكيم النافق - وسواء كان هذا اسمك

أو أى غيره مما يدعونك به ، فأنت عبد من عبيد الظلام لم تعتق دين المسيح —  
هلا عرفت أن الخيول الوحشية سوف تمزقك إربا إربا لو مات الملك رتشارد  
بين يديك ؟ » .

فرد عليه الحكيم وقال : « ما أقسى هذا من حكم ، إني لا أسمعنى إلا أن  
أستخدم وسائل البشر ، أما العاقبة فسطورة في كتاب النور » .

فقال مركز منتسرا : « كلا يارئيس الفرسان الوقور المقدم . إعلم أن هذا  
الرجل العالم لا يعرف شيئا عن نظامنا المسيحي الذى يقوم على خشية الله ومن أجل  
سلامة من حلت فيهم بركته — ولتعرف إذن أيها الطبيب الخطير ، يامن لا نشك  
في حذقه ومهارته ، أن خير سبيل تسلك هى أن تقصد إلى مجمع حلفنا المقدس المجيد ،  
وتمثل لديه ، وهناك تدلى بكل ما يتعلق بالوسائل التى سوف تتخذها في علاج هذا  
العليل صاحب المقام الرفيع ، وتشرح رأيك لمن ينتقون لك من أطباء وحكماء  
عالين ، وبذا تقلت من كل خطر قد تثيره على نفسك بنفسك لو أنك اندفعت  
وأخذت على نفسك وحدها تبعة مثل هذا الأمر الخطير » .

فأجاب الحكيم قائلا : « سيدى ، إني أفهم ما ترميان إليه حق الفهم ،  
ولكن للعلم أساطينه كما أن لفتونكم الحرية أبطالها — بل لقد كان له — كما كان  
للذين — شهداؤه . إني أؤتمر بأمر ملكي السلطان صلاح الدين ، وقد أصرنى بشفاء  
هذا الملك النصراني ، وسوف أصدع بأمره ، بارك الله فيه ، ولئن فشلت فيما أردت  
فها هو جسمى أقدمه لسلاحكم ، وإنكم لتمتشقون سيوفا عطشى لدماء المؤمنين ؟  
ولكني لن أبادل رجلا لم تطهره فضائل الأدوية التى جمعت شيئا من علمها بفضل  
الله ، وأؤوسل إليكم أن لا تضعوا التوائى حائلا بيني وبين أداء واجبي » .

فقال البارون دى قو ، وقد سارع ودخل القسطنطين : « من ذا الذى يذكر  
التوائى ، كفا ما نلنا منه . إليكما بحيتي يا لورد منتسرا ويا رئيس فرسان المعبد  
الجسور ، لا بد لي أن أدخل توا مع هذا الطبيب العالم إلى فراش مولاي » .  
فقال المركز بالفرنسية النورماندية أو لغة : « وي Ouie » كما كانت تسمى

إذ ذاك : « سيدى ، هلا عرفت أنا إنما أتينا كي نذكر - نيابة عن الملوك والأمراء الصليبيين - بالخطر الذى ينجم عن السماح لطبيب شرقى مسلم بأن يعبث بصحة عزيزة كصحة مولاى الملك رتشارد ؟ » .

فأجاب الرجل الانجليزى بفضاظة وغلظة وقال : « ليس فى وسى أن أستخدم ألفاظا كثيرة ، ولا يسرنى أن أستمع إليها ، وفضلا عن ذلك فإنى إلى تصديق ما رأيت عينائى أقرب منى إلى ما سمعت بأذنى ، وإنى لعلى ثقة من أن هذا الرجل قدير على شفاء الملك رتشارد من علته ، وإنى أومن وأوقن أنه سوف يسمي جهده فى هذه السبيل . الوقت ثمين ، ولو أن محمداً ذاته وقف يباب الفسقاط وفى نفسه مثل هذا الغرض السامى الذى بنفس (أذنبك) الحكيم لرأيت من الجرم أن نمهله دقيقة واحدة — وإذن فلتتوكلا على الله ياسيدى » .

فأجاب كتراد منتمرا وقال : « ولكن الملك نفسه قد قال إنه ينبغي لنا أن نمثل وقتا يعالجه هذا الطبيب » .

وحينئذ أسر البارون إلى الحاجب بشيء ما ، وربما كان يريد أن يعرف إن كان المركز صادقا فيما يقول ، ثم أجاب : « سيدى ، لو صبرتما رحبنا بمثلوكما معنا ؛ ولكنكما إن طارضا بالفعل أو بالتهديد هذا الطبيب فى أداء واجبه فلتعلما أنى لن أرعى لملو مكاتكما حرمة ، وسوف أفرض عليكم الابتعاد عن فسقاط رتشارد ، وتعلما كذلك أنى قوى الإيمان بما لدواء هذا الرجل من فضائل ، حتى لو أن رتشارد ذاته أعرض عن تناوله ، فبحق سيدة (لانركست) ما أظن إلا أنى سوف أجد فى قلبى ما يدفعنى إلى أن أكرهه على أن يتعاطى أسباب شفائه ، أراد أو لم يرد — هيا بنا يا حكيمن » .

ولفظ كلمته الأخيرة باللغة الفرنجية ، وصعد الطبيب بما أمر فى الحين ، وحينئذ نظر رئيس فرسان العبد متجهما عابسا ، إلى هذا الجندى المسن ، الذى لا يعرف من آداب اللياقة شيئا ، ولكنه ما إن تبادل النظر مع المركز حتى انفرج جبينه المغطى على قدر ما وسع ، وتبع كلاهما دى قو والعربى إلى الفسقاط الداخلى .

حيث كان رتشارد مستلقياً على سريره يترقبهم ، وقد ارتسم عليه ذلك الجزع الذى يرقب به المريض خطوات الطبيب ؛ أما السركنت الذى لم يكن مثوله مراداً أو ممنوعاً ، فقد شعر بأن من حقه فى تلك الظروف التى وقف فيها أن يتبع هؤلاء الرجال ذوى المكانة الرفيعة ، ولكنه أحس بمحطته نفوذا ومرتبته فالتأى بعيداً إبان ما جرى إذ ذاك .

وما إن دخلوا غرفة رتشارد حتى صاح الملك متمججاً : « هيا ، هيا ، أكرم بهؤلاء الزملاء الذين أتوا كي يشهدوا رتشارد وهو يقفز فى الظلام — أى حلفائى النبلاء ، إني أحبيكم كمثليين لجمعنا التمتع ، وعما قريب إما ترون رتشارد يتنكم بسالف هيئته ، أو يحملون إلى القبر جثمانه ورفاته — أى دى فو ، لك من أميرك الشكر حياً أو ميتاً — ولكن هناك شخصاً آخر — لقد أصاعت هذه الحلى منى البصر — ماذا ؟ يا أيها الاسكتلندى الجسور : من ذا الذى يرقى إلى السماء بغير درج ؟ مرحباً بك ؟ هيا يا سيدى الحكيم ، إلى العمل ، إلى العمل » .

وكان الطبيب قد استعلم من قبل عن مختلف الأعراض التى تبدو على الملك فى مرضه ، فشرع الآن يحس نبضه ، ولبث كذلك طويلاً ، شديد التنبه واليقظ ، بينما وقف الجميع حواله صامتين يترقبون بأنفاس مقطوعة ، وبعد ذلك ملأ الحكيم كأساً بماء معدنى ، وغمس فيه الكيس الأحمر الصغير الذى أخرجه من صدره كما فعل من قبل ، ولما بدا له أنه تشبع بالدواء تشبهاً كافياً ثم أن يناوله الملك ، تولا أن اعترضه هذا وقال : « البث قليلاً — لقد جسست نبضى ، فدعنى أضغ إصبعى فوق إصبعك ، فأنى كذلك — كما يليق بالفارس النبيل — أعرف شيئاً عن فنك » .

فأسلم العربى يده بغير تردد ، واخفت — بل وانطمرت — أصابعه الطويلة الرقيقة السوداء برهة من الزمن فى قبضة يد الملك رتشارد الكبيرة .

ثم قال الملك : « إن دمه ينبض فى هدوء كدم الطفل ، أما أولئك الذين يُسمون الأمراء فلا تتدفق دماؤهم هكذا ؛ أى دى فو ! تنصرف هذا الحكيم مكرماً



آمنّا سواء مت أم حيت — واذكرنا بالخير يا صديق عند صلاح الدين النبيل ؛  
لو مت فساموت ولا يخامرني شك في نيته ، ولو حيت فلا أشكره كما يحب  
المقاتل أن يُشكر » .

ثم نهض من فراشه وتناول الكأس في يده ، والتفت إلى المريكز وإلى رئيس  
فرسان المبد وقال : « أصغيا إلى ما أقول ، ولتدع إخواني الملوك يذكرونني وهم  
يحتسون نبيذ قبرص ويقولون : ” هذا من أجل الشرف الخالد ، الذي سوف يناله  
أول صليبي يضرب برمح أو بسيفه أبواب بيت المقدس ، ومن أجل العار والشنار  
الآبدى الذي سوف يلحق بكل من ولّى ظهره السلاح بعد أن امتدت إليه يده “ » .  
ثم احتسى الكأس حتى ثمالها وردها إلى العربي وفاض ثانية — كأنه مجهد  
منهوك — فوق الحشايا التي أعدت لراحته ؛ ثم ألمع الطبيب بعد ذلك بإشارات  
صامتة ، إلا أنها قوية التعبير ، بأن ينادروا الفسطاط جميعا ، ما خلا هو ودى قو ،  
الذي لن ينسحب لإشارة أو أمر ، غفلت الفرقة بعد ذلك كما أشار الطبيب .

## الفصل العاشر

والآن سوف أفتح كتابا خفيا ،  
وأقرأ لكم فصلا عميقا خطيرا ،  
تدركونه بنافذ البصيرة فتبرمون منه ولا ترضون .  
هنرى الرابع — الجزء الأول

وقف مركزيز منتسرا ورئيس فرسان المبدع معا أمام السراقق الملكى الذى وقع فيه هذا الحادث الفريد ، ورأيا حراسا أشداء بنشأهم وقسيهم مشهورة ، وهم على هيئة دائرة حول السراقق ، يُبعدون كل ما قد يزعج الملك النائم ؛ وكان هؤلاء الجنود يتطلعون بنظرات خافضة صامتة كثيفة كأنهم يجرون سلاحهم فى جنازة ، وكانوا إذا خطوا خطأ فى حرص شديد ، حتى لا تكاد تسمع رنين الدرق أو صليل السيوف ، رغم العدد العديد من الرجال المسلحين الذين كانوا يسيرون حول القسقاط ولما مر الرجلان ذوا المكاة الرقيقة بصفوفهم فكسوا السلاح إكبارا وإجلالا ، ولكنهم لزموا الصمت العميق .

وقال رئيس فرسان المبدع لكتراد بعد ما مرها بحرس رتشارد : « لقد غيّر كلاب الجزيرة <sup>(١)</sup> هؤلاء من روحهم الطروب . أى ضجيج أجش وأى قصف كان من قبل أمام هذا السراقق ! كنت لا ترى إلا التاريس تدق ، والكور تقذف ، والمصارعة وزئير الأغاني وطققة كؤوس التبيذ ، واجتراع الأباريق ، بين هؤلاء الرطاع الضخام الجسوم ، كأنهم على مهر فى الريف تتوسطهم السارية بدلا من العلم الملكى » .

فأجلب كتراد وقال : « هذه الكلاب الجسيمة من أمة مخلصه أمينة ، وقد أحرز الملك سيدهم بحبهم باستعداده للمصارعة والزال والمجون بين المتقدمين منهم كلما تملكه الهوى » .

---

(١) يشير بذلك إلى الإنجليز .

فقال رئيس الفرسان : « ما هذا الملك إلا مجموعة من الأهواء ، ألم تلحظ العهد الذى حملنا إياه عوضاً عن الصلاة والدعاء وهو يتناول الكأس المباركة هناك ؟ » .  
فقال المركيز : « والله لو كان صلاح الدين كأى تركى آخر ممن يلبسون العمام ويولون وجوههم شطر مكة إذا ما نادى المؤذن بالصلاة ، لأحسن رتشارد بيركة الكأس ، بل ولا ستساخ مذاقها كذلك ، ولكن صلاح الدين يتظاهر بالإيمان والشرف والكرم — كأنه يجوز لو غد مثله لم يعتقد دين المسيح أن يتحلّى بأخلاق الفارس المسيحى الفاضلة ! هل نأى إليك ما يقال من أنه تقدم إلى رتشارد يطلب الانخراط فى سلك الفروسية ؟ » .

فأجاب كبير الفرسان متعجباً وقال : « وحق القديس « برنارد » لقد آن لنا إذن أن نخلع النطق والمهايمز يا كنزاد ونمحو شعار الدروع ونبذ الخوذات ، لو كانت أرفع الشرف المسيحى يُمنح تركياً لم يعتقد دين المسيح ولا يساوى عشرة دراهم » .

فرد عليه المركيز وقال : « إنما أنت تحط من شأن السلطان ، ومع ذلك ، ورغم أنه رجل له قيمة ، فلقد رأيت خيراً منه من المشركين يباع بأربعين درهماً فى المواخير » .

وكان الرجلان إذ ذاك قد دنوا من جواديهما — وكانا واقفين بعيداً عن السرادق الملكى يمرحان بين جماعة الخدام والحجاب الشجمان الذين كانوا يباشرونهما —  
وحينئذ عرض كنزاد على صاحبه ، بعد برهة ساد فيها السكون ، أن يستمتعا بنسيم المساء البارد الذى بدأ فى الهبوب ، وأن يصرفا جواديهما وخدامهما ويسيرا راجلين إلى بيتيهما فى الحى الذى يسكنانه ، متخللين صفواً ممتدة من خيام المسيحيين ، فقبل رئيس الفرسان ، ثم طفقا يسيران مما وكأتهما تراضيا على أن يتجبرا الأماكن المأهولة فى هذه المدينة من الخيام ، ويتابعا الرحلة الفسيحة التى كانت تقع بين الخيام وقوى الدفاع الخارجية ، حيث يستطيعان أن يتحدثا مختلين ، لا ترطهما عيون غير عيون الحراس وهما يمران بهم .

وتبادلا الحديث برهة من الزمن على النقط الحربية والاستعداد للدفاع ، ولكن هذا اللون من الحديث ، الذى لم يرق لهما كليهما ، سرعان ما خمد وأعقبته فترة طويلة ساد فيها السكون ، ثم انتهى الأمر بأن وقف مركزا منتسرا بفتة وكأنه انتهى إلى رأى طارىء ، ثم حدى بصره بضع لحظات فى عيني رئيس الفرسان السوداوين النافذتين ، ووجه إليه الخطاب أخيراً وقال : « هل لى أن أطلب إليك يا سر « جزامورى » ، يأبها الرجل البجل ، طلبة عساها تتفق وكرامتك ، وتقوز منك بالرضا والقبول ؟ وذلك أن تحمل عنك هذا القناع الأسود الذى تتقنع به وأن تتحدث إلى صديق لك بوجه عار » .

فابتسم رئيس فرسان المبد نصف ابتسامة .

ثم قال : « من الحجب ما خف لونه ، ومن الستر ما اسودت صفحته ، وأولهما — كثنائهما — يخفى الملامح الطبيعية كل الخفاء » .

فقال المركز ، وقد مديده إلى لحيته ، ثم رفعها وكأنه يضم قناعاً : « لىكن ذلك ، هذا حجابى أرفعه ، والآن ماذا ترى فى أمر هذه الحرب الصليبية فيما يمس صالح رجال مبيدك ؟ » .

فأجاب رئيس الفرسان قائلاً : « إنما أنت بسؤالك هذا تمزق الحجاب الذى يستتر فكرى ، ولا ترفعه عما بنفسك ، ومع ذلك ، فإني أجيئك بقصة مجازية حدثني بها شيخ من شيوخ الصحراء ؛ قال الشيخ : دعا مرة رجل فلاح ربه أن ينزل له من السماء ماء ، ولما نزل الماء فى غير وقت حاجته شك الفلاح وتعلم ، فأراد الله أن يجزيه جزعه ، فأرسل على حقله الفرات ، فهلك الرجل وما يملك ، ومع ذلك فقد استجاب الله له الدعاء » .

فقال المركز كتراد : « ما أصدق ما تقول ، وددت لو ابتلع المحيط تسعة عشر جزءاً من سلاح أمراء الغرب هؤلاء ! فإن مايقى بعد ذلك يؤدى لنبلاء فلسطين المسيحيين ، والبقية التسعة من مملكة بيت المقدس اللاتينية ، أغراضهم خيراً من ذى قبل ؛ لو أنا تركنا لأنفسنا لصمدنا للعواصف ، ولو أن مددا معتدلاً جاءنا من

المال والرجال لأكرهنا صلاح الدين على أن يحترم فروسيتنا ، ويقدم لنا صلحاً وحماية بشروط هينة ، ولكننا من الخطر الداهم الذى يكتنف هذه الحرب الصليبية القوية التى تهدد صلاح الدين — لو أنها وقعت — لا ننتظر من العرب أن يرضوا لأى منا أن يستولى على مُلك أو إمارة فى سوريا ، بله أن يسمحوا ببقاء جماعات الإخوان المسيحيين الحريسين الذين نالوا على أيديهم شراً كثيراً .

فقال رئيس الفرسان : « أى نعم ، ولكن هؤلاء الصليبيين المناصرين قد ينجحون ويرفون الصليب ثانية على حصون صهيون » .

فأجاب المركز وقال : « وما ذا يجدى هذا على رجال المبد أو على كزاد منتسرا ؟ »

فأجاب رئيس الفرسان قائلاً : « قد يجدى عليك ، وقد يصبح كزاد منتسرا كزاد ملك بيت المقدس » .

فرد عليه المركز وقال : « هذا كلام فيه شيء من الرنين ، ولكنه رنين أجوف ، فإن « جودفرى أمير بون » قد يختار التاج الشائك رمزاً له . أى رئيس الفرسان ، إنى أعترف لك أنى الآن أميل بعض الميل إلى هيئة الحكومة الشرقية : الدولة ما هى إلا ملك ورعية ؛ هذا هو البناء الفطرى الساذج — الراعى والقطيع ، وما هذه السلسلة من الاقطاعات المستقلة بين الطرفين إلا نظام مصطنع غير طبيعى ، وإنه خير لى أن أمسك بمصا المركزية بقبضة ثابتة وأهزها كما أهوى من أن أستولى على صولجان الملك ، ولا أكون فى حقيقة الأمر إلا مقيداً وخاصماً لإرادة كل أمير من أمراء الإقطاع المحتالين الذين يمتلكون أرضاً تحت قانون بيت المقدس <sup>(١)</sup> ؛ ينبى يا كبير الفرسان أن يطاء الملك الأرض حراً لا تموقه حفرة هنا وسياج هناك — هذا امتياز أقطاعى وذاك بارون يتدرب بالزرد وقد استل سيفه

---

(١) قانون بيت المقدس هو خلاصة قانون الإقطاع ، وضمه « جودفرى البرلونى » لحكومة مملكة فلسطين اللاتينية حينما تم استخلاصها ثانية من أيدي العرب ، ويقول المؤرخ « جين » إنه « وضع بمشورة الطريق والأمرء ورجال الدين والعلمايين وهو أثر قيم من آثار التفريع الإقطاعى يقوم على أسس الحرية التى كانت من ضروريات هذا النظام » .

في يمينه يتقى به ، وموجز القول أتى أعلم أن مطالب « جاى دى لوجنان » في العرش سوف توضع فوق مطلبي له ، لو أن رتشارد عوفى وكان له أن يقول كلمته في الانتخاب .

فقال كبير الفرسان : « كفى ، كفى . حقا لقد أقنعتنى بإخلاصك ، وقد يرى غيرك ما ترى ، ولكن قليلاً سوى كتراد منتسرا من يجرؤ على أن يجهر صراحة بأنه لا يرغب في إعادة مملكة بيت المقدس ، وإنما هو يؤثر أن يبقى سيداً على جزء من أجزائها ، مثله في ذلك مثل سكان الجزر البرابرة الذين لا يعملون على خلاص سفين كريم من لجج الأمواج إلا إن كان لهم في حطام السفين منم » .

فقال كتراد وقد نظر نظرة حادة فيها شك وريبة : « ينبغي أن لا تبوح بهذا السر ، واعلم وكن على ثقة أن لسانى لن يسىء إلى ضميرى ، ولن تتمتع يدى عن الدفاع عنهما معاً . اتهمى بالخيانة إن شئت ، فأنى مستعد لأن أدفع عن نفسى ، وأن أفى في رحبة النزال في وجه خير رجل من رجال المبدع بمن يحملون الرماح » .

فقال رئيس الفرسان : « هذه نهضة مباغته منك أيها الرجل الجسور ، وإنى لأقسم لك بالمبدع المقدس — الذى أخذت وزملائى على أنفسنا أن ندفع عنه — أنى سوف أحفظ شرك كزميل صادق » .

فقال مركز منتسرا — وهو رجل كثيراً ما غلب حبه للسخرية سياسته وحكمته — « بأى معبد تقسم لى ؟ أفضلك القائم على تل صهيون الذى ابتناه الملك سليمان ، أم بذلك البناء المجازى الذى يقال إن المجامع التى تعقد في قاعات دروسكم ترمز به إلى توسيع نطاق جماعتكم ؟ » .

فتجهم له رئيس رجال المبدع ، ونظر إليه بعين قاتلة ، ولكنه أجاب في هدوء وقال : « أيا كان المبدع الذى أقسم لك به ، فكن على يقين يا لورد مركز أن يمينى مقدسة ، ولكن أتى لى أن أعرف كيف أربطك يمينين تعادل يمينى إلزاماً وثقة ؟ » .

فأجاب المركز ضاحكاً وقال : « أقسم لك حقاً بتاج (الاي رل) ، الذى أرجو أن أحيله قبل انتهاء هذه الحروب إلى شىء خير منه ؛ وإنى لأحرص على جيئنى

بالبرودة من هذا التاج الخفيف ، والله إن خوضة (الدوق) التي يتقي بها غدير من التاج وقاية من نسيم الليل البارد الذي يهب علينا الآن ، وخير من هذا وذلك تاج الملك فهو مبطن بالخمél والفراء الثمين الوثير ، وموجز القول أنا ترتبط بما بصالح مشترك ولا تظن يا سيدى الرئيس أن هؤلاء الأمراء المتحالفين — لو أنهم استردوا بيت المقدس ونصبوا عليهم هناك ملكا باختيارهم — سوف يرضون ببقاء جماعتك أكثر مما يرضون ببقاء إمارتى الفقيرة ، أو يرضون بأن نحفظ بالاستقلال الذى تتمتع به الآن ، كلا ، وحق المنراء ، إن فرسان القديس يوحنا المختالين فى مثل هذه الحال سوف ينشرون الدواء ويضمدون بالغ الكوم فى المستشفيات ، وأنت يا أشد فرسان المعبد مقدرة ، وأكثرم جلالا ، سوف تعود إلى حالك ، ولا تبتئ أكثر من جندى ساذج ، تنامون ثلاثة فوق حصير واحد ، ويعطى كل اثنين منكم جوادا واحدا ، كما لا يزال طابعكم الحالى يدل على أن هذه العادات الساذجة كانت دأبكم الزمان الحالى .

فقال رئيس رجال المعبد بأقفة وكبرياء : « إن جماعتنا لها من الكانة والفضل والرخاء ما يمنع مثل هذا الانحطاط الذى تهدد به » .

فرد عليه كتراد منتسرا وقال : « وإن فى ما ذكرت لأسباب شقائقكم ، وأنت كمثلى يا رئيس رجال المعبد ، يا أيها الرجل الموقر ، تعرف أن لو نجح الأمراء المتحالفين فى فلسطين ، فإن ذلك سوف يكون مبدأ لسياسة ترى إلى الحد من استقلال جماعتك ، هذا الاستقلال الذى لولا حماية أئينا البابا المقدس له ، وضرورة استخدام شجاعتك فى فتح فلسطين ، لافتقده منذ زمن طويل ؛ أعظمهم نجاحا تاما يبنذك كما تُبذ شظايا الرمح المحطم بعيدا عن رجة التزال » .

فقال رئيس رجال المعبد وقد ابتسم ابتسامة كثيفة : « قد يكون صدقا ما تقول ، واسكن أى أمل لنا لو أن الحلفاء سحبوا قواهم ، وخلفوا فلسطين فى قبضة صلاح الدين ؟ » .

فأجاب كتراد : « أملنا عظيم ومؤكد ، سوف يسمح السلطان للأقاليم

الكبيرة بأن تُبقى على فرقة من خيار الرماحين الفرنجة تكون رهن مشيئته ، وإن مائة من أمثال هؤلاء الأعوان تلتحق بخيالاته الخفيفة في مصر وسوريا للظفرن في القتال على أشد الأعداء فزعا ورعبا ؛ وهذا الاعتماد على جيوش السلطان سوف لا يدوم إلا فترة وجيزة — ربما كانت طيلة حياة هذا السلطان الطموح — وذلك لأن الدول في الشرق تهب كما يهب الفطر<sup>(١)</sup> ، وهب أنه قد مات ، وهبنا تمضدنا من أوروبا نفوس مقحامة متقدة تأتينا دائبة متتابعة ، فأى شيء لا نطمح في الظفر به دون أن يسيطر علينا هؤلاء الملوك الذين لهم من الرفعة اليوم ما يرى بنا في الظلام ؟ — أما إن لبثوا هنا ونجحوا في هذه الحملة ، فإنهم سوف يودعوننا أبدا ، عن رغبة منهم ، إلى الذلة والتواكل .

فقال رئيس الفرسان : « هذا كلام طيب يا سيدى الركيز ، وإن لكلماتك لصدى في نفسى ، ولكننا مع ذلك ينبغي أن نكون على حذر ؛ إن فيليب ملك فرنسا حكيم كما هو جسور شجاع » .

« حقا وهو لذلك سوف يكون أشد تساهلا في تحوله عن حملة ارتبط بها مندفا في لحظة اشتعلت فيها نار الجاس أو استفزه فيها نبلاؤه ، إنه يغار من الملك رتشارد عدوه الطبيعي ، ويتوق إلى العودة إلى متابعة خطط أطباعه ، وهى إلى باريس أقرب منها إلى فلسطين . أى دعوى عادلة سوف يتوكأ عليها كي ينسحب من ملحمة يعلم أنه إنما يند فيها قوى مملكته » .

فقال رئيس الفرسان : « وماذا ترى في دوق النمسا ؟ » .

فرد عليه كتراد وقال : « أما فيما يخص السوق ، فإن غروره بذاته ، وحمقه ، سوف يؤديان به إلى النتائج عينها التى وصل إليها فيليب بسياسته وحكته ؛ إنه يرى أنه عومل بالجحود ، وذلك لأن أفواه الرجال — حتى مغنية من الجerman — تمتلئ بحماد الملك رتشارد ، الذى يخشاه ويمقتة ، والذى يُسر لأذاه ، مثله في ذلك مثل أولئك الأوغاد الأندال الذين لم يصبهم شيء من التهذيب ، والذين

(١) نبات سريع النمو سريع الزوال .



إذا نهش المجلى من سربهم ذئب ، فسه ضر ، كانوا إلى مهاجمة زميلهم من الخلف . أسرع منهم إلى الخلف إلى معوته . ولكن لماذا أحدثك بهذا ، اللهم إلا إن كان ذلك لأدلل لك على أنى مخلص فى رغبى فى أن ينفض هذا المجتمع ، وأن تتحرر البلاد من هؤلاء الملوك المظالم وجيوشهم ؟ وأنت جد عليم ؛ وقد شاهدت بنفسك كيف أن الأمراء قاطبة من ذوى النفوذ والسلطان ، لا تستثنى منهم غير واحد ، يودون لو يرمون عهدا مع السلطان .

فقال رئيس الفرسان : « إنى أقر بذلك ، ومن لم يشهد ذلك إبان تداولهم أخيراً فهو أعمى البصر ، ولكن هلا رفعت عنك الحجاب . قيد أئمة إلى أعلى وحدثنى عن الباعث الحق الذى حدا بالمجمع أن يبعث بذلك الرجل من أبناء الشمال ، انجليزيا أو أسكتلنديا ، أو أيا كان ذلك الفارس ، فارس النمر ، يحمل مقترحهم لمقد المعاهدة ؟ »

فأجاب الرجل الإيطالى وقال : « إن وراء ذلك لحكمة ، فإن صفة الرجل كواحد من أبناء بريطانيا ، قينة بأن تسد ما يطلب صلاح الدين ، فهو يعرف أن الرجل ينتمى إلى فريق رتشارد ؛ وصفته كأسكتلندى ، وغير ذلك من الصفات الشخصية التى أعلم ، تجعل اتصال رسولنا بمد عودته — برتشارد — وهو على فراش المرض ، أمراً بعيد الاحتمال ، فإن رتشارد لا يجب مرآه .

فقال رئيس الفرسان : « تالله إنها لسياسة دقيقة الحبك ، صدقنى إن نسيج العنكبوت الإيطالى هذا الذى نسجتم لن يقيد شمشون <sup>(١)</sup> الجزيرة هذا الذى لم يقص شعره بعد . ليس لهذه المؤامرة أن تنجح إلا إذا حبكتوها من جديد بالجلال ، وبأشد من الجبال متانة وصلابة ؛ ألا ترى أن الرسول الذى عنيتم جند العناية بانتخابه قد أتى لنا بطبيب بين يديه شفاء الملك الانجليزى قلب الأسد وعنق الثور ، وردّه إلى تنفيذ مشروعه الصليبي ؛ وإذا ما بات على الانطلاق قديراً فأى الأمراء يجسر على كبح جماحه ؟ إنهم سوف يتبعونه خجلاً وحياء ، وإن يكن أحب إليهم أن يسيروا تحت لواء الشيطان .

(١) إشارة إلى قصة شمشون الجبار فى التوراة .

فقال كتراد منتسرا : « لا تجزع ، فقبل أن يتم هذا الطبيب شفاء رتشارد — إن كان يعتمد إلى أى شيء غير المعجزة — فإنه من الممكن أن نحفره حية عميقة بين الرجل الفرنسى — أو النمساوى على الأقل — من ناحية ، وبين حلفائه من الانجليز من ناحية أخرى ، حتى يتمسرتق الخرق على الراقع ، وقديهم من فراشه رتشارد بعدئذكى يتأمر على جنده الخاص من مواطنيه ، ولكن لن يسيطر وحده على قوى الصليبيين جميعا » .

فرد عليه رئيس الفرسان وقال : « إنما أنت يا كتراد منتسرا نبأل صحت عزيمته ، ولكن قوسك مرتخية لا تبلغ بالشباب إلى الهدف » .  
وتوقف عن الكلام فجأة ، وأرسل نظرة فيها شك وريبة كي يستوثق أن أحدا لم يكن يسمع له ، ثم أمسك بيد كتراد وقبض عليها بشدة وحدق في وجه صاحبها الإيطالى ، وكرر هذه العبارة فى أناة وتؤدة : « أفتقول إن رتشارد قد يهب من فراشه ؟ كتراد ! ينبغي أن لا يهب رتشارد مطلقا ! »  
ففرع من ذلك مركز منتسرا وقال : « ماذا ! هل أنت تتحدث عن رتشارد ملك انجلترا قلب الأسد بطل العالم المسيحى ؟ »

وعلت الصفرة وجنتيه وارتعدت فرائصه وهو يتكلم ، فنظر إليه رئيس الفرسان وقد تقلصت ملامحه ونمت عن ابتسامة فيها تحقير وازدراء .

« هلا تعرف أيها السيد كتراد لأى شيء أنت تشبه هذه الآونة ؟ لست كتركيز منتسرا السيامى الجسور — ولست كمن هو قين بتوجيه مجمع الأمراء والفصل فى قضاء الدول — إنما أنت كتلميذ زل عند رقية فى كتاب سحر لأستاذة ، فابتث الشيطان من حيث لا يدري ، ثم وقف مذعورا أمام الشبح الذى مثل أمام عينيه » .  
فقال كتراد وقد ثاب إلى رشده : « إني أسلم لك أنا إن لم نكشف عن طريق أكيدة نخلص بها ، فلقد أشرت أنت إلى تلك التى تؤدى رأسا إلى ما نرى — ولكن ، لك الله يا مريم ! لسوف تصب أوروبا كلها علينا اللعنات ، ونصبح مسبة فى جميع الأنواء ، من البابا على عرشه إلى أدنى متسول لدى باب الكنيسة ،

يحمد به — على شعثه وبرصه وعمره في الدرك الأسفل من الشقاء الإنساني — على أنه ليس بجيواز امورى أو كتراد منتسرا .

فرد عليه رئيس الفرسان برباطة الجأش التي تميز بها خلال هذا الحوار الهام وقال : « لو كان هذا ما ترى إذن فلنمض وكأن لم يكن بيننا شيء ، وكأن حديثنا حديث نيام ، وما لبثنا أن صحونا حتى تبددت من أماننا الأحلام » . فأجاب كتراد قائلاً : « إن هذه الأحلام لن تنقشع » .

فرد عليه رئيس الفرسان وقال : « أجل إن رؤيا أكاليل الأمراء ، وتيجان الملوك تحتل في المخيلة مكانا لا يتزعزع » .

فأجاب كتراد وقال : « إذن فدعنى أحاول بادى ذى بدء أن أفصح عرى الوثام بين النمسا وانجلترا » .

ثم افترقا ، ولبث كتراد ساكنا لا يتحرك حيث كان ينظر إلى عباءة رئيس الفرسان البيضاء ترفرف ، وهو يحظر في مشيته في تودة وأناة ، ويتعمد قليلا قليلا حتى ابتلمه ظلام الليل الشرق الذى سرعان ما ربحى سدوله وينوء بكسكه ؛ وكان مركز منتسرا مختالا طموحا ، جريئا أريبا ، ولكنه — مع ذلك — لم يكن قاسى القلب بطبعه ، كان شبقا أيقوريا ، ولكنه كان — كغيره ممن يتخلقون بمخلقه — يعاف الإيلام ، ولا يجب أن يشهد عملا فيه قسوة أو صرامة ، حتى وإن يكن في نفسه من البواعث ما يبرره ، وكان لديه كذلك إحساس عام بتقدير ذكره بين الناس ، ذلك الإحساس الذى كثيرا ما يسد النقص في المبادئ السامية التى يقوم عليها طيب الأحذوثة .

قال وما فتئت عيناه ترتقبان الموضع الذى شاهد به عباءة رئيس الفرسان وهي تهتز الهزة الخفيفة الأخيرة : « حقا لقد أثرت في الشيطان روح الانتقام ! من ذا الذى كان يظن أن هذا الرئيس الحازم الزاهد — الذى يتلاشى كل أمل له في آمال طائفته — يكون أشد منى رغبة في إشمال الفتنة ، وأنا إنما أعجل لنفعى

خاصة ؟ حقا لقد كان إيقاف هذه الحرب الصليبية الممجة هو باعثي الوحيد ، ولكنني لم أجروا على أن أفكر في هذه الطريق المأجلة التي تجاسر هذا القس القوى المزيمة على اقتراحها — وهي مع ذلك أكد الطرق ، وربما كانت آمنها .

وهكذا كان المركز يناجي نفسه ، وبهذه الخواطر كان يتمم ، حينما استوقفه صوت غير بعيد ينادي ، وكأنه صوت رائد في نبراته رنة التأكيد ، ويقول : « اذكروا القبر المقدس ! » .

وردد هذا النذير حارس بعد الآخر ، إذ كان من واجب الخفراء أن يصيحوا بهذا النداء الفينة بعد الفينة وهم في رقابتهم المتعاقبة ، حتى لا يفتقد أبدا عن ذكر الصليبيين النرض من حمل السلاح ، ولكن رغم أن كثراد كان يألف هذه المادة ، ورغم أنه سمع هذا الصوت النذير في كل مناسبة سبقت وكأنه أمر مألف ، إلا أن صوت المنادى قد اتصل إذ ذاك اتصالا وثيقا بسلسلة أفكاره ، حتى خيل له أنه صوت من السماء يحذره من الاثم الذي يتردد في صدره ، فتلقت حوالبه جزما كأنه — وإن اختلفت ظروفه — ذلك الأب القديم يرتقب كبشا يأتيه من الغاب ، فداء عن القربان الذي اقترح له رفيقه أن يقدمه لا إلى الكائن الأعلى ، وإنما إلى وثن أطاعهما ، وإذ هو يتلفت اختلطت بصره ثنابا العلم الإنجليزى ترفرف متناقلة مع نسيم الليل الليل ، وكان العلم مرفوعا فوق ربوة مصطنعة تكاد تتوسط المسكر ، ربوة ربما كان قد اختارها في الزمن القديم زعيم من زعماء بنى إسرائيل ، أو بطل من الأبطال ، لتكون شاهداً على جدته ، وإن صح هذا ، فلقد غاص اسم الرجل في لجج النسيان وأطلق الصليبيون على المكان اسماً نصرانيا هو جبل « سنت جورج » ، وذلك لأن العلم الإنجليزى كان يخفق فوق هذه القمة الشاخة ، ويعلو على كل ما عداه ، كأنه رمز السلطان يسمو على العدد العديد من البيارق البارزة النيلة ، بل والبيارق الملكية التي كانت ترفرف فوق المواضع الدنيا .

ورجل له من سرعة الخاطر ما لكثراد حين بأن يرى الرأى في وميض برهة

أولحة ، وكأن نظرة واحدة إلى العلم قد بددت كل ما قام في نفسه من رية أو شك ، فسار إلى سرادقه بخطى حازمة حثيثة ، كأنه رجل قد اختط لنفسه خطة صيح منه العزم على إنفاذها ، ثم صرف رتلا من الرجال ، لهم ما يشبه الأبهة الملكية ، كانوا يقومون على خدمته . وما أن استلقى على فراشه حتى تتم بمزمه الجديد ، وذلك أن يحاول وسائل اللين قبل أن يعمد إلى خطة اليأس .

وقال : « غدا أجلس في مجمع أرشدوق النمسا ، وسوف نرى ما عسى أن نفعل لبلوغ مآربنا قبل أن نلجأ إلى الرأى الأغبر ، رأى رئيس المبد » .

---

## الفصل الحادى عشر

فى بلادنا الفالية أمر أكيد ؟  
قد يميز الفرد مولداً أو شجاعة أو ثروة أو ذكاء ،  
ولكن الحسد الذى يتبع هذى الفضائل ،  
كما يتبع كلب الصيد طريق الغزال ،  
يهيما جيماً واحدة بعد الأخرى .  
السرداقيد لنندزى

كان ليوبولد دوق النمسا الأعظم أول من تملك تلك البلاد الكريمة التى تنتمى إليها مرتبة الإمارة السامية ؛ ارتفع فى الإمبراطورية الألمانية إلى مرتبة الدوق لصلة رحم قريبة بينه وبين الإمبراطور هنرى الحازم الشديد ، وتملك تحت حكومة الإمبراطور خير الأقاليم التى يروىها الدانوب ، وقد تلوث اسمه فى التاريخ بسبب فعلة شنعاء ، كان فيها ختال منه ، نشأت عن هذه الحروب فى الأرض المقدسة ، وذلك هو العار الذى ارتكبه حينما زج برتشارد فى السجن وهو عائد خلال أملاكه متخفياً لا تتبعه حاشية ، ومع ذلك فإن هذا العمل لم يصدر عن سجية ليوبولد وطبيعته ، فلقد كان أميراً إلى الضعف والبث أقرب منه إلى الطموح والجور ، وهو فى قواه العقلية أشبه بصفاته الشخصية ؛ كان طويل القامة ، قوى البنية ، تظهر على بشرته الحمرة والبياض على أشد تباين ، وله شعر أشقر جميل تتدلى منه خصلات طويلة متهذلة ، ولكن بمشيته نبواً كأن ليس بحسمه من النشاط والحياة ما يكفى لأن يدفع بمثل هذا الحجم الكبير ، وكذلك كان يرتدى ثياباً فاخرة وكأنها لا تنسجم عليه ، وكان يبدو عليه أنه لم يألف كثيراً أن يحتفظ بكرامته كأمر نبيل ؛ ولما كان فى كثير من الأحيان فى حيرة من أمره كيف يفرض سلطانه ونفوذه حينما يدعو إلى ذلك داع ، فكثيراً ما كان يظن أنه مضطر إلى الفعال العنيفة والألفاظ الشديدة فى غير مناسبة ، كى يسترد مكانة ، ما كان أيسر له وأوفر كرامة من أن يبقى عليها لو كان لديه قليل من الحصافة فى أول الجدل .

ولم تكن هذه النقائص ليراهما غيره غسب ، وإنما لم يسع الأرشدوق نفسه أحياناً إلا أن يحس إحساساً أليماً بأنه لم يكن البتة جديراً بأن يفرض نفوذه ويحتفظ بالمرتبة العالية التي أحرزها ، وكان يحس إلى جانب ذلك برية قوية — كثيراً ما كان مصيباً فيها — في أن الآخرين كانوا من أجل هذا لا يولونه إلا قليلاً من الاحترام والتقدير .

ولما التحق ليوبولد بالحرب الصليبية أول الأمر ، تبمه حاشية عليها أبهة الإمارة ، كان يتوق كثيراً لأن يظفر بصدقة رتشارد وإخلاصه ، وقد تقدم إليه بخطب الود ، ورتقب من ملك إنجلترا أن يتقبل — لهائه — هذا التودد ويحييه ، ولكن بين الأرشدوق — وإن تكن لا تنقصه الشجاعة والإقدام — وبين قلب الأسد بوناً شامساً في تلك الحرارة القلبية التي تعانق الأخطار كأشها عروس حسناء ، فلم يسع الملك إلا أن ينظر إليه بشيء من التحقير والازدراء . وكان رتشارد كذلك أميراً نورماندياً ، والنورمان قوم ضبط النفس من طبيعتهم ، فكان يحتقر الجرمان الذين يميلون إلى السباط المدود بشهى الطعام ، وبخاصة ذلك الإدمان الفارط في احتساء النبيذ ؛ ومن أجل هذا عامة ، ولأسباب شخصية أخرى ، سرعان ما نظر ملك إنجلترا إلى الأمير النمساوى بقلب ملؤه الاستخفاف والتحقير ، ولم يكلف نفسه مشقة إخفاء هذا الشعور أو الحد منه ، ولذا فسرعان ما بدا عليه ، وردده ليوبولد — الذي كانت تداخله الرية — بالبغض الشديد . هذا التنافر بينهما زاد من حدته فيليب ملك فرنسا بالمسائس الخفية الساكرة ، وفيليب أحد الملوك ذوى الفطنة في ذلك الزمان ، وكان يخشى من رتشارد ثورته وصلفه ، وينظر إليه كمنافسه الطبيعى ، ويحس كأنه — وهو تابع من أتباع فرنسا من حيث أملاكه في القارة الأوروبية — يسمى إليه بذلك الإملاء الذى يعليه ويتظاهر به إزاء سيده ، فكان فيليب لذلك يحاول أن يشد من أزر حزبه ، ويضعف من شأن حزب رتشارد ، بتوحيد الأمراء الصليبيين ذوى المراتب الدنيا ، للوقوف في وجه ما كان يسميه السلطة الناصبة لملك إنجلترا . تلك كانت السياسة ، وهذه كانت الخواطر التي يرحب بها .

أرشدوق النمسا ، حينما اعتزم كثراد منقراً أن يستخدم غيرته من أجل كوسيلة لحل جميع الصليبيين أو الفت منه على الأقل .  
وقد اختار أوج الهار وقتاً لزيارته ، ودعواه أنه يريد أن يقدم للأرشدوق بمضاً من خير نبيذ قبرص وقع أخيراً بين يديه ، ويجب أن يتحدث في شأن ماله من مزلياً ، ويوازن بينه وبين نبيذ البحر والرين ؟ وقد أجب بالطبع لهذا الإلماع إلى مرماه ، بدعوة كريمة لأن يشترك في مأدبة يؤديها الأرشدوق ، وقد بذل كل مسعى لأن تكون هذه المأدبة لائقة بأبهة أمير ملكي ، ولكن الرجل الإيطالي رغم ذلك ، رأى بدوقه المهنذ أن في الأطعمة المروضة وفرة غير متسقة ، أثقلت فيها اللائدة ، أكثر مما رأى فيها تأثقاً وبهاء .

والجرمان ، قوم ما عتموا يحتفظون بالصراحة والصفات الحربية التي ورثوها عن آبائهم الذين أخضعوا الإمبراطورية الرومانية ، إلا أنهم مع ذلك قد أبقوا على أثر طفيف من آثار وحشيتهم ، فلم ترتفع بينهم عادات الفروسية ومبادئها إلى ذلك الحد الرقيق الذي بلغت بين الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، ولم يعروا قواعد الجماعة المرسومة دقيق الرعاية ، تلك القواعد التي كانت بين تينك الأمتين تتم عن مبلغ الحضارة والتمدن . ولما جلس كثراد إلى مأدبة الأرشدوق ، صمق لساعته ، وذعر لتقيق الأصوات التوتونية التي كانت تقرر سمعيه من جانب ، رغم الوقار الذي ينبغي أن يلبس موائد الأمراء ؛ ولم تكن أزيائهم بأقل غرابة ، وقد احتفظ الكثير من أشراف النمسا بلحي طويلة ، وكانت غالبيتهم الساحقة ترتدي معاطف قصيرة متنوعة الألوان ، وقد رُسمت وازينت ، وتهدلت منها هذب على طراز غير مألوف في غرب أوروبا .

وكم كان في السراقد من الاتباع كهولة وشباباً ، على الخدمة قائمون ، وهم يساهمون في الحديث أحياناً ، ويتسللون من سادتهم ما تبقى من طعام أو شراب يلتمونه بهم وقوف خلف ظهور الحاصلين ؛ وكان عدا هؤلاء عدد عديد من المهرجين والاقزام والمغنين ، وهم أعلى ضحيجاً وأكثر تدخلاً مما يُسمح لهم به في حفل خير



من هذا نظاماً؛ ولما أن كان مباحاً لهم أن يأخذوا بنصيهم ، بقدر ما يشتهون ، في النبيذ الذى كان يتدفق هنا وهناك أنهاراً جارية ، فقد أفرطوا فى اللجب الذى أُجيز لهم أن يلجوا فيه .

وفى غضون ذلك ، ووسط هذا الضجيج والمجيج ، وذلك المضطرب الذى هو بحان المانى فى سوق قاعة أليق منه بفسطاط أمير ملكى ، كان الأرشدوق يخدم خدمة رقيقة فى ظاهرها ومواضعها ، مما كان يدل على مبلغ اهتمامه بحفظ المستوى والصفة اللتين تخولها له مرتبته العالية حفظاً صارماً دقيقاً ؛ وكان الموالى يخدمونه وهم ركب ، ولا يتقدم لخدمته من العلماة إلا من كان من دم نبيل ، وكان يطعم فى طبق من الفضة ، ويحتسى نبيذ توكى ونبيذ الرين فى قده من ذهب ، وعباءة الأرشدوق التى يرتديها تزين أسنى زينة بالفراء الثمين ، وتوجيه قد يعادل فى قيمته تيجان الملوك ، وقدماء تدران فى حذاء من الخمل (طوله حتى أطرافه قد يبلغ القدمين) ، ويستوى على مقعد من الفضة الخالصة ؛ وتعرف طرفاً من خلق الرجل إذا عرفت أنه كان يود أن يلتفت إلى مركز منتسرا الذى أجلسه إلى يمينه متلفاً باشاً ، ولكنه كان إلى نديمه أو «محدثه» أشد إصغاء ، وقد وقف النديم خلف كتف الدوق المبنى .

وكان هذا النديم فاخر الثياب ، يرتدى عباءة وصدره من الخمل الأسود ، والصدرة مزركشة بقطع نقدية مختلفة من فضة وذهب ، حيكت بها ذكري للأمرء الأسخياء الذين وهبوا إياه ، ويحمل عصا قصيرة تتعلق بها كذلك باقات من النقد فى حلقه يجلبه كي يجذب إليه الأنظار حينما بهم بأن يقول شيئاً يكون فى ظنه جديراً بالالتفات ، ولهذا الرجل من النفوذ بين حاشية الأرشدوق شيء بين ما للنشد والمستشار ؛ هو مرة مداهن ، ومرة شاعر أو خطيب ، وكل من أراد أن يتقرب إلى الدوق كان يسعى لكسب رضا هذا النديم .

وكان إلى كتف الدوق اليسرى «مهرجه» واسمه «جوناكس شوانكر» خشية أن يكل الحاضرون من تهادى «المحدث» فى حكيمته ؛ و «المهرج» يُحدثُ

بتقيته وأجراسه وألأعيه ضوضاء كضوضاء المحدث التي يحدّثها بجلجلة عصاه .  
وكان هذان الرجلان يرسلان عبث الكلام تارة جادين وطورا هازلين ،  
وسيدهما ، إما ضاحك منهما أو محبذهما ، إلا أنه كان كذلك يرقب ، ممعنا ، ملامح  
ضيفه الكريم ، كي يرى أى أثر يرسم على فارس مهذب مثله من عرض تلك  
الفصاحة والنكات التساوية ، وليس من اليسير أن تعرف أيهما كان للحفل أكثر  
تلهية وسلوى ، رجل الحكمة أو رجل المراء ، أو أيهما كان له لدى سيدهما  
الأمير القدر الأوفر ، ولكن ملحهما كليهما كانت تقابل بالإعجاب الشديد ،  
وأحيانا يتنافسان في التحدث وميزان بمصاتيها ، وكل منهما يناظر صاحبه ويباريه  
مباراة مزعجة ، ولكنهما كانا على الجلمة على وئام ، وقد ألفا أن يمين كل منهما  
الأخر في ألأعيه ، حتى إن المحدث كثيرا ما تنزل إلى مستوى المهرج يتابعه في  
نكاته بالشرح والتعليق فيجعلها أشد وضوحا لإدراك السامعين ، حتى باتت حكمته  
ما مئ إلا شرح لمراء المهرج ، وكثيرا ما رد المهرج فكاهة موجزة يعقب بها  
على ختام خطاب طويل عمل يلقيه « المحدث » .

ومهما تكن عواطف كثراد في حقيقتها ، فلقد كان شديد الحرص على أن لا  
تم ملامحه عن غير الرضا بما سمع ، وكان يتسم ويتظاهر بالثناء الحار — كما كان  
يفعل السوق نفسه — على فكاهة المحدث المحتشمة ونكات المهرج الوضيعة ، وكان  
في الواقع يترقب بانتباه أن يبدأ أحدهما بموضوع ما يناسب الغرض الذي كان يحتل  
في ذهنه المكانة الأولى .

ولم يمض زمن طويل حتى رمى المهرج بملك أنجلترا على بساط الحديث ، وقد  
اعتاد أن يتخذ من ( دِ كُن ) صاحب الكنسة — وقد استعار هذا الاسم اللطيم  
لرئشارد بلا تاجنت<sup>(١)</sup> — موضوعا للزلزل مقبولا لا ينفذ ؛ أما المحدث فقد صمت  
حقا ولم يتكلم إلا حينما شرع كثراد يتحدث عن النبات الذي تصنع منه

(١) اسم يطلق على كل ملوك أنجلترا من هنرى الثانى إلى ريتشارد الثالث — والكلمة  
معناها نبات تصنع منه الكانس .

الكانس ، فقال (أى المحدث) : « هذا العشب هو رمز النلة والخضوع ، وخير للذين يلبسونه أن يذكروا ذلك » .

وكان هذا الإيماء إلى شارة بلا تاجت البراقة جليا وانحما ، فقال جوناس شوانكر المهرج : « إن أولئك الذين تواضعوا قدر فمهم الانتقام إلى مراتب المجد » . فأجاب مركز منتسرا : « الشرف لمن يستحق الشرف ، لقد اشتركنا جميعا في هذه الحملة وهذى المواقع ، وإنى أرى أن الأمراء الآخرين ينبغي أن يساهموا قليلا في الصيت الذى يحتكره رتشارد ملك إنجلترا بين جماعة المنشدين والفنئين الجرمان ؛ أليس من بين هذه الجماعة الرحة هنا من يعرف أنشودة واحدة في مدح أرشدوق النمسا الملكى مضيفنا الكريم ؟ »

فاستبق ثلاثة من المنشدين وخطوا إلى الأمام رفعون الصوت بالفناء ويضربون على القيثارة ، وقد وجد « المحدث » مشقة في إسكات اثنين منهم ، وكان المحدث يتصرف كأنه سيد القصف ، وأخيرا ظفر الشاعر الذى أوثر على صاحبيه باستماع الحاضرين ، وأخذ يبنى بالألمانية أبياتا من الشعر ، ترجمتها :

أى زعيم مقحام يتقدم الجيوش ،  
حيث تتجمع فيالق الصليب الأحمر ؟  
إنما هو خير فارس على خير الخيول ،  
وأعلى الرؤوس ذو الريشة الحسناء .

وهنا جليجل المحدث بعصاه ، واعترض الشاعر ، وألمع للحافلين إلى ما قديفوتهم إدراكه من هذا الوصف ، وذلك أن القائد الذى أشير إليه إنما هو مضيفهم الملكى ، ثم طافت بين الحاضرين كأس مترعة ، وصاح الجميع : « ليحى الدوق ليوبولد » ثم تلا الشاعر أبياتا أخرى :

لا تسألوا النمسا لماذا

يرفرف فوق أعلام الأمراء لها علم ،  
وإلا فاسألوا النسر ذا الجناح المتين ،

لماذا يخلق صوب السماء ويسبق كل الطيور .

وقال المحدث وهو شارح الأقوال الفامضة : « النسرشارة سيدنا النبيل الأرشدوق — عفوا ! إنما ينبغي أن أقول صاحب الجلالة الملكية الأرشدوق — والنسر يخلق فيعلو ويصبح إلى الشمس أدنى من كل طائر مريش » .

فقال كتراد غير مكترث : « ولكن الليث قد قفز فوق النسر » .

فاحمر الأرشدوق ، وحدث يصصره في التكلم ، وقد أجابه المحدث بعد ما تروى دقيقة وقال : « ليأذن لي سيدى المركز أن أقول إن الأسد لا يستطيع أن يخلق فوق النسر ، إذ ليس لأسد جناح » .

فأجاب المهرج : « إلا أسد القديس مرقس » .

وقال الدوق : « هذا علمُ البندقية ، ولكن لا ريب أن هذا القبيل المختلط ، نصف من الأشراف ونصف من التجار ، لا يجرؤ على الموازنة بين مرتبته ومرتبتنا » .

فأجاب مركزز منتسرا وقال : « كلا وما عن ليث البندقية تحدثت ، وإنما عن ليوث أنجلترا الثلاثة التي تتطلع ذات اليمين — وقد قيل إنها قديما كانت نمورا ، ولكنها صارت اليوم أسدا من كل وجه ، وينبغي أن تسبق الوحش والطير والأسماك وإلا فالويل لمن يقترب منها » .

فقال النمساوى وقد أصبح شديد الحرة من فعل النبيذ : « هل أنت في هذا جاد يا سيدى ؟ وهل تظن أن رتشارد ملك إنجلترا يزعم لنفسه فضلا على الملوك الأحرار الذين تحالفوا معه طوعا في هذه الحروب الصليبية ؟ » .

فأجاب كتراد وقال : « والله إني لا أعرف إلا ما نتم عنه الظروف ، فهناك يخفق علمه فريدا وسط تخميننا ، كأنه ملك على جيوشنا المسيحية كلها ، وكأنه كبير قوادها » .

فقال الأرشدوق : « وهل أنت تحتمل هذا صابرا ، وتحدث عنه بمثل هذه البرودة ؟ » .

فأجاب كتراد : « سيدى ! ليس لمركزز منتسرا المسكين أن يتحدث على أذى

يخضع له خضعا أمراء أشداء كفيليب فرنسا وليوبولد النمسا ؛ ما تخضعان له من هوان لن يكون لى شئارا .

وحينئذ أطبق ليوبولد قبضة يده وضرب بها على المائدة بشدة وعنف . وقال : « لقد قلت لفيليب ذلك ، وكم من مرة قلت له إن من واجبنا أن نحكى صفار الأمراء من اغتصاب هذا الجزى — ولكنه كان دائما يجيبى بوجوب رعاية تلك العلاقة السخيفة بينهما ، علاقة السيد والسود ، ويقول أن ليس من الحكمة من جانبه أن يعلن انفصام هذه الرابطة فى هذا الوقت وذلك الحين » .

فقال كتراد : « يعلم الناس قاطبة أن فيليب رجل حكيم ، وسوف ينظرون إلى خضوعه كأنه من حسن السياسة ؛ أما ذلك يا سيدى فأنت وحدك مسئول عنها ، ولكنى لا أشك فى أن لديك أسبابا قوية تدعوك إلى الإسلام إلى نفوذ الأنجليز » .

فأجاب ليوبولد موتور الكرامة وقال : « أنا أسلم لهم ! أنا أرشدوق النمسا ذلك العضو الحيوى الهام فى جسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة — أنا أذل نفسى لهذا الملك الذى يتأمر على نصف جزيرة — هذا الحفيد لرجل نورماندى نقل ! — كلا ورب السموات العلا ! لسوف يرى المسكر ، ولسوف يرى العالم المسيحى طرا ، أنى أعرف كيف أعيد لنفسى حقها ، ولسوف يرى إن كنت أتزل عن قيد شجرة لهذا الوغد الأنجليزى — هيا يا سادى ، يارفاق الجبور ، هيا اتبعونى ! سوف نضع نسر النمسا حيث يحلق غالبا كما حلقت فى التاريخ أية شارة لملك أو لقيصر ، ولن تتوانى فى ذلك برهة أو لحظة » .

ولما أتم حديثه نهض من مقعده ، ووسط الهتاف المجاج الذى هلل به ضيوفه وأتباعه توجه نحو باب السرادق ، وأمسك بعلبة الخالص الذى كان منتصباً لديه .

فقال كتراد متلمسا للتدخل سببا : « كلا ياسيدى ! إنك لو أثرت بالمسكر

شغبا في هذه الساعة للطخت بذلك سداد رأيك ، ولربما كان خيرا لك أن تبقى خاضعا لاغتصاب إنجلترا فترة من أن . . . . » .

فصاح الدوق بأعلى صوته وقال : « كلا ، لن أخضع بعد اليوم ساعة ، كلا بل ولا دقيقة واحدة » ثم سار والعلم في يده ، وفي إثره ضيوفه وأتباعه مهللين ، وسارع إلى الراية الوسطى التي كان يخفق عليها علم إنجلترا ، ووضع يده على رمح اللواء يريد أن يقتله من الأرض .

فقال جوناس شوانكر ، وقد مد ذراعيه حول الدوق : « سيدي ! سيدي العزيز ، إحذر فإن للأسد أنيابا . . . » .

فقال الدوق : « وللنسر غاليا » ، ولم يترك عصا اللواء من قبضته ، ولكنه تردد في اقتلاعها من الأرض .

وكان للمحدث فترات يصدر فيها عن روية وبصيرة — وهذا بعض واجبه — فقرر عصاه بصوت مرتفع حتى أدار ليوبولد رأسه نحو مستشاره ، وكأنه قد اعتاد ذلك ، فقال المحدث : « النسر ملك بين الطيور في الهواء ؛ وكذلك الليث بين الوحوش في الغاب ؛ كل له دائرة يصول فيها تنفصل عن الأخرى تماما ، كما تنفصل إنجلترا عن ألمانيا — فلا تلحق بالأسد الملكي هوانا أيها النسر النبيل ، وخلّ لوإنيكا يخفقان جنباً إلى جنب آمنين مطمئنين » .

فباعد ليوبولد يده عن رمح اللواء ، وتلفت يبحث عن كثراد منتسرا ، ولكنه لم يره ، لأن الركيز لم يلبث أن رأى الشر قائما على قدم وساق حتى انسحب من الحشد ، وقد عبر للكثير من المحايدين عن أسفه لأن يختار الأرشدون تلك الساعة بعد المأدبة ليثار من أية إساءة يرى أن من حقه أن يشكو منها . ولما ير الدوق ضيفه الذي كان يرغب في التحدث إليه خاصة ، رفع عقبرته وقال : « إنه لا يرغب في أن يولد بين صفوف جيش الصليب فتنة . إنه يريد أن يؤيد حقه في أن يقف وملك إنجلترا على قدم المساواة ، ولكنه لا يتطلع — وقد كان في وسعه ذلك — إلى رفع علمه — الذي تسلمه من المواهل أسلافه — فوق علم ملك

ما هو إلا حفيد من أحفاد أمراء أنجو . ثم أمر الدوق بدن من التينيد يؤتى به إليه ، ويدك فوق الأرض ليحتسى منه الواقفون الذين تجرعوا المدام تكررأ حول راية النمسا بين قرع الطبول ونغم الموسيقى .

ولم ينته هذا الحفل المهوش بنير ضجيج أزعج المسكر بأسره . وأزفت الساعة الحرجة ، الساعة التي رأى الطبيب وفقاً لقواعد فنه أن عليه الملكي يجوز أن يوقف فيها بطمأنينة وسلام ، واستخدم اسفنجة لهذا الغرض ، ولم يتفكر صريضه طويلا ، وأكد لبارون جلزلاند أن الحى قد تخلصت عن ملكه بتاتا ، وأن من حسن الطالع أن للملك من قوة البناء ما لا يحتم تناوله جرعة أخرى من الدواء الناجع ، كما يجب في غالب الظروف ؛ والظاهر أن رتشارد نفسه كان يرى رأى ذاته ، فقد استوى على السرير ، ومسح بعينه ، وسأل دى فو عن مبلغ النقد الذى كان بالخزائن الملكية حينذاك .

ولكن البارون لم يستطع أن يجيبه إلى ذلك على وجه دقيق . فقال رتشارد : « ليكن المال قليلا أو كثيرا ، فليس هذا بأمر دى بال ؛ امنح كل ما هنالك لهذا الطبيب النطاسى الذى ردنى — على ما أعتقد — لخدمة الحرب الصليبية ، ولو كان المبلغ ينقص عن ألف بيزنط <sup>(١)</sup> فأعطه من الجواهر ما يرفع القيمة إلى هذا المقدار » .

فأجاب الطبيب العربى قائلا « إني لا أبيع الحكمة التى وهبها الله ، واعلم أيها الأمير العظيم أن الدواء الإلهى الذى تناولت منه يفقد أثره بين يدي الضيفتين لو أتى بمت فضائله بالذهب والماس » .

فقال دى فو محدثا نفسه « إن الطبيب يرفض المنحة ، والله إن هذا لأعجب من أنه فى المائة من عمره » .

وقال رتشارد « أى توماس دى فو ، إنك لا تعرف من البسالة إلا ما بظباء السيف ، ولا تعرف جودة أو فضلا إلا ما يسرى فى الفروسية — ألا فلتعلم أن

(١) البيزنط عملة ذهبية كانت متداولة فى الدولة البيزنطية وقيمتها نحو خسة وأربعين قرشا

هذا الغربي يستطيع — باعناده على نفسه — أن يكون مثلاً لأولئك الذين يظنون أنفسهم زهرة الفروسية » .

فقال المغربي وقد طوى ذراعيه على صدره ووقف موقفاً موقراً محترماً : « كفاي ثواباً أن ملكاً عظيماً كالملك رك<sup>(١)</sup> ينطق بهذا الكلام عن خادمه — ولكنني أتوسل إليك الآن ثمانية أن تستوى على فراشك ، لأنني وإن كنت لا أظنك بحاجة إلى أن تعاود اجترار هذا الشراب الإلهي ، إلا أنك إن بذلت جهداً مبتسراً قبل أن تسترد قواك كاملة ، فقد يعود عليك ذلك بالضر والأذى » .

فقال الملك : « تجب على طاعتك أيها الحكيم ، ولكن صدقتني أن صدى قد تفرج من تلك النار المتأججة التي لبثت أياماً طويلاً تلهم ما بين جنبي ، وإني لا أكرث الآن إن أنا بادرت إلى تبريذه لرمح رجل من بواسل الرجال — ولكن صه ، صه ! ما وراء ذلك الصباح وتلك الموسيقى النائية التي تعزف في المعسكر ؟ اذهب ، توماس دي قو ، واكشف عن الأمر » .

فتنبه دي فودقيقة ثم عاد وهو يقول : « إنه الارشديق ليوبولد يسير وإخوانه في الشراب في موكب خلال المعسكر » .

فصاح الملك رتشارد قائلاً : « ياله من وغد قد عمل ! ألا يستطيع أن يخفي هذا التمل الوحشي وراء ستار مرادقه ، وهل لا بد له أن يبدى خزيه هذا للعالم المسيحي طراً ؟ » — ثم أردف موجهاً الخطاب إلى كنراد منتسراً — وقد ولى الفسطاط آتئذ — وقال له : « ماذا ترى في هذا ، سيدي الركيز ؟ » .

فأجاب الركيز قائلاً : « كم يسرني أيها الأمير النبيل أن أرى جلالتك معافي وقد برئت إلى هذا الحد ؛ إن الحديث في هذا الشأن شاق على رجل ناله شيء من قراء دوق النمسا » .

فقال الملك : « ماذا ! هل كنت تتناول النداء مع هذه القرية التيوتونية المترعة بالنبيذ<sup>(٢)</sup> ؟ أننى له هذا المرح الذي انتهى به إلى كل هذا الضجيج ؟ حقاً يا سر

(١) ممكنًا كانت تسمى الأمم القرية رتشارد .

(٢) يقصد دوق النمسا .



كنزاد لقد كنت أظنك حتى الآن رجلا محبا للهو والطرب ، حتى إنى لأتجنب كيف هجرت مكان القصف » .

وكان دى فو إذذاك قد وقف وراء الملك وقريبا منه ، يسى جهده — بالمحبات والشارات — أن يشير إلى المركيز بأن لا ييوح لرتشارد بشيء مما كان يدور خارج السرادق ، ولكن كنزاد لم يفهم هذا التحذير ، أو قل إنه لم يأبه له . فقال : « إن ما يعمل الأرشدوق شيء قليل الجدوى لنبره ، وأقل جدوى لنفسه ، فهو لا يعرف ما هو صانع ، وما هذا حقا إلا لعب لا أحب أن أساهم فيه . ما دام الدوق يخلع لواء انجلترا من فوق جبل سنت جورج وسط ذاك الخميم ، وينشر رأيته مكانه » .

فصاح الملك بصوت يكاد يوقظ من فى القبور وقال : « ماذا تقول ؟ » . فقال المركيز : « كلا ! لا يُفَضِّلُ جلالتك أن رجلا أحق يعمل ما عليه عليه حقه . . » .

فقال رتشارد وقد هب من مرقدته واثنى على ثيابه بمجلة عجبية : « لا تخاطبني ياسيدى المركيز ! أى دى ملتن ، إنى أمرك أن لا تنبس إلى بيت شفة — من يلفظ كلمة واحدة فليس لرتشارد بلاتنا جنت بصاحب أو صديق — ناشدتك الله أن تلزم الصمت أبها الحكيم ! »

وفى تلك الأثناء كان الملك يرتدى ثيابه متعجلا ، ولم يكده يلفظ الكلمة الأخيرة حتى انتزع حسامه من إحدى قوائم الفسطاط ، وانطلق من السرادق . وليس معه سلاح آخر ، ولم يدع أحدا يتبعه . فرفع كنزاد يديه كأنه ذاهل ، وبدأت عليه الرغبة فى التحدث إلى دى فو ، ولكن السر توماس خلفه واندفع بشراسة ، ثم نادى أحد رعاة الخيول الملكية ، وقال له متلفها متعجلا : « انطلق إلى بيت اللورد « سولبرى » واطلب إليه أن يجمع رجاله ويتبعنى توا إلى جبل سنت جورج ، قل له إن الحلى قد خرجت من دماء الملك ، واستقرت فى رأسه » .

وذعر الخادم الذى وجه إليه دى فو الخطاب بهذه اللفظة ، فلم يستمع إلى كل حديثه ، ولم يكذب بقله له قولا ؛ وانطلق على إثر ذلك رئيس رعاة الخيل وزملاؤه من خدام البيت المالك وهروا إلى خيام النبلاء المجاورة ، وسرعان ما نشروا الأعراب بين الجنود البريطانيين كافة ، وبقي الباعث غامضا لم يدربه أحد ، فاستيقظ الجند الإنجليز وهبوا من قلوبهم ، التى علمتهم حرارة الجوّ أن يستفرقوا فيها كأنها لون من ألوان الترف ، وأخذوا فيما بينهم يقساء لون ما تلسم الجلبة ، وما ذلك الشغب ، وقبل أن يجابوا سؤالهم كفتهم قوى الخيال ما نقصهم من خبر ، وقال بعضهم إن العرب قد حلوا بالمسكر ، وقال بعضهم حياة الملك مهددة ، وقال بعضهم إنه هلك من الحمى فى المساء السابق ، وقالت كثرة منهم إن دوق النسا قد اغتال حياته ، وبات الأشراف والضباط — كثيرهم من عامة الرجال — فى حيرة من حقيقة الباعث على هذا الاضطراب ، فلم يعملوا إلا على أن يُيقوا أتباعهم شاكي السلاح ، مؤتمرين لندوى النفوذ والسلطان ، خشية أن ينجم عن تهوهم شر مستطير يلحق بجيش الصليبيين ؛ ورن رنين الأبواق الإنجليزية ، وجلجل صوتها دون انقطاع ، وعلا صوت القوم مذعورين ، وأخذوا ينادون : « قسيكم ورماحكم — قسيكم ورماحكم ! » ، وسرى النداء من حى إلى حى ، وأخذ يتردد مرة تلو الأخرى ، فيجاء بالفوج إثر الفوج من المقاتلين المتأهبين ، ودعواهم القومية : « سنت جورج لانبجلترا الطروبة ! ».

وسرى الدعر فى أقرب الأحياء بالمسكر ، وتجمهرت زمرة من الرجال من الأمم المختلفة جميعا ، وربما كان لكل قوم من أقوام العالم المسيحي من يتسلم ، ورفع الجميع السلاح متكاتفين فى ظرف هذا اللعمان المضطرب الذى لم يعرفوا له باعثا أو مرمى ؛ وكان من حسن الطالع وسط هذا المشهد المروع أن (الاييرل أف سولزبرى) — وقد هرع بعد أن استدعاه دى فو فى ثلة من خيار الرجال الإنجليز المدججين بالسلاح — قد سير بقية الجيش الإنجليزى ، وأشار لهم أن يتحشدوا ويقفوا شاكي السلاح ، كي يسيروا إلى نجدة رتشارد إن دعا إلى ذلك داع ، وأن

يتقدموا بنظام لائق ، وألا يتحركوا إلا إن جاءهم أمر معتمد ، وألا يسيروا بعجلة  
لجبة قد يجلبها عليهم ما يملكهم من دعر وما يدفع بهم من غيرة على سلامة المليك .  
وفى تلك الآونة أخذ رتشارد يشق طريقه إلى جبل سنت جورج منطلقاً  
كالشهاب ، ولم يكثر لحظة لتلك الصيحات وذلك الهتاف والضجيج الذى أخذ  
يتعالى حواله ، وثيابه أبعد ما تكون عن الاتساق ، ولم يتبعه غير دى فو وواحد  
أو اثنين من حشمه .

وكان فى انطلاقه أسرع من الدعر الذى أثاره بان دفاعه وتهوره ، وصرايحى جنوده  
البواسل من « نورماندى » و « بواتو » و « غسقونيا » و « أنجو » قبل أن يبلغهم  
الاضطراب — وإن يكن الشغب الذى كان يرافق قصف الألمان قد دفع بالكثير  
من الجند إلى أن يهبوا على أقدامهم يتسمعون — وكانت قلة الاسكتلنديين تقطن إلى  
جوار ذلك الحى ، ولكن هذا اللجب لم يزعجهم ، أما فارس الفرس فقد لحظ شخص  
الملك وما كان عليه من عجلة ، فعلم أن الخطر لابد دان ، فسارع كي يساهم فيه ،  
وانترع درعه ومهنده ، وانضم إلى دى فو الذى كان يجد بعض المشقة فى مسيرة  
سيده — وقد اشتمل ناراً وجزعاً — وصوب الفارس الأسكتلندى إلى دى فو نظرة  
تطلع وتشوق ، فأجابه دى فو بهز كتفيه المريضتين ، وانطلقا جنباً إلى جنب ،  
يتابعان خطى رتشارد .

وسرعان ما بلغ الملك سفح جبل سنت جورج ، وقد تحوط القوم إذ ذاك سفح  
الجبل وجوانبه ، واحتشد من الناس زحام ، بعضه من أتباع دوق النسا الذين كانوا  
يمجدون — مهللين هاتفين — ذلك العمل الذى كانوا يعدونه إقراراً للكرامة  
القومية ، وبعضه نظارة من أمم مختلفة ، ضمهم بعضاً إلى بعض ، ليشهدوا نهاية  
هذا العمل الشاذ ، بنص فى النفوس للإنجليز ، أو حب للطلع مجرد ، وانطلق  
رتشارد فى طريقه وسط هؤلاء الجند المختلطين كأنه سفينة كريم امتلاً شراعه  
بالهواء ، وسار يشق طريقه عنوة خلال الأمواج المتلاطمة ، لا يبالي إن تجمعت  
الأمواج بعد مسيره أو خر خريرها على مؤخرته .

وكانت قمة الجبل فسحة من الأرض صغيرة مستوية ، اندكت فوقها الأعلام المتنافسة ، وما فتى يحوطها أصدقاء الأرشدوق وحاشيته ، وكان ليوبولد نفسه وسط الدائرة ، وما برح ينظر إلى الفعلة التي فعلها بنفس مطمئنة ، وما عم يستمع إلى هتاف الاستحسان الذي لم يدخر حربه نفساً في توجيهه إليه ، وإذ هو كذلك في غبطته ، إذا برتشارد يندفع إلى الحلقة وليس له من الأتباع حقا غير اثنين ، ولكنه بنشاطه المتدفق جيش وحده لا يقاوم .

وقال وقد مديده إلى العلم النمساوى ، وتكلم بصوت يشبه تلك الجلجلة التي تسبق الزلازل : « من ذا الذي حدثته نفسه أن يضع هذه الخرقه الحقيمة إلى جوار الراية الانجليزية ؟ » .

ولم يفتقر الأرشدوق إلى الشجاعة الشخصية ، وكان عالاً أن يسمع هذا السؤال دون أن يجيب ، ولكنه رغم ذلك انزعج وذهل ذهولا شديداً لمقدم رتشارد الذي لم يكن في الحسبان ، وتملكه رعب مبته شخصية الملك الثيرة التي لا تثنين ، حتى إنه أعاد السؤال مرة بعد أخرى — في نعمة كأنها تتحدى السموات والأرضين — قبل أن يجيب الأرشدوق ويقول رابط الجأش جهد الطاقة : « أنا ذلك الرجل ، ليوبولد النمساوى » .

فأجاب رتشارد : « إذن فلسوف يرى ليوبولد النمساوى عما قريب أى وزن يقيم رتشارد الانجليزية لرايته ودعواه » .

ولم يكذبهم حديثه حتى اقتلع رمح العلم وحطمه إرباً إرباً ، ورمى بالعلم فوق الثرى ووطأه بقدميه .

ثم قال : « هكذا أدوس علم النمسا ! فهل من بين فرسانكم التوتون من يجرؤ على مناقشتي الحساب ؟ » ، وحينئذ ساد الصمت حيناً ؛ ولكن ليس في الرجال من لهم شجاعة الألمان ، فكم من فارس من أتباع الدوق أجاب رتشارد قائلا : « أنا ذلك الرجل » ، وضم الدوق نفسه صوته إلى أصوات أولئك الذين ردوا على ملك انجلترا تحديه .

قال « الايرل والآنرود » وهو مقاتل كبير الجسم من حدود البحر : « فيم هذا التواني ، أى إخوانى يا كرام النبلاء ، إن هذا الرجل يطلأ بقدمه شرف بلادكم — هلموا بنا ننقذه من هذا الاعتداء ، ولتسقط كبرياء انجلترا ! » .

ولم يكذب يتم قوله حتى استل حسامه ووجه نحو الملك ضربة ، كان فيها قضاؤه لولا أن اعترضها الرجل الاسكتلندى وتلقاها بدرعه .

فقال الملك رتشارد ، وقد استشرى وعلا صوته الشغب الذى ارتفع ضجيجيه إذ ذاك : « لقد أقسمت يميناً أن لا أضرب رجلاً يحمل الصليب على كتفه ، وإذن فلتعش يا « والنرود » — ولكن عش لتذكر رتشارد ملك انجلترا » .

ولم يفرغ من حديثه حتى أمسك الرجل المجرى الطويل القامة من خصره — وهو رجل لا يبارى فى الصراع كما لا يبارى فى غيره من الحركات الحربية ، وطوح به إلى الوراء بمنف ، فتدحرج جسم الرجل البدين — وكأنه ينطلق من مدفع عسكرى — لا وسط النظارة الذين شهدوا هذا المنظر الشاذ فحسب ، وإنما فوق حافة الجبل نفسه وعلى جرفه الذى أخذ يتقلب عليه والنرود رأساً على عقب ، حتى ارتكز أخيراً على كتفه ، وتخلخلت عظامه ، ولبت ملقى على الأرض وكأن الحياة قد فارقت . هذا الحادث الذى بدت فيه قوة الملك — وهى تكاد تفوق الطاقة البشرية — لم تشجع الدوق أو أحداً من أتباعه ، على أن يماود السجال الذى لم تكن بدايته ميمونة الطالع ؛ وحقاً لقد صلصل بالسيوف أولئك الذين وقفوا بعيداً إلى الخلف وصاحوا : « ضيقوا وغد الجزيرة إرباً إرباً » ، ولكن الأقربين منهم أخفوا مخاوفهم الشخصية تحت ستار مصطنع ، هو ستار الرغبة فى حفظ النظام ، وكنت أكثر ما تسمع منهم « السلام ، السلام ، السلام ! سلام الصليب ! سلام الكنيسة المقدسة وأيننا البابا ! » .

هذه الصيحات المختلفة من المتبرين كان يناقض بعضها بعضاً فتدل على فتور فى المزيمة ، بينما كان رتشارد — وقدمه ما تزال فوق راية الأرشدوق — يتطلع حواليه بعين كأنها تبحث عن عدو ، عين تراجع منها الأشراف الغاضبون فزعين ،

كان ليثا هصورا يهددهم بالمحجوم ، ولبت دى فو وفارس الثر مكانهما إلى جوار الملك ، ورغم أن سيفيهما ما برحا مغمدين ، إلا أنه كان جليا أنهما يتحفزان لحماية شخص رتشارد حتى النفس الأخير ، وكانا بضخامة جسميهما وقوة بنيتيهما الفائقة يدلان دلالة واضحة على أن دفاعهما سوف يكون دفاع المستقلين .

وقد دنا سولزبرى وحاشيته كذلك إذ ذاك برماح وحراب مسنونة وقسي مشدودة .

وفى تلك الآونة جاء فيليب ملك فرنسا يتبعه واحد أو اثنان من أشrafه ، واعتلى المنصة مستعلما عن سبب تلك الشحنة ، ولوَّح بشارات التعجب حينما ألنى ملك انجلترا وقد هب من فراش مرضه ، وواجه دوق النمسا ، حليف الطرفين ، وقد وقف وقفة المتوعد المتحدى ؛ ولقد خجل رتشارد نفسه حينما رآه فيليب — وكان يقدر فيه حكمته بقدر ما كان يكره شخصه — وهو فى هيئة لا تليق بمركزه كملك ، ولا بصفته كصليبي ، ولحظ الحاضرون أنه رفع قدمه — وكأنه غير عايد — من فوق الراية المهيئة ، وبدل من نظرتة المزوجة بالمعاطفة الحارة نظرة اصطنع فيها الطائنة وعدم المبالاة ؛ وجاهد ليوبولد أن يظفر بشيء من الهدوء ، وكاد يموت كدأ حينما رآه فيليب وهو فى موقف الدلة والخنوع بسبب الإهانة التى لحقتة من ملك انجلترا وهو يتقد غضبا .

وكان فيليب على كثير من تلك الصفات الملكية التى أطلقت عليه رعيته من أجلها لقب العظيم ، حتى أننا نستطيع أن ندعوه « يوليسيز » كما كان رتشارد « أخيليس » <sup>(١)</sup> غير متنازع فى الحرب الصليبية . كان ملك فرنسا حكيما عاقلا حازما فى مشورته ، متزنا ساكنا فيما يعمل ، يتبصر فيما يدبر لصالح مملكته ، ويرسم لذلك خطة يتابعها راسخ القدم ثابت العزيمة ؛ وهو فى سلوكه ملك موقر ، مقدم فى نفسه ، إلا أنه إلى السياسى أدنى منه إلى المقاتل ؛ وما كان للحرب الصليبية أن تكون من محض اختياره ، ولكن عدواها أصابته ، وفرضت عليه الكنيسة

(١) « يوليسيز » و« أخيليس » شخصيتان هامتان فى الإلياذة هومر .

الحلّة فرضاً ، كما دفعته إليها رغبة قوية أجمع عليها أشرافه ؛ ولو كان الظرف غير  
الظرف ، أو لو كان العصر أشد رفقاً ، لكان يعلو في خلقه على قلب الأسد  
الجسور ، ولكن في حرب صليبية — هي في ذاتها أمراً لا روية البتة فيه —  
لا يكون العقل السليم من بين جميع الصفات إلا أقلها قدراً ؛ ولو أن شجاعة  
الفروسية ، التي كان يتطلبها العصر ومشروع الحرب ، اختلطت بأذى أثر من  
آثار الحكمة لحط ذلك من قدرها ، ولذا فإن مزية فيليب ، إذا قيس بصفات  
منافسه الشامخ بأنفه ، ما كانت إلا كضوء المصباح الضئيل الصافي إذا وضع  
إلى جوار وهج الشمع المتوقد الذي ليس له من النفع نصف ما للآخر ، إلا أن  
له من الأثر على العين عشرة أمثاله ؛ وكان فيليب يحس بحبطته عن رتشارد في أعين  
الجمهور ، فيألم لذلك ألماً يحس به كل أمير كريم النفس ؛ وليس عجيباً أن ينهز كل  
فرصة تسنح كي يقرر شخصيته إلى جوار منافسه بحيث يرفع من قدر نفسه ، وكان  
الظرف إذ ذاك إحدى تلك المناسبات التي تنتصر الحكمة والمهذوء فيها على العناد  
والهور والعنف .

« ما وراء هذا الشجار الذي لا يليق بأخوين في الصليب أقسم له الولاء —  
بين صاحب الجلالة ملك إنجلترا والأمير الدوق ليوبولد ؟ كيف يجوز لوعماء هذه  
الحلّة المقدسة وعمدها أن . . . »

فقال رتشارد — وقد تأججت النار في صدره حينما ألقى نفسه وقد وضع على  
شيء من المساواة مع ليوبولد ، ولم يدر كيف يستنكر هذا الموقف — : « مهلاً  
بعض هذا العتاب ملك فرنسا ؛ إن هذا الدوق أو الأمير أو الدعامة — إن شئت —  
قد دل على قبحه فلاق مني الجزاء ؛ وهذا هو ما نحن فيه ؛ وحقاً إن هذا لشغب  
كثير من أجل وغد مهين ! »

فقال الدوق : « أي جلالة ملك فرنسا ، إني أعمد إليك وإلى كل أمير ملكي  
في هذا الخزي المشين الذي كابدته وعانيت منه ؛ إن ملك إنجلترا هذا قد نزع رايبي  
ومزقها وداسها . »

فقال رتشارد : « أجل ، لأنه بلغ من الجرأة أن يرفضها إلى جوار رايته » .  
فأجاب الدوق وقد شجعه مثول فيليب : « إن مكاتني كند لك تخول لي هذا » .  
فقال الملك رتشارد : « وحق القديس جورج لو أعلنت هذه المساواة بينك  
وبيني لفعلت بك ما فعلت بهذه الراية الموشاة التي لا تليق إلا بأدنى وظيفة يمكن  
لراية أن تؤديها » .

فقال فيليب : « صبراً أخي ملك إنجلترا ، وسوف أرى الآن دوق النمسا أنه  
مخطئ في هذا الشأن » ، ثم استأنف الكلام وقال : « لا تظنن أيها الدوق النيل  
بأننا ، إذ نرضى لعل إنجلترا أن يحتل المكاة العليا في ممسكرنا ، نقر — نحن ملوك الحرب  
الصليبية المستقلين — بأننا أصغر من الملك رتشارد شأنًا ، أو أحط منه قدرًا ؛ كلا ،  
ليس هذا من الصواب في شيء ، مادام لواء الجهاد ذاته — وهو علم فرنسا الأعظم  
الذي ليس الملك رتشارد نفسه فيما يخص أملاكه الفرنسية إلا تابعًا له — يتبوأ الآن  
مكاة أدنى من ليوش إنجلترا<sup>(١)</sup> . ولكننا — كاخوة في الصليب — قد أقسمنا له جميعًا  
بيمين الولاء ، وكجراح حرسين قد طرحنا عظمة الدنيا وكبرياءها جانبًا ، وأخذنا نشق  
بسيوفنا طريقًا إلى القبر المقدس ، فتخطيت أنا نفسي وغيري من الأمراء للملك  
رتشارد — احترامًا لصيته الذائع ومآثره في القتال — عن هذا التصدر الذي  
ما كنا لنسلمه له في مكان غير هذا المكان ، وتحت بواعث غير هذه البواعث ؛ وإنني  
على يقين أنك يا صاحب الفضامة الملكية دوق النمسا ، لو تدبرت ما أقول ، سوف  
تأسف على أنك رفعت رايته في هذا المكان ، وأنا على ثقة بأن جلالة ملك إنجلترا  
سوف يرضيك بمد هذا لما ألحق بك من مهانة » .

وكان الحدث والمهرج كلاهما قد أويا إلى مكان بعيد مطمئن حينما ادلهمت الأمور  
وأنذرت بالقتال ، ولكنهما عادا بعد أن عرفا أن الكلام — وهو جل بضاعتهما —  
قد أوشك أن يكون هو الحكم في ذلك اليوم .

وكم سر رجل الأمثال (أي الحدث) من خطاب فيليب السياسي حتى لقد

(١) يقصد العلم الإنجليزي



هز بمصاه عند اختتام الكلام كأنه يؤيد ما قال فيليب ، ونسى الحضرة التي كان مائلا لديها ، وبلغ به النسيان أن رفع عقبرته قاتلا إنه هو نفسه لم يفه حياته بكلام أحكم من هذا .

فهمس جوناس شوانكر وقال : « قد تكون مصيبا فيما تقول ، ولكنك إن رفعت صوتك بالكلام فستضربن بالسياط » .

وأجاب الدوق ، مكتئبا ، بأنه سوف يرفع أمر هذا النزاع إلى مجمع الصليبيين العام — وهو رأى أثنى عليه فيليب كثيرا وقال عنه إنه قين بأن يرفع خزيا بالغ الأذى بالعالم المسيحي .

أما رتشارد فقد بقى كما كان على هيئته غير مكترث أو مبال ، وأنصت لفيليب حتى أوشك أن ينضب معين فصاحته ، ثم قال بصوت جهورى : « إني وسنان ، وما زالت الحمى تلعب برأسى . أى أخى ملك فرنسا ، إنك بمزاجى عليم ، وإنك لتعرف أنى دائما لا أكنم إلا قليلا من اللفظ ؛ فاعلم إذن فى التو والحين أنى لن أعرض أمرا يمس شرف إنجلترا على أمير أو مجمع أو بابا ؛ هذا لوائى قائم ، وأية راية ترتفع على مدى رماح ثلاثة منه — حتى وإن كانت راية فرنسا التى أظنك كنت تتحدث عنها الآن — فلسوف يكون حظها كحظ تلك الحرقة المهينة ، ولن تنالوا منى رضىة غير تلك التى تستطيع جوارحى الضعيفة هذه أن تؤديها ، وذلك بمبارزة من يجبرؤ منكم على النزال — أى وربى ، حتى وإن يكن منازلئى نخسة من أبطالكم لا واحدا فخصب » .

فقال المهرج همسا إلى زملائه : « تالله إن هذا الحديث خرافة ما يبدؤها خرافة ، وكأنه قد صدر عنى ، ومع ذلك فما اخال إلا أن هناك من هو أشد من رتشارد غفلة وأكثر هراء » .

وقال رجل الحكمة : « ومن عسى أن يكون ذلك الرجل ؟ » .

فقال المهرج : « ذلك هو فيليب أو دوقنا الملكى ، لو أن أحدهما قبل النزال . هيه يا أيها المحدث الحكيم ، والله ما كان أجدرنى وإياك أن تكون من عظام الملوك ،

ما دام أولئك الذين يحملون التيجان على رؤوسهم يستطيعون أن يمثلوا دور المحدث بالأمثال والمهرج ، مثل ومثلك تماماً ! » .

وبينا هذان الرجلان مشتغلان بهذا الحديث وحدهما ، أحاب فيليب على رتشارد تحديه الجارح في هودة وهدوء وقال : « إني لم آت إلى هنا كي أوقظ خصومات جديدة لا تتفق واليمين التي أقسمناها ، والقضية المقدسة التي نشتغل بها ؛ إني أبرح أخي ملك إنجلترا كما يبرح الأخ أخاه ، ولن تكون بين أسد إنجلترا<sup>(١)</sup> وزنبق فرنسا<sup>(٢)</sup> من المخصوصة إلا ما نوجهه مما حاملين على صفوف أعدائنا الكفار » . فقال رتشارد : « هذه صفقة رابحة يا أخي الملك » . ومبديده وقلبه مفعم بالإخلاص الذي يتصف به طبعه الكريم رغم تهوره ، ثم قال : « وعمما قريب قد نتاح لنا الفرصة لتنفيذ هذا الاتفاق الأخوي المجيد » .

فأجاب فيليب وقال : « دع هذا الدوق النبيل يساهم كذلك في صداقة هذا اللظرف السعيد » ؛ واقرب الدوق مكتئباً بعض الاكتئاب ، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، كي يصل إلى تسوية ما .

فقال رتشارد غير مكترث : « إني لا أفكر في النافلين أو في غفلتهم » فولاه الأرشدوق ظهره وانسحب من الميدان ، ونظر إليه رتشارد وهو يتراجع وقال : « إن من ألوان الشجاعة لوناً كالبراعة ، لا يظهر للميان إلا ليلاً ، وإني لن أبرح هذا العلم بغير حارس في كنف الظلام ، أما إذا انبثق ضياء النهار ، فإن عيون الأسد كفيلة وحدهما بأن تدفع عنه ؛ أي توماس الجازلاندى ، إني أعهد إليك برعاية العلم ، وأكلفك الهر على شرف إنجلترا » .

فقال دى فو : « سلامة إنجلترا عزيزة على ، وإن في حياة رتشارد لسلامة لها ، يجب على أن أعود بجالاتك إلى القسقاط ، وينبى أن لا تترث هنا بعد هذا » . فانفجرت شفتا الملك عن ابتسامة وقال : « إنما أنت ممرض غليظ صارم يادى فو » ثم واصل الحديث غاطباً السر كنه وقال : « أيها الأسكتلندى

(١) رمز لعلم إنجلترا . (٢) رمز لعلم فرنسا .

الجسور ، إلى مدين لك بالجبل ، وسوف أردّه لك جزيلًا . هناك ترى لواء إنجلترا صرّفعًا ! هلا هتيت برقاّته كما يعنى الثاثنىُ بسلّاحه عشية اليوم الذى يحرز فيه شرف الفروسية ؛ لا تبتمد عنه أكثر من طول ثلاثة رماح ، وادفع عنه بجسمك أى أذى أو إهانة — لو هاجك أكثر من ثلاثة رجال فى آن فانفخ فى البوق ؛ فهل تقوم بهذه المهمة ؟ »

فقال كنت : « لأقومن بها عن رغبة ، ولئن قصرت فى أدائها لحياتى قصاصى ، وسوف أمتشق سلاحى وأعود فوراً إلى هنا » .

وحينئذ استأذن فى الانصراف ملكا فرنسا وإنجلترا أحدهما الآخر ، وكلاهما يخفى وراء ستار من الجمالة أسباب شكواه من الآخر — أما رتشارد فيشكو من فيليب ما كان فى ظنه تدخلا فضوليا بينه وبين دوق النمسا ، أما فيليب فيشكو من قلب الأسد مسلكه المشين إزاء توسطه . أما أولئك الذين حشدهم هذا الاضطراب ، فقد تسلّوا الآن ، وسلك كل منهم سبيله ، مخلفين الجبل الذى دار النزاع على قمته فى عزّته التى لم تفارقه حتى شابها استخفاف دوق النمسا ؛ وحكم الرجال على حوادث ذلك اليوم كل على هواه ، فبينما عاب الإنجليز على دوق النمسا أنه أول من تقدم بسبب للنزاع ، أجمع أهل الأمم الأخرى على صب اللوم الأكبر على كبرياء رجل الجزيرة وعلى صلف رتشارد » .

وقال مركز منتسرا لرئيس فرسان المبد : « أما رأيت أن الدهاء أبلغ أثرًا من الشدة والعنف ، لقد حلت المواقف التى كانت توثق هذه الرابطة من الصوالة والرماع ، وسوف تراها عما قريب وهى تساقط متناثرة متنافرة » .

فأجاب رئيس المبد وقال : « ما كان أحكم خطتك لو كان هناك رجل واحد باسل بين أولئك النمساويين ذوى الدم البارد يفصم بسيفه عرى الروابط التى تحدث عنها ؛ إن العقدة إذا انحلت قد تلتئم ثانية ، ولكن ذلك لن يكون إذا تقطع الجبل إربا إربا » .

## الفصل الثامن عشر

هي المرأة تترى بنى الإنسان جيما  
جلى .

كان جزاء الشجاعة العسكرية في أيام الفروسية كثيرا ما يكون وظيفة خطيرة ، أو مضاعفة مهلكة ، أسند إلى الرجل تمويضا له عما كبده من محن ؛ مثلهم في ذلك مثل الإنسان يصعد جبلا عاليا ، كلما تساقى صخرة ارتفع إلى صخرة أشد خطرا .

ففي منتصف الليل ، والقمر في كبد السماء يتلأأ ضياء ، كان كنث الأسكتلندي واقفا فوق قمة جبل سنت جورج ، إلى جوار راية المجلثرا يخفها بمنزلا نائيا ، ويحمي رمز تلك الأمة من أية إهانة قد تلعب برأس واحد من تلك الألوف التي صيرها رتشارد بكبريائه أعداء له . ودارت برأس هذا المقاتل خطير الفكر واحدة تلو الأخرى ، وخيل له أنه قد اكتسب الرضا في عيني ذلك الملك الفارس ، الذي حتى آنئذ لم يكن يميزه بين جموع شجعان الرجال ، الذين جمعهم تحت رايته صيته الدائع ؛ ولم يكثر السر كنث كثيرا للموقف الخطر الذي ساقته إليه الرعاية الملكية ، وكان تفانيه في حبه لفتاة من ذوى المكانة الرفيعة يشعل فيه الحماسة العسكرية . وحقا لقد كان فاقد الأمل في وصلها تحت الظروف المألوفة ، إلا أن تلك الأحداث التي وقعت أخيرا قاربت ما بينه وبين (أديث) بعض المقاربة ، ولم يعد كنث - وقد منّ عليه رتشارد وميزه بحراسة رايته - مقصاما خامل الذكر ، وإنما هو محط الرعاية من أميرة من الأميرات ، وإن يكن أبدا ما يكون عن مستواها . ولن يكون بعد اليوم نكرة من النكرات ، ولو أنه أخذ على حين غرة ، وقتل وهو قائم بالعمل الذي أسند إليه ، فلسوف يستحق بموته - وقد اعتزم أن يكون موتا يحوطه الجلال - من قلب الأسد الثناء ، كما ينظر منه بالانتقام له ، وسوف يتبع موته الأمسى والدمع ، تذرفه الجيلات من نبات الأسر الكريمة في البلاط .

الإنجليزى ؟ ولم يبق بعد اليوم ما يجعله على أن يخشى أن يموت كما يموت صغار الرجال .

استرسل السر كنث فى الاستمتاع بهذه الخواطر الطامحة وأشباهاها ، التى يشذبها ذلك الروح الحمجى ، روح الفروسية الذى يخلق فيملو ويرتفع ويسبح فى الخيال ، ولكنه يظل رغم ذلك نقيا طاهرا من شوائب حب النفس — هو روح كريم مخلص ، وقد لا تميب عليه إلا أنه فى أعراضه وما يرسم من خطط العمل لا يتفق وضعف الإنسان ونقصه . والطبيعة كلها حول السر كنث نائمة فى ضياء القمر الهادئ ، أو فى الظلال الخالكة ، والصفوف الممتدة من الخيام والسرادقات ، مظلمة كانت أو متألفة بالنور — وهى نائمة فى ضوء القمر ، أو فى الظلام — كانت صامته ساكنة ، كما تكون الطرقات فى مدينة مهجورة ، وإلى جوار سارية العلم كان يرقد الكلب الذى ذكرنا من قبل ، رفيق السر كنث الأوحده وهو فى خفائه ، يركن إلى تنبيه نذيرا له باكرا كلما دنا من عدو وقع القدم ؛ وكأن هذا الحيوان النبيل قد أدرك مرى هذه الرقابة ، فأخذ يتلفت الحين بعد الآخر إلى ثنايا العلم الثقيل ، وإذا ما سمع صياح الحراس من الصفوف النائية وأما كن الدفاع فى المعسكر ، أجابه بنباح عميق متكرر ومتواصل ، كأنه يؤكد أنه كذلك يقظ فى أداء واجبه ، وكان يخفض رأسه الشامخ الفينة بعد الفينة ، ويمز ذيله كلما مر به سيده مرة بعد الأخرى وهو يدور دوراته القصيرة أثناء حراسته ؛ وكلما وقف الفارس صامتا شارد الدهن ، متكئا على رمح ، ومصوبيا نظره نحو السماء ، اجترأ صاحبه الأمين « أن يقطع عليه سلسلة خواتمه » إن صح هذا التمييز الخيالى ، ووخر الفارس فى يديه ذواتى القفاز بمقدم فه الخشن الكبير ، فأيقظه من أحلامه متوسلا إليه أن يدلله لحظة أو بعض لحظة .

وهكذا تصرمت من رقابة الفارس ساعتان دون أن يقع فيهما أمر ذو بال ، وأخيرا ، وعلى حين بقتة ، أخذ هذا الكلب الشهم ينبح محتما ، وبدا عليه كأنه

يوشك أن ينطلق إلى الأمام ، حيث الظلال على أشدها حلوكة ، ولكنه رغم ذلك تريت ، كأنه على ارتقاب ، حتى يتعرف ما يريد صاحبه .  
فقال السر كنث وقد أحس بأن شيئاً يزحف قُدماً على جانب الجبل الضليل ،  
« من السائر هناك ؟ » .

فأجابه صوت خشن يعافه السمع : « باسم « مارلين » و « موجيس » قيد أقدام ماردك<sup>(١)</sup> هذا الأربع ، وإلا فلن آتيك » .  
فقال السر كنث وقد حدى بصره الثاقب ما استطاع فى شيء يكاد لا يراه فى أسفل المنحدر ، ولم يستطع أن يتبين له شكلاً أو هيئة : « ومن عسى أن تكون أيها الداني من منصبي — حذار ! حذار ! — إنما أنا هنا للموت أو الحياة » .  
فرد عليه الصوت قائلاً : « أبعد مخالب شيطانك الطويلة ، وإلا فسأرميه بسهم من قوسى » .

وسمع فى ذات الحين صوت اثناء أو جنب كذلك الذى تسمعه حينما تشد القوس .

فقال الأسكتلندى : « أقم قوسك ولا تنهأ ، وتعال فى ضوء القمر ، وإلا فبحق القديس اندراوس لأطرحنك أرضاً ، وكن ما شئت أو من شئت ! » .  
وأمسك برمح من وسطه وهو يتكلم ، ودنا بصره نحو ذلك الجسم الذى كان كأنه يتحرك ، وهز بسلاحه كأنه يفكر فى قذفه من يده — والسلاح يستخدم أحياناً — وإن يكن نادراً — ويُركن إليه حين تلزم الرماية . ولكن السر كنث استحي من مقصده ، فرمى بسلاحه أرضاً حينما أقبل من الظلام إلى ضوء القمر مخلوق مقعد عاجز ، وكأنه ممثل قد أقبل على المسرح ، وقد عرف السر كنث من زيه الغريب وتشويه خلقه ، ولما يزل بعيداً عنه ، أنه ذكر القزمين اللذين رآهما فى معبد (عين جدة) ؛ وفى تلك اللحظة عينها عادت إلى ذاكرته المشاهد الأخرى التى رآها فى تلك الليلة الفريدة ، وهى تختلف جد الاختلاف عن هذا القزم فى مرآها ،

(١) يقصد بالارد هنا الكلب .

وأوماً إلى كلبه بإشارة أدركها الكلب في الحين ، فأوى إلى العلم ورقد إلى جواره وهو يدمدم بصوت مختنق .

هذه الصورة الإنسانية الصغيرة المشوهة<sup>(١)</sup> ، بعد ما أيقنت من سلامتها من هذا العدو الخيف ، أقبلت تصمد الجبل وهي تلهث من الإعياء ؛ وكان الصمود شاقاً على ساقيه القصيرتين ، ولما بلغ مستوى القمة ، نقل إلى يسراه القوس الصغيرة ، وهي أشبه بالعبة التي كان يسمح للأطفال في ذلك الأوان أن يصيدوا بها صغار الطير ، ووقف موقف الكرامة والاعتزاز بالنفس ، ومد يديه برشاقة وكياسة إلى السر كنت ، وتدل هيئته على أنه كان يرتقب منه أن يكتمها ، ولما لم يفعل ذلك السر كنت ، طلب إليه بصوت فيه رنة الحدة والغضب وقال : « أيها الجندي ، لماذا لا تؤدي إلى « نكتابانس » الولاء الواجب لكرامته ؟ أو قد نسيتَه ؟ » .

فأجاب الفارس وهو يود لو يخفف من حدة هذا المخلوق وقال : « أي نكتابانس العظيم ، إن هذا عسير على كل من وقعت عليك عيناه ؛ وإني لأسألك الغفو ، إذ أنني كجندي أؤدي واجبي ورعيي يسدي ليس لي أن أسمع لرجل من شا كلتلك أن يدنو من مكان حراستي ، أو أن يسيطر على سلاحى ، وحسبك أنى أحترم كرامتك ، وأخضع لك خاشعاً على قدر ما يستطيع جندي في مكانى أن يخضع » .

فقال نكتابانس : « حسبي هذا ، إن كنت بعد قليل تصحبني إلى خضرة أولئك الذين بمثوا بي إلى هنا كي أستدعيك » .

فأجاب الفارس : « سيدى العظيم ، لا أستطيع في هذا الأمر كذلك أن أصدق بما تريد ، فلقد أمرت أن أزم هذه الراية حتى مطلع الفجر — ولذا فإني ألتزم منك أن تعفوني في هذا الشأن كذلك » .

وبعد ما أتم حديثه استأنف مسيره فوق الجبل ، ولكن القزم لم يطلق أن يدعه يفلت من لجأته بتلك السهولة .

(١) الإشارة هنا إلى القزم .

فقال وقد وقف قبالة السر كنث كى يعترض سبيله : « استمع إلى ، إما أطمعنى يا سيدى الفارس كما يحتم عليك واجبك ، أو أمرتك باسم تلك التى تستطيع بمجالها أن تستنزل الجن من طاله ، وبجبالها أن تسيطر على هذه المخلوقات الخالدة بعد هبوطها من عليائها . »

نظرت للفارس خاطر وحشى بعيد الاحتمال ، ولكنه كبتته ورده عن نفسه ، وظن أن من المحال أن ترسل إليه غادة قلبه وهواه رسالة كهذه على لسان رسول كهذا — ومع ذلك فقد أجاب وفى صوته رعشة وقال : « اذهب عني يا نكتبانس . تخبرني على الفور وأصدقني القول هل هذه السيدة الكريمة التى تتحدث عنها امرأة غير الحوراء التى رأيتهما تعاونك وأنت تكنس معبد عين جدة ؟ » .

فأجاب القزم قائلا : « ما هذا أيها الفارس المدعى ، أفتظن أن السيدة التى عقدنا بها حبنا المسمى ، شريكة عظمتنا ، ورفيقة جلالتنا ، تستدل نفسها وتتعلق بتابع مثلك ؟ كلا ، إن شرفك لمظيم ، ولكنك لست بعد جديراً برضى الملكة « جشرا »<sup>(١)</sup> عروس آرثر الحسنة التى تمتلئ مقعداً مرتفعاً فيبدو لها الناس قاطبة ، حتى أمراؤهم ، أقزاماً ؟ ولكن ، انظر إلى ، إن كنت تعرف هذه الشارة أو تنكرها فلتطلع أمر صاحبها أو أعصه ، ذلك الأمر الذى تمطفت بفرضه عليك . »

وبعد ما أتم حديثه ، وضع بين يدي الفارس خاتماً من ياقوت ، فاستطاع الرجل أن يتعرف فى لمحظة — حتى فى ضياء القمر — أنه ذلك الذى يتحلى به عادة إصبع السيدة ذات الأصل الكريم ، التى كرس نفسه لخدمتها . ولو كان له أن يرتاب فى صدق الشارة لاستيقن من الوشاح الصغير المقود ذى اللون القرفلى ، الذى كان مربوطاً إلى الخاتم ، فذلك كان اللون الرغيب إلى نفس سيدة قلبه ، وكمن مرة عمل على أن ينتصر القرفل على كل ما عداه من ألوان فى حلبة المصارعة أو ميدان القتال ، مدعياً أن ذلك اللون هو لون حاشيته وأتباعه .

---

(١) هى زوج الملك آرثر فى الأسطورة الفهيرة ، وعصدها بها هنا زوجه .



وحقاً لقد صعدت السركنت ، وأوشك أن يخرس حيناً رأى هذه الشارة بين تلك اليد .

فقال الفارس : « باسم كل ما مقدس ، خبرنى ممن أخذت هذا الشاهد ؟ ناشدتك الله أن تجمع — إن استطعت — ذهنك الشارد لحظة أو لحظتين ، وأن تكون ثابتاً رزيناً ، وتحديثي شيئاً عن أرسلتك ، وعن حقيقة الغرض من رسالتك ، وحاذر فيما تقول ، فليس هذا مجال الهجون » .

فقال القزم : « حقاً إنك لفارس متم غافل ، أفتريد أن تعرف عن هذا الشأن أكثر من أنك تشرف بتلقى الأمر من أميرة ألقى إليك بها ملك من الملوك ؟ إننا لا نريد أن نتحدث إليك بأكثر من أن نأمرك باسم هذا الخاتم ، وبما له من نفوذ ، أن تبغتنا إلى صاحبه ، واعلم أن كل دقيقة تتوانى جرم في واجب ولائك » .

فقال الفارس : « أى نكتبانس الكريم ، تريث قليلاً ، هل تعرف سيدنى أية مهمة قد أسندت إلى هذا المساء ، وفي أى مكان أقوم بها ، وهل هى عليمه بأن حياتى — رحاك اللهم ، كيف لى أن أتحدث عن حياتى — كلا ، إنما تشرى ، يتوقف على حراسة هذه الراية حتى متبثق النهار ؟ وهل يجوز أن ترضى هى بأن أخلفها حتى وإن يكن لأداء واجب الخضوع ؟ كلا ، إن هذا الأمر محال ، إن الأميرة قد أرادت أن تمزح مع خادمها حيناً بعثت إليه بمثل هذه الرسالة ، وما أظن غير ذلك ، وبخاصة حيناً أذكر أنها قد اختارت مثلك لها رسولاً » .

فقال نكتبانس وقد تلفت كأنه يريد أن يفصل عن قنة الجبل « اعتقد بما شئت ، إننى لا أكثرث كثيراً إن كنت لهذه السيدة الملكية خائناً أو أميناً ؟ وإذن فلاستودعك الله » .

فقال السركنت : « إلبث قليلاً ، إلبث هنا ؛ إنى أتوسل إليك ألا تبرح ، أجبني عن سؤال واحد ، هل السيدة التى بعثت بك قرية من هذا المكان ؟ » .  
فقال القزم : « وما شأن هذا ؟ هل يحسب الإخلاص للفراخ والأبوال حساباً ، كما يحسب السامى الفقير الذى يؤجر على عمله بمقدار ما يقطع من أبعاد ؟ »

ولكن ، لتعلم أيها المرتاب أن صاحبة الخاتم الحسنة ، التي بعثت بي إلى تابع مثلك ليس له وزن ، وليس به صدق أو إقدام ، لا تبعد عن هذا المكان أكثر من مرمى السهم من هذه القوس » .

فخدق الفارس في الخاتم ، كأنه يريد أن يتثبت أن ليس بالشارة أثر من زيف أو بهتان ، ثم قال للقرزم : « هل سأمثل طويلا هناك ؟ » .

فأجاب نكتبانس بأسلوبه الطائش وقال : « طويلا ! ماذا تعنى بقولك طويلا — إنى لا أدرك للزمن معنى ولا أحس به ، إن هى إلا كلمة مبهمة — ما الزمن إلا أنفاس متلاحقة تقيسها ليلا برنين الأجراس ونهاراً بظل المزالة . هلا عرفت أن الوقت للفارس الحق ينبى ألا يقاس إلا بما يؤدي من عمل في سبيل الله وفى سبيل سيده ؟ » .

فقال الفارس : « حقا إنها لكلمة الصدق من فم الطائش الأرعن ، ولكن هل تستدعيني سيدتى حقا كي أقوم بمعمل ذى بال باسمها وفى سبيلها ؟ وهلا يمكن أن تستأخره بضعة ساعات حتى ينبثق النهار ؟ » .

فقال القرزم : « إنها تريد منك المثل تورا وبأسرع مما تتسرب عشر حبات من رمال مقياس الزمن <sup>(١)</sup> ؟ استمع إلى أيها الفارس المرتاب ذو الدم البارد ، هذى هى كلماتها لفظة لفظة : ( قل له إن اليد التى يتساقط منها الورد فى وسعها أن تضفر الأكاليل ) » .

هذا الإلحاح إلى لقائها بمعبود (عين جدة) أثار فى ذهن السر كنث ألوف الدكر ، وأقنعه بأن الرسالة التى بلغه إياها القرزم صادقة لا غبار عليها ، وكانت براعم الزهر — رغم ذبولها — لما تزل مكنوزة تحت درعه ، وأقرب ما تكون إلى قلبه ، فوقف الفارس قليلا ولم يستطع أن يعترزم عزيمة قوية على أن يدع هذه القرصة — وهى الفريدة التى ربما تعرض له حياته ، ويفوز فيها بالرضا فى عيني تلك التى ولاها ملكة

(١) هو مقياس على هيئة إناء منبج الطرفين دقيق الوسط ، يمتلئ أعلاه بالرمال ، ويعرف به الزمن بمقدار ما يتسرب من طرفه الأعلى إلى طرفه الأسفل .

على قلبه — وفي ذلك الحين زاده القزم ارتبكا كأن كرر عليه القول ، وعرض عليه إما أن يرد الخاتم أو يتيمة على الفور .

فقال الفارس : « مهلا ، مهلا . تربث لحظة واحدة » . ثم واصل الكلام وهو يندم ويقول : « هل أنا للملك رتشارد تابع أو رقيق على من الواجبات أكثر مما على الفارس الحر يقسم على خدمة الحرب الصليبية ؟ ومن عساني قد أتيت من أجله هنا لأرفع من شرفه بالرمح والسيف ؟ إنما أتيت لفرضنا المقدس ولسيدتي البارة ! »

وصاح به القزم جريعا وهو يقول : « الخاتم ! الخاتم ! أيها الفارس الخائن المتواني . رد إلى الخاتم فلست جديرا بمسه أو بالنظر إليه » .

فقال السر كنت : « أهلنى لحظة . برهة واحدة يا نكتبانس الكريم . لا تزعج خواطري — هب أن الأعراب يوشكون أن ينقضوا على صفوفنا ، أثبت هنا كتابع أقسم الولاء لانجلترا ، وأسى على أن لا يلين كبرياء مليكها للدلة أو خضوع ، أم أسارع إلى الحث في اليمين وأقاتل من أجل الصليب ؟ كلا ، بل إلى الحث ، وليس بعد سبيل الله إلا ما تأمرني به جيتي سيدة قلبي — ولكن ما الرأي في مشيئة قلب الأسد والوعد الذي أخذت على نفسي ! أي نكتبانس ، إنى أناشدك مرة أخرى أن تقول لى هل أنت سائر ببيداعن هنا ؟ » فأجاب نكتبانس وقال : « كلا ، بل إلى ذلك السراشق ؛ وأنت لا ريب ترى القمر يتلألأ فوق القبة المشاة بالنهب ، التي تتوج أعلاه ، والتي تستحق خدامه الليلك » .

فقال الفارس وقد تملكه اليأس ، وأغمض عينيه عن كل ما قد ينجم بعد ذلك من نتائج : « إنى أستطيع أن أعود بعد لحظة ، وإنى أستطيع أن أستمع من هناك لنباح الكلب لو اقترب من العلم إنسان — لسوف أرتقى لدى قدسى سيدتى وأستاذنها في العود كي أتم رقابتي — أسمع يا رزوال ؟ » ( ونادى كلبه وطرح عباءته إلى جوار رمح العلم ) « راقب هذا المكان ، ولا تسمح لأحد أن يقترب » .

فقد الكلب الهيب في وجه صاحبه ، كأنه يؤكد له أنه فهم ماعهد به إليه ، ثم جلس إلى جانب الباءة ، وأذناه مستقيمتان ، ورأسه مرفوع كأنه حارس يدرك تمام الإدراك الفرض الذي استقر من أجله هناك .

وقال الفارس : « هيا يا نكتبانس الكريم ، سارع بنا إلى تلبية ما أتيت به من أمر » .

فقال القزم مكتئبا : « ليسارع من يستطيع ذلك ، إنك لم تخف لإطاعة مادعوتك إليه ، وأنا لا أستطيع أن أسرع في مشيتي بحيث أسير وخطاك الواسعة . إنك لا تمشي كما يمشي الرجال ، إنما أنت تثب كما تثب النعامة في الصحراء » .

ولم يكن هناك غير سيلين للتغلب على عناد نكتبانس الذي أبطأ في مشيته وهو يتحدث ، وبات يسير كما تسير القوقعة ؛ إما رشوته وليس للسركنث إلى ذلك من سبيل ، وإما مصانفته وليس لها من الوقت متسع ؛ ففقد من فارسنا الصبر ، واختطف القزم ورفع من فوق الأرض ، وحمله وسار به لا يعبأ بتوسله أو بخوفه ، حتى كاد أن يبلغ السراق الذي أشار إليه القزم من قبل وقال إنه سراق الملكة ؛ ولما دنا الأسكتلندي ، ألقى هناك قليلا من الحراس الجنود متربعين على البسيطة ، وقد كانت تخفيهم عنه الخيام المتوسطة ؛ وعجب الفارس كيف أن صليل سلاحه لم يجذب منهم التفاتا ، وعرض له أنه ينبغي في ذلك الظرف الراهن أن يسير في الخفاء ، فوضع مرشده الصغير على الأرض — وهو يتنهد — كي يسترد أنفاسه ويشير بما ينبغي بعد ذلك أداؤه ؛ وكان نكتبانس غاضبا حانقا ، ولكنه شعر بأنه أضحي بكليته تحت سلطان الفارس القوي ، كأنه اليوم في غلب النسر ، ولما لم يفكر في استثارته إلى ما يدعو له لإظهار قوته أكثر مما فعل .

ومن أجل هذا لم يشك من المعاملة التي لاقى ، وإنما عرج خلال تيه الخيام ، وسار بالفارس في سكون إلى الجانب الآخر من السراق الذي كان يحجبهم عن رؤية الحراس ، الذين كانوا إما بالنسي الإهمال أو في النوم مستغرقين فلم يؤدوا واجبه بكثير من العناية .

ولما بلغنا ذلك المكان رفع القزم جانب الخيمة الأسفل من الأرض ، وأشار إلى المركب أن يتسرب إلى داخل الفسطاط زاحفاً تحته ، فتردد الفارس قليلاً ، إذ لم يكن من اللياقة في شيء أن يتسرب خفية إلى داخل السرادق الذي ضرب — بغير ريب — لايواء كرائم السيدات ، ولكنه تذكر الشارات الأكيدة التي عرضها عليه القزم ، واستقر به الرأي على ألاّ يجادل في رغبات سيده . وعلى ذلك طأطأ الرأس ، وزحف تحت السور الذي كان يحوط الفسطاط ، وسمع القزم يهمس من الخارج ويقول : « إلبث هنا حتى أناديك » .

---

## الفصل الثالث عشر

لأنكم تتحدثون عن الله مع البراءة !  
ولكنها في اللحظة التي أكلت فيها الثمرة التي كان فيها القضاء ،  
اقتربا على غير لقاء ؟

ومن ثم بات المرقرين الله والمحبور  
من اللحظة الأولى حيناً يودى الطفل الباسم  
بالزهرة أو بالفراشة لاعباً لاهياً ،  
إلى أن يقهقه البخیل وهو يموت  
إذ يضيق ضحكاته الأخيرة فوق فراش الفناء  
حيناً يسمع أن جاره الثرى قد أصابه الإفلاس .

من رواية تمثيلية قديمة

لبث السر كنت بضغ دقائق وحده في الظلام ، وكان في ذلك عطلة له ، وبات  
لزاماً عليه أن يمد أجل غيابه عن مقر حراسته ، وبدأ يدب في نفسه الندم على  
السهولة التي أغرى بها على أن يترك مكانه ، ولكن لم يمد بطراً على ذهنه أن يعود  
دون أن يرى السيدة أدبث . لقد خرج على النظام العسكري ، واعتزم أن يحقق  
على الأقل صدق الأمل الذي أغرى به وساقه إلى ما فعل ؟ ولكن موقفه لم يكن  
رضياً في ذلك الحين ، فلم يكن هناك ضوء يبين له أية غرفة كانت تلك التي سيق  
إليها - والسيدة أدبث كانت من الوصيفات الللازمات للملكة انجارترا - ولو  
تعرف عنه كيف ولج السراق الملوكي خلصة ، فقد يؤدي ذلك - لو كشف الأمر -  
إلى شكوك كثيرة خطيرة . أسلم الفارس نفسه لهذه الخواطر البغيضة إلى النفس ،  
وكاد يود لو عاد وتم له ذلك دون أن يرى ؛ وإذ هو كذلك ، طرق أذنه شغب من  
أصوات النساء يتضاكن ويتها من ، ويتبادلن الحديث في غرفة مجاورة لا يفصله  
عنها إلا حاجز من القماش ، كما تدل على ذلك الأصوات التي نمت إليه ، وقد عرف  
أن المصاييح موقدة من النور الخافت الذي انتشر حتى ظهر على الجانب الذي كان

إلى ناحيته من الحاجز الذى يقسم السرادق ، واستطاع أن يرى ظلالات لشخص عديده ، كانت تجلس وتتحرك فى الترفة المجاورة . وليس عدلا أن نقول إنه لم يكن من اللياقة فى شيء أن يستمع السر كنث - وهو فى موقفه الذى وقف - إلى الحديث الذى ألقى نفسه وقد التذ منه غاية اللذة .

وقال صوت من أصوات أولئك النسوة الضاحكات المحتفيات عن الأبصار : « ادعها<sup>(١)</sup> ، ادعها ، بحق العذراء ! أى نكتبانس ، إنك سوف تعين سفيرا لبلاط «پرسترجون» لترتهم كيف أنك تستطيع أن تؤدى الرسائل بحكمة وتدير » . وسمع السر كنث صوت القزم الأجنس ، وقد خنع واستدل ، حتى إن الفارس لم يدرك مما كان يقول ، إلا أنه قد تفوه بشيء عن أسباب الطرب التى قدمت للحراس .

« ولكن كيف نستطيع أيتها الأوانس أن نخلص من هذا الروح<sup>(٢)</sup> الذى أناره نكتبانس ؟ »

قال صوت آخر : « استمى إلى سيدتى الملكة ، إذا لم يكن نكتبانس الحكيم الأمير شديد الفيرة من عروسه وعاهلته البارعة ، فلنبعث بها تنقذا من هذا الفارس الشارد السفیه ، الذى أمكن إغراءه بهذه السهولة ، حتى ظن أن كرائم السيدات بحاجة إلى بسالته المتصلفة العاتية » .

وأجابت الأخرى : « من العدل أن تصرف الأميرة «جنفرا» بكياستها ذلك الرجل الذى استأثرت إلى هنا حكمة زوجها » .

وأصاب سويداء القلب من السر كنث الخزي والفيظ مما سمع ، حتى أوشك أن يسمى إلى الفرار من السرادق مهما كلفه ذلك ، لولا أن ما تلا ذلك من حديث ملك عليه لبه وخاطره .

إذا قالت المحدث الأولى : « كلا . حقا إن ابنة عمنا أدبث ينبغي أن تعلم أولا أى مسلك سلك هذا الرجل المتبجح ، وعلينا أن نسوق إليها دليلا عيانا على أنه

(١) تعمد المتكلمة أدبث .

(٢) تعمد المتكلمة بذلك السر كنث .

قد فشل في أداء واجبه ، وقد يكون في ذلك درس نافع لها ، لأنى - وصديقى  
فيما أقول يا « كالستا » - كثيرا ما ظننت أنها قد سمحت لهذا المخاطر من أهل  
الشمال أن يدنو من قلبها أكثر مما تميز لها الروية .  
وارتفع حينئذ صوت آخر يدمدم بشيء عن حكمة السيدة أدبث ،  
وحصافة رأيها .

فقبل ردا على ذلك : « أى حصافة رأى يا فتاة ! إن هو إلا كبرياء ورغبة في  
أن تشتهر بالصرامة والصلابة أكثر منا جميعا ؛ كلا ، إنى لن أنهارون في حق ،  
إنكن تعرفن حق المعرفة أننا إن أخطأت إحدانا ، فلا تستطيع أينا أن تضع  
بلياقة أمام الأئمة إنهما وانحما ملموسا كما تستطيع سيدتى أدبث - صه ! ها هي  
ذى قد أقبلت » .

وانتشر من شخصها وهى تلج الفرفة ظل فوق الحاجز أخذ ينزلق رويدا رويدا  
حتى اختلط بغيره من الظلال التى كانت تظلم بفيومها الحاجز ، ورغم ماضى الفارس  
من خيبة مريرة ، ورغم الإهانة والأذى اللذين ألحقهما به حقد الملكة (رنجاريا) ،  
- أو إن أحسن الظن بها فتندرها به تندرا شديدا - ( وكان إذ ذاك قد أيقن  
أن تلك التى كانت تملو بصوتها جميع الأصوات وتشكلم بنعمة الأمر إن هى إلا زوج  
رئشارد ) ، رغم كل ذلك ، أحس الفارس بشيء يلطف مشاعره ، حينما علم أن  
أدبث لم تكن تساهم في الغدر الذى تواطأ به الحاضرات عليه ، كما أحس بشيء من  
التشوق والتطلع إلى ما يوشك أن يقع ، فلم يقم بإفاد العزم الحكيم الذى اعترم ،  
وهو الرجوع توا بغير توان ؛ بل على النقيض من ذلك ، أخذ يبحث متلهفا عن  
شق أو خصاص يستطيع أن يكون منه شاهد عيان ، وشاهد سمع ، لكل ما يقع .  
وقال محدثا نفسه : « لا ريب أن الملكة التى سرها أن تنفك فكاكة سمجة  
سقيمة ، وتعرض بذكري بل وبجياتى ، لا تستطيع الشكوى إن أنا اغتنتمت  
هذه الفرصة - التى أراد الجد السعيد أن يرى بها إلى - كي أظفر ببعض العلم  
عما برح في مكنون الطوايا » .



وفى ذلك الحين كانت أدبث كأنها ترتقب ما تأمر به الملكة ، وكأن الملكة قد أحجمت عن الكلام خشية أن يفلت زمام نفسها منها ، فلا تستطيع لضحكها أو لضحك زميلاتها ردا ، لأن السر كنت لم يستطع أن يميز أكثر من صوت كأنه صوت ضحكات عبوسة وصرح مكبوت .

وأخيرا قالت أدبث : « يظهر أن جلاتك الآن مزاجا طرويا ، وإن كنت أرى أن هذه الساعة من الليل تبحث على الميل إلى النوم ؛ ولقد كنت فى فراشى راغبة ، حتى أأنى أمر جلاتك بأن أمثل لديك » .

فقالت الملكة : « لن أستاخر ك يا ابنة الم طويلا عن راحتك ، وإن كنت أخشى أن تنامى نوما غير عميق حينما أقول لك إنك قد خسرت الرهان » .

فأجابت أدبث وقالت : « كلا يا مولاتى الملكة ، ما هذا حقا إلا إصرار منك على فكاهة أوشكت أن تبلى ؛ إني لم أراهن على شيء رغم إلحاح جلاتك بأنى فعلت ذلك » .

« كلا ، ولكن رغم حجبنا إلى هنا فما فتى للشيطان عليك يا ابنة الم الكريمة سلطان عظيم ، وإنه ليدفع بك إلى الخاتلة والخذاع ؛ هل تنكرين أنك قد رهنت خاتمك الياقوتى تلقاء سوارى الذهبى على أن فارس النمر ذاك — أو أيا كان ما تسمينه به — لا يمكن أن يُغرى عن أداء واجبه ؟ » .

فأجابت أدبث قائلة : « إن جلاتك أعظم من أن أعارض ، ولكن هؤلاء السيدات يستطعن — إن أردن — أن يؤيدننى فى أن جلاتك هى التى تقدمت بهذا الرهان ، وأخذت الخاتم من إصبعى ، رغم أنى كنت أعلن صراحة أننى لم أر من الخبير فى شيء أن أراهن بأى شيء فى هذه السبيل » .

فرد عليها صوت آخر قائلا : « ولكن يبنى ياسيدتى أدبث أن تسلمى راضية بأنك قد بحث بشديد فتتك فى بسالة هذا الفارس عينه — فارس النمر » .

فقالت أدبث غاضبة : « هينى فعلت ذلك يا حبيبتى ! فهل فى هذا ما يدر أن ترفى صوتك تدهنين جلالة الملكة فى مزاحها ؟ إني لم أذكر عن هذا الفارس

إلا ما يذكر عنه كل رجل رآه وهو في ساحة الوغى ، وليس لى في النود عنه  
هوى أكثر مما لك في الانتقاص منه . بماذا عسى النساء أن يتحدثن في المعسكر  
غير رجال الحرب وأعمال القتال ؟ » .

فأجاب صوت ثالث قائلا : « إن السيدة أدِيث الكريمة ما عَفَتْ قط عن  
« كالستا » أو عنى مذ ذكرنا لجلالتك أنها أسقطت من يدها زهرتين في المبدء .

فقلت أدِيث بنعمة كانت فيما يرى السر كنث عتابا لطيفا : « إذا لم يكن لجلالتك  
أمر غير أن أستمع إلى سخريه وصيفاتك ، فهل لى أن أستأذنك في الانصراف ؟ » .

فقلت الملكة : « مه يا فلورنس ، ولا بدفئك تهاوننا إلى تجاهل ما بينك وبين  
قريات الملك من فارق » ثم استأنفت الكلام مستميدة نفمة الهكم والتعنيف ،  
وقالت : « أما أنت يا ابنة المم العززة ، فكيف لك — وأنت دمثة الطبع — أن  
تضنى علينا نحن البائسات ببضع دقائق تضاحك فيها بعد ما مررت بنا أيام عديدة  
صرفناها جميعا باكيات تميز من الفيظ ؟ » .

فقلت أدِيث : « زائدك الله يا سيدنى الملية مرحا وحبورا ، ولكن والله  
نطير لى ألا أبسم بقية العمر من أن ... » .

ثم توقفت عن الكلام إجلالا ، ولكن السر كنث استطاع أن يتسمع  
ويدرك أنها كانت في ثورة نفسية عنيفة .

وقالت برنجاريا وهى أميرة من بيت ناغار ، خفيفة العقل ، ظريفة الطبع :  
« ماذا عسى أن تكون الإساءة الكبرى ؟ إن فارسا شابا قد خُدع وسبق إلى  
هنا ، قسئل من منصبه — أو قلن إنه أُسئل من منصبه الذى لن يعتدى عليه  
أحد في غيبته ، وجاء من أجل سيده الكريمة ؛ إننا ينبغي أن ننصف بطلك أيتها  
الحسنة ؛ إن حكمة نكتبانوس ما كان لها أن تسهوه إلى هنا باسم غير اسمك » .

فقلت أدِيث بصوت فيه رنة الدعر ، يخالف كل الخلف ذلك الغضب الذى بدا  
عليها منذ حين : « يا لله ! هل تقول لجلالتك بذلك ! إن معنى هذا ضياع شرفى

وشرفك ، فأني أمت لزوجك بصلة الرحم ! قولي إنك كنت معي تمزحين ياسيدي  
الملكة ، واعني عنه فأني ما كنت أحسبك لحظة واحدة إلا هازلة » .

فأجابت الملكة بصوت يرن فيه الاستياء وقالت : « إن السيدة أدبث تأسف  
على الخاتم الذي ظفرت به منها . . . سزد إليك الرهان يا ابنة العم اللطيفة ، على ألا  
تنكرى علينا تلقاء ذلك أن تغلب — ولو قليلا — على هذه الرزاة التي انتشرت  
فوق رؤوسنا مرارا كما ينتشر العلم على رؤوس الجنود » .

فصاحت أدبث حانقة وقالت : « تغلبين ! تغلبين ! إنما الغلبة سوف  
تكون للكافر حينما يسمع أن ملكة انجلترا في وسعها أن تجمل من اسم امرأة من  
دم زوجها موضوعا للو والمبث » .

فقلت الملكة : « إنما أنت غاضبة يا ابنة العم الحسنة لأنك سوف تفقدين  
خاتمك العزيز . استمعي إلى ، مادمت تضنين يذلل الرهان ، فسوف نتنازل عن حقنا  
فيه ؛ إنما أتى بالرجل إلى هنا اسمك وهذا الخاتم ، وإنما لا تقيم للعظم وزنا بمد  
أن يقع الصيد في الشباك » .

فأجابت أدبث جازعة وقالت : « مولاي ، إنك تعلمين جد العلم أن جلالتك  
لا تتعلمين إلى شيء مما أملك إلا صار لك في التو والحين ، وإني لأبذل قطارا  
من الباقوت على ألا يُستخدم خاتمي أو اسمي للإيقاع برجل باسل في الخطيئة ، أو  
سَوْفه إلى الخزي والعقوبة » .

فقلت الملكة بحماسة : « إننا لا نخشى إلا على سلامة فارسنا الحق ، وإنك  
لتستخفين بنفوذنا يا ابنة العم الحسنة إذ تتحدثين عن حياة هذا الرجل وكأنا  
هرىقت من جراء فكاهتنا وتدنرنا . أيتها السيدة أدبث ، من النسوة غيرك من  
لهن على صدور المقاتلين الحديدية نفوذ كما لك — وحتى الليث ذاته ليس قلبه إلا  
من لحم ودم لا من حجر ، ومصدقيني إن لي برتشارد من الصلة ما يكفي لإيقاد  
هذا الفارس — الذي تهتم السيدة أدبث بشؤونه اهتماما كبيرا — من العقوبة  
التي حقت عليه لعصيانه أمر ملكة » .

فقلت أدith : « أستحلفك بحب الصليب المبارك أيتها الملكة . . . » وهنا أحس السركنت بماطفة كان عسيرا عليه أن يدرك كنهها وهو يستمع إلى أدith ، وهي تنكب بوجهها لدى قدى الملكة وتقول : « ناشدتك بحب العذراء البتول ، وبكل قديس مبارك في الوجود ، أن تحذرى فيما تفعلين ! إنك لا تعرفين الملك رتشارد — ولم يعض على قرانك به إلا زمن وجيز — والله لأيسر لك أن تناهضى بأنفاسك رياح الغرب حين يشتد هبوبها من أن تحملى هذا الملك قريبي على أن ينفو عن جريمة عسكرية . أستحلفك بالله أن تصرفى هذا الرجل الكريم ، إن كنت حقا قد أعويته إلى هنا ! تالله لأرضين أن يلقى بى عار دعوته لو أئى عرفت أنه عاد ثانية حيث واجبه يناديه ! »

فقلت الملكة برنجاريا : « انهضى يا ابنة العلم ، انهضى ، وتيقنى أن الأمر سوف ينتهى على خير مما تظنين . انهضى يا عزيزتى أدith ؛ إنى آسفة لأنى تفكمت بفارس ، لك فيه كل هذا الهوى — كلا ، كلا ، لا تهزى بيديك ؛ سوف أعتقد أنك لا تمنين بأمره ، لسوف أعتقد بأى شئ حتى لا أراك فى هذا المظهر البائس الكتيب . اعلمى أئى سوف ألتقى من الملك رتشارد على نفسى العتاب نيابة عن صاحبك الكريم ابن الشمال — كلا ، بل ينبئ أن أقول أحد معارفك ، فإنك لا تعرفين به صاحباً لك — كلا ؛ لا تنظرى إلى بهذه العين العاتبة — سوف نبعث بكتيبانسان كى يصرف هذا الفارس الذى وُكلت إليه حراسة العلم ، ويمود إلى مقره ، وسوف تتمطع عليه يوما نحن أنفسنا ونهيب له ظرفا يموض به هذا الخطأ الفاحش ؛ ما إخاله الآن إلا مستلقيا متخفيا فى إحدى الخيام المجاورة . »

فقال نكتيبانسان : « أقسم بأى كليل الزنبق الذى أحمل ، وبصولجان القصب الجليل الذى أرفع ، إن جلالتك غلاطئة — إنه أقرب مما تظنين — أنه يرقد متحجبا هتاك خلف حاجز القسطاط . »

فصاحت الملكة بدورها ، وقد اشتد بها الدعر والغضب وقالت : « إنه إذن لعلى مسمع من كل ما نقول . اعزب عنى أئىها الوحش الأحق الخبيث ! » .

وما إن فاهت بهذه الكلمات حتى فرّ نكتبانس من السرادق وهو يصرخ صراخا يداخلك من طبيعته الشك : هل قصّرت برنجاريا زجرها على اللفظ أم هل أضافت إلى ذلك تعبيراً آخر عن حنقها أشدّ تأكيداً .

وقالت للملكة لأديث وهي تهمس همساً بادی القلق : « ماذا عسانا نصنع الآن ؟ » فقالت أديث رابطة الجأش : « لنصنع ما ينبغي ؛ يجب أن نرى هذا الرجل الكريم ، وأن نضع أنفسنا تحت رحمته » .

وبعد ما أتمت هذا الحديث ، خفت إلى سجناف ترفعه ، وكان السجاف يستر من أحد جوانبه مدخلا يصل الداخل بالخارج .

وقالت الملكة : « رب السموات لا تفعل ، انظري ، هذه غرفتي وذاك ردائي — وفي أي ساعة اُشرفى ! » .

ولكن قبل أن تدلى بكل عتابها ، سقط السجاف ، ولم يعد بين الفارس المسلح وجماعة النساء حجاب ؟ وكان ذلك في ليلة من ليالي الشرق الدفيئة ، التي حدثت بالملكة برنجاريا ووصيفاتها إلى أن يخلعن أثوابهن ولا يرتدين إلا لباساً خفيفاً لا كلفة فيه ، ولا يتفق وما يقتضى موقفهن ، ولا يلتئم ومثول شاهد من الرجال له مكانته . وما إن ذكرت الملكة هذا حتى صاحت صيحة عالية ، ولاذت بالفرار من الغرفة التي كشفت عن السركنث ، وأظهرته للعيان في غرفة أخرى من غرف السرادق الفسيح لم يعد يفصلها عن الغرفة التي وقف النسوة بها فاصل ؛ وكانت السيدة أديث في حال من الأسى والهياج ، وأحست بلهفة شديدة وهي تتبادل الحديث مع الفارس الأسكتلندي متمجلة مسرعة ، فأدى بها ذلك إلى أن تنسى أن خصلات شعرها كانت على شعث ، وأن جسمها لم يكن محكم الحجاب ، ولم يكن ذلك مما تألفه بنات الأمر الكرعة في عصر لم يكن — رغم هذا — أكثر عصور العهد القديم تحسباً أو بصراً ؛ وكان أهم ما تسترت به رداء رقيق فضفاض من الحرير الأحمر ، وخف شرق ، دفعت بقدميها الماريتين فيه على عجل ، ووشاح اتشعث به على كتفيها في لهفة وبغير اكتراث ، وليس على رأسها ما يحجبها غير قناع من خصلات

شعرها النزير الهوش ، تبدل حوله من كل جانب ، وتجبج بحياها حجابا خفيفا — وقد انتشرت الحجرة فيه بما اعتراها من مزيج المشاعر ، إذ أحست بالحياة والاستياء وغير ذلك من العواطف الثائرة العميقة .

وأحست أدبث بموقفها بكل تلك الرقة التي هي أشد ما يسحرنا في الجنس اللطيف ، ولكن لم يطرأ لها لحظة أن ترفع حياءها إلى حد التفاضى عن أداء الواجب نحو هذا الرجل الذى انساق إلى الخطأ والخطر من أجلها ؛ حقا إنها جرت وشاحها ، وقربت من جيدها وصدرها ، وأسرت ببند مصباح كان بيدها ، يشع منه ضياء شديد على جسمها ؛ وبينما وقف السركنث لا يبدى حراكا في ذات المكان الذى شوهد به أول الأمر ، كانت هي إلى التقدم إليه أدنى منها إلى التقهقر عنه ، وهي تصيح مذعورة وتقول : « أسرع إلى مقر حراستك أيها الفارس الجسور ! لقد خُذعت إذ سبق بك إلى هنا . عد ولا تسل . »

فجأ الفارس على إحدى ركبتيه ، كأنه القديس أمام اللذبح إخلاصا وتقديرا ، ثم قال : « ليس بي حاجة إلى سؤال » وأطرق يبصره نحو الأرض خشية أن يزيد بمראה ما كانت عليه السيدة من حيرة وارتباك .

فقال أدبث جازعة : « هل سمعت كل ما دار . يا أكرام الأولياء ! إذن فلماذا أنت باق هنا ، وأنت تعلم أن كل دقيقة تنقضى معبأة بالخزي وامتهان الكرامة ؟ » فأجابها كنث وقال : « سمعتُ منك يا سيدتى أن الخزى قد أصابنى ، فلست أبالي أن يحل بي الجزء بمد هذا ، إنما لى لديك مطلب واحد ، لا أعبا بعده أن أسير خلال سيوف الكفرة علنى أحو الخزى بالدماء »

فقال السيدة : « كلا ، لا تفعل ذلك . كن حكيما ولا تلبث هنا ؛ ولئن هممت بالمودة فلربما ينتهى الأمر بخير العواقب . »

فقال الفارس وما برح جاثيا : « إنما أنا أنتظر العفو منك عن جرأتى في الاعتقاد بأن خدماتى القليلة ربما سدت لديك حاجة أو لاقت منك تقديرا . »

« لقد عفوت عنك — يا إلهى ، ليس لدى ما أعفو عنه ! — لقد كنتُ

السبيل إلى أذاك — ولكن يربك انصرف ! — لسوف أعفو عنك — وسوف أقدر خدمتك — وذلك بمقدار ما أقدر كل صليبي مقدم — ولن تنال منى ذلك إلا إن انصرفت ! » .

ثم عرض الفارس الخاتم على أديث ، وهي تبدي من الشارات ما ينم عن الجزع ، وقال : « خذى أولاً هذا الميثاق النفيس القاتل » .

فقاتلت وهي معرضة عن تناوله : « كلا ، كلا ، احتفظ به . احتفظ به دليلاً على تقديري — بل على أسفى . أوآه ، هلا انصرفت من أجلى ، إن لم يكن من أجل نفسك ! » .

فهب السر كنث من جثوة ، ورمى أديث بنظرة عجلى ، وانحنى كثيراً ، وهم بالانصراف وكأنه قد أئيب — بما بدا عليها من لهفة على سلامته — عن كل ما افتقد ، حتى عن ضياع شرفه الذى افتضحته بنبرة صوتها . وفى تلك اللحظة عينها غلب على أديث ذلك الحياء العذرى ، الذى تمكنت حتى آتئذ بشدة انفعال مشاعرها من أن تكبح جماحه ، نغفت من الغرفة ، وأطفأت المصباح وهي تنصرف ، وخطفت فى خواطر السر كنث من بعدها اكتباباً فى حسه ونفسه . وكان أول خاطر واضح أيقظ السر كنث من هواجسه وجوب طاعتها ، فسارع إلى المكان الذى ولج منه السراق ؛ ولكنه إن انزلق تحت السور كما دخل فإنه يحتاج لذلك إلى الوقت والحذر ، فتقرب بمنجبره السور الحائط ، وأصبح له بذلك مخرج ميسور ؛ وما إن خرج إلى الهواء الطلق حتى هاجمته المشاعر المتنازعة ، فتبدل حسه وغلب على أمره ، ولم يستطع أن يستوثق من كنه ما مر به ومن حقيقة الأمر ، واضطر أن يحفز نفسه للعمل حيناً ذكر أن أمر السيدة أديث يتطلب العجلة ؛ وحتى بعد هذا كان لا بد له — وهو مشتبك بين الخيام وجبالها — أن يسير حذراً حتى يبلغ الطريق الجانبية التى سلكها القزم وإياه من قبل ، كي يتحاشى أعين الحراس الواقفين لدى سراق الملكة ، واضطر إلى أن يسير وتيداً حريصاً ، كي لا ينبه الأذهان إن هو خر على الأرض أو صلصل سلاحه ؛ وفى تلك

ال لحظة عينها التي فصل فيها السر كنث عن الفسطاط ، غشت القمر سحابة رقيقة ، واضطر الفارس أن يواجه هذه المشقة في وقت لم يكند يُبقى له دوار رأسه وخفقان قلبه من نفاذ البصيرة ما يكتفى لأن يدبر به مسيره .

ولكن سرعان ما طرقت أذنيه الأصوات على حين غرة ، فتاب توا إلى رشده وإلى قواه العقلية كاملة ؛ وكان جبل سنت جورج هو مبعث هذه الأصوات ، وكان أول ما سمع نباحاً منفرداً همجياً غاضباً متوحشاً تبعه على الفور صراخ الكرب والألم ، وما كان الطي ليثب فازعا من صوت «رزوال» كما وثب السر كنث ، إذ خشى أن يكون ذلك الصوت هو نزع الموت يصيح منه ذلك الكلب النبيل ، الذي ما كان لأذى مألوف أن يستخلص منه أدنى شكاية من الألم ، فذلل الفارس المدي الذي كان يفصل ما بينه وبين الطريق ، وما إن بلغها حتى شرع يجري نحو الجبل ، ورغم أنه كان مثقلا بالزرد فسا كان لرجل أن يلحق به ، حتى وإن كان مجردا عن السلاح ؛ ولم يتراخ في خطاه وهو يصعد جوانب الراية المصطنعة الشديدة الانحدار ، ولم تمض بضع دقائق حتى كان فوق قمة الجبل .

وفي تلك اللحظة أرسل القمر سهام نوره ، وتبين له أن راية انجلترا قد اختفت ، وأن الرمح الذي كانت ترفرف فوقه كان ملقى على الأرض محطما ، وإلى جواره كلبه الأمين يبالغ سكرات الموت .



## الفصل الرابع عشر

... لقد أضحت أذبال العرف الطويلة ،

وقد جمعتها في شباني وادخرتها لمشي !

ماذا ؟ هل غاض معين العرف ؟

أجل ، لقد كان ،

ولتمس إذن صفار الأطفال بأقدام عارية

يجمعون الحصا من مخاضة العين بعد جفافها .

دون سيستيان

انتاب السر كنث فيض من الإحساسات المتضاربة ، كاد أول الأمر أن يذهله ويشتت ذهنه ؛ ولما أفاق كان أول ما خطر له أن يبحث عن اعتدوا على العلم الإنجليزي ، ولكنه لم ير لهم أثراً في أية ناحية من النواحي ، فخطر له ثانياً أن يفحص حال (رزوال) الأمين ، وقد أصيب بجراح قاتلة وهو — على ما يظهر — يؤدي الواجب الذي أغرى سيده بهجرانه ؛ وقد يبدو هذا الخطر غريباً لبعض القوم ، ولكنه ليس كذلك لكل من كانت له بالكلاب صلات وثيقة . أخذ كنث يدلل الكلب مخلصاً حتى النهاية ، فتنامى الكلب آلامه من أثر السرور الذي أحس به من قرب سيده ، ولبث يهز ذيله ، ويلعق يديه ، حتى حيناً كانت أماته الضعيفة تدل على أن آلامه كانت تتزايد كلما حاول السر كنث أن يستخلص من الجرح شظايا الرمح أو الشباب الذي أصيب به ؛ وأخذ الكلب يضعف من إعزازه لصاحبه — رغم فتوره وضعفه — كأنه كان يخشى أن يسىء إليه إن هو أبدى إحساساً بالألم الذي أصابه من جراء تعرضه للدفاع ؛ ولقد كان في هذا المظهر الذي ظهر به الكلب وهو يعالج سكرة الموت ، مظهر التعلق بصاحبه ، شيء من المرارة اختلط في نفس السر كنث بشعوره بالخزي والوحشة اللذين حاياه ؛ وشعر كأن صديقه الأوحـد قد رحل عنه في الوقت الذي كان يحس فيه بالازدراء والبغضاء لكل من عداه ، فلم يسع الفارس — رغم صدق عزيمته — إلا أن يستسلم للانفجار من هذا الكرب الأليم ، فأخذ يتأوه ويكي بكاء مراراً .

وينتاهو كذلك مستغرق في الهم ، إذا بصوت جهورى وقور وراه وعلى مقربة منه ينطق بهذه الكلمات ، برنين فيه نغم القراء في المساجد ، وباللغة الفرجية التي كان يفهمها المسيحيون والأعراب على السواء .

« إنما المصائب كالطر المتلاحق — فيه للإنسان والحيوان برودة ومشقة وعداوة ، وفيه كذلك حياة للزهر والتمر والورد والزمان » .

فتلفت السر كنت فارس النمر صوب التكلم ، ووقع بصره على الطبيب العربى وقد اقترب صامتاً ، وجلس خلفه وقرىباً منه ، ووضع ساقاً فوق الأخرى ، وأخذ — فى هدوء ورزانة وبنعمة تنطوى على المطف — ينطق بالحكم والأمثال التي فيها للإنسان عزاء ، وقد استمدها من القرآن وأقوال المفسرين ؛ وليست الحكمة فى الشرق فى ما يُظهر الحكيم من قوة الابتكار بمقدار ما هى فى حضور الذاكرة وإجادة التطبيق والإشارة إلى « الكلام السطور » .

وخجل السر كنت إذ بوغت وهو ينفس عن أساء كما تنفس النساء ، فسمح دموعه ، وأزالها حياء وخزياً ، ثم أخذ يشغل ثانية بكلمة العزير وهو يفارق الحياة . وواصل العربى حديثه ، ولم يستع التفاته أن الفارس قد أشاح بصره ، أو ما كان يعملو بحياه من الاكتئاب ، وقال : « لقد قيل : ( الثور للحقل ، والجل للصحراء ) ، أليست يد الطبيب ألين من يد المقاتل لشفاء الجروح ، وإن تكن أقل منها قدرة على ثلها ؟ »

فقال السر كنت : « ليس لك بهذا المريض أيها الحكيم حيلة ، وهو فوق ذلك حيوان نجس فى شريمتكم » .

فقال الطبيب : « حيثما من الله بالحياة ، وأوجد الحس باللذة والألم ، فإنه لكبرياء باطل من الحكيم — وقد أثار الله بصيرته — أن يحجم عن أن يمد أجل البقاء ، أو يخفف وقع الألم . إنما علاج الخادم البائس ، أو الكلب المسكين ، أو الملك الظافر ، سواء لدى الحكيم ، كلها أمور لا تفرق بين أحدها وبين الآخر ؛ دعنى أخفص هذا الحيوان الجريح » .

فأسلم له السر كنث صامتا ، وأخذ الطبيب يفحص ما برزوال من جراح ،  
ويقلبه بين يديه بحرص وعناية كأنه مخلوق آدمى ، ثم استخرج حقيبة بها بعض  
آلاته ، وأولج في جسم الكلب مسيرا بحكمة ومهارة ، واجتنب من كتفه الجريحة  
شظايا السلاح ، ثم أوقف بالأدوية الواقية والضادات ما عقب ذلك من تدفق السماء ،  
والكلب خلال ذلك يكابد الألم صابرا ، ويستسلم للطبيب وهو يعالجه برفق ،  
كأنه يدرك طيب طويته .

وقال الحكيم موجهاً للسر كنث الخطاب : « إن في شفاء الكلب لرجاء لو  
أذنت لى أن أحمله إلى خيمتى وأعالجه بالعناية التى يستحقها نبل طبيعته ، ولتعلم أن  
خادمك « أدنبك » ليس بفصائل الكلاب وكرام الخيل وسلالاتها وطباعها ،  
أقل حذقا منه فى الأمراض التى تصيب البشر » .

فأجاب الفارس وقال : « إذن فلتصطحبه ، وإنى أهبك بغير مقابل إذا عوفى ،  
إنى مدين لك بالجزاء على عنايتك بمخادى ، وليس لدى غير ذلك أرد لك به حسن  
صنيعك . أما أنا فلن أنفخ بعد اليوم فى بوق أو أنادى كلبا ! »

فلم يحر العربى جوابا ، وإنما صفق بيديه إشارة أحيت على الفور بمثول عبيد  
أسودين ، أصدر لها أمره بالعريّة وأجاب « سما وطاعة » ، ثم حملا الكلب بين  
أذرعهما ، ورفعا بغير كبير مقاومة من جانبه ، لأنه — وإن يكن قد رفع بصره  
نحو سيده — لم يقو على المناضلة .

فقال السر كنث : « أستودعك الله إذن يا رزوال ، وداعا يا صاحبي الأوح  
والآخر ، إنما أنت أنفس من أن يملكك رجل له ماسوف يكون لى فى مستقبل  
أيامى » ، ولما تراجع العبدان قال : « وددت لو أنى بدلت بحال هذا الحيوان  
النبل ، رغم أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ! » .

فأجاب العربى مع أن السر كنث لم يتوجه إليه بهذا الرجاء وقال : « لقد  
كتب على المخلوقات جميعا أن تكون فى خدمة الإنسان ، فإذا كان سيد الأرض

يود لو يبدل — وهو جازع — يأمله في الدنيا والآخرة حالاً وضيمه يعيش عليها؛ مخلوق دنيء كالكلب ، فإنه لا ينطق إلا حقاً .

فقال الفارس عابساً : « إنمّا الكلب الذى يموت فى أداء واجبه خير من الإنسان الذى يحيا بعد إهماله ؛ دعنى أيها الحكيم . أجل ، إن لديك بطبك المعجز أعجب ما وصل إليه الإنسان من علم ، ولكن جراح الروح فوق طاعتك » .  
فقال أدنك الحكيم : « كلا ، ليس كذلك إن كان المريض ييوج برزئه ، ويسلس للطبيب القياد » .

فقال السر كنث : « ما دمت تلجف كذلك فلتعلم إذن أن راية أنجلترا كانت الليلة البارحة مرفوعة فوق هذه الراية — وكنتُ على حراستها — لقد انبثق النهار — انظر ترى رمح العلم المحطم ملقى هناك — وقد افتقدت الراية نفسها — وهأنذا أجلس هنا على قيد الحياة ! »

فأجاب الحكيم وهو يتفرسه وقال : « كيف كان ذلك ! إني أرى درعك سليماً ولا أرى أثراً للدماء على سلاحك ؛ وذكرك بين الناس ينطق ببعد احتمال عودك هكذا بعد القتال . أجل ، لقد انسقت من منصبك ، وجذبتك بورد خديها ، وحوور عينها ، إحدى أولئك الحور ، اللاتى يحملون لهن — أنتم أيها النصارى — ولاء يليق برب السموات ، لا جبا يجوز التوجه به شرعاً لمخلوقات مثلنا من الطين . لا شك فى أن الأمر كان كذلك ، فهكذا زل الإنسان منذ الأزل من يوم أيننا آدم » .

فرد عليه السر كنث مكتئباً وقال : « وإن كان الأمر كذلك أيها الطبيب . فما دواؤك ؟ » .

فقال الحكيم : « العلم فوق المقدرة ، كما أن الشجاعة فوق القوة — استمع إلىّ ، ليس الإنسان كالشجرة معقوداً بمكان واحد من الأرض ، وليس مصاعاً بحيث يتشبث بصخرة واحدة جرداء كالقومة تكاد لا تندب فيها الحياة ، وكتابكم المسيح يأمركم إن لا قيم جوراً يولد أن تلوذوا بيلد آخر ، ونحن المسلمين كذلك

نعرف أن محمدا رسول الله بعدما فر من مكة المكرمة أوى إلى المدينة وألّف بها أنصارا .  
فقال الأسكتلندي : « وما شأن هذا في ؟ » .

فأجابه الطبيب قائلا : « شأن كبير ، ألا تعلم أن الحكيم نفسه يتوارى عن  
العاصفة إن كان لا يستطيع لها ردا ؟ إذن فلتعتمد إلى العجلة وتفر من نعمة رتشارد  
إلى ظل راية صلاح الدين الظافرة » .

فرد عليه السر كنث ساخرا وقال : « إذن لسوف أخفي عارى في معسكر  
الكفرة الذين لا يعرفون لهذه الكلمة معنى ؟ ولكن أليس خيرا لي أن يلحق  
بني عارم ؟ هلا توصيني بلبس العمامة ؟ تالله لم يعد لي إلا أن أردت عن ديني كي تبلغ  
فضيحتي منهاها » .

فقال الطبيب عابسا : « لا تجدف أيها النصراني ، إن صلاح الدين لا يقبل في  
دين محمد إلا أولئك الذين يؤمنون بقواعد الإسلام . افتح عينيك للنور — إن  
شئت — يهيك السلطان العظيم ملكا ، فهو رجل ليس لجوده أو سلطانه حد ،  
وإن شئت فلتبقي أعمى البصيرة ، فلن يكون نصيبك من الحياة الآخرة غير الشقاء ،  
ولكن صلاح الدين سوف يفنيك ويسمذك في هذه الدار الفانية ؛ ولا تخش أن  
تطوق حاجيك العمامة إلا إن أردت ذلك راغبا » .

فقال الفارس : « إنما إرادتي أن يسودّ جيئني المقطبته وهو ما يحتمل وقوعه  
عند مغيب الشمس هذا المساء » .

فأجاب الحكيم وقال : « كلا ، ليس من الحكمة في شيء أيها النصراني أن  
تنبذ ما عرضت عليك ؛ إن لي على صلاح الدين لسلطانا ، وأنا أستطيع أن أرفع  
من شأنك حتى تشملك رعايته . استمع إلي يا بني ، إن هذا المشروع الحمجي  
الذي تسمونه الحرب الصليبية ليس إلا كالسفينة يشق عباب الماء ؛ لقد حملت  
بنفسك شروط الهدنة من الملوك والأمراء — الذين تتجمع جيوشهم هناك — إلى  
السلطان العظيم ، وربما لم تكن تعلم كل ما كانت ترمي إليه رسالتك » .

فقال الفارس وقد تملكه الجزع : « لست أعرف ولا يهمني أن أعرف ؛

وماذا يعني أنى كنت منذ حين رسول الأمراء ، مادمت سوف أسمى — قبل أن يسدل الليل ستاره — جثة مهينة تحت القصلة ؟ » .

فأجابه الطبيب وقال : « كلا ، سوف أسمى فى أن يكون إلى غير ذلك منتهاك ؛ إنهم جميعا يتوددون إلى صلاح الدين ؛ إن اتحاد الأمراء فى هذا الجمع ، الذى تألف لمعارضته ، قد تقدم إليه يعرض للمهادنة والصلح ، ولو كنا فى زمان غير هذا لكان جديراً بشرف صلاح الدين أن يمنحهم سؤلهم ؛ وسى إليه غير هؤلاء بالأصالة عن أنفسهم يعرضون فصل قواهم عن معسكر ملوك الفرنجة ، بل ويمعرون أسلحتهم للذود عن راية الإسلام ، ولكن ليس صلاح الدين بالذى يقبل الخدمات من أمثال هؤلاء الخونة الماجزين ذوى النافع الخاصة ؛ ليس للملك الملوك أن يأتى غير الملك الأسد . إن صلاح الدين لن يعقد مع أحد ميثاقا سوى الملك رتشارد ، وسوف يواتيه كما يواتى الأمير الأمير ، أو يقاتله كما يقاتل البطل البطل . إنه يسلم لرتشارد — لجوده ومسخائه — بشروط ليس لسيف أوروبا جميعا أن تفرضا عليه عنوة أو إرهابا ، إنه يسمح بالحج دون قيد أو شرط إلى بيت المقدس وإلى كل مكان يجب النصارى أن يتعبدوا فيه ؛ بل إنه ليقسم حتى دولته مع أخيه رتشارد ، فيسمح للجاليات المسيحية أن تقيم فى أشد مدن فلسطين الست قوة وفى بيت المقدس ذاته ، ويرضى لهم أن يكونوا تحت إمرة ضباط رتشارد مباشرة ، ويقبل هؤلاء الضباط أن يحملوا اسم ( حرس فلسطين الملكى ) ، وفضلا عن ذلك لتعلم يا سيدى الفارس — وقد يبدو لك ما سأحدثك به أمراً غريباً لا يحتمل التصديق ، ولكنى سأبوح إكراماً لك بهذا السر الذى يكاد لا يصدقه أحد — اعلم أن صلاح الدين سوف يختم بخاتم قدسى على هذا الائتلاف السعيد بين أشجع الشجعان وأنبى النبلاء فى بلاد الفرنجة وفى آسيا : وذلك بأن يرفع إلى مرتبة الزوجية الملكية فتاة مسيحية تصلها بالملك رتشارد أوامر الدم وتعرف باسم السيدة أديث بلاتاجنت<sup>(١)</sup> .

(١) قد يبدو هذا الاقتراح شاذاً غير مقبول ، فينبغى أن هول إنه قد وقع حقيقة ،

فصاح السركنت قائلاً : « ها ! أفهنا ما تقول ؟ » وكان يستمع شارد القلب غير آبه إلى الشطر الأول من حديث الحكيم ، إلا أن هذا الخبر الأخير قد سد منه كامن حسه ، وأيقظه كما توقظ رجفة الأعصاب — حين تنتفض على حين بئته — الحسّ بالألم حتى في سبات المفلوج ، ثم خفف من نبرة كلامه ، وإن يكن قد عانى في ذلك ما عانى ، واكتفى ما أحس به من امتهان الكرامة ، وستره بستان من الريية والازدراء ، ثم واصل الحديث كي يظفر بأكثر ما يستطيع من علم عن هذه المؤامرة — وقد ظنها كذلك — هذه المؤامرة التي كانت تدبر ضد فتاته ، ضد شرفها وسعادتها ، ضد تلك التي لم ينتقص من حبه لها ما أصاب جده وشرفه بسببها ، فقال في سكينته وهدوء : « وأى مسيحي ذلك الذي يصادق على عقد غير طبيعي ، كذلك الذي يكون بين مسيحية عذراء وعربي مسلم ؟ » .

فأجاب الحكيم وقال : « إنما أنت نصراني جاهل متمصب ، أفلم تر إلى الأمراء المسلمين كيف يتزاجون كل يوم مع النبيلات من عذارى أسبانيا النصراري ، وما في هذا عار على مغربي أو مسيحي ؟ ولسوف يسمح السلطان النبيل — لثقتة التامة في دم رتشارد — للفتاة الإنجليزية بالحرية التي وهبتها المرأة طباعكم الفرنجية ، سوف يسمح لها بالحرية في ممارسة دينها ، وسوف يخصها بمكانة ومرتبة فوق نساءه جميعاً ، فتبيت من كل وجه ملكته الفريدة المطلقة » .

فقال السركنت . « كيف تجرؤ أيها المسلم على أن تحسب أن رتشارد يتنازل عن قريسته ، وهي أميرة فاضلة كريمة النسب ، لتكون — أحسن ما تكون — فضلى الإماء بين ( حريم ) رجل مسلم ! اعلم أيها الحكيم أن أدنى مسيحي نبيل حر يأبى لابنته مثل هذا العار الشنيع » .

---

== ومع ذلك فإن المؤرخين يستبدلون ملكة نابلس الأرملة بأخت رتشارد هذه العروس ، وأخى صلاح الدين بهذا الزوج ؛ ولكن يحيل لي أنهم كانوا يجهلون وجود أدب بلاتانت — أرجع إلى « تاريخ الحروب الصليبية » تأليف مل — صفحة ٦١ من الجزء الثاني .

فرد عليه الحكيم وقال : « والله لقد أخطأت ، ولقد غا هذا الرأي إلى فيليب ملك فرنسا ، وهنرى صاحب شمبانيا ، وغيرهما من زعماء أحلاف رتشارد ، ولم يصق أحدهم للخبر ، ووعدوا جميعا أن يسعوا ما وسعهم السعى في حلف قد تكون فيه نهاية هذه الحرب. الضروس ؛ وقد أخذ الرجل الحكيم كبير قساوسة (صور) على نفسه أن يزف هذا المقترح إلى رتشارد ، ولا تداخله رية في أنه سوف يستطيع أن يسوق الخطة إلى خير غاية ، وقد احتفظ السلطان — لحكته — بهذا الأمر سرا ، وكتبه على أمثال صاحب منتسرا ورئيس فرسان المبد ، لأنه يعلم أنهما وأمثالهما يسعون إلى الفلاح من وراء حلف رتشارد أو خزيه ، لا عن سبيل حياته وشرفه — فهيما إذن يائسدى الفارس ، وامتنط صهوة جوادك ، وسأعطيك مكتوبا يرفع من شأنك لدى السلطان ، ولا تحسبن أنك تارك بلادك أو قضيتها أو دينها مادام صالح للملكين عما قريب سوف يتحد ؛ إن مشورتك سوف تلقى من صلاح الدين خير القبول ، مادام فى وسعك أن تخبره بالكثير عن الزواج لدى المسيحيين ، وكيف يعاملون أزواجهم ، وغير ذلك من أمور شريعتهم وعاداتهم ، فإن السلطان يهه كثيرا أن يعرف ذلك من أجل المهادنة . إن السلطان يقبض على كنوز الشرق يميناء ، ومنها تنفجر عيون الجود والسخاء ؛ ولن يتسر على صلاح الدين — إن تحالف مع انجلترا — أن يظفر من رتشارد لا بالمفو عنك وردك إلى حظيرة الرضى فحسب ، وإنما يستطيع أن يحصل لك كذلك على قيادة شريفة بين من قد يتخلف من جنود جيش ملك انجلترا للإبقاء على حكمهما المشترك فى فلسطين ، فهيما إذن واركب جوادك وأملك الطريق واضحة . »

فأجابه الفارس الأسكتلندى وقال : « أيها الحكيم ، إنما أنت رجل من رجال السلم — وإنك كذلك أتقنت حياة رتشارد ملك انجلترا — بل وحياة خادى المسكين (ستروخان) ، ولذا فلقد أصغيت إليك حتى النهاية وأنت تتحدث فى أمر نلو أن رجلا مسلحا غيرك تقدم به إلى لأوقفته بطمئة من خنجري ! أيها الحكيم ، إني أنصح لك — جزاء رأفتك — أن تنصح العربى الذى يتقدم إلى رتشارد



يطلب وصل دم بلانتاجنت بدمه الكريه ، بلبس جخوة تقوى على تلقى ضربته بالقأس كتلك التي دكت تحتها أبواب عكا ، وإلا فلا ريب أنه سوف يضع نفسه موضعا يتأى حتى عن حذقك ومهارتك » .

فقال الطبيب : « إذن فلقد اعترفت عامدا مصرا على ألا تقر إلى صفوف الأعراب ؛ ولكن ألا فلتذكر أنك قد قلت إن في هذا قضاءك المحتوم ، وحدود شريعتكم — كحدود شريعتنا — تحرم على المرء أن يستدى على حرم حياته » .

فرسم الأسكتلندي علامة الصليب على نفسه وقال : « حاشا لله ، ولقد حرم علينا كذلك أن نتعاشى ما يحق على ذنوبنا من جزاء ؛ ولكن عقيدتك في الله ضعيفة أيها الحكيم ، وإنه والله ليحفظني أنى وهبتك كلبي الكريم ، لأنه إن عاش فسوف يكون له صاحب جاهل بقدره » .

فقال الحكيم : « إن العطية إن ضن بها معطيها فكأنه يستردها ، ولكننا معشر الأطباء قد أقسمنا أن لا نرد مريضاً بغير علاج ؛ لأن شفى الكلب فلسوف يكون ثانية لك » .

فأجاب السركنت وقال : « اذهب أيها الحكيم ، إن المرء لا يتحدث عن البراة والكلاب حيناً لا يكون بينه وبين الموت غير ساعة من نهار ، دعني أذكر ذنوبي وأتقرب إلى الله » .

فقال الطبيب : « إنى أدعك لمنادك ، إن النجوم لتخفى وراءها المنحدر فلا يراه أولئك الذين كتب الله عليهم المهبوط من فوقه » .

ثم تسلل وئيدا ، ولبث يتلفت وراءه الفينة بعد الفينة ، كأنه يرقب عسى أن يستدعيه هذا الفارس المخلص بكلمة أو إشارة ، وأخيرا اختفى هذا الرجل المعمر بين تيه الخيام التي كانت تمتد في أسفل الجبل ويياضها ينصع في ضوء الفجر الشاحب — وقد اندحر أمامه شمع القمر .

ولم يكن لكلمات « أدنبك » الطبيب على السركنت ذلك الأثر الذي كان يرمى إليه الحكيم ، إلا أنها بعثت في الأسكتلندي حب الحياة ، وقد كان منذ حين

يود لو يفارقها كأنها ثوب ملوث لم يعد يليق به ارتداؤه ، وذلك رغم أنه كان يحسب أنه يتسم بالخزى والهوان ، وعاد إلى ذاكرته كثير مما دار بينه وبين الناسك ، ومما شهد بين الناسك وشيركوه (أو الضريم) ، ومال به ما ذكر إلى تأييد ما خبره به الحكيم عن الشرط الخفى الذى ورد بالمعاهدة .

ثم صاح محدثا نفسه : « ياله من محتال فى ثياب الشرف <sup>(١)</sup> ! ياله من منافق أشيب ! لقد تحدث عن الزوج المشرك كيف ترده عن شركه الزوجة المؤمنة ؛ وماذا عساي أن أعرف غير أن الخائن قد عرض على العربى ما حبا الله أديث بلاتناجنت من جمال ، حتى يستطيع هذا الرجل أن يحكم إن كانت هذه الأميرة المسيحية تليق بأن تنخرط فى سلك « حريم » رجل مسلم ؟ والله لو وقع ذلك الرجل « الضريم » — أو أيا كان اسمه — ثانية فى قبضتى التى أمسكت عليه بها يوما إمساكا شديدا ، كما يمسك كلب الصيد بالأرنب ، فلن يأتى أحد ثانية — وهو خاصة — برسالة مشينة بشرف ملك مسيحي أو فتاة نبيلة فاضلة . . . إن ساعاتى تتناقص سريما إلى دقائق ، ولكن لا بد رغم ذلك من أداء عمل ما ، ولا بد من أدائه سريما ، ما دام فى عرق يبيض ونفس يتردد » .

وسكت بضع دقائق ، ثم رمى بخوذته ، وانطلق مسرعا من فوق الجبل ، وسار فى الطريق المؤدية إلى سرادق الملك رتشارد .

---

(١) الضمير يعود على الناسك .

## الفصل الخامس عشر

فتح الديك — وهو ذاك المنشد المريح —  
في البوق ؛ يلن للقروى الباكر لإشراق الصباح .  
ورأى إدوارد الملك خيوط الضياء الموردة  
يتراجع من وهجها الظلام ،  
واستمع إلى الغراب الأسخم تلعبا ،  
ينادى بانصرام يوم من الزمان .  
فقال للملك : « إنك لعلى حق ،  
وإني لأقسم بالله الذى يتربع على العرش فى السماء ،  
ليموتن اليوم ( شارل بودوين ) وصاحبا »  
تشارترن .

فى الليلة التى استولى فيها السركنت على منصبه ، أوى رتشارد إلى فراشه بعد ذلك الحادث الماصف الذى عكر صفو المساء ، وهو أشد ما يكون ثقة بالنفس ؛ وقد أوحى إليه بهذه الثقة شجاعته التى لا تمهد ، وذلك الفضل الذى أحرزه على غيره حينما أصاب مرماه على مرآى من الجيوش المسيحية وزعمائها جميعا ؛ وكان يعلم أن كثيرا منهم من كان يرى فى دخيلة نفسه أن المهانة التى لحقت بدوق النمسا إن هى إلا انتصار عليه ؛ وإذن فلقد أشبع رتشارد كبرياه ، فإنه إذ كبح عدوا قداما ذلك مئين . ولو أن هذا الأمر قد وقع للملك آخر لضاعف من حرسه فى المساء بعد هذا الحادث ، ولأبقى جانبا على الأقل من جنوده بالسلح مدججين ، ولكن قلب الأسد صرف على أثر ما وقع حتى حرسه الذى اعتاد ، وخص جنوده بهبة من التيبذ ، كى يحفلوا بشفائه ، ويشربوا نخب راية سنت جورج ؛ ولولا أن سرتومانس دى فو وإيرل سولزبرى ، وغيرهما من الأشراف ، قد اتخذوا الحيلة لحفظ السكينة والنظام بين الحافلين ، لا تطبع على هذه الناحية من المعسكر التى يشغلها الملك طابع الفوضى والاستهتار .

أما الطبيب فقد سهر على الملك مذ أوى إلى فراشه حتى انصرم المزعج الأول

من الليل ، وفي هذه الفترة ناوله الدواء مرتين ، وهو في كل مرة يرقب في السماء ذلك البرج الذي يتربع فيه بدر التم ، فإن للبدر — كما يقول الطبيب — أثرًا على فعل عقاقيره ، يجعل فيها الحياة أو الهلاك ، وانقضت ثلاث ساعات بعد ما تصرف النصف الأول من الليل ، ثم تسلل الحكيم من السراق المملوك إلى سراق آخر ضرب له ولأتباعه ، وإذ هو في طريقه إلى هناك ، عرج على خيمة السركنت فارس النمر ، كي يرى حال مريضه الأول في معسكر المسيحيين ، وهو (ستروخان) ذلك الرجل المسن خادم الفارس ، ولما استعلم هناك عن السركنت نفسه ، علم الحكيم على أى واجب كان يقوم ، وقد دفع به هذا الخبر إلى جبل سنت جورج ، حيث ألفاه وهو في ذلك الظرف المنكوب الذي أشرنا إليه في الفصل السابق .

وقبل شروق الشمس ، نما إلى سراق الملك وقع خطوات وثيدة دانية من قوم مسلحين ، وما إن هب دى فو من مرقدته وتساءل « من القادم ؟ » — وكان ينأى إلى جوار فراش سيده نوما خفيفاً ، ولم يأخذ الكرى بمعتقد جفنيه إلا كما يأخذ بجفون كلاب الحراسة — حتى ولج القسطنطين فارس النمر ، تلو ملامح الرجولة فيه كأنه عميقة بميدة المدى .

فقال دى فو عابساً ، وفي نعم كلامه نبرة الاحترام لسبات سيده : « فيم هذا الهجوم الجريء يا سيدى الفارس ؟ » .

فتيقظ رتشارد توا وقال : « صه يادى فو ! لقد أقبل علينا السركنت إقبال الجندي الكرم ، يقص علينا قصة حراسته — ولثل هذا ينبغي أن يكون سراق القائد أبداً قريب النال ، ثم نهض من نومه ، وارتكز على مرقدته ، ورمى للقاتل بمبنيه الواسعتين البراقتين ، وقال : « تكلم ياسيدى الأسكتلندى ؛ لقد أتيت تحدثنى عن حراسة يقظة آمنة شريفة ، أليس كذلك ؟ إن حفيف ثنايا راية انجلترا حين وحده بحراسة العلم ، حتى دون أن يمتثل مثل هذا الفارس بشخصه فيراه كل ذى عيتين » .

فأجاب السركنت قائلاً : « كلا ، لن يرانى بعد اليوم أحد ، إن حراستى لم

تكن يا مولاي بقطعة ولا آمنة ولا شريفة ، ولقد امتدت إلى راية إنجلترا  
بد واختطفها .

فأجاب رتشارد وفي صوته نبرة الازدراء والتكذيب وقال : « وما برحت على  
قيد الحياة تذكر ذلك ؟ عني ! إن هذا لن يكون . إني لا أرى أثراً لخدش على  
عياك . خبرني لماذا أنت مائل كذلك صامتا ؟ أصدقني واعلم أن المزاح مع الملوك  
خطير — ومع ذلك فلأعفون عنك إن كان كذبا ما تقول . »

فرد عليه الفارس البائس وقال : « لم يكن كذبا ما خبرتك يا مولاي المليك !  
وفي صوته نفم التأكيد الجاف ، وفي عينيه سهام من النار براقة نافذة متألقة ، كأنها  
وميض الصوان المتحجر البارد ، ثم قال : « ولكن ينبغي أن أصدق هنا كذلك —  
هذا هو الحق خبرتك به يا مولاي . »

فانفجر الملك في عاصفة من الغضب ، بما لبث أن خدعت وسكن نائرها ، وقال :  
« يا لله ! ويا لسنت جورج ! دى فو ، إذهب إلى المكان وألق عليه بنظرة — لقد  
عكرت هذه الحلى صفو ذهنه — إن هذا لن يكون — حسب شجاعة الرجل  
مناعة — إن هذا لن يكون ! — إذهب — عني سريعا — أو أرسل من لديك  
رسولا إن كنت لا تريد الانصراف . »

وهنا استوقف الملك السرهنى ثقيل ، وقد أقبل متقطع الأنفاس يقول إن  
الراية قد اقتلعت ، وإن الفارس الذى كان يقوم على حراستها قد غلب على أمره ،  
وغالب الظن أنه قتل ، لأنه رأى بركة من الدماء إلى جوار رمح العلم المحطم .  
وما إن وقعت عينا ثقيل بفتة على السركنت حتى تساءل « من ذا أرى هنا ؟ »  
فهب الملك على قدميه ، وأمسك بالفأس القصيرة التى كانت أبدا لا ترح جوار  
فراشه ، وقال : « خائنا ، خائنا ! ولسوف تراه يموت ميتة الخونة » ثم جذب سلاحه  
إليه كأنه يريد أن يضرب به .

ووقف الاسكتلندى أمامه ممتقع اللون ، ولكنه رابط الجأش ، كأنه تمثال  
من الرمر ، ورأسه عار لا يقيه لباس ، وعيناه مطرقتان نحو الأرض ، وشفاته

لاتكادان تبسان ، والراجح أنه كان يتمم بالدعوات ، ووقف الملك رتشارد قبالة  
على قيد رمح ، وقد ادثر جسمه الضخم بين طيات ثوب من الكتان فضفاض ،  
وتستر جميعه ، إلا حيث أزال انفعاله الشديد الدثار من فوق ساعده الأيمن وكتفه  
وجانبها من صدره ، وبدا للعيان كأنه مثال من صورة إنسانية جديرة بالصفة التي كان  
يتصف بها سلفه السكسوني وهي « جانب الحديد » . ولبت هنية متأهبا للضراب ،  
ثم أمال رأس السلاح صوب الأرض ، وصاح متعجبا وقال : « أفكانت هناك دماء  
يا ثقيل — هل كان لدى المكان دم . استمع إلى ياسر كنت — لقد كنت بأسلا  
في يوم من الأيام ، ولقد شهدتك وأنت تقاتل ، فهلا قلت لي إنك جندلت لصين  
دفاعا عن العلم — بل جندلت واحداً — بل قل لي إنك ضربت ضربة قوية في  
سبيل ، ثم انصرف عن المعسكر بحياتك وخزيتك ! » .

فأجابته كنت رابط الجأش وقال : « مولاي الملك ؛ لقد دعوتني كاذبا ، ولقد  
أسأت إلى في هذا على الأقل ؛ أعلم أنه لم تُرق في سبيل الدود عن العلم دماء ، اللهم  
إلا دم الكلب السكين ، حين تصدى للدفاع عن الواجب الذي هجره صاحبه ،  
والكلب أشد إخلاصا منه » .

فقال رتشارد : « بحق القديس جورج ؛ وهم بساعده ثانية — ولكن دى  
قورى بنفسه بين الملك ومحط تقمته ، وشرع يدلي بذلك الصدق الصراح الذي  
يخلق به ؛ قال : « مولاي ، لن يكون هذا ، لن يقع هذا الأمر هنا ، ولن تتلوث  
به يداك ؛ وكنتي حقا بين عشية وضحاها ، أن تكمل أمر العلم إلى رجل اسكتلندي —  
ألم أقل لك إنهم أبداً على ظاهر من الحق وباطن من الباطل ؟ » <sup>(١)</sup> .

فأجاب رتشارد وقال : « أجل ، لقد فعلت يا دى قو ، ولقد أصبت ، وإني

(١) بهذه النعوت ألف الإنجليز أن يتحدثوا عن جيرانهم الساكنين من أهل العمال ،  
ناسين أن اعتداءهم على استقلال اسكتلندا قد أكره هذه الأمة الضعيفة على أن تدفع عن نفسها  
بالدهاء كما تدفع عنها بالقوة ؛ وينبغي أن يقتسم الحزى في هذا إدوارد الأول وإدوارد الثالث  
لأنهم فرضا سلطانها فرضاً على أمة حرة ، وأهل اسكتلندا الذين أكرهوا لإكراهها على أن  
تجسروا يميناً وليس في حزمهم أن يروا بها .

بذلك أقر . كان ينبغي لى أن أعرفه خيراً من هذا ، وكان ينبغي أن أذكر كيف أن الثعلب ولیم قد خدعنى فى أمر هذه الحرب الصليبية .  
فأجابه السر كنت وقال : « مولای ، إن ولیم الأسكتلندى لم يخدعك ، ولكن الظروف لم تمكنه من حشد جنوده » .

فقال الملك : « مهلا بمض هذا واستح قليلا ! إنك تلوث اسم الأمير حتى إن لفظت به » ، ثم أردف بقوله : « ولكن ، مع هذا ، إنه لمجيب يادى قو مسلك هذا الرجل ، إنه إما جبان أو خائن ، ولكنه صمد — رغم ذلك — لضربة رتشارد بلا تاجحت حينما ارتفع ساعدا لوسم الفروسية على كتفه<sup>(١)</sup> ؛ والله لئن كان قد أبدى أتفه دليل على خوفه ، والله لو كانت قد ارتعدت منه فريصة أو ارتجف له جفن ، لهشمت رأسه كما يتهشم القلح من البلور ، ولكن ما كان لى أن أضرب حيث لا خوف هناك ولا صدود » .

ثم كان سكون .

ثم قال كنت : « مولای . . . » .

فاعترضه رتشارد وأجابه قائلا : « ها ! الآن عرفت الكلام ؟ أدع ربك الرحمة ولا تدعنى ، لقد لحق بأنجلترا المار من جراء خطئك . والله لو كنت لى أخا ، ولولم يكن لى سواك أخ ، لما عفوت عن إثمك » .

فقال الأسكتلندى : « إنى لم أنكلم طلبا للرافة من إنسان فان ، إنما الأمر لجلالتكم إما جدم أو ضنتم على بالوقت أكفر فيه عن سوءاتى كما يكفر المسيحيون ؛ ولئن أنكر الإنسان على هذا فإله أرجو أن يهينى المغفرة التى أطلب من الكنيسة بعد الله ! وسواء مت الآن أو بعد هذا بنصف ساعة فإنى ألتبس من جلالتكم أن تهينى الفرصة لحظة واحدة أحدث فيها إلى شخصك الكريم بما يمس ذكرك كلك مسيحى مسأ شديدا » .

فأجابه الملك وقال : « هيا ، قل ما تريد » . ولم يشك فى أنه إنما كان يتأهب

(١) يشير إلى العادة التى كانت تتبع فى المصور الوسطى عند منح الرجل مرتبة الفروسية .

للإصغاء إلى شيء من الاعتراف في أمر يخص العلم .  
قال السر كنث : « إن ما سوف أذكره ليس ملكية انجلترا ، وينبغي أن لا يتطرق إلى غير أذنك » .

فقال الملك لنثيل ودي فو : « اعزها عني سيدي » .  
فصدع أولها بالأمر ، وصمد ثانيهما في حضرة الملك لا يدي حراكا .  
وأجاب دي فو مولاه قائلا : « ألم تقل مولاي إني على جادة الصواب ؟ إذن فلتساملني كما ينبغي أن يعامل من هو على محجة الحق — وإذن فلتبق لي إرادتي ، وإني لن أتركك وحدك مع هذا الاسكتلندي الأفاك » .

فقال رتشارد غاضبا وهو يضرب الأرض بقدمه ضربا خفيفا : « كيف هذا يادي فو ! وكيف لا تأمن على شخصنا مع خائن واحد ؟ » .

فأجاب دي فو وقال : « عبتا يا مولاي أن تقطب جبينك أو تضرب بقدمك . إني لا آمن أن أترك رجلا مرصضا مع آخر معافي ، رجلا مجردا عن السلاح مع آخر مسلح ممتنع » .

فقال الفارس الاسكتلندي : « ليس هذا بأمر ذي بال ، إني لن ألتبس المعذرة كي أستأخر الزمن ، ولأتكلم في حضرة لورد جلزلاند فإنه سيد كريم صادق » .  
فأجاب دي فو وفي صوته رنة الأسمى ، وفيها مزيج من الحزن والحلق وقال :  
« لقد كنت أقول عنك مثل هذا القول منذ نصف ساعة ! »

ثم استأنف السر كنث حديثه وقال : « إن النذر يحيط بك يا ملك الانجليز » .  
فأجاب رتشارد قائلاً : « قد يكون صدقا ما أقول ، فإن أمانى لثالا محسوسا » .  
فقال السر كنث : « إنها خيانة سيكون أذاها أشد وقعا عليك من ضياع مائة راية في ساحة الوغى ، إن... إن... » وهنا تردد السر كنث ، ثم استأنف الكلام أخيراً وقد خفض من صوته وقال : « إن السيدة أديت ... »

فاستجمع الملك نفسه بقتة ، واتخذ هيئة المنصت المتكبر ، وحدق بصره فيمن ظن فيه الإجرام ثم قال : « ها ! ما بها ؟ خبرني ما بها ؟ ما شأنها وهذا ؟ » .



فقال الاسكتلندي : « مولاي ، هناك دسيسة تدبر لتدنيس ذريتك الملكية الكريمة ، وذلك بمنح يد السيدة أدبث للسلطان العربي ، وشراء سلم مشين بالعالم المسيحي بحلف هو وصمة شديدة في جبين إنجلترا » .

وكان لهذا البلاغ أثر يختلف كل الخلف عما كان يتوقع السركنث ، فلقد كان رتشارد بلا تاجت أحد أولئك الذين لا يعملون لله انصياعاً لأمر الشيطان — كما يقول أياجو — <sup>(١)</sup> ولم يكن في غالب الأحيان ليتأثر بالنصح أو بالخبر بمقدار ما ينظويان عليه من صدق ، كما كان يتأثر بهما بمقدار ما يصطبغان به من شخصية المحدث ونظرته . ومن نكد الطالع أن أحبي ذكر هذه السيدة — وهي من ذوات قرباه — ذكرياته عن وقاحة فارس النمر في هذا الشأن ، حتى حينما كان في طليمة الفرسان . وقد بدا له أن في ما ذكر السركنث — وهو في تلك الحال الراهنة — مهانة تكفي لأن تدفع بالملك ، وهو يشتعل غضباً ، إلى انفعال الجنون .

فقال : « ازم الصمت أيها المرذول الوقح ! وحق السموات لأمرقن لسانك بمقبض الحديد الحار لأنك ذكرت اسم سيدة من كرائم المسيحيات ! اعلم أيها الخائن الوضع ، أني كنت أعلم من قبل إلى أي حد بلغت بك الجرأة أن ترفع عينيك ، ولقد تحملت ذلك — رغم ما فيه من قحة وجرأة — حتى حينما خدعتنا حتى ظننا أنك رجل له ذكر وصيت ؛ أما الآن وقد تقيحت شفتاك بما اعترفت به من خزيك — إذ كيف تجرؤ على أن تذكر الآن سيدة كريمة تربطها بنا صلة الرحم ، وكأنها سيدة لك في حظها سهم أو نصيب ! — ما شأنك إن هي تزوجت من عربي أو مسيحي ؟ — ما شأنك ونحن في معسكره الأمراء فيه أنذل نهاراً ولصوص مساء ، وبواسل الفرسان فيه خونة أدنياء يفرون من الواجب — أقول ما شأنك ، أو ما شأن غيرك ، إن أنا أردت أن أتحالف مع الصدق والشجاعة متمثلين في شخص صلاح الدين ؟ » .

فأجاب السركنث متشجعاً وقال : « شأني في هذا قليل حقا ، وأنا رجل

( ١ ) أياجو شخصية مشهورة بالحقد في رواية عطيل لشكسبير .

سوف تصبح الدنيا لي عما قريب هباء ؛ ولكن ، حتى ولئن كنت الآن موثوقا  
بسرير العذاب ، أقول إن ما ذكرت لك يمس ضعيفك واسمك مسأ كبيراً ، إنى  
أقول يا مولاي الملك إنك إن قبلت — ولو في خاطرك وحسب — أمر زواج قريبتك  
هذه السيدة أدب . . . » .

فقال الملك : « لا تذكر اسمها ، ولا تفكر فيها لحظة واحدة » وضغط على  
فأسه القصيرة ثانية بقبضته ، حتى برزت المضلات في ساعده المقتول تحيط  
الحلابل حول أعضاء السنديان .

فأجاب السر كئث قائلاً : « لا أذكر اسمها ، ولا أفكر فيها ! » وقد صمق  
وخيمت عليه الكآبة وتملكه انقباض النفس ، ثم أخذ يسترد مروته بمد هذا  
اللون من الحديث ، فقال : « والآن بحق الصليب الذي عقدت به آمالي ، ليكون  
اسمها آخر ما يذكرك في ، وتكون صورته آخر ما ينظر لهني ! جرب قوتك  
— التي بها تفخر — على هذا الجبين الماري ، وانظر هل أنت غامني عن مرماي ؟ » .  
فقال رتشارد : « والله إنه ليدفعني إلى الجنون » ورده ثانية عن هدفه  
— راغمًا — عزم لا يلين مَلَك على الجاني نفسه .

وقبل أن يحير توماس الجلز لاندى جواباً ، نما إلى السراشق شغب من الخارج ،  
وأعلن المعلن من ظاهر القسطاق قدوم الملك .

فصاح الملك : « ردّها يا ثقيل ، ردّها ! ليس هذا بالمشهد الذي يليق بالنساء  
— تبا ، تبا ، لقد عانيت من مثل هذا الخائن الوضع إغاظته لي كما ترون » ! —  
ثم قال همساً : « ابعد عن مرآتي يادي قو ، واخرج به من المدخل الخلفي من  
سرادقنا ، وضيقوا عليه أشد ضيق ، واعلم أن حياتك رهينة بحفظه في محبسه ،  
وضع نصب عينيك أنه عما قريب يفارق الحياة ، فأت له بأب روي فإنا لن  
نقتل فيه الروح والجسد — البت قليلاً واستمع إليّ ، إنا لا نريد به خزيًا ولا عارًا  
— لسوف يموت ميتة الفرسان بنطاقه ومجازه ؛ فلئن كانت خيائته مظلمة كالبحيم  
فإنه ليبارى بإقدامه الشيطان نفسه » .

ولا نمدو الحقيقة إذا نحن قلنا إن دى فو قد سر سروراً عظيماً بانتهاء ذلك الموقف دون أن يتنزل رتشارد إلى عمل لا يليق بالملك ، ويقتل بنفسه سجيناً لا يدفع عن نفسه ، ثم سارع إلى إخراج السر كنث من منفذ خاص إلى خيمة منفصلة ، حيث جرده من سلاحه وكبله في الأصفاد ، كي يأمن جانبه ، ووقف دى فو ينظر إلى ما يجري رابط الجأش حزيناً ، وضباط السجن ، الذين بات السر كنث تحت إمرتهم ، يتخذون هذه الحيلة الشديدة .

ولما فرغوا قال للآثم التمس مكتئباً : « هي إرادة الملك أن تموت محتفظاً بشرفك — فلن نبت جسدك أو نشوه ساعديك — وأن يفصل رأسك عن جذعك سيفُ الجلاد » .

فقال الفارس : « إنها لرأفة منكم » وفي صوته نغم خافت ، فيه ذلة وخنوع ، كأنه رجل ظفر برضا غير منظور ، ثم قال : « إذن فأهلي لن يسموا عني أسوأ القصص — آه يا أبته ! يا أبته ! »

وهذا الابتهال الذى تتم به لم يغب عن الرجل الإنجليزى الجلف الطيب القلب ، فمسح بظاهريه الكبيرة محياه التليظ قبل أن يشرع فى الجواب . ثم قال أخيراً : « ويريدك الملك كذلك أن تتحدث إلى رجل من رجال الدين ، ولقد التقيت فى طريقى إلى هنا بقس من كرميل يليق بك وأنت تفارق هذه الدار الدنيا ، وهو ينتظر خارج الفسطاط حتى تنهى للقاءه » .

فقال الفارس : « سارع به إلى » ، إن رتشارد فى هذا كذلك لرؤوف بى رحيم ؛ لن أكون ساعة ما أكثر تأهباً للقاء القس الكريم منى الآن ، فلقد ودعت الحياة ، واقتربت وأياها كراجلين بلغنا مقترق الطريق ، ثم اختلف سير أحدهما عن الآخر » .

فقال دى فو متشداً رزيناً : « هذا خير ، فوالله إنه ليضينى بمض الشيء أن أذكر لك غوى رسالى . وذلك أن الملك رتشارد يريدك على أن تتأهب للموت العاجل » .

فأجاب الفارس صابراً : « لتكن إرادة الله ومشية الملك ؛ إنى لا أعارض فى عدالة الحكم ، ولا أرغب فى تأجيل القضاء » .

وحينئذ شرع دى فو بفصل عن الفسطاط فى أناة شديدة ، ثم وقف لدى الباب ، والتفت خلفه ، ونظر إلى الأسكتلندى الذى وقف وكأن آمال هذه الدار الغانية قد انتفت من خاطره انتفاء تاماً ، وكأنه رجل قد توجه إلى الله بكل نفسه ؛ ولم يكن البارون الانجليزى البدين عامه من ذوى المشاعر الحادة ، ولكن عاطفته فى ذلك الموقف غلبت عليه — رغم ذلك — غلبة لم يمهدها فى نفسه من قبل ، فقفل راجعاً إلى فراش القصب الذى كان يرقد عليه الأسير ، وأمسك بإحدى يديه المتاولتين وقال بنغم فيه من اللين بمقدار ما يستطيع صوته الأجش أن يلفظ : « سيدى كنت ، إنك ما زلت فى ريمان الشباب ، وإن لك لأباً ، وإن أبى « رالف » الذى خلفته يدرب جواده الصغير الذى أتينا له به من ( جالوى ) على ضفاف ( اردنچ ) قد يبلغ عمرك يوماً من الأيام — ولا أخفيك أنى ليلة أمس كنت أرجو الله أن أرى شبابه كشبابك — هلا تريدنى أن أقول شيئاً أو أفعل فعلاً نيابة عنك ؟ »

فكان الجواب الحزين على ذلك : « لا شئ » ، لقد أهملت واجبى ، وفُقد العلم الذى عهد به إلى — فاذا ما أصبح الجلاد وباتت المقصلة على استعداد ، فإن رأسى وجذعى كليهما على أهبة أن يفترقا » .

فقال دى فو : « رحماك اللهم ، والله لوددت لو أنى قمت بحراسة العلم عوضاً عن رعاية جوادى الكريم . إن فى الأمر لسراً أيها الرجل الشاب ، سرا يلمسه الرجل الساذج وإن كان لا يدرك له كنهها ، هل كان جيناً منك ؟ كلا . ما قاتل جيان قط كما شهدتك تقاتل — هل كانت خيانة ؟ لا أظن الخونة يموتون فى خيانتهم بمثل هذه السكينة . إنما صرفك عن مقرك غدر بعيد المدى وخطة محكمة التدبير — إنما ملك عليك سمعك صباح فتاة منكوبة ، أو صرف عنك بصرك وجه ضاحك باش ، لا تمتنع من هذا ، فليس منا من لم يحجده يوماً مثل هذا الدافع عن جادته ؛ هيا ، هيا ، وحيلى عوضاً عن قسك بمكنون سريرتك — إن رتشارد

لرؤوف رحيم حينما تهدأ ثورته . أليس لديك ما تمهد به إلى ؟  
فأشاح الفارس البائس بوجهه عن هذا المقاتل الرحيم ، وأجاب به غير تردد أن :  
« لا شيء » .

ولما أن استنفذ دى فوكل حديث من أحاديث الإغراء ، نهض وفصل عن  
الفسطاط مطبق الدراعين ، تملوه كآبة ظن أنها أظلم مما تقتضى الحال ، بل وناقماً  
على نفسه لأنه رأى أن أمراً نافعاً — كموت رجل أسكتلندي — له مثل هذا  
الأثر العميق في نفسه .

ولكن ، كما قال محدثاً نفسه : « لئن كان الأجلاف ذوو الأقدام الخشنة أعداء  
لنا في كبرلاندا<sup>(١)</sup> فإننا في فلسطين نكاد نحسبهم لنا إخواناً » .

---

(١) هي البلاد التي تقع بين إنجلترا وأسكتلندا .

## الفصل السادس عشر

ليس الأمر ما تدرك فتاتي ،  
فهي في إدراكها لا تندو ما ألفت ،  
وما فطنها إلا لفو ،  
كفهرها من بنات حواء .  
أنشودة

كانت برنجاريا العريقة النسب ابنة ( سانشز ) ، ملك نافار ملكة حليمة لترشارد الباسل ، وتمد من أجل النسوة في زمانها ، قدّها نحيل ، وجسمها بارع الجلال في صورته ، جباها الله ييشرة غير مألوفة بين بنات جللتها ، ولها شعر كث يضرب إلى الصفرة ، وملاعها غاية في نضارة الشباب ، حتى إنها لتبدو للعيان أصغر سنا من حقيقتها بسنوات عدة ، وإن تكن في الواقع لما تمد الحادية والعشرين ، ولربما كان إحساسها بمظهرها هذا البالغ في حداثة ، باعثا لها على أن تصطنع ، أو أن تقوم على الأقل ، بقليل من أعمال النزع الصبيانية وصلابة الرأي في سلوكها ؛ وليس هذا — حسب ظنها — مما لا يليق بمرؤس شابة ، مرتبتها وسنها يعطيانها الحق في أن تنادى في زواتها هذه ، وأن تأمر فتطاع ، وكانت بالسليقة غاية في طيب القلب ، وإذا ما أسلم لها رفيقاتها — غير منازعة — بحظها من الإعجاب والولاء لها ( وهو حظ كبير فيما كانت ترى ) فلن تجد من يفضلها مزاجا أو ميلا إلى المحبة والوداد ؛ ولكنها — ككل حاكم مطلق — كلما نالت زيادة في نفوذها من الناس طوعا ، ازدادت شغفا بعد سلطانها ؛ وإذا ما أشبعت جميع أطعما تراها تتظاهر أحيانا بانحراف صحتها وتكبر صفو مزاجها ، فيقبح الأطباء الأذهان ، ويبتدعوا لها أسماء لأمرأض ما أنزل الله بها من سلطان ، وتشحن وصيفاتها الخيال حتى يجدن لها ألبابا مبتكرة ، وأزياء جديدة للرأس ، وفصائح في البلاط لم تسمع عنها من قبل ، تصرف بها تلك الساعات البنيضة — وهي ساعات لا يكون موقف

وصيغاتها فيها مما يفيطن عليه كثيراً . وأكثر ما كن يلجأن إليه ليسرين عن الملكة عليها خدعة أو عمل ضار تعمله لإحداهن بالأخرى ؛ ولا نعدو الحق إن قلنا إن الملكة ذات القلب الطيب — وهي في نشوة انتماش مزاجها — كانت لا تبالي كثيراً إن كان هذا المزاج الذي يعزج به الوصيفات مما يليق بكرامتها كل اللياقة ، أو كان الألم الذي يكابده أولئك اللائي يصيبن وقعته لا يتناسب واللغو الذي تنظر به هي منه ؛ وكانت أبداً على ثقة من رضا زوجها ، ومن علو مرتبتها ، ومما كانت تفرض في نفسها من حق الإفادة من المرح مهما كلف غيرها ؛ أو قل في عبارة موجزة إنها كانت تثب من مكان إلى آخر حرة كأنها شبل من الأشبال لا يحس بثقل يخالبه على أولئك الذين تلهو بهم .

وكانت الملكة برنجارياً تحب زوجها حباً جماً ، ولكنها كانت تخشى من خلقه الكبرياء والخشونة ؛ ولما كانت تحس من نفسها أنها لا تباريه ذكاء ، فلم تكن لتطمئن إليه حين تراه وهو يكثر من التحدث إلى أديث بلاتانجت ، راغباً فيها عنها ، لا لشيء إلا لأنه يجد في حديثها لذة ، وفي إدراكها سعة ، وفي خواطرها وعواطفها سببا النبيل والشرف ، أكثر مما تبدي حليته الحسنة ؛ ولم تكن برنجارياً تنفض أديث من أجل هذا ، وما كان أبدها عن أن تدبر لها أذى أو مضرة ، لأن خلقها — إن تهاوناً في شيء من حب الدات — كان على الجلمة سمحاً بريئاً ؛ ولكن حاشيتها من السيدات — وهن بميدات النظر في مثل هذه الأمور — كن قد أدركن منذ حين أن التندر الصارم على حساب السيدة أديث كان لجلاتها فيه شفاء من توعك الزواج ، وقد خلصن بهذا الإدراك من كثير من كد الخيال .

ولم يكن في هذا شيء من كرم الخلق ، إذ كان يُعرف عن السيدة أديث أنها يقيمة الأم والأبوين ؛ وهي وإن كان يطلق عليها اسم بلاتانجت ، وقناة أنجوا الحسنة ، ولئن كان رتشارد قد أذن لها أن تستمتع بيمض الزايا مما لا يمنح إلا لأعضاء الأسرة المالكة ، فكانت وفقاً لهذا تنبؤاً مكانتها في الأوساط والدوائر ، إلا أنه رغم ذلك قل من كان يعرف على أية درجة من صلة الرحم هي من قلب الأسد ؛ ولم

يجرؤ على السؤال في هذا أحد ممن له صلة ببلات انجلترا . أنت مع « اليانور » أم ملك انجلترا الشهيرة ، واتصلت برتشارد عند « مسينا » على أنها ممن قدر لمن أن يكن من وصفات برنجاريا التي كان زواجها إذ ذاك وشيك العقد ؛ وكان رتشارد يعامل قريبته هذه بكثير من الاحترام والرعاية ، وجعلت الملكة منها ألزم وصيقاتها ، وكانت تعاملها على الجلة بما يليق بها من إجلال رغم ما شهدنا فيها من أثر الفيرة . وليت سيدات البلاط طويلا دون أن يكون لمن على أدب فضل ، اللهم إلا ما تهيئه الفرصة حينما يأخذن عليها عدم الحنق في وضع لباس رأسها ، أو سوء اختيارها لثوبها ، إذ كن يحكن عليها بالحطة والجهل بأسرار اللباس والتجمل ؛ ولم يمض ذلك إلا خلاص الصامت — الذي كان يحمله الفارس الاسكتلندي لها — دون الثفات ، فكأن يرقن عن كذب ما يرتدى من ثياب ، وما يبدى من دراية ، وما يظهر من حنق في الضرب بالسلاح ، وما يحمل من شعار ويدبر من مكائد ، وكثيرا ما اتخذن من هذا موضوعا لفكاهة عارضة ؛ وبقيت الحال كذلك حتى آن للملكة ووصيقاتها أن يحججن إلى عين جدة ، وهي رحلة قامت بها الملكة كي تبتهل إلى الله أن يرد لزوجها صحته ، وشجعا على القيام بها رئيس أساقفة (سور) لفرض سياسى في نفسه ؛ وفي ذلك الحين ، في المبد القائم بذلك المكان المقدس ، الذى يتصل فوق الأرض بدير الراهبات في كرميل ، وتحت الأرض بكن الناسك ، لحظت إحدى وصفات الملكة تلك الشارة الخفية التي أو مات بها أدب إلى عشيقها ، ولم يفتها أن تبلغ الملكة نبأها في الحال ، فمادت الملكة من حجا ضرودة بهذا الدواء الناجح شفاء لها من الكآبة والضجر ، وقد انضم إلى حشما قرمان شقيان وهبتهما إياها ملكة بيت المقدس المخوعة عن العرش ، لها من تشويه الخلق والجل (وهذا خير ما يتصف به هذا الضرب التمس من الناس) ما يجبهها إلى أية ملكة من الملكات ، وكان من ضروب اللهو المقيم تلهو به برنجاريا أن تختبر ما لظهور هذه الصور الوهمية ، الشاحبة اللون ، على أعصاب الفارس من أثر ، حينما يخلو لنفسه في المبد ، ولكن تندرها لم يقلح إذ أن الرجل الاسكتلندي قد صمد



للموقف ، كما أن الناسك اعترض الأمر ، ولم تتم الفكاهة ، فحاولت الآن فكاهة أخرى ، وهي تأمل أن تكون عواقبها أشد خطراً .

وبعد أن انصرف السركنت عن القسطاط ، اجتمع السيدات ثانية ، ولم تهتز الملكة أول الأمر إلا قليلا من غضب أديث وعتابها ، فلم تجبها بأكثر من عنفها على اصطناعها الحشمة والخفر ، ومن تماديتها في التندر على حساب ثياب فارس النمر ، وعلى أمته ، وفوق هذا وذاك على فقره الذي سخرت منه كثيرا سخرأ تستشف من خلفه الحقد والضغينة ، وإن كان ممزوجا بالبشاشة والمجون ؛ وبقيت على ذلك حتى اضطرت أديث أن تأوى إلى غرفتها المستقلة بهواجسها وبلبالها ؛ ولما أشرق الصباح بعثت أديث بإحدى خادماتها تستعلم عما وقع ، فأنت إليها بنبا فحواه أن العلم قد افتقد وأن بطله قد اختفى ، فانطلقت أديث إلى غرفة الملكة ، وتضرعت إليها أن تنهض وتحض إلى مرادق الملك بغير توان ، وأنها تستخدم وساطتها النافذة كي تمنع العواقب الوخيمة التي نجمت عن مزاحها .

وارتاعت الملكة بدورها ، وأتمحت كعادتها باللائمة في عبثها هذا على من كن يتحوطنها ، وحاولت أن تخفف من أسي أديث ، وأن تخمد فيها نأثر غضبها بألوف الأقوال المتضاربة ، وكانت على يقين من أن لم يحدث أذى ، وخيل إليها أن الفارس لا بد نأثم بعد سهره ليلا ؛ وفيم الخوف من غضب الملك إن كان الفارس قد فر بالعلم ؟ ليس العلم إلا قطعة من حرير ، وما الفارس إلا رجل جرىء معدم ؛ وإن كان كئنت قد زج به في السجن إلى حين فلسوف تستصدر له من الملك العفو سريرا — وما عليها إلا أن تتريث حتى تمر برتشارد هذه السحابة الكثيفة ثم تنقشع .

وهكذا واصلت حديثها بغير انقطاع ، وتغوته بكل ضروب المتناقضات ، وهي ترجو عبثا أن تخدع أديث وتخضع نفسها بأن الهولن ينتهي إلى أذى ، ولكنها كانت الآن من صميم قلبها نادمة أحر الندم على هذا العبث الذي عبثت . وبينما أديث تحاول دون جدوى أن تعترض هذا السيل الدافق من الحديث العقيم ، دخلت إلى غرفة الملكة إحدى السيدات فلكت على أديث بصرها ، إذ كان

الموت في مرآها المروع الخائف ؛ وما إن وقع بصر أدبث على عيائها حتى خرت على الأرض صريعة ، ولولا الضرورة الملحفة وعلو خلقها لما أمكنها أن تستيق على الأقل ظاهرا من رباطة الجأش .

وقالت للملكة : « مولاتي ، لا تنبسى هباء بكلمة واحدة تلفظينها بعد هذا ، ولكن اتقذى حياة .. » ثم أردفت وصوتها يختنق وهي تتكلم وقالت : « اتقذى حياة إن كان للحياة من بعد هذا منجاة » .

فأجابت السيدة كالستا وقالت : « إن في النجاة لأملا ، فلقد نما إلى الآن أنه سيق إلى الملك — ولا ينته الأمر ولكن ... » ، ثم انفجرت في فيض من البكاء غزير ، كان لمخاوفها الذاتية فيه نصيب وقالت : « ولكن الأمر عما قريب ينتهي إلا إن سلكتن طريقا أخرى » .

فقالت الملكة محتدة : « نذرت للقبر المقدس قنديلا من الذهب ، ولسيدتنا صاحبة عين جدة حرما من الفضة ، وللقديس «توماس آرثر» بساطا للرحمة قيمته مائة بيزنط .. » .

فقالت أدبث : « هيا ، هيا يا مولاتي . ادعى القديسين إن شئت ؛ ولكن كوني أنت خير قديسة » .

فأجابت الوصيعة المرتاعة وقالت : « حقا مولاتي ، ما تقول السيدة أدبث إلا صدقا ؛ أنهضى مولاتي وهيا بنا إلى سرادق الملك رتشارد نطلب العفو عن حياة هذا الرجل الفاضل » .

فقالت الملكة : « إني ذاهبة ، سوف أتوجه إليه توا » ، ثم نهضت وهي ترتعد ارتعادا شديدا ، والنسوة حوالها في مثل حيرتها وارتباكها ، عاجزات عن أن يؤدبن لها تلك الخدمات التي لم يكن عنها مندوحة لهذه الزيارة الرسمية ، وتقدمت أدبث إلى الملكة هادئة رابطة الجأش ، إلا أن صفرة كصفرة الموت كانت تملو جبينها ، وناولت بيدها الملكة ما أرادت ، وسدت وحدها ما قصر فيه الوصيفات العديبات .

ولم تستطع الملكة حتى آتت أن تنسى ما تميزت به من الاستخفاف والاستهتار فقالت : « أية خدمة تؤدين أيتها النسوة ، كيف ترضين أن تقوم السيدة أديث بواجبك في الخدمة ؟ هلا ترين بأديث أنهن لا يعملن شيئا — ما أظنني بمستطاعة أن أتم ارتدائي في حينه ؛ لنبتعن إذن لرئيس أساقفة صور ونستخدمه لنا وسيطا . فصاحت بها أديث قائلة : « كلا ، كلا ، ربك لا تفعل ؛ اذهبي بنفسك يا مولائي ، لقد صدرت عنك الإساءة عليك محوها » .

فقالت الملكة : « إذن لأذهبن ، ولكن إن كان رتشارد لما يزل غاضبا فلن أجزؤ على التحدث إليه ، إنه ليقطنني إن أنا فعلت ! » .

فقالت السيدة كالستا وهي خير من يعرف مزاج مولائها : « ومع ذلك فلتذهبي مولائي الكريمة ، ولن ينظر إلى هذا الجبين وذاك الجسد ليثُ غاضب ثم يقوى على استبقاء خواطره ثائرة ، فما بالك بفارس محب شغوف كرتشارد الملك ، وما أدنى كلمة منك إلا فريضة عليه ؟ » .

فقالت الملكة : « هل تظنين ذلك يا كالستا ؟ آه ، إنك لا تعرفين إلا قليلا — ومع ذلك فإني ذاهبة ، ولكن استمعي إلى ؛ ماذا تعنين بهذا ! لقد كسوتني بكساء أخضر وهو لون بفيض إلى نفسه ؛ متى هذا ، وهات لي ثوبا أزرق واثت لي بالبنيفة الياقوتية التي كانت بعض رداء ملك قبرص — وسوف تجدينها إما في صندوق الحديد أو في مكان آخر » .

فقالت أديث ساخطة حاققة : « كل هذا وحياة الرجل في خطر ! إن هذا لفرق ما يصبر عليه المرء ؛ مهلا مولائي ، سأذهب أنا إلى رتشارد ؛ إن هذا الأمر يهمني — وسوف أعرف إن كان يجوز المبت إلى هذا الحد بشرف فتاة مسكينة من دمه ، وأن يُنتهك اسمها لصرف رجل فاضل عن واجبه ، والأتيان به إلى دائرة الموت والمار ، وأن يبيت مجد أنجلترا ذاتها في الوقت عينه سخرية للجيوش المسيحية قاطبة » .

وأصمت برنجاريا إلى هذه الماطفة التي تفجرت على غير انتظار ، وكاد أن يطير

لها خوفاً وعجباً ، ولكنها ، وأديث توشك أن تغادر الفسطاط ، صاحت بصوت ضعيف خافت وقالت : « أوقفنها ، امنعنها عن الذهاب ! » .

فقالت كالستا : « حقاً يجب أن لا نذهي أيتها السيدة النبيلة أديث » وأمسكت بذراعها في لين ورفق ثم قالت : « ولإني على يقين من أنك يا مولاي الملكة سوف تذهبين ، وسوف تذهبين بشير توان بمد هذا ، ولئن ذهبت السيدة أديث وحدها إلى الملك ليثورن ثورة عنيفة ، وليبيتن رهينة غضبه الكثير من الناس » .

فقالت الملكة وقد أذعنت للضرورة : « إذن لأذهبن » وتوقفت أديث عن السير ، غير مطمئنة ، ترقب ما سوف تفعل الملكة .

وأسرع النسوة جميعاً كما أرادت أديث ، ولفتت الملكة نفسها متمجلة في ملأة كبيرة فضفاضة ، وارتبها كل ما فاتها من أسباب التجميل ، وفي هذا الستار — وأديث ونسوتها يتبعنها ، ويتقدمها ويخلفها قليل من الضباط والرجال المسلحين — خفت إلى مرادق زوجها الستاسد .

## الفصل السابع عشر

لو أن كل شجرة في رأسه حياة ،  
ولو أن أربعة أمثال هذه الشجرات عدا  
تضرع لكل حياة منها ،  
لبنها جميعا حياة بعد حياة ،  
وتنافس عديدها كالشوكب قبل منبتق النهار ،  
أو كالمصاييح توفد في المآدب  
وتشع الضياء على اللامعين في منتصف الدجى  
ثم ينطقن بريقها والحافلون يفصلون !  
من رواية تمثيلية قديمة

تصدى للملكة برنجاريا عند ولوجها إلى داخل سرادق رتشارد أولئك الحجاب  
القائمون على الحراسة في السرادق الخارجى ، وحقا لقد اعترضوا سبيلها باحترام  
وتقدير ، إلا أنها تعطلت على أية حال ، واستطاعت أن تستمع إلى الملك وهو يأمر  
من الداخل أمراً صارماً بمنع دخولهن .

فقال الملكة متوجهة إلى أدبث ، كأنها استنفدت كل ما تملك من وسائل  
الشفاعة « الآن ألا ترين أنى كنت به عليمه — إن الملك يأتى أن يستقبلنا » .

وسمعن إذ ذاك رتشارد يتحدث في الداخل إلى شخص ما ويقول : « اذهب  
واصدع بما تؤمر الآن أيها المولى ، فإن في هذا لرأفة بك ، ولك عشر بيزنطات  
لو قضيت عليه بضربة واحدة — استمع إلى أيها الشقى ، راقبه وقل لى إن امتنع  
لون خده أو قترت عيناه ، وخبرنى بأدق ما تلاحظ من لحظة في طلته أو طرفه في  
عينه — إنى أحب أن أعرف كيف تلقى النفوس الجريئة الموت » .

وأجابه صوت أحش عميق يقول : « تالله لو رأى طلباى وهى تهتز عالية ولم  
يتفهقر لكان أول من يفعل ذلك » . ولطف من حدة هذا الصوت لإحساس  
بالرعب لم يأنف ، وأحاله إلى نبرات أكثر خفضاً من نبراته الخشنة المهودة .

فلم تستطع أدب أن تلزم الصمت بعد هذا وقالت : « إذا لم تفقّ جلالتك لنفسها طريقاً فدعيني أفعل ذلك — وإن لم يكن لك ، فلي على الأقل — أيها الحجاب ؟ إن الملكة تريد أن ترى الملك رتشارد — الزوجة تريد أن تتحدث إلى زوجها » .

فقال الضابط وقد خفض عصاه « أيها السيدة النبيلة ، يحزنني أن أعترضك فيما تقولين ، ولكن جلالة الملك مشغول بأمور فيها حياة أو موت » .  
فقال أدب « ونحن كذلك نريد أن نكلمه في أمور فيها حياة أو موت — سأجمل لجلالتك مدخلا » ، ثم أزاحت الحجاب جانباً باحدى يديها وأمسكت السجان بالأخرى .

فقال الحجاب وقد أذعن لحدة هذه الحسنة صاحبة الحاجة « إني لا أجرؤ على معارضة رغبة جلالتها » وألفت الملكة نفسها — والحجاب يخلّي الطريق — مضطرة إلى دخول غرفة رتشارد .

وكان الملك مستلقياً على سرير ، وعلى مقربة منه يقوم رجل كأنه يرتقب أمراً جديداً ، ولم تكن مهمته مما يشقّ حدسه ، فلقد كان يرتدى سترة قصيرة من القماش الأحمر لا تتدلى دون كتفيه إلا قليلاً ، تاركا ذراعيه عاريتين من منتصف ما فوق المرفق ، وكان يكسى معطفاً أو صدره بغير كم ، يرتديه فوق ذلك حين يهم — كما هم الآن — بأداء واجبه الشاق ، وهو أشبه بمعطف الرائد مصنوع من جلد الثور المدبوغ ، ويولوث ظاهره نقط كثيرة كبيرة الحجم ولطخات حمراء قاتمة ؛ والسترة والصدرة فوقها تتدليان حتى ركبتيه ، وجواربه السفلى — أو ما ينطى به ساقيه — من الجلد عينة التي صنعت منه الصدرة ، وله تقيّة من الشعر الخشن ، يتخذها حجاباً للنصف الأعلى من وجهه الذي يشبه وجه البوم الصباح ، وتبدو عليه كالיום الرغبة في الاختفاء عن النور — أما النصف الأدنى من عيائه فتخفيه لحية كبيرة حمراء تختلط بمخصلات مشعنة لونها من لون اللحية ، أما ما بدا من ملاحه فعليه سيبا الفظاظة وبفض الناس ؛ أما قامته فقصيرة ، ولكنه

قوى البنية ، له ربة ثور ، وكتفان عريضان ، وساعدان بالتا الطول لا تناسق فيهما ، وجذع كبير مربع جدا ، وساقان غليظتان عوجاوان ؛ وكان هذا الموظف الشرس يرتكز على حسام تبلغ طباته نحو أربعة أقدام ونصف قدم طولا ، وطول مقبضه عشرون بوصة ، وتحيط بالمقبض حلقة من خيوط الرصاص كي توازن ثقل مثل هذا السيف ، ويرتفع القبض كثيرا فوق هامة الرجل ، وقد أسند الرجل ساعده فوق نصابه ينتظر إرشادا جديدا من الملك رتشارد .

ولما دخل النسوة على حين غرة ، كلف رتشارد مستلقيا على سريره ووجهه صوب الباب ، مرتكزا على مرفقه وهو يتحدث إلى خادمه هذا البشع ، فارعى على الجانب الآخر مسرعا كأنه غاضب دهش ، وولى ظهره للملكة وحاشيتها من النسوة ، والتحف بغطاء سريره وهو يتألف من جلد ليشين كبيرين ، دينا في البندقية بمهارة تدعو إلى الإعجاب ، حتى أصبحت أشد نعومة من جلد الغزال ، وهذا الغطاء ربما كان من انتقاء رتشارد نفسه ، أو ربما كان على الأرجح قد اختاره له حجاب ملقا له ودهانا .

وكانت برنجاريا كما وصفنا تعرف جيدا طريقها إلى الظفر — وأى امرأة لا تعرف الطريق إلى الظفر ؟ فبعد ما ألقت نظرة عجي ، فيها رعب غير خاف ولا مصطنع من هذا الرقيق المروع ، رقيق زوجها وهو في مجالسه الخاصة ، اندفعت توا إلى جوار سرير رتشارد ، وخرت على ركبتيها ، وتزعّت ملائمتها عن كتفها ، فبدت منها جدائل شعرها الذهبية الجميلة وقد استرسلت بنام طولها ؛ ومع أن طلعها كانت تبدو كالشمس يشق ضياؤها ظلام السحب ، إلا أن جبينها الشاحب كانت — رغم ذلك — تبدو عليه آثار السنا قد انطفأ بريقه ؛ وبهذه الصورة أمسكت يمين الملك ، وكانت يمينه وهو يستعيد رقدته التي ألقت مشتغلة بجذب غطاء السرير ، ثم أخذت تجذب إليها يد الملك شيئا فشيئا بقوة قاومها الملك مقاومة طفيفة ، حتى تملك الساعد ، وهو دامة العالم المسيحي وفزع الشركين النافقين ،

ولما أن استولت على زمام الساعد بين يديها الدقيقتين الجليتين ، ثنت جبينها عليه ولثمته بشفتيها .

فقال الملك ولما يزل منصرفا عنها برأسه ، وإن تكن يده تحت سلطانها : « فيم هذا يا برنجايا ؟ » .

فتمتمت برنجايا قائلة : « اصرف هذا الرجل ، إنه يقتلني بمرآه ! » .

فقال رتشارد وما عم مشيحا بوجهه : « اغرب عنا أيها الخادم ، فيم بقاؤك هنا ؟ وهل يليق بك أن تنظر إلى هؤلاء السيدات ؟ » .

فقال الرجل : « لتكن مشيئة مولاي » .

فأجاب رتشارد : « عني أيها الوغد ! قاتلك الله » .

ثم اختفى الرجل بعد ما رمى بنظره الملكة الحسناء وقد خلعت عنها رداءها ، وبدا للعيان جمالها الطبيعي ، وعلى شفتيه ابتسامة الإعجاب ، وبسمته أبغض إلى النفس من عبوسه المألوف وكراهيته الساخرة لبني الإنسان .

ثم قال رتشارد : « والآن ما ذا تريدن أيها المرأة الحفقاء » واستدار بجسمه في أناة وشبه إباء نحو هذه الملكة المتضرعة .

وليس من الطبيعي لامرأى أيا كان — بله رجل كرتشارد — يجب بالجمال ويحله في المحل الثاني بعد المجد — أن ينظر بغير عاطفة إلى طلعة مخلوق جميل كبرنجايا وإلى ترنحه وارتجافه ، أو أن يحس بشفتيها وجبينها وهما على يده ، وقد بللتها بالدموع ، دون أن تقع الماطفة قلبه ، فأخذ الملك يلفت نحوها حياء المسترجل شيئا فشيئا ، وفي عينيه الكبيرتين الزرقاوين اللتين كثيرا ما يشع منهما ضياء لا يحتمل ، كل ما وسعنا من نظرات اللين والدعة ، وأخذ يسمع برأسها الجميل ، ويرسل أصابعه الكبيرة خلال فرعها الفاتن المسدول ، ثم رفع جبينها الملائكي ولثمه برفق وصاحبه تبدى رغبتها في إخفائه في يده ؛ وهذا الجسم الضخم ، وذاك الجبين النحيل المريض ، وتلك النظرات الهيمية ، وذاك الساعد والكنتف العاريتان ، وجلود الأسد التي كان يستلق عليها ، وذلك المخلوق الضعيف الذي خر إلى جواره على ركبتيه ،



كل هذا يصح أن يكون تمثالا لهركيوليز<sup>(١)</sup> ، وقد اتفق وزوجه « ديمانيرا »  
بعد ما وقع بينهما من خلاف .

« إنى لأتساءل ثانية ماذا تريد سيدة قلبى فى سرادق فارسها فى هذه الساعة  
الباكرة التى لم تألف ؟ » .

قالت الملكة : « العفو ، العفو ، سيدى الكريم » وقد تملكها المخاوف  
ثانية ، ولم يعد فى وسعها أن تؤدى واجب الشفاعة .

فسألها الملك : « فيم العفو ؟ » .

قالت : « العفو أولا عن مثولى لدى حضرتك الملكية بجرأة وبغير روية .. » .  
ثم سكنت عن الكلام .

فقال الملك : « أفتقولين إنك كنت جريئة ! إذن فلشمس أن تطلب العفو  
عن تسرب أشعتها خلال النوافذ إلى جب مظلم ذميم ؛ إنما أنا كنت مشتغلا  
بأمر لا يليق بك أن تشهده يا سيدتى الكريمة ، وفوق ذلك كنت لا أحب أن  
تخاطبى بصحبتك العزيزة إلى حيث حل المرض من منذ حين » .

قالت الملكة : « ولكنك الآن بخير » وأرجأت التحدث فى الأمر الذى  
كانت تخشاه .

« نعم إنى بخير ، وأستطيع أن أحطم الرمح فوق قمة رأس ذلك البطل  
الجبسور الذى ينكر أنك أجل سيدة فى العالم المسيحي » .

« إذن فلن تجحدنى هبة واحدة ليس غير ... تلك هى حياة رجل مسكين ؟ »  
فقال الملك وقد قطب الجبين : « ها ! قولى ما تريدن » .

فتتمت الملكة وقالت : « هذا الفارس الاسكتلندى البائس » .

فصاح بها ريتشارد عابسا وقال : « لا تسكلى بشأنه سيدتى ، لسوف يموت —  
إن قضاءه محتوم » .

---

(١) هركيوليز رجل فى الحرافة اليونانية والرومانية ذو قوة عظيمة قام بالكثير من  
جسيم الأعمال .

« كلا يا سيدى الملك ويا حبيب قلبى ، ما هى إلا راية من حرير قد أهملها ،  
ولسوف تعطيك برنجاريا راية أخرى طرزتها بيدها ، راية ثمينة كأية راية أخرى  
داعبها الريح ، سوف أحليها بكل ما أملك من جواهر ، وسوف أذرف مع كل  
جوهرة دمة شكر لفارسى الكريم ! » .

فما رضى الملك غاضبا وقال : « إنك تهرفين بما لا تعرفين — جواهر !  
أفتظنين أن جواهر الشرق جيما تستطيع أن تكفر عن وصمة واحدة فى شرف  
أنجارتا ، أو أن كل ما بكت نساء العالم من دمع يحو لطفة لحقت برتشارد ؟ عنى  
يا سيدتى واعرفى لنفسك مكانها وزمانها وحدودها ، أما الآن فلدننا من الواجبات  
مالا تستطيعين أن تساهى فيه » .

فهبطت الملكة قائلة : « هل سمعت هذا يا أديث ؟ إنما نحن نثير كامن غضبه » .  
فقال أديث وقد تقدمت خطوة أو بعض خطوة : « ليكن ذلك ، سيدى !  
أنا قريبتك المسكينة أطلب إليك عدلا ورحمة ؟ ولصوت العدالة يجب أن تفتح  
آذان الملوك فى كل حين وفى كل زمان وتحت كل ظرف » .

فهبط رتشارد من مرقده ، واستقام فى جلسته على جانب السرير ، وأدثر بدنه  
الأحمر وقال : « هيه ! ابنة عمى أديث ؟ والله إنك لتنطقين أبدا بما ينطق الملوك ،  
ولسوف أجيبك كما يجيب الملوك ؟ إنك ما أتيت إلى بمطلب لا يليق بكرامتك » .  
وكان جمال أديث عليه مسحة أشد فطنة وأقل شهوة مما يبدو على الملكة ،  
ولكن الجرع والفرع قد رسما على عيها وميض كانت تفتقر إليه أحيانا ، وكان  
على طلعتها سيبا الوقار والنشاط ، حتى لقد فرضت يراها السكون لحظة من الزمن  
على رتشارد نفسه ، الذى كان فيها يبدو على ملامحه يود لو يعارضها . قالت :  
« سيدى ، إن هذا الفارس الكريم الذى توشك أن تربق دماءه قد أدى فى حياته  
خدمة للعالم المسيحى ، وإنه لم يقصر فى واجبه إلا لأن مكيدة قد دبرت له فى  
ساعة ساد فيها لهو عقيم أخرق ؛ بُعث إليه برسالة باسم سيدة — ومالى لا أفوه  
باسمها ؟ — باسمى أنا — فأغوته هذه الرسالة على أن يترك مكانه لحظة — وأى

فارس في معسكر المسيحيين لا يتخطى واجبه إلى هذا الحد انصياعاً لإرادة فتاة ،  
مهما كانت ضعيفة من بعض صفاتها ، فإن دم بلاتنا جنت يجري في عروقها ؟ » .  
فقال الملك وقد عض على شفتيه كي يكبح جراح غضبه : « وهل رأيته يا ابنة  
عمي ؟ » .

فقال أدبث : « أجل لقد رأيته يا مولاي ، وليس لي الآن أن أبوح بما بعثني  
على ذلك ، ولست هنا لأبري نفسي أو أعذل غيري » .  
« وأنتى صنعت فيه هذا الجليل ؟ » .  
« في سراق جلالة الملكة » .

فقال رشارد : « في سراق زوجي الملكة ! رب السماء ، وبالقدس چورج  
الإنجليزى وبكل قديس صعد إلى القبة الزرقاء ، لقد أتيتن شيئاً إذا ! إنى  
لحظت على هذا المقاتل فحته في إعجابه بسيدة تعلمه كثيرا وأغضيت عن ذلك ، ولم  
أضن عليه بأن تسبغ عليه واحدة من ذوات قرباى مثل هذا الهوى وهى في عليائها  
كما ترسل الشمس من علاها على الدنيا الضياء — ولكن وحق الأرض والسموات  
كيف رضيت له أن يمثل لديك ليلاً ، وفي خيمة زوجنا الملكية ! وكيف تجسرين  
على أن تتقدمى بهذا معذرة له على عصيانته وإهماله في واجبه ! وروح أبى يا أدبث  
لتكفرن عن هذا حياتك في الدين ! » .

فقال أدبث : « مولاي ، إن عظمتك تميز لك الظلم ؛ ولكن شرفي  
يا سيدى الملك — كشرفك — لم يسه أحد ، وتستطيع مولاتى الملكة أن  
تشهد بذلك إن شئت . ولكنى قلت لك من قبل إنى لست هنا لأبري نفسي  
أو أنهم غيرى ، إنى أضرع إليك أن تمد إلى رجل ارتكب إثمته تحت تأييد  
الإغراء الشديد ، تلك الرحمة التى سوف تلتمسها أنت نفسك يا سيدى الملك يوم  
من حكمهم أعلى ولأنهم ربما كانت أقل من هذى حقاً بالفقران » .

فأجاب الملك بحماسة وقال : « أهذى أدبث بلاتنا جنت ، أدبث بلاتنا جنت  
العاقلة النبيلة ؟ — أم امرأة مريضة بالحب ، لا تبالي بشرف اسمها من أجل

حياة عشيقها ؟ والآن أقسم بروح الملك هنرى لن يصرفنى شيء عن أن أتمر بأن يؤتى بجمجمة حبيبك من القفلة ، وأن تُعلق حلقة دائمة على الصليب فى بيتك ! » .

فقال أديث : « لو بعثت بها من القفلة كى توضع على مرأى منى أبدا ، فلسوف أقول إنها أثر لفارس كريم ساقه إلى الموت عنوة وجورا رجل ... » ، (ثم كبحت جراح نفسها وقالت ) : « ... رجل لا أقول عنه إلا أنه كان ينبغى أن يعرف خيرا من هذا كيف يجرى الشهامة » ، ثم أردفت وقد زادت من حديثها وقالت : « إنك تقول إنه كان عشيقى ؟ حقا لقد كان لى حبيبا ، وحبيبا غاية فى الإخلاص ، ولكنه لم يتقرب إلى بنظرة أو كلمة ، واكتفى بمثل تلك الرعاية وذلك الخضوع الذى يقدمه للقديسين الرجال — ولكن هذا الرجل الطيب ، هذا الرجل الجسور ، هذا الرجل المخلص ، ينبغى أن يموت من أجل ذلك ! » .

فهمست الملكة قائلة : « مهلا ، مهلا ، ورققا به ، إنك إنما تريد من الإساءة إليه ! » .

فردت أديث قائلة : « إنى لا أبالى ، إن العذراء البتول لا تخشى الليث الثائر ، لينفذ فى هذا الفارس الكريم إرادته ، فإن أديث التى يموت من أجلها تعرف كيف تندب ذكراه ؛ ولن يكلمنى أحد بعد هذا عن حلف سياسى ويطلب إلى عقده بهذه اليد الضعيفة ، ما كان لى — وكيف يكون لى ؟ — أن أكون له عروسا فى الحياة ، إن يبنى وبينه فى المرتبة فراسخ ، ولكن الموت يزواج بين الرفيع والوضيع — إنى منذ الآن قرينة قبره » .

وأوشك الملك أن يجيها غاضبا ، لولا أن راهبا من كرمل دخل الغرفة مسرعا ورأسه مكتم ، وجسمه مستتر فى عباءة طويلة وقلنسوة من القماش المخطط ذى النسيج الخشن الذى يميز مذهبه الدينى ، وخر على ركبته أمام الملك ، وناشده بكل كلمة وشارة مقدسة أن يقف لإنفاذ الحكم .

فقال رتشارد : « أقسم بمهندى ووصولانى لقد تأمرت الدنيا على جنونى !

فكل غافل وكل امرأة وكل راهب يترضى فى كل خطوة أخطو ؛ كيف يمشى هذا الرجل حتى الآن ؟ » .

قال الراهب : « مولاي الكريم ، لقد توسلت إلى لورد جلزلاند أن يوقف الإعدام حتى أرتعى لدى جلاتكم .. » .

فقال الملك : « وهل بلغت به صلابة الرأي أن يمنحك مطلبك ؟ ولكن ما هذا إلا جانب من عناده المألوف — والآن ماذا تريد أنت تقول ؟ هيا وقل لى باسم الشيطان ! » .

« مولاي ، إن لدى لسرا عميقا — ولكنى أخفيه بحق الاعتراف — وإنى لا أجرؤ على التحدث به أو حتى على الإيماء إليه — ولكنى أقسم لك بحياتى المقدسة — بهذا الرداء الذى أرتدى ، « بإلياس » المبارك الذى وضع لنا الأساس ، وهو ذلك الرجل الذى انتقل إلى جوار ربه دون أن يمانى ما يمانى الناس من آلام الموت ، أقسم لك إن هذا الشاب قد فشا لى سرا ، إن بحث به إليك عدلت عدولا تاما عن هذه الغاية القاضية التى فرضت عليه » .

فقال رتشارد : « أبى الكريم ، إن هذا السلاح الذى امتشق الآن من أجل الكنيسة ليشهد بإجلالى لها ؛ يحل بى بهذا السر ، ولسوف أفعل ما أراه لائقا فى هذا الشأن ، ولكنى لست رجلا أعمى البصيرة أعمل بغير روية إن أهاب بى رجل من رجال الدين ، لست « كيبارد » الماجز أقفز فى الظلام إذا استحثنى قس أو قسان » .

فطرح القس عنه قلنسوته وحلته الخارجية ، وكشف تحت الحلة عن كساء من جلد الماعز ، وتحت القلنسوة عن وجه استوحش ونجل من أثر الجو والصيام والتوبة ، حتى بات أشبه بصورة من هيكل عظمى تسرى فيه الروح منه بوجه الإنسان ، ثم قال : « مولاي ، لقد تقشفت عشرين عاما فى كهوف عين جدة ، حتى أضعفت هذا الجسد الدميم تكفيرا عن ذنب عظيم ارتكبت ، فهل تظن أنى — وأنا ميت فى هذه الدنيا — أدبر زورا أو بهتانا أعرض بهما روحى للخطر ، أو هل

تظن أن رجلاً أقسم يمينا غليظة على أن يجانب الإثم ، رجلاً مثلي ليس له في هذه الدنيا أمل واحد يعقد به رجاءه — وذلك أن نعيد للكنيسة المسيحية بناءها — هل تظن أن رجلاً مثلي يفشى سر الاعتراف ؛ إن كليهما بفيض لنفسى .

فأجابه الملك « إذن فأنت ذلك الناسك الذى يتحدث عنه الناس كثيراً ، إنى أقر بأنك شديد الشبه بتلك الأرواح التى تسرى فى الأرض الخلاء ، ولكن رتشارد لا يخشى ماردآ ولا عفريتآ ؛ وما إخالك إلا ذلك الرجل الذى بمت أمراء المسيحية إليه بهذا الجارم كى تفاوض السلطان فى وقت أنا فيه طريح فراش المرض ، وأنا أول من تنبى مشورته فى هذا الأمر ؛ فلتطمئن وليطمئنا ، إنى لن أضع رقبتي فى سمٍ نطاق رجل من كرملى ؛ أما رسولك فسوف يعوت ، وهو بالموت العاجل أحق وأجدر بعد شفاعتك له وتضرعك » .

فقال الناسك وقد ملكت عاطفته نفسه : « بارك الله فيك يا مولاي الملك ! إنك والله لتخلق شراً ، سوف تود فى مستقبل الأيام لو أنك أقلت عنه ، حتى ولو كلفك هذا شلواً من أشلائك . ليكن رجلاً مندفعاً أو أعمى ، ولكنى أضرع اليك أن ترفق به » .

فصاح به الملك ، وقد ضرب الأرض بقدميه : « عنى ، عنى ! لقد أشرقت الشمس على عار إنجلترا ولما ننقم له — أيها السيدات وأيها القس ، اعزبوا إن أردتم أن لا تسمعوا أمراً يسىء إليكم ، لأنى بحق القديس جورج أقسم ... » .

فأجابه صوت رجل دخل إذ ذاك السراى وقال : « لا تقسم ! » .

فقال الملك : « ها ! هذا طبيبى النظامى قد أقبل يستجدى سخطنا » .

كلا ، إنما أطلب التحدث إليك فوراً فى أمور ذات بال » .

« أنظر أيها الحكيم إلى زوجتى ، ودعها تعرف فيك رجلاً أبقى لها زوجها » .  
فأطبق الطبيب ساعداً فوق الأخرى ، ليظهر التواضع والاحترام على الطريقة الشرقية ، وأطرق بصره نحو الأرض ، ثم قال : « ليس لى أن أنظر إلى جمال لا يحجبه قناع ، جمال يذود عنه روثقه وبهاؤه » .

فقال الملك : إذن فلتراجعي يا برنجاريا ، وأنت يا أديث تراجعي كذلك ؛ كلا ، لا تعيدى على مسمى لجأجتك ! هذا ما أمنتحكا : ليق نفاذ الحكم حتى تبلغ الشمس رابعة النهار — إذهبا بهذا مطمئنتين — إذهبي يا عزيزتي برنجاريا « ثم ألقى نظرة بمثل الرعب حتى في نفس أديث قريته الجريئة وقال : « اذهبي إن كنت حكيمة » .

فانسحب النسوة ، أو قل خففن من السراق ، وقد نسين المراتب والرسوم وهن كسرب الطير البرى نزل به باز منذ حين فاختلط الحابل فيه بالنابل .  
عدن من هنا إلى سراق الملكة ، كي يترسلن في أسفهن ومهاترتهن ، وليس في هذا أو ذلك ما يجدى . وكانت أديث وحدها من يئنه تستخف بضروب الأمى هذه التى ألفن ، فوفقت بخدمة الملكة لا تتهد ولا تبكى ولا تنبس بكلمة لوم أو تأنيب ، وقد أبدت الملكة — لضعفها — أسفها ، في نزوات كنزوات الجنون شديدة على النفس ، وفي صيحات حارة كأنها عليه آدتها العلة ، وفي غضون ذلك كانت أديث تقوم بخدمتها بكل ما وسعت من جهد ، بل وبكل ما في نفسها من حب .

وقالت « فلوريس » إلى « كالستا » رئيسها في خدمة الملكة « محال أنها أحبت هذا الفارس ؛ إنا كنا خاطئات ؛ ما هى إلا آسفة على قضائه كما نأسف على غريب حلت به المصائب من أجلها » .

فأجابتها زميلتها ، وهى أكثر منها خبرة وأشد تأدياً « صه ، صه ؛ هى من ذلك البيت الفخور ، يت بلاتناجت ، الذى ما يقر أبنائه قط بأن الأذى يجرنهم . قد يصيب الواحد منهم جرح مميت يدى حتى الموت ، ولكنك تريته مع ذلك يضمد أخداشاً خفيفة يكابدها أقرانه من ذوى القلوب الواهنة — فلوريس ! لقد أخطأته خطأ كبيراً ؛ وإني من جانبي أود لو بذلت كل ما أملك من جواهر لو أصبحت فكاھتنا هذه كأنها لم تكن » .

## الفصل الثامن عشر

هذا أمر يطلب من الشمس والمشتري وساطة الكواكب ،  
ولكن هذين النجمين العالين  
بأعنيهما شاعتان ، وفي الخيال ساجعان ،  
وما أكثر ما يكلفنا  
حتى ينصرفا عن فلكيهما ،  
وينزلا لرعاية الأحياء .

البومازار

سار الناسك خلف النسوة من سرادق رتشارد ، يتبعهن كما يتبع الطفل شعاعاً  
من الضياء حينما تنطلق السحب على وجه الشمس ؛ ولما بلغن الباب أدار وجهه  
ورفع يده نحو الملك يحذره ، ووقف وقفة التهديد والوعيد وهو يقول : « الويل  
لمن يفبذ مشورة الكنيسة وينصرف إلى « ديوان » الكفرة الدنس ! أيها الملك  
رتشارد ، إنى لنا أنفض التراب عن قدمي وأفصل عن مقامك — والسيف لما  
يهو — وإنما هو معلق بشجرة — أيها الملك الفطريس ، سوف نلتقي ثانية »  
فرد عليه رتشارد وقال : « ليكون ذلك أيها القس الفطريس ، وأنت في جلد  
الماعز أشد صلفاً من الأمراء في لباس الكتان الأرجواني الرقيق » .  
ثم اختفى الناسك عن الفسطاط ، وأردف الملك موجها خطابه للعربي وقال :  
« هل للدراويش في الشرق أيها الطبيب الحكيم مثل هذه الألفة مع الأمراء ؟ »  
فقال ( أدنبك ) بحياء : « الدرويش إما حكيم أو مجنون ، وليست هناك  
طريق بين بين لمن يلبس « الخرقه » ويسهر الليل ويصوم النهار ، ولذا فهو إما حكيم  
يستطيع أن يتأدب ، ويحرص وهو في حضرة الأمراء ، أو رجل لا يحمل تبعه  
ما يفمل لأن الله لم يمنحه نعمة العقل » .  
فقال رتشارد : « ينجح إلى أن أكثر رهباننا قد اتخذوا لأنفسهم هذه الصفة



الأخيرة ، ولكن دعنا من هذا ولنتكلم فيما أتيت من أجله ، كيف لي أن أدخل السرور على نفسك أيها الطبيب العالم ؟ »

فامتثل الحكيم للملك امتثاله الشرق الخاشع ، وقال : « أيها الملك العظيم ، اسمح لخادمك أن ينس بكلمة واحدة لا يموت بعدها ، إني أذكرك أنك مدين للوسطاء من الكواكب — ولا أقول لي ، فما أنا إلا أداة لها خاضعة ، أفيد منها وأنفع الأحياء وأرد لهم حياة . . . . » .

فمارضه الملك قائلا : « وأنا أكفل لك أن أجزيك حياة بحياة ، فهل هذا ما تريد ؟ » .

فقال الحكيم : « هذى ضراعتي للتواضعة للملك وتشارد العظيم — هي حياة هذا الفارس الكريم ، الذي قضى عليه بالموت من أجل إثم كذلك الذي ارتكب آدم أبو البشر » .

فنبس الملك قليلا وقال : « وهلا ذكرك حكتك أيها الحكيم أن آدم قد مات من أجل خطيئته » ثم شرع ينقل الخطي في حيز فسطاطه الضيق ، وقد غلبه الانفعال وأخذ يحدث نفسه ، ثم قال : « رحماك اللهم ، لقد عرفت فم أني حينما دخل الفسطاط ! هنا حياة واحدة بائسة حكم عليها عدلا بالإعدام ، وأنا ذلك الملك المقاتل الذي قتل الألوف بأمر منه ، والمشرات بيده ، ليس لي سلطان على تلك الحياة ، مع أن شرف سلاحي وبيتي ومليكتي قد لوثنته جريمة الآثم — وحق القديس جورج إن هذا ليضحكني ! — وبحق القديس « لويس » إنه ليذكرك بقصة « بلنديل والقصر المسحور » حيث وقفت في وجه الفارس البائس أشكال وجسوم متتابعة لا شبه بين بعضها وبعض ، ولكنها جميعا تناصبه فيما أراد المداء ، ما إن اختفى واحد منها حتى بدا له آخر — زوجة ، ثم قرية ، ثم ناسك ، ثم حكيم ، — إذا ما انهزم منهم واحد تصدى للدفاع آخر — ماذا ؟ والله إني إذن لفارس أوحده ينازل حشدا بأسره في ساحة الوغى — ها ! ها ! ها ! ، ثم أخذ وتشارد يضحك ضحكات عالية ، وبدأ فملا يدل من حال نفسه حالا أخرى ،

لأنه كان في حقه عادة شديدا عنيفا بحيث لا يستطيع أن يبق كذلك طويلا .  
ولإذ ذاك رناه الطبيب بنظرة دِهشة لا تخلو من الازدراء والاستخفاف ، لأن  
أهل الشرق لا يتسامحون في مثل هذه التغيرات الثقلية في المزاج ، ويطنون  
الضحك الصراح — مهما كان الظرف — محطا بكرامة الرجل ، ولا يلبق إلا بالنساء  
والأطفال ؛ وأخيرا لما أن استقرت نفس الملك ، خاطبه الحكيم وقال :  
« إن حكم الموت لا يصدر عن شفتين ضاحكتين — وما يخال خادمك إلا  
أنك قد منحت الرجل حياته » .

فقال رثشارد : « لك أن تنال الحرية لألف أسير عوضا عنه ، ولك أن تعيد  
من شئت من بني جلدتك إلى خيامهم وأهلهم ، وسوف أمنحك هذا بغير توان ،  
ولكن حياة هذا الرجل لا تجديك شيئا ، وقد صدر فيها القضاء واتتهى الأمر »  
فقال الحكيم وقد مد يده إلى قلنسوته : « إن حياتنا جميعا إلى الضياع ،  
ولكن الإله الأعظم الذى وهبنا الحياة بنا رحيم ، وهو لا يسلبنا ودائمه عنوة  
وبغير أوان » .

فقال رثشارد : « وهل لك صالح خاص في التوسط بيني وبين إنفاذ العدالة  
التي أقسمت لها كلك على رأسه تاج ؟ » .

فقال الحكيم : « إنك أقسمت أن تقيم الرأفة كما تقيم العدل ، وإنما أنت  
أيها الملك العظيم ترمى إلى تنفيذ إرادتك الخاصة ، وتعلم أن حياة الكثير من  
الرجال تتوقف على جودك بالعفو في هذا الأمر الذى أتضرع إليك فيه » .

فقال رثشارد : « أفصح عن القول ، ولا تظن أنك سوف تفرض على إرادتك  
مياطل دعوالك » .

فقال أدنبك : « ما أبعد خادمك عن هذا ، وتعلمن إذن أن الدواء الذى  
تدين له بالشفاء أنت يا سيدى الملك وكثيرون غيرك ما هو إلا طلسم ، تألف والسماء  
في برج خاص ، ونجوم السماء ميمونة الطالع ، ولست إلا رسولا لفضائله ، أغمسه  
في قرح من الماء ، وأرقب الساعة التى تليق بالريض أن يتناوله فيها ، ثم تفعل الجرعة  
فلها بما فيها من قدرة على الشفاء » .

فقال الملك : « أندر بهذا من دواء وأجمع به ! ولا كان بوسع الطبيب أن يحمله في حقييته ، فإنه يوفر عليه قافلة بأسرها من البعير قد يحتاج إليها لحل العقاقير والأدوية — وإنى لأعجب إن كان هناك غير هذا الدواء دواء يتماطاه الناس . فأجاب الحكيم في رزاة وغير اضطراب يقول : « لقد كتب على الناس ألا يسيئوا إلى الدواب التي تحملهم من ساحة القتال ؛ ولتعلم أن أمثال هذه التماسيح يمكن حقا أن تُسطر ، ولكن قل من النطاسيين من جرؤ على الانتفاع بفضائلها ؛ إذ أن الحكيم الذى يستخدم هذا الضرب من العلاج يبنى له أن يتعرض لقيود شديدة وشروط ألوية ، وللصوم والتكفير العنيف ؛ ولو فاته أن يشفى ما لا يقل عن إثني عشر شخصا كل شهر إجمالا منه ، أو حبا للدعة والراحة ، أو لاسترساله في الشهوات الحسية ، فإن مزية هذه الهبة الإلهية تسقط عن التهمة ، ويتعرض الطبيب ومريضه الأخير كلاهما لتكد الطالع يحل بهما سريعا ، ولن يبق بعد الحول أحدهما على قيد الحياة ؛ وقد بقيت لى حياة واحدة أبلغ بها المدد المضروب » .

فقال الملك : « اذهب أيها الحكيم الكريم إلى المسكر حيث تجد هناك الكثير ، ولا تفكر فى أن تسلب جلادى أسراه ، فإنه لا يليق بطبيب له مكاتك أن يتدخل فى عمل غيره ، وفضلا عن ذلك فإنى لا أرى كيف أن إنقاذ جازم من الموت الذى يستحق يُبم لدوائك هذا المعجز قصته » .

فقال الحكيم : « إن استطعت أن ترى كيف أن جرعة من الماء البارد قد جلبت لك الشفاء حيث بابت بالفشل أنفوس العقاقير ، إذن فلك أن تفكر فى العجائب الأخرى التى تتعلق بهذا الأمر ؛ أما أنا فلست قنينا بهذا العمل العظيم ، إذ أنى لمست هذا الصباح حيوانا دنسا ، وإذن فلا توجه إلى بعد هذا سؤال ، وحسبك أن تعرف أنك إن استقيقت لهذا الرجل حياته إذعانا لرجائى ، أنقذت خادمك ونفسك أيها الملك العظيم من خطر جسيم » .

فأجاب الملك قائلا : « استمع إلى يا « أدنبك » ، إنى لا أعترض على الأطباء براوغون فى الحديث ويزعمون أنهم يستمدون من النجوم علما ، ولكنك

حينما تريد رتشارد بلا تاجنت على أن يخشى خطرا ينزل به من طيرة سقيمة ، أو لإهمال في المواصفات ، فلست تخاطب رجلا سكسونيا جاهلا ، أو امرأة عجوزا خرفة تختل عن هدفها لأن أربنا يعبر الطريق ، أو لأن غرابا أسخيم ينعب أو قطا يعض .

فقال أدنيك : « ليت بوسى أن أقف بينك وبين ريبتك فيما أقول ، ولكن ليعلم سيدى الملك أن الحق على لسان خادمه ؛ هل ترى عدلا أن تحرم الدنيا وكل بائس يعانى مما أصابك أخيرا من آلام ألزمتك الفراش ، من نفع هذه التهمة ذات الفضل العظيم ، ولا تمد عفوك إلى رجل واحد آثم بائس ؟ هل ترى يا جلالة الملك أنك — وقد استطعت أن تقتل الألوف — لا تستطيع أن ترد إلى رجل واحد صحته ؛ إن للولوك لقوة الشيطان على التعذيب ، وللحكماء قدرة الله على الشفاء ، إن كنت لا تستطيع أن تفعل الخير للإنسانية فذار أن تقف في سبيلها ؛ إنك تستطيع أن تفصل الرأس عن الجسد ، ولكنك لا تستطيع أن تعالج سنا موجهة .

وتكلف الحكيم في حديثه نفمة الترفع ، بل الإشراف والتسلط ، فشد الملك من أزر نفسه وقال : « إن هذه لقحة منك ، بل وأكثر من قحة ، لقد اتخذناك لنا طبيبا لا ناصحا ولا على الضمائر قائما . »

فقال الحكيم : « وهل هكذا يرد أعلى أمراء الفرنجة فضلا أصاب شخصه الكريم ؟ » وبذل من وقفته الخاشعة الدليلة ، التي وقف حتى ذاك متضرعا إلى الملك ، وقفته الشامخ الآمر ، ثم قال : « فلتعلم إذن أنى سوف أذيع في كل بلاط في أوروبا وآسيا — لكل مسلم ونصراني ، ولكل فارس وسيدة — وحيثما يضرب على وتر أو يُمتشق حسام — وأنى يستحب الشرف ويمقت الخزى والعار — أن الملك رتشارد وجود ضيق الفكر ، وستبلغ فضيحتك هذه كل بلد لم يسمع باسمك — إن كان هناك منها ما هو كذلك ! »

فأجاب رتشارد وقد أفضج في خطاه نحوه غاضبا وقال : « هل هذه شروط تشرطها على أيها الرجل ؟ هل كلت من حياتك ؟ »

فقال الحكيم : « دق عني ! إذن ليخسن عمك قدرك أكثر مما تستطيع كلاتي ، وإن كان لكل منها لدغ الزنبور » .

فأشاح رتشارد عنه بوجهه هائجا ، وقد أطبق ساعديه ، وعبر السراوق من جانب إلى آخر كما فعل من قبل ، ثم صاح : « ججود ضيق الفكر ؟ إذن فلتصمى بالجبن والكفر ! — أيها الحكيم ، لقد أعطيت سؤالك ، وإن كان خيرا لي أن تطلب إلى جواهر تاجي ، ليس لي كلاك أن أنكر عليك ما أردت ؟ خذ هذا الاسكتلندي إذن تحت حفظك ، وسيسلمك إياه السجان على هذه البينة » :  
ثم خط مسرعا سطرًا أو سطرين وسلمهما إلى الطبيب .

ثم قال : « واستخدمه لديك عبداً رقيقاً ، وتصرف في أمره كيفما شئت — ولكن حذره من أن يأتي تحت بصر رتشارد ؛ استمع إلي ، فأنت رجل حكيم ، إنه جاوز الجراءة بين أولئك اللاتي نودع شرفنا في جميل محياهن وضعف كلهن ، كما تودعون أنتم أهل الشرق كنوزكم في صناديق من سلوك القصة دقيقة رقيقة تكيوط الشمس » .

فاستعاد الحكيم لثوه في أسلوب خطابه ذلك الاحترام الذي بدأ به وقال : « إن خادمك يدرك كلمات مليكة . إذا تلوث البساط النفيس أشار الأحمق إلى ما يشوبه ، وستره الرجل الحكيم بعباءته ؛ لقد سمعت ما يريد مولاي ، وما سمعي إلا طاعة » .  
فقال الملك : « خير له أن يبقى على سلامته ، وألا يظهر في حضرتي بعد هذا — هل هناك أمر آخر أستطيع أن أدخل به السرور على نفسك ؟ » .  
فقال الحكيم : « والله لقد ملأ الملك بسخائه كأسى حتى حاقها . أجل لقد كان جودك غزيرا كنتك العين التي انبثقت وسط غيم بني إسرائيل حينما ضرب موسى بن عمران الحجر بعصاه » .

فقال الملك باسمًا : « أجل ولكن هذا الجود قد تطلب — كما تطلبت الصحراء — ضربة قوية فوق الصخر قبل أن يخرج ما به من كنوز ، والله لو ددت لو أني عرفت ما أسرك به ، إذن لو هبتك طائماً كما تلفظ العين الطبيعية ماءها » .

فقال الحكيم : « دعنى ألس هذه اليد الظافرة ، ليكون فى ذلك دليل على أن أدنك الحكيم ، لو طلب بعد هذا إلى رتشارد ملك انجلترا مطلباً ، فله أن يفعل ذلك على أن يتوصل ويضرع فيما يريد » .

فأجابه رتشارد قائلاً : « لك يدى وقفازها فوقها أيها الرجل ، ولكنك إن استطعت أن تتم قصة مرضاك سليمة دون أن تطلب إلى أن أنقذ من العقوبة من حققت عليه ، لدفعت إليك ديتنى فى صورة أخرى ، وأنا أشد رغبة وأكثر اختياراً » .

فأجابه الحكيم قائلاً : « مد الله فى أيامك ! » ثم خرج من الغرفة بعد ما امثّل خاضعاً خاشعاً كما ألف .

ولما هم بالرحيل ، نظر إليه الملك رتشارد نظرة لا تهم عن الرضا بكل ما فات . ثم قال : « ما أعجب هذا الحكيم فى إصراره ، وما أغرب هذه الفرصة التى ساقته كي يتدخل بين ذلك الاسكتلندى الجرىء وبين ما حق عليه من جزاء هو الحق ، ولكن ليعش هذا الرجل ! فإنه شجاع يستحق الحياة — والآن ما بال ذلك النمساوى — ها ! هل بارون جزلاند خارج الفسطاط ؟ » .

وما إن صاح الملك هكذا بتوماس دى فو ، حتى هرول وأظلم مدخل السرادق بجسمه الضخم ، ووراءه ناسك عين جدة بصورته الوحشية ، متلفعاً فى عباءة من جلد اللاعن ، يتسلل كأنه طيف من الأطياف ، لم يدعه للمثول أحد ولم يمارضه أحد . ولم يلحظ رتشارد وجوده ، فصاح بالبارون فى صوت مرتفع وقال : « أى سر توماس دى فو صاحب ( لانركست ) و ( جزلاند ) ، أحجب معك البوق والمنادى ، واذهب توا إلى خيمة ذلك الذى يسمونه أرشودوق النمسا ، وارتقب حتى يكون احتشاد فرسانه وأتباعه حواليه على أشده — وهو ما سيكون ، على ظنى ، فى هذه الساعة ، لأن هذا الخنزير الألمانى يتناول طعام الإفطار قبل الصلاة — وامثل لديه بقليل من الاحترام بقدر ما تستطيع ، وأتهمه باسم رتشارد ملك انجلترا بأنه قد اختطف هذا النساء بيده ، أو بيد غيره ، راية انجلترا من فوق عصاها ، ثم

قل له إنا نريد — قبل أن تنقضى ساعة بعد هذه اللحظة التي أحدثك فيها — أن يعيد الراهبة بكل احترام ، وأن يميدها بنفسه مصحوباً بكبار الأحرار المحيطين به برؤوس غارية وبغير ثياب الشرف ؛ وأنه فوق ذلك ينبغي أن يضرب إلى جوار رايتنا من ناحية رايتته — راية النمسا — مقلوبة ، كأنها أشينت بالسرقة والخيانة المظلمة ، وأن يضرب من الناحية الأخرى ربحاً يحمل رأس ذلك الرجل اللعين الذي نصح له بهذه الإساءة الدينية ، وقل له إنه إن قام بإفناذ إرادتنا هذه في حينها ، فسوف نغفو عن خطاياهم الأخرى ، حفظاً لليمين التي أقسمنا ، ومراعاة لخير الأرض المقدسة .

فقال توماس دى فو : « وماذا لو أن دوق النمسا أنكر كل صلة له بهذا العمل السيء الأثيم » .

فأجاب الملك قائلاً : « إذن فقل له إنا سوف نثبتته على جثمانه — أى والله ، حتى ولئن كان بطلاء الجريشان بنصرته ؛ إنا سوف نثبت عليه هذا ونحن كالفرسان على ظهور الخيل ، أو ونحن راجلين ، في الفلاة أو في الميدان ، وله أن يختار الزمان والمكان والسلاح كما يريد » .

فقال بارون جزلاند : « فكر يا مولاي في سلامة الله والكنيسة ، وفي أولئك الأحرار المشتغلين بالحرب الصليبية المقدسة » .

فأجابه رتشارد وقد نفذ منه الصبر : « فكر أنت يا مولاي الكريم كيف تصدع بأمرى ، والله إنى لأخال الرجال يظنون أنهم سوف يصرفوننا عن مرمانا بأنفسهم ، كما تنفخ الأطفال الریش فتطوح به هنا وهناك — سلامة الكنيسة — بربك قل لى من ذا الذى يعى لها حرمة ؟ ، إن سلامة الكنيسة بين الصليبيين معناها محاربة العرب ، وقد هادنهم الأحرار ، وفي هدنتهم قضاء على سلامة الكنيسة ، وفضلاً عن ذلك هلا ترى كيف أن كل أمير منهم يرى إلى غرضه الخاص ؟ فسوف أقصد أنا كذلك إلى مرماى ، وما ذاك إلا الاحتفاظ بشرقى ؛ وما أتيت إلى هنا إلا من أجل الشرف ، فإن لم أنهل على حساب الأعراب ، فلا أقل من ألا أضيع

ذرة منه من أجل هذا الدوق الخسيس ، حتى وإن تحصن واحتنى بكل أمير في الحرب الصليبية .

فهم دى فو بالانصراف إذعانا لأمر مليكه ، ولكنه هز بكتفيه ، إذ أنه — لصراحة طبعه — لم يستطع أن يخفى أن مشيئة الملك لا تتفق وما يرى ؛ ولكن ناسك عين جدة تقدم إلى الأمام ووقف وقفة رجل يحس بعلو مرتبته على مراتب الملوك ؛ وحقا لقد كان بزيه الخشن الجلدى ، ولحيته وشعره الأشعث غير المشذب ، وملاحه الهزيلة الوحشية الموحجة ، وتلك النار التي توشك أن تكون نار الجنون تشع من تحت حاجبيه الكثين ، كان بكل هذا أشبه ما يكون بالصورة التي ترسم في أذهاننا عن هيئة نبي من أنبياء الكتاب المقدس ، وقد كُلف برسالة عالية يسلتها ملوك (يهوذا) أو بنى إسرائيل الآثمين ، فهبط من ثنابا الصخور وظلام الكهوف التي كان يقطنها منعزلا فريدا ، كي يخزى الظالمين فوق الأرض وهم في معيمان كبريائهم ، وذلك بأن ينزل بهم من رب السماء سخطه وتقمته ، كما يرسل من السحاب الصواعق يسوقها وينزلها فوق الحصون والقصور ، قمها وبروجها . وكان رتشارد مهما — اشتد عناده وصلابته — يحترم الكنيسة ورجالها ، ولئن ساء دخول الناسك مرادفه فلقد حياه — رغم ذلك — باحترام وإجلال ، ولكنه أشار إلى سر توماس دى فو في ذات الوقت أن يسارع برسائله .

ولكن الناسك ، بالإشارات والنظرات والكلمات ، منع البارون من أن يسير في رسالته هذه ذراعا واحدة ، ورفع ساعده المارية — وقد سقطت عنها عباءة جلد الماعز — وانطرحت إلى الخلف من عنف حركته — وهزها إلى أعلى ، وهي من قلة الغذاء نحيلة ، ومن أثر السياط في تكفيره الشديد جريحة . ثم قال :

« باسم الله وأبينا الذى يتقدس فى السماء ، وباسم خليفة الكنيسة المسيحية فى الأرض ، أنا أنهى عن هذا التحدى الدموى الوحشى الدنس بين أميرين مسيحيين ، ترسم على كتفهما العلامة التي أقسمتا تحتها ليحافظان على الإخاء . الويل لمن يحث فى هذى الميادين أى رتشارد ملك انجلترا ، ارجع عن هذه الرسالة التي



حملها هذا البارون ، فإنها حرام ما بعده حرام — إن الخطر والموت على كذب منك — والتنجس مصوب نحو حلقك — ! » .

فأجاب الملك شامخاً بأنفه وقال : « الخطر والموت زميلان يلعب معهما رتشارد ، وكم من ضربة سيف لم يكرث لها ، فهو لا يخشى بعد هذا الخناجر » .  
فقال الكاهن بحسب : « الخطر والموت منك قريان » ، ثم انخفضت نفثات صوته ، وأصبحت جوفاء كأنها من غير هذه الدنيا وقال : « وبعد الموت الحساب ! » .  
فقال رتشارد : « أيها الأب الصالح المقدس ، إنى أجل شخصك وطهارتك — » .

فما رضى الناسك وقال : « لا تجلنى ، وإنما أجل من قبل أدنى حشرة ترحف على شطآن البحر الميت وتطمع على مَدَرها الكريه ، وأجل ذلك الذى أبلغك أمره — أجل ذلك الذى أقسمت لتنفذن قبره — وأجل يمين التضامن التى أقسمت ، ولا تقطن خيط الوحدة والإخلاص الذى ربطت نفسك به مع زملائك الأحرار » .

فقال الملك : « أيها الأب الصالح ، إنما أنتم رجال الكنيسة تزعمون لأشخاصكم المقدسة — إن جاز لرجل علمانى أن يقول بهذا — شيئاً من الكرامة ، وإنى — دون أن أنازعكم حقكم فى السيطرة على ضمائرنا — أرى أنه يجدر بكم أن تتركونا نسهر على شرفنا » .

فكرر الناسك لفظ الملك وقال : « نزعم لأنفسنا ! ليس لى أيها الملك رتشارد أن أزعم ، وما أنا إلا جرس مطواع فى يد خادم الكنيسة — ما أنا إلا بوق لا يحس ولا قيمة له ، يبلغ صوت ذلك الذى ينفخ فيه ؛ انظر إلى ، هاأنذا آخر أمامك على ركبتى متضرعاً إليك أن ترأف بالعالم السيعى وبانجلترا وبنفسك ! » .  
فقال له رتشارد وقد أكرهه على الوقوف : « انهض من مكانك ، انهض . لا يليق بركبتك اللتين جثوت عليهما لله كثيراً أن يحسا الأرض إجلالاً لإنسان من البشر . أى خطر ذلك الذى يرتقبنا أيها الأب المبجل ؟ ومتى كانت قوة

مجلتراً بهذه التلة بحيث تنزعج ، أو يأبه ملكها ، لهذا الشغب الصاخب يشيره غضب  
هذا الدوق المُحدث ؟ » .

« لقد أرسلت النظر من برجى فوق الجبل إلى جيوش النجوم فى السماء ،  
كل واحد منها ينبس بالحكمة للآخر وهو يدور دورته فى منتصف الليل ، وينطق  
العلم للقليل من بنى الإنسان الذين يدركون أصوات النجوم . مولاى الملك ، إن  
ن (منزل الحياة) عدوا لك يتربص بذكرك ورفاهيتك — وينبث من زحل  
بذير يهددك بالخطر العاجل الدامى ، وإن لم تسلم جبروت إرادتك لحكم الواجب  
فسيسحقك مريما ، وأنت فى هنفوان كبرك وصلفك » .

فقال الملك : « عنى ، عنى ، إن هذا إلا علم المشركين ، علم لا يمارسه  
المسيحيون ولا يصدق به الحكماء — وإنما أنت أيها الرجل الهرم تهرف  
وتقول هراء » .

فأجاب الناسك قائلاً : « أنا لا أهرف يارتشارد ، ولست بالرجل السعيد ،  
وإنما أنا أعرف حالى ، وأعرف أنى ما فتى نلى شعاع من نور العقل أستخذه  
لا لنفى ، وإنما لصالح الكنيسة ورفع الصليب . أنا ذلك الرجل الأعمى الذى يحمل  
النور لغيره ولا يستضيء به ؛ سلى عما يتعلق بخير العالم المسيحى والحرب الصليبية  
أحدثك كأحكم ناصح ما فارقت لسانه قط الهداية والإرشاد ، وحدثنى عن حياتى  
التمسة تجد كلمائى كلمات الممتوه المنبوذ ، وما أنا إلا كذلك » .

فقال رتشارد وقد خفض من نفم كلامه وأسلوب حديثه : « لن أفصم عرى  
الوحدة بين الأمراء الصليبيين ، ولكن أية مئذنة يقدمون لى للظلم والإهانة  
التي عانيت ؟ » .

« وفى ذلك أنا على أهبة أن أتحديث إليك ، وقد فوضنى فى هذا الشأن المجمع ،  
بعد أن التأم على عجل — بدعوة من فيليب ملك فرنسا — وأصدر فى هذا الأمر قراره » .  
فأجاب رتشارد : « عجيب أن يتشاور الآخرون فى أمر هو من حق جلالة  
المجلتراً الجبرية ؛ » .

وأجاب الناسك بقوله : « هم يريدون أن يتعرفوا مطالبك إن أمكن هذا ، وهم جميعا متفقون على أن راية أنجلترا ينبغي أن ترد إلى جبل سنت جورج ، ويحبون أن يحكموا بالإدانة والحرمان على ذلك الآثم الجريء — أو أولئك الآثمين الجسورين — الذين انتهكوا حرمتها ، وسيعلمون عن ثواب جزيل لمن يفضح جرم الآثم ، ثم يقدمون لحمه طعاما للذئاب والقربان » .

فقال رتشارد : « وما رأى في دوق النمسا الذى تلابسنا أقوى الظنون بأنه هو الذى فعل ذلك الصنيع ؟ » .

فرد عليه الناسك قائلا : « إن دوق النمسا سوف يخضع لما يفرض عليه بطريق بيت القدس من محن ، كي يزيل ما يحيط به من الظن والريبة ، وذلك كي لا ينشب في صفوف الجيش خلاف » .

فقال الملك رتشارد : « وهل بالزوال يرى نفسه ؟ » .

فأجاب الناسك : « إن اليمين التى أقسمَ تحرم عليه ذلك ، وفضلا عن هذا فإن جميع الأمراء ... » .

فعارضه رتشارد وقال : « إن مجمع الأمراء لا يبيع قتال الأعراة ولا قتال أحد من غير الأعراة ؛ حسبك هذا أيها الأب ، لقد أبنت لى عن الخطأ في متابعة هذا الأمر كما رسمت من قبل . والله لأقرب إليك أن توقد في حماة الأمطار مشعلك من أن تستخرج من هذا الجبان ذى الدم البارد شرارة من نار ؛ إن النمسا لن تنال شرفا ، ولدا فلندعه وشأنه — ولكنى — مع ذلك — سوف أجعله يحث في يمينه ، وسوف ألح في امتحانه — والله لسوف يضحكى أن أستمع إلى أصابعه تطلق حينما يقبض على كرة الحديد المصهورة ! — أى نعم وسوف يضحكى أن أرى فيه الكبير يتشقق ، وحلقه ينفث من الاختناق وهو يحاول أن يتلع الخبز المقدس ! » (١) .

---

(١) كانوا في العصور الوسطى يرضون التهم لهذه المحن وأشباهاها ، فإن أصابعه بسوء فهو آثم ، وإن نجا منها سليما فهو برى .

فقال الناسك : « مهلا ، مهلا يارتشارد ، هدى نائرة نفسك خجلا إن لم يكن إحسانا ! من ذا الذى يمدح أو يكيل الشرف للأمرء الذين يسبون ويثلبون بعضهم بعضاً ؟ وأأسفاه على خلوق نبيل مثلك ، شب على خواطر الملوك وجسارتهم ، وخلق به أن يشرف العالم المسيحى بعمله ، وأن يحكمه بحكمته ، وهو أهدأ منك الآن مزاجا . وأأسفاه على رجل مثلك يصديه غضب الأسد الممجى المتوحش ، ممزوجا بالوقار والإقدام وهما من صفات ملك الغاب ! » .

ولبت لحظة يتدبر ويتأمل وعيناه صوب الأرض ، ثم استأنف حديثه وقال : « ولكن الله الذى يعرف عجز طبائنا ، يتقبل منا طاعتنا على تقصصها ، وقد استأخر نهاية حياتك الجريئة الدامية ، ولكنه لم يعدل عنها . لقد وقف ملك الموت ساكنا — كما وقف فى قديم الزمان إلى جوار المكان الذى كان يدق فيه (أرونا جيبوست) الحنطة — ويده ظباة مجردة ، سوف يكون بها عما قريب رتشارد قلب الأسد وضيقاً كأحط فلاح من المزارعين » .

فقال رتشارد : « وهل نهائى هكنا قرية جدا ! إذن ليكن ذلك . اللهم إن كانت حياتى قصيرة فلا تجعلها مضبئة مستنيرة » .

فقال الرجل صاحب الخلوة ، وكأن دمة — وهى له زائر غير معهود — كانت تتجمع فى عينه البراقة الجافة : « وأأسفاه أيها الملك النبيل ! إن المدى الذى يفصل ما بينك وبين القبر مظلم ، عليه سمات الفناء والتكبة والأسر ، والقبر فاغرقاه ليتملك ، وهو قبر سوف تُوارى فيه دون أن يعقبك خلف ، أو يذرف عليك شباك الدمع رثاء عليك ، وقد أنهكتهم بحروب موصولة غير مقطوعة ، ولم تعد فى علم رعبتك أو تفعل شيئاً يزيد من سعادتها » .

« ولكن حياتى لم تخل من بعض الصيت أيها الراهب ، ولم تحرم دمعات المرأة التى أحب ! وإن فى هذا لعزاء لرتشارد حتى مماته ، عزاء لا تستطيع أنت أن تعرفه أو تدركه » .

فأجاب الناسك فى نبرة كان لها — مدى برهة من الزمن — رنين أشبه ما يكون

بنبرة رتشارد نفسه وحجته ، وقال : « أنا لا أعرف ذلك ، ولا أستطيع أن أدرك قيمة ما يتحدثك به الشعراء ، وما لحب غادتك من قدر ! » ثم واصل حديثه وقد مد ذراعه الهزيلة وقال : « أى ملك أنجلترا ، إن الدم الذى ينلى فى عروقتك الزرقاء ليس أشد نبلا من ذلك الذى يركد فى عروق ، ولئن كانت قطرات دى قليلة ففى من دم (الوزجنان) الملوكى — هى من دم (جدفري) البطل المقدس . أنا (ألبريك مرثمار) — أو لقد كان هذا اسمى حينما كنت فى هذه الدنيا » .

فقال رتشارد : « أنت ذلك الرجل الذى تمشدق بذكره الأبواق ! أفهذا صحيح ؟ وهل يجوز ذلك ؟ هل يمكن لضوء كضوءك أن يهبط من أفق الفروسية ، ويبقى — مع ذلك — الناس وهم بالمكان الذى استقر فيه هذا الضياء جاهلون ؟ » .

فقال الناسك : « لئن بحثت عن نجم إذا هوى ، ما وجدت إلا سديما قائما كانت له — وهو يشق الأفق — صورة زاهية بهية برهة من الزمن . أى رتشارد ، تأله لو كنتُ بتمزيق الحجاب الدامى ، الذى أستر به سرا مغزا أستطيع أن أطأ طي قلبك الشامخ لنظام الكنيسة ، إذن لألفيتُ فى صدرى قصة أقصها عليك ، وقد أبقيتها حتى الآن تقرض فى عروق الحياة فى الخفاء ، وأنا كالشباب الوثنى الذى كرس لدينه قلبه . اصغ إلى إذن يارتشارد ، جمل الله للأسى واليأس — وهما لن يجديانى شيئا — من القوة ما يحملها مثلا لكائن مثلك ، كائن هو رغم توحشه نبيل شريف ؟ نعم ، لأكشف عن جراح لبنت فى الخفاء أمدا طويلا ، لأكشف عنها رغم أنها ربما تدمى حتى أموت وأنا فى حضرتك ! » .

ثم أخذ الملك رتشارد يستمع — وكله احترام — إلى موجز قصة فيها ما يكفى للإبانة عن سبب شبه الجنون الذى أصاب ذلك الإنسان الفريد البائس ؛ وقد كان لتاريخ (البريك مورثمار) على رتشارد فيما مضى أثر قوى فى سنيته الباكرة ، حينما كان المنشدون يملأون قاعات أبيه طربا وسرورا بما يروون من قصص عن الأرض المقدسة .

وقال الناسك : « لستُ بحاجة إلى أن أخبرك بأنى كنت كريم المولد ، سعيد الطالع ، قوى السلاح ، حكيم المشورة ، فلقد كنت كذلك ، ولكن بينما كان أنبل السيدات فى فلسطين يتسابقن : أمهن تضرع الأكاليل لرأسى ، كان حبي معقوداً بفتاة من مرتبة وضيفة انمقداً لا يحول ولا يلين ، هى فتاة أبوها جندي قديم من جنود الصليب ، رأى ما بين قلبينا من عاطفة ، وعرف ما بيننا من فرق ؛ فلم ير لشرف ابنته ملاذاً غير أن يسوقها إلى ظل الدير . ولما عدت من حلة بعيدة محملاً بفنائم الشرف ، ألفت سعادتي وقد تهدمت إلى أبد الآبدين ! . ققصدت أنا كذلك إلى الدير ، ونفخ الشيطان فى قلبي — وكان بطنى من أتباعه — نفساً من من روح الكبرياء ، وما إخاله إلا منبعثاً من أعماق جحيمه ، وارتفعتُ إلى مرتبة عالية فى الكنيسة ، كما ارتفعت فى الدولة من قبل — ولقد كنت حقاً رجلاً حكماً مستقلاً منزهاً عن الخطأ ! — وأنسى لى أن أخشى الإغراء ؟ ياويلتى ! لقد بت ممرّاً<sup>(١)</sup> للراهبات ، وبين هاتيك الراهبات ألفت تلك التى أحببت طويلاً ، وفقدت من زمن بعيد . برك إلا أغنيتنى عن الاعتراف بأكثر من هذا ! — إن راهبة ساقطة كفرت عن إثمها بالانتحار رقد هادئة فى لحدها فى عين جدة ، وفوق قبرها يتمم ويئن ويزأر مخلوق لم يبق له من العقل إلا ما يكفى لأن يجعله يحس بشقائه كل الإحساس ! » .

فقال رتشارد : « أتمس بك من رجل ! إني لن أعجب لبؤسك بعد هذا ؛ قل لى كيف خلصت من الحكم الذى يقضى به الشرع فى مثل جرمك هذا ؟ » . فقال الناسك : « سل فى هذا رجلاً ما برح شغوفا بهذه الدنيا المريعة يحدثك عن حياة بقيت لأسباب خاصة ولا اعتبار بالنسب الكريم ، ولكن إن سألتنى أنا يا رتشارد أقل لك إن العناية الإلهية قد أبقتنى كى ترفعنى إلى العلا مناراً وهدى ، وبعد ما يحترق منى هذا الوقود الدنيوى تتبدد رفاقي فى النار . هذا الجسد الذى تراه ذوايا ضامراً يسرى فيه روحان ، أحدهما فعال تأخذ يدفع عن قضية

(١) للمرثف هو النفس الذى يعترف له السحيون بخطاياهم .

الكنيسة في بيت المقدس ، والآخر وضع حقير بائس ، يتذبذب بين الجنون والبؤس ، يبكي شقائى ويسهر على الآثار المقدسة ، والآثار التى إن أنا رفقها بمعنى كنت آثماً جارماً . بربك لا تشفق على ! إن هو إلا إثم إن تشفق على ضياع شيء دنى كهذا — لا تشفق على وأفد من مثالى . أنت تقف فوق أعلى قمة يشغلها أمير مسيحي ، ولذا أنت فى أشد المواقف خطراً . أنت متكبر فى نفسك ، متهاون فى حياتك ، دام فى يدك ، أبعد عنك الذنوب التى هى منك بمثابة البنية ؛ أنف من صدرك هذا النضب وذلك الكبرياء والترف والتمطش للدماء ، مهما تكن هذه المواقف عزيزة على الإنسان الآثم فيك ! » .

فتحول رشارد يبصره عن هذا الرجل الناسك ، والتفت إلى دى فو ، كأنه أحس ببعض الألم من هذا التهمك الذى لم يستطع له رداً ، وقال : « إنه يهذى » . ثم التفت إلى الناسك فى سكينة وهدوء ، وفى شيء من الازدراء والاستخفاف ، وقال : « إنك قد وجدت أيها الأب البجل سرباً من حسان البنات <sup>(١)</sup> لرجل لم يتزوج إلا منذ أشهر قلائل ، ولما كان من واجبي أن أبدهن عن ظل بيتي ، فقد زودتهن بأزواج يليقون بهن ، كما يفعل الآباء بيناتهم ، فتخلت عن كبريائى لشرف الكنيسة الكريم ، وعن ترفى — كما تقول — لرهبان الدير ، وعن تمطشى للدماء لفرسان المعبد » .

فأجابه الناسك وقال : « إن لك لقلبا من الصلب ، ويداً من الحديد ، لا يجديهما نصيح أو مثال ! — ومع ذلك فلسوف نمطيك فرصة من الزمن ، ربما تحولت بعدها وفلت ما يرضى الله فى سمائه — أما أنا فينبئنى لى أن أعود إلى مكاني — رحماك اللهم ! أنا ذلك الرجل الذى تحترقه أشعة الرحمة الإلهية — كما تحترق أشعة الشمس المدسة الحارقة ، ثم تتجمع فوق جسوم أخرى تقتشم الجسوم وتلتهم ، بينما تبقى المدسة باردة ما بها أثر — رحماك اللهم لقد نبذ الفنى المأذبة ، فللفقير أن يتقدم — رحماك اللهم ! » .

(١) مشيراً إلى التهم التى وجهها إليه الناسك .

ولم يكذب حديثه حتى انطلق من السراق يصيح صياحا عاليا ؛ وهذه الصيحات الجنونية من الناسك محت من ذهن رتشارد شيئا من الأثر الذي تركه تفصيل ما ضيه وأرزائه الخاصة ، فقال الملك : « تالله إنه لقس معتوه ! اتبعه يا دى قو ، وراقبه كي لا يصيبه أذى ، لأننا وإن كنا صليين ، إلا أن المشعوذين سوقتنا تقدير فوق تقدير القس أو القديس ، وربما ألحقت به السوقة بعض المهانة . » فصدع الفارس بالأمر ، وأفسح رتشارد لثوه في المجال للخواطير التي أوحث بها نبوءة الراهب الساذجة ، فقال محدثا نفسه : « هل أموت عاجلا ولا يخلفني من بعدى ولد ، ولا يبكي على بالك ؟ » . أثقل به من حكم ، والحمد لله على أنه حكم لم يصدر عن قاض كفاء قدير ؛ ومع ذلك فالأعراب ، الذين بلغوا الذروة في علم الروح ، كثيرا ما يقولون إن الله — الذي ليست حكمة الحكماء في تقديره إلا حقا وجهلا — يوحى بالحكمة والكهانة في ثنايا الخبل البادى على المعتمدين من الرجال . إن ذلك الناسك يقال عنه كذلك إنه يقرأ النجوم ، وهو فن كثيرا ما يُمارس في هذه البلاد التي كانت فيها جيوش السماء من قديم الزمان موضع العبادة . وددت والله لو أني سألت في شأن ضياع راييتي فليس (تَشْبِيَتْ) المبارك ذاته مؤسس مذهبه بأكثر منه صراحة وسذاجة ، أو يتكلم مثله بلسان أشبه ما يكون بلسان نبى — والآن ما ذا رأيت يا دى قو ، وما خبر هذا القس المعتوه ؟ » .

فأجابه دى قو قائلا : « هل تقول عنه يا مولاي إنه قس معتوه ؟ والله إنى لا إخاله أشبه ما يكون (بالمعدان) نفسه حينما خرج من الفقر مباشرة ، لقد اعتلى آلة من الآلات الحربية ، وأخذ من فوقها يعض الجند موعظة لم ينطق بها منذ بطرس الناسك إنسان ، وقد دُعر المسكر من صياحه ، فجمع الخلق حوله ألوفا ألوفا ، وهو بين الحين والآخر يحيد عن مجرى حديثه الأول ، ويخاطب الشعوب العديدة كلا بلسانه ، ويرمهم بأحسن ما يستفهم من برهانه كي يثابروا على تخليص فلسطين » .

فقال الملك رتشارد : « وحق هذا النور إنه لناسك نبيل ! ماذا عسى أن



يصدر من دم (جدفري) غير ذلك ؟ هل هو من السلامة يائس لأنه عاش بالحب في سالف أيامه ؟ لأُظلم إلى البابا أن يبعث إليه بالفقرة الكاملة ، ولن أكون أنا نفسي أقل رغبة في أن أتوسط له ، حتى وإن كانت معشوقته الحسناء من الراهبات » .

وإذ هو يتحدث كذلك إذا بأسقف صور يلتمس الثول لديه ، كي يرجوه أن يحضر — إن سمحت له صحته — جلسة سرية سوف يعقدها زعماء الصليبيين ، لكي يشرح له الحوادث الحربية والسياسية التي وقعت إبان مرضه .

## الفصل التاسع عشر

لأذن فلنقدم سيوفنا ولما نزل ظافرة ،  
ولترجع إلى الوراء بخطانا بعد أن سرنا بها قدما ،  
ووطأنا بها طريق المجد صعدا ،  
فوق رقاب الجصوم .  
ولننزع من فوق أكتافنا زرد الحديد ،  
وقد أقسمنا أغلظ الأيمان في بيت الله لنحملنه ،  
عيننا لم توق ،  
كوعد الحاضنات لأطفالهن في القرى ،  
يهدتهن به حيننا ،  
ثم من بعد لا يذكرن .  
من مأساة « الحروب الصليبية » .

كان أسقف صور خير رسول لإبلاغ رتشارد نبأ لو سمعه الملك قلب الأسد  
من رجل آخر ما أطلق سمعه دون أن ينفجر غاضبا انفجارا لا حده ، وحتى هذا  
الأسقف الحكيم الجليل لم يكن باليسير عليه أن يغري الملك بالإصغاء إلى ذلك  
النبأ الذي هدم كل آماله في استرداد القبر المقدس بقوة السلاح ، والفوز بتلك  
الشهرة التي كان صوت العالم المسيحي قاطبة يتأهب لنحبه إياها كبطل الصليب .  
ولكن إبلاغ الأسقف كان يتبين منه أن صلاح الدين كان يجمع قوى قبائله  
للمائة جميعا ، وأن ملوك أوروبا — وقد كانوا من قبل لكثير من بواعث هذه  
الحملة كارهين ، هذه الحملة التي دلت الأيام على أنها مغامرة شديدة ، والتي كان  
خطرها يتفاقم يوما بعد يوم — قد اعتزموا أن يتنحوا عن مقصدهم ، وشد من  
أزهم فيما قصدوا إليه ممثل فيليب ملك فرنسا ، الذي أعرب عن عزمه على العودة  
إلى أوروبا ، بعدما قدم البرهان على احترامه لأخيه ملك إنجلترا ، وأكد أنه سوف  
يضمن على سلامته قبل الرحيل ؛ وبات على مثل هذا العزم تابعه الأكبر أمير  
شبهانيا ، وليس عجيبا أن يرحب ليوبولد أمير النمسا — وقد ألحق به رتشارد القلة

والإهانة — بفرصة تمهده له هجران هذه الحرب التي كان يُمدّ خصمه المتصلف لها زعياً ؛ وأعلن الآخرون مثل هذه النية ، حتى بات جلياً أن ملك إنجلترا إن أحب البقاء فسيخلونه ، ولا معين له غير أولئك المتطوعين الذين قد ينضمون إلى الجيش الإنجليزي في مثل هذه الظروف السيئة ، وغير معونة غير أكيدة يقدمها كثراد منتسرا والجنود من رجال المبد ورجال القديس يوحنا ، وهؤلاء جميعا — رغم أنهم قد أقسموا ليشهرن حرباً على الأعراب — كانوا على الأقل لا يقولون عن سواهم غيرة من أى ملك أوروبى تم له الثلبة على فلسطين ، حيث كانوا ، من قصر النظر ومن سياسة تقوم على حب الذات ، يطمعون في إنشاء ولايات مستقلة لهم .

ولم يحتاج الأسقف إلى نقاش طويل كي يبين لرتشارد حقيقة موقفه ، وبمدا انفجر الملك ثاراً غاضباً أول الأمر — استوى على مقدمه هادئاً ساكناً ؛ وبنظرات كثيفة ورأس مطأطئ ، وذراعه على صدره منطبقتان ، أخذ يصنى للحجج التي أدلى له بها الأسقف على استحالة مواصلة الحرب الصليبية بعد تحلى أفرانه عنه ، بل لقد أمسك الملك عن اعتراض الأسقف ، حتى حيناً بلغت بهذا الرجل الجراءة على أن يلعب في عبارة مترنة إلى أن اندفاع رتشارد كان من الأسباب القوية التي بشفت الأمرء في الحلة .

فنظر رتشارد نظرة كثيفة ، وابتسم ابتسامة حزينة ، وأجاب قائلاً : « إني أقرّ أيها الأب الوقور ، بأنه ينبغي لى في بعض الظروف أن (أعترف بخطئى) ، ولكن أليس شديداً علىّ أن ألقى على ضف جيلتى مثل هذا الجزاء ، وأن يقضى علىّ ، لثورة أو ثورتين انفجرت بهما لافعال طبعى في نفسى ، بأن أرى مثل هذه الثمار النفيسة ، ثمار المجد لله والشرف للفروسية ، تبدد قبل أن تتجمع ؟ — ولكنها سوف لا تبدد — أقسمت بروح المنتصر الجبار لأرفعن الصليب فوق بروج بيت المقدس أو ليُرفعن فوق قبر رتشارد ! »

فقال الأسقف : « لك أن تفعل هذا ، ولكن لن تراق بعد اليوم في هذا الصراع قطرة واحدة من دماء المسيحيين » .

فقال رتشارد : « إنك يا سيدى الأسقف تتحدث عن الصلح — ولكن دماء الكلاب المناققين يبنى كذلك أن تتوقف عن السريان والتدفق » .

فأجاب الأسقف قائلاً : « حسبنا نخاف أن نستخلص من صلاح الدين بقوة السلاح ، وبما يوحيه ذكرك من تقدير ، شروطاً نسترد بمقتضاها القبر المقدس توا ، ونفتح للحجاج الأرض المقدسة ، ونضمن لهم سلامتهم بقوى الحصون ، وفوق هذا وذاك نؤكد سلامة المدينة المقدسة بأن يمنح رتشارد لقب ملك بيت المقدس وحاميه » .

فتطير الشرر من عيني رتشارد بدرجة غير مألوفة وقال : « كيف هذا أنا أنا — أنا أكون ملك المدينة المقدسة وحاميا ! إن هذا إلا النصر عينه ، ولن نكسب بالظفر في القتال أكثر من هذا ، بل وقل أن تبلغ هذا بقوانا المشتتة التي لا إرادة لها . ولكن صلاح الدين ما برحت له مآرب يرى إلى الاحتفاظ بها في الأرض المقدسة ، أليس كذلك ؟ » .

فأجاب الأسقف : « إنما يحتفظ بها كملك شريك وحليف ، أقسم ليخلصن لرتشارد العظيم — وإن شئت فقل لصهره بصلة الزواج » .

فدهش لهذا الخبر رتشارد دهشة أقل مما كان يتوقع الأسقف وقال : « بصلة الزواج ! ها — أى نعم ، أنت تعنى أدب بلا تاجت ، هل نما إلى هذا في حلم من الأحلام ؟ أم هل نبأني به إنسان ؟ والله إن عقلى ما يزال من أثر الحى مضطرباً ثائراً ضعيفاً — ترى من ألمع لي بهذه الصفقة الهمجية ؟ ألا سكتلندى ، أم الحكيم ، أم ذلك الناسك المقدس ؟ »

فقال الأسقف : « الراجع أنه ناسك عيف جده ، لأنه جاهد في هذا الأمر كثيراً ، ومذ تبين له تبرم الأمراء ، وأن تشتت قواهم أمر لا مناص منه ، أكثر من الاجتماع بالمسيحيين والمسلمين للتشاور معهم ، كي يمهدهذا الصلح الذى يحقق للعالم المسيحي جانباً على الأقل من أغراض هذه الحرب المقدسة » .

فتطايّر الشرر من عيني رتشارد وصاح عاجيا : « امرأة من دى لرجل مسلم  
— ها ! »

فسارع الأسقف إلى صرفه عن غضبه وقال :  
« لا ريب أنه ينبغي لنا أن نحصل أول الأمر على رضا البابا ، وسوف يفاوض  
أبانا المقدس في هذا ذلك الناسكُ القديس المعروف في روما . »  
فقال الملك : « كيف يكون هذا قبل أن يصدر منا الرضا والقبول ؟ »  
فقال الأسقف وفي صوته نعمة الهدنة والإيماء : « كلا لن يكون ذلك إلا  
بتصديق خاص منك . »

فقال رتشارد : « تريدون رضاي عن زواج فتاة من دى لرجل من المنافقين ؟ »  
ولكنه كان يتكلم بنعمة تلمس فيها الشك أكثر مما تلمس اللائمة الصريحة على  
هذا المقترح ، ثم قال : « والله ما حلت بمثل هذا التآلف حينما وثبت من مقدم  
سفيني ووطأت أرض سوريا كما يثب الليث لغريسته ! والآن — ولكن دعني  
من هذا ، وواصل حديثك فسوف أستمع إليك صابرا . »  
وقد سرّ الأسقف حين أُلّي مقصده من الملك أشد يسرا مما كان يخشى ،  
فبادر إلى عرض الأمثلة لرتشارد من أشباه هذا التحالف في أسبانيا مما لم يتم بغير  
رضا السدة البابوية ، وإلى سرد المزايا العديدة التي سوف يظفر بها العالم المسيحي  
من توثيق العرى بين رتشارد وصلاح الدين برباطه كل هذه القداسة ؛ وفضلا  
عن ذلك كان الأسقف يتكلم بحماسة شديدة وروح ديني عن احتمال اعتناق  
صلاح الدين للمسيحية لو تم هذا الحلف المقترح .

فقال رتشارد : « وهل أبدى السلطان ميلا إلى اعتناق المسيحية ؟ إن كان  
هذا كذلك ، فليس على وجه الأرض ملك أمنحه يد قريتي ، بل أختي ، قبل أن  
أقدسها لصاحبي صلاح الدين النبيل — أي والله ، حتى وإن جاء الأول يقدم التاج  
والصولجان تحت قدميها ، وجاء صلاح الدين خالي الوفاض لا يملك غير سيفه الكريم  
وقلبه الطيب ! » .

فقال الأسقف مراوغاً بمض المراوغة : « لقد استمع صلاح الدين إلى معلينا المسيحيين ، وأصنى إلى شخصي الضعيف كما أصنى إلى غيري ، ولما كان يصنى صابراً ، ويحب هادئاً ، فما إدخال ذلك إلا لأنه كان ينتزع نفسه كما ينتزع الميسم من النار ، ولقد قيل : « ما أعظم الحق وما أشد سلطانه » وفضلاً عن ذلك فإن ناسك عين جدة — وهو ذلك الرجل الذي قلما صدرت عنه كلمات لم تثمر — على يقين تام بأن بين الأعراب ومن إليهم من المشركين رأياً بأن هذا الزواج سوف يكون له أثره ؛ إنه يقرأ مسالك النجوم ، ولما كان يقطن ، زاهداً في شهوات الجسد ، في تلك الأماكن المقدسة التي وطأها القديسون في قديم الزمان ، فقد تلبس بروح (أليجا تشيت) مؤسس مذهبه المبارك ، كما تلبس بها من قبل (اليشع) الرسول حينما نشر فوقه عبادة . »

وأصنى الملك رتشارد للحجج التي أدلى بها الأسقف بمين كسيرة ، ونظرة كلية .

ثم قال : « إنى لا أستطيع أن أقول ما شأن هذا بي ، ولكنني أظن أن هذه الآراء الباردة ، آراء أمراء العالم المسيحي ، قد أصابتني كذلك بفتور روحي ؛ لقد انقضى وقت لو أن رجلاً علمانياً تقدم لي فيه بمثل هذا الخلف لطرحت أرضاً — ولو تقدم لي به رجل من رجال الكنيسة لبصقت في وجهه على أنه كافر ومن قساوسة (بعل) ، ولكن هذا الرأي منهم الآن ليس غريباً على مسمى ، وإنى لأقول : ما لي لا أسمى في إناء العربي وعقالته ، وهو رجل شجاع عادل كريم ، يجب عدوه الفاضل ويحبه ، كأنه له صديق ، بينما ينتحى أمراء العالم المسيحي عن جانب حلفائهم ويهجرون قضية الله والغروسية الطيبة ؟ ولكنني سوف أتحالك الصبر ولا أفكر بعد فيهم ، لن أقوم بعد هذا إلا بمحاولة واحدة كي أبقى على تماسك هذه الأخوة السامية إن أمكن ذلك ، ولوفشلت فيها ياسيدي الأسقف ، فلتحدث معاً في أمر مشورتك ، التي لا أقبلها الآن في الظرف الراهن ولا أنبذها كل التبد . هيا بنا إلى الجمع ياسيدي — إن الوقت يتأدينا . إنك تقول إن رتشارد عجول

متفطرس — سوف تراه يذل نفسه كذلك العشب الوضع الذى يشتق منه لقبه » .

ثم خف الملك يساعده رجال غرفته الخاصة ، وارتدى صدره وعباءة سوداء لونها رمي ، ولم يلبس من شارات الأبهة الملكية غير حلقة من ذهب يطوق بها رأسه ، ثم سارع وأسقف صور كي يحضر المجمع الذى كان منعقدا ينتظر قدومه كي يبدأ جلسته .

وكان السراشق الذى يلتئم فيه المجمع فسطاطا فسيحا ، تنتشر أمامه راية كبيرة عليها شارة الصليب ، وأخرى ترسم عليها امرأة جاثية على ركبتها ، شعرها غير ممشوط ، وزياها غير مهنّدم ، قصد بها أن تمثل كنيسة بيت المقدس المقفرة المكتوبة ، وكانت تحمل هذا الشعار : « لا تنس محنتك » ، ووقف لدى هذا الفسطاط جماعة من الحراس عني باختيارهم ، واتخذوا جميعا أمكنة بعيدة عن السراشق كي لا يتسرب الجدل — وكان أحيانا يملو ويمصف — إلى آذان غير تلك التى أريدت به » .

وفى هذا المكان اجتمع الأمراء الصليبيون ، ولبثوا ينتظرون قدوم رتشارد ؛ وحتى هذا التأخير الوجيز الذى اعترض رتشارد ، فسّره خصومه تفسيراً لا يرضيه ، وأخذوا يتداولون فيما بينهم أمثلة عديدة من تكبره واستملائه عليهم استملاء لا مبرر له ، حتى إن هذا التأخير الراهن القصير ، الذى لم يكن للملك مندوحة عنه ، قد سبق مثالا لذلك ، وأخذ الرجال يجاهدون فى تأييد بعضهم بعضاً فى هذه الآراء السيئة عن ملك إنجلترا ، ويررون الأخطاء التى ارتكبوها من قبل بالبالغة فى أتفه الأمور ؛ وربما كان ذلك كله لأنهم كانوا يحسمون بتقدير عزيزى لهذا الملك البطل ، تقدير يتطلب لمناقبته مجهوداً غير عادى .

ولذا فقد قر بينهم الرأى على أن يستقبلوه حين مقدمه بقليل من الرأية ، ولا يولونه احتراماً أكثر من مجرد ما يفيى للمحافظة على حدود الحفاوة الباردة ؛ ولكنهم ما إن رأوا تلك الهيئة النبيلة ، وتلك الطلعة الملكية وعليها أثر من

شحوب المرض الذى انتابه أخيرا ، وتلك المعين التى أطلق عليها النشدون اسم النجم اللامع فى مواقع القتال والظفر ، وما إن هاجمت ذا كرتهم مآثره التى تكاد تفوق شجاعة الإنسان وطاقة البشر ، حتى هب جمع الأمراء جميعا فى آن واحد — وحتى ملك فرنسا الفيور ، ودوق النمسا المكتئب السناء هباً راضين — وانفجر الأمراء الحاشدون جميعا فى صوت واحد مهللين هاتفين : « سلام الله على الملك رتشارد ملك أنجلترا ! — وليحي قلب الأسد الجسور ! » .

وبيجين واضح جلى كشمس الصيف المشرقة ، أخذ رتشارد ينثر شكره يمنة ويسرة ، وهنأ نفسه على عودته ثانية بين إخوانه أمراء الحرب الصليبية . ثم خطب الحاشدين وقال : « إنه كان يريد أن يقول كلمة موجزة حتى وإن تكن فى أمر — كمثل — تافه زهيد ، مخاطرا بتأجيل تشاورهم فى صالح العالم المسيحى بضع دقائق ، وبإيقاف تقدمهم فى مشروعههم المقدس » .

فناد الأمراء المجتمعون كل إلى مقعده ، وسار بينهم جميعا سكون عميق . واستطرد ملك أنجلترا الخطاب وقال : « اليوم عيد كبير للكنيسة ، وما أجدر رجلا مسيحيين — فى مثل هذا الظرف — أن يزيلوا ما بينهم وبين إخوانهم من خصومة ، وأن يمتدح كل منهم بخطئه ؛ أيها الأمراء النبلاء وإياهما الحملة المقدسة ، إن رتشارد إلا جندى ، ولقد كانت يده أبدا أخف من لسانه — وقد ألف لسانه خشن اللفظ — ولكنى أتوسل إليكم أن لا تنتحوا عن الغرض النبيل الذى قصدتم ، عن تخليص فلسطين ، لما يُلقى بلا تاجنت من كلام طائش ، ويعمل من فعال تخرج عن اللياقة ؛ بالله لا تنبدوا حسن الذكر فى الدنيا والخلاص فى الآخرة — ولكم هنا مجال لإحرازها إن كان لا نسان أن يحرزها — من أجل جندى قد يكون عجولا فى فعاله ، شديدا فى كلامه كالحديد الذى لبسه منذ نموة أظفاره . إن كان رتشارد قد قصر فى حق أحدكم ، فرتشارد سوف يموض ذلك بالفعل واللفظ — أى أخى ملك فرنسا النبيل ، هل كان من سوء طالعى يوما أن أسأت إليك ؟ » . فأجاب فيليب وعليه جلال الملك : « إن جلالة فرنسا لا تطلب الكفارة من



جلالة إنجلترا ، ثم صافح بيده يد رتشارد — وقد مدّها إليه — وقال : « ومهما يكن رأيي في شأن مواصلة ما شرعنا فيه ، فهو رأي يقوم على أسباب نشأت عن حال مملكتي ، ولا ريب في أنه لم يقم على غيرة أو بنقض لأخي الملك أشجع الشجعان » .

ثم سار رتشارد نحو دوق النمسا ، وفي نفسه مزيج من الصراحة والوقار ، بينما نهض ليوبولد من مقعده ، وكأنه كاره ، وتحرك كما تتحرك الآلة الميكانيكية يتوقف مسيرها على دافع خارجي ؛ وقال الملك : « إنما دوق النمسا يحسب أن لديه ما يبرر استيائه من ملك إنجلترا ، وملك إنجلترا يرى أن لديه من الأسباب ما يدعوه إلى الشكاية من النمسا ، إذن فليتبادلا العفو حتى يبقى السلم في أوروبا ، ويبقى التضامن بين هذه الصفوف سليما لا ثلثة فيه ؛ نحن الآن جميعا نصراء لراية أعلى مجدا من أية راية رفرت يوما أمام أمير من أمراء هذه الدار الفانية ، تلك هي راية الخلاص ؛ فلا تجمعوا إذن للإححن سبيلا إلى قلوبكم ، من أجل هذا الرمز ، رجز شرنا في الدنيا ، وليرد ليوبولد علم إنجلترا إن كان تحت سلطانه ، وسيقول رتشارد إنه نادم على طبعه المجول الذي حدا به أن يسيء إلى علم النمسا ، ولن يبعث على هذا القول غير محبته للكنيسة المقدسة » ، فوقف الأرشدوق ساكنا مكتئبا غير راض ، حاسر الطرف مطأطئ الرأس ، بكتم في نفسه الغضب ، ويمنعه الوجل وخشية الشذوذ أن ينفس عن نفسه بكلمة .

فسارع بطريق بيت المقدس إلى تلم هذا السكون وتلك الحيرة ، وشهد لأرشدوق النمسا بأنه قد برأ نفسه يمين غليظة من كل علم مباشر وغير مباشر بالاعتداء الذي لحق راية إنجلترا .

فقال رتشارد : « إذن فلقد أسأنا إلى الأرشدوق النبيل أشد الإساءة ، ونحن نطلب إليه العفو عن آثامنا إياه بالمدوان والجبن ، ونعد إليه يدنا إشارة إلى تجديد السلم والمودة بيننا — ما هذا ؟ دوق النمسا يرفض يدنا هذه المارية كما رفض من قبل قفازنا الحديدي ؟ ماذا ! ألسنا له أقرانا في السلم ولا أعداء في القتال ؟ ليكن

ذلك ، ولسوف نمدُّ ضعف تقديره لنا وخطه من مكانتنا كغفارة لأى صنيع ربما اندفعنا إليه ساعة ونحن فى حمية الغضب ، وسنعد الأمر بيننا بهذا قد انتهى .  
وبعد أن أتم حديثه ، أشاح بوجهه عن الأرشدوق وعليه من علامات الوقار والحشمة أكثر مما عليه من الازدراء والاستخفاف ، وترك الدوق — وقد بدا عليه الفرج بعد ما صرف الملك عنه بصره — كالتلحيز المكتئب الشارد عن الدرس حينما يصرف عنه معلمه القامى نظره .

« أى إيرل شمبانى النبيل — أى مركزز منتسرا الأمير — أى رئيس الفرسان الأعظم الجسور — اعلوا جميعاً أنى هنا نائب معترف بخطئى ، فهل منكم من له على إداة ، أو من يطلب منى رضية ؟ » .

فقال كنزاد صاحب اللسان الناعم : « والله إنى لا أدرى على أى أساس نقيم إداةك ، اللهم إلا إن كان ملك انجلترا يأخذ من إخوانه فى الحرب الساكين كل صيت كانوا يطعمون فى إحرازه من هذه الحملة » .

وقال رئيس فرسان المبد : « لو سألتنى أن أدينك فأدانتى إياك أشد وأخطر من إداة مركزز منتسرا لك ، وقد تظنون أنه لا يليق براهب عسكري مثل أن يرفع صوته حين يبقى العدد العديد من الأمراء صامتين ؟ ولكن الأمر يخص صفوفنا جميعاً ، وبهم ملك انجلترا هذا النبيل — كما بهم غيره — أن يستمع إلى رجل يدينه علانية فى وجهه بهم هناك الكثير من الناس ممن يكيلونها له كيلا فى غيخته ؛ نحن جميعاً نمجد ونحمد فى ملك انجلترا شجاعته ورفيع أعماله ، ولكننا يسوءنا منه أن يستولى أبداً فى كل ظرف على سبق والرفعة علينا جميعاً ، وليس يليق بالأمراء المستقلين أن يستكينوا لذلك ؛ نحن نسلم راضين بالكثير لبساته وغيره وثروته وسلطانه ؛ ولكن ذلك الذى يختطف منا كل شئ على أنه حق من حقوقه ، ولا يترك لنا شيئاً بمنحه إيانا عن رضا وطواعية ، يحط بنا من مرتبة الأحلاف إلى مرتبة الخدام والأتباع ، ويتم فى أعين جنودنا ورعيئنا بريق نفوذنا ، إذ يرون أننا لا نباشره مستقلين ؛ وحيث أن رتشارد الملك قد سألنا أن نصدق ، فنبين له أن لا يدهش أو يفضب إن سمع رجلاً حرمت عليه أبهة الدنيا ،

وليس للسلطان الدينوى لديه وزن إلا بمقدار ما يزيد به من نجاح ميوت الله وإذلال الأسد الذى يتجول هنا وهناك يبحث عن يفترس — أقول يجب ألا يدهش أو يغضب إن استمع إلى رجل مثل يصدقه القول ردا على سؤاله ، وهو ذلك القول الحق ، الذى يؤيده بقلبه فى هذه الآونة التى آحدث فيها إلى كل مصغى ، مهما كظم صوته احترامُ الملك .

وبينا كان رئيس الفرسان الأعظم مهاجم مسلك رتشارد هذه الهاجمة الباشرة ، التى لا يسترها من اللفظ طلاء ، علا الدم فى وجتى الملك علوا شديداً ، وتمتم الحاضرون إثر الخطاب بالرضا ، مما كان يدل أوضح دلالة على أنهم يكادون جميعاً يؤيدون هذه التهم ، وأحق الملك هذا ، بل كاد يقتله كدأ ، ولكنه مع ذلك رأى بثاقب بصره أنه إن استسلم لما فى قلبه من ضمنية ، وأطلق نفسه على سجيته ، أعطى ذلك المدعى الجذر حقاً له عليه ، وهو أُم ما كان يرى إليه رئيس فرسان المعبد ، ولذا فقد لبث رتشارد صامتا — رغم شدة وقع الحديث على نفسه — إلى أن أتم دماء « أبانا الذى فى السماء ... » سرا ، وهى الطريقة التى نصح له قسيسه باتباعها كلها أو شك الغضب أن يملك منه زمام نفسه ، ولما هدأت نائرة الملك ، شرع يتكلم كلاماً لا يخلو من نفث صريح ، وبخاصة فى مستهل الخطاب ، قال :

« هل بلغ الأمر هذا البالغ ؟ وهل بلغ من إخواننا ألم النفس حداً يجعلهم يلحظون ضعف مزاجنا الطبى ، وغفلتنا فى التمجل والغيرة الذين قد يدفعاننا أحياناً إلى إصدار الأمر حينما يضيئ الوقت عن عقد المجلس للتشاور ؟ ما كنت أحسب أن الإساءة — إن كانت عارضة وبغير إصرار سابق — تجدها فى قلوب أحلاف مرتعاً خصباً فى هذه القضية المقدسة التى نسي لها ، وأنهم من أجل يسهطون الحراث من أيديهم ، بعد ماخط الأخدود حتى قرب نهايته ، وأنهم من أجل يسيرون عن الطريق المستقيمة التى تؤدى إلى بيت المقدس ، والتى بسلامتهم شقوها ؛ حقا لقد كنت أخدع نفسى حينما كنت أظن أن خدماتى القليلة ترجع أخطائى الطائشة — وأنكم إن ذكرتكم أنى خففت إلى الطليعة مهاجماً فما نسيت أنى كنت أبداً فى

يل المتهقرين — وإني إن رفعت رايتي فوق بلد مهجور ، فإن في ذلك لكل  
جزاء الذي أرجو ، تاركا لغيري اقتسام الغنائم ؛ كنت أستطيع أن أطلق  
سبي على المدائن التي تغزو ، ولكني أسلمت لغيري البلاد ، وإن كنت عنيداً صلب  
إرادة ، أفرض الرأي بجرأة وإقدام ، فما أحسب أني ضننت بدمي ودم قومي في إنفاذ  
لك الرأي يمثل تلك الجرأة وذلك الإقدام ؛ وإن كنت في عجلة السير أو في ساعة  
لقتال زحمت لنفسي على جنود الآخرين سلطاناً ، فقد كنت أبدأ أنظر إلى هؤلاء  
لجنود وكأهم جندي ، أشتري لهم بمالي المؤونة والدواء إن قصر أربابهم عن  
حرازاها ؛ وإنه والله ليخجلني أن أذكركم بما يبدو لي أنكم جميعاً من دوني قد نسبتموه ،  
يلير لنا أن ننظر قُدماً إلى مستقبل أعمالنا ، وصدقوني أيها الإخوان . . . »  
هنا واصل الملك خطابه ، وقد اشتعل وجهه حماسة وغيرة ، وقال : « صدقوني إنكم لن  
تجدوا في كبرياء رتشارد أو غضبه أو أطماعه إساءة تقف لكم حجر عثرة في السبيل  
لتي يتاديكم إليها الدين والمجد نداءً عالياً ، كأَن الملك الأعلى ينفخ في الصور كلا !  
كلا ! والله إني ما أستطيع العيش لو عرفت أن ضعفى ووهنى كانا سببا في التفرقة  
بين هؤلاء الإخوان الكرام من الأمراء الحاشدين ، والله لأقطعن يميني  
يساري لو كان لديكم دليل ينهض شاهداً ضد إخلاصى ، ولسوف أنزل لكم طائفاً  
عن كل حق لي في قيادة الجيوش ، بل وفي رعييتي الخاصة من أتباعي ، وليسـر  
بهم أي نديم من الملوك ، ومليكهم — وما كان أحب إليّ أبداً من أن — يستبدل  
بعضا القائد رمح القتال — وسوف يتنصوى تحت لواء (بوسان) يخدم بين أحباب  
لبيد ، أي والله ، بل وتحت لواء النمسا ، لو أتت النمسا رجل مقدم يقود  
جيوها . أما إن كنتم أنتم أنفسكم قد ملتم هذه الحرب ، وتحسون بسلحكم  
يعقر بض جلودكم ، فما عليكم إلا أن تتركوا رتشارد ونحو عشرة آلاف ، أو خمسة  
عشر ألفاً من جنودكم ، يعمل لكم على البرّ يمينكم » ثم صاح بهم وقد هز رأسه  
إلى أعلى كأنه ينشر علم الصليب فوق بيت المقدس وقال : « وإذا ما ظفرنا  
صهيون ، فسوف لا نكتب على أبوابه اسم رتشارد بلاتاجنت ، وإنما أولئك

الأمراء الأكرمين الذين عهدوا إليه بوسائل الظفر والانتصار .

هذه القفاحة الجاهلية ، وذلك القول الباسم الذى ألقاه الملك العسكرى ، أثار فى الصليبيين خائر العزيمة ، كما بحث الحياة من جديد فى إخلاصهم ، وتبنت أذهانهم إلى الفرض الأول من حملتهم ، فعرا أكثرهم الحياء من تأثرهم بتافه الشكاوى التى غمرتهم أمثالها من قبل ، وانتقلت النار من عين إلى عين ، وسرت الحمية من صوت إلى صوت ، ففكروا — وكأ أنهم مجمعون — نداء الحرب الذى سبق لهم أن رددوا به ضراعة بطرس الناسك ، وصاحوا بصوت مرتفع : « سر بنا قلب الأسد الهام — ليس لأحد أن يتقدم إن تخلف الشجعان ؟ سر بنا إلى بيت المقدس ! هذه هى إرادة الله ! هذه هى مشيئة الرحمن ! بارك الله فيمن يقدم لإنجازها سلاحه ! » .

هذه الصيحة ، التى صاحوا جميعا على حين غرة ، نمت إلى ما وراء حلقة الحراس القائمين على سراق المجمع ، وانتشرت بين جند الجيش ، الذين فت من قوام المرض والجوحتى باتوا متمطلين خائري العزيمة ، وأخذوا كزعمائهم يهين منهم العزم ؛ ولكن ظهور رنشارد ثانية فى نشاطه المتجدد ، وتلك الصيحة المروفة التى تردد صداها بين جمع الأمراء ، أثار فى قلوبهم الفيرة بفتة ، وأجابت الألوف وعشرات الألوف مرددين الصيحة عنها : « صهيون ، صهيون ! — الحرب ، الحرب ! — هيا توا إلى قتال الكفار ! هى إرادة الله ! هى مشيئة الرحمن ! » .

وهذا الهتاف فى الخارج ضاعف بدوره الفيرة التى سادت داخل السراق ، وخشى أولئك الذين لم تشتعل النار فى قلوبهم فعلا أن يظهروا أقل حرارة من غيرهم ؛ ولم يمد هناك حديث آخر غير حديث الرحف نحو بيت المقدس بأفوف شاذغة بعد انقضاء الهدنة ، وحديث الوسائل التى تتبع فى عين الوقت لإمداد الجيش وإعدادة بالرجال ؛ ثم انقض المجمع وظاهرهم جميعا الإيمان التام بغرض واحد — غرض سرعان ما ذوى فى صدور أكثرهم ، وما كان له البتة وجود فى صدور الآخرين .

ومن هذه الجماعة الأخيرة كان المركز كنزاد والرئيس الأعلى لفرسان  
المبد ، فأوياما إلى كنفهما على مهل ، غير راضين عما أسفر عنه يومهم هذا .

وقال ثانيهما وعليه سبب الاستخفاف البارد الذي عرف به : « كم من مرة  
ذكرت لك أن رتشارد يستطيع أن يشق طريقه وسط الجبال الرقيقة التي تنشر  
، كما يشق الأسد نسيج العنكبوت ؟ أفلم تر أنه ما إن تكلم حتى لعبت أنفاسه  
بأولئك الحقي المتردين ، كما يلعب الإعصار بالهشيم المنثور فيجمعه أو يبدده كيفما  
شاء » .

فقال كنزاد : « إذا ما انقشع الإعصار استقر الهشيم فوق الأرض ثانية بعد  
هبوبه على متن الريح » .

فأجابه رئيس المبد وقال : « لكن هلا علمت فوق ذلك أنه يرجح — إذا ما  
انتهينا من هذا المقصد الجديد الذي قصدنا بالفزو ، وقضى الأمر ، وعاد كل أمير  
جليل يسترشد بما يهديه إليه عقله الضعيف — أن عسى رتشارد برضا من الأمراء  
ملكاً على بيت المقدس ، وأن يقبل حدود الماهدة مع صلاح الدين ، التي ظننت  
أنت نفسك أن ليس أقرب منه أحد بازدرائها والنض منها ؟ »

فقال كنزاد : « والآن بعد ما أصبحت الأيمان المسيحية عبقة بالية ، أستحلفك  
بمحمد وبرب محمد إلا قلت لي إن كنت تحسب أن ملك انجلترا العاتي سوف يربط  
دمه بدم السلطان المسلم ؟ لقد كان من سياستي أن أدخل في الماهدة هذا الشرط ،  
حتى أجعلها بأسرها بيضة إلى نفسه — وكلا الأمرين شر لنا ، إن أصبح سيداً  
علينا بالقلبة والنصر ، أو بالاتفاق والرضا » .

فأجاب صاحب المبد قائلاً : « لقد أخطأ دهاؤك مري رتشارد ، أنا أعلم  
هوئى الملك مما وسوس لي رئيس الأساقفة ، ومن ضربتك القاضية التي ضربت  
بذلك العلم ؟ ألم تنقض بتقدير لا يزيد عما تستحق ذراعان من الحرير المزركش ؟ !  
— أى مركزين منتسرا ، لقد خبت منك شمعة ذكائك ، وسوف لا أبقى بعد اليوم

في مكائلك الدقيقة الحبك ، ولأعمدن إلى حيلتي . هلا سمعت بأولئك القوم الذين يسميهم الأعراب بالخوارج ؟ »

فأجاب المركز بقوله : « لا مرأى في أنهم قوم تملك اليأس قلوبهم ، وسلبت الفيرة عقولهم ؛ وقفوا حياتهم على نصرة الدين — وبينهم وبين أصحاب المبدى في هذا بعض الشبه — إلا أنا ما عرفنا عنهم قط أنهم وقفوا لحظة عن السير في سبيل دعوتهم . »

فأجاب الراهب عابساً مقطب الوجه وقال : « صاح لا تمزح ، واعلم أن واحداً من أولئك الرجال قد ذكر — في يمين غليظة أقسمها — اسم عاهل الجزيرة ذاك ، وأقسم لينادي به آله أعداء دين الإسلام . »

فقال كنزاد : « أعدل به من أمي مشرك ، وما أجدره بجنات الخلد جزاء له ! »

فقال الرئيس الأعظم : « لقد هداه إلى المسكر واحد من أتباعنا ، ولما سئل سرا أقر إلى صراحة بمراهم الثابت ائدى اعترم . »

فأجاب كنزاد : « اللهم اغفر لأولئك الذين وقفوا في سبيل هذا (الخارجي) العادل ! »

فرد عليه صاحب العبد وقال : « هو الآن سجينى ، وأظنك تعلم أنه قد حُرِّم عليه أن يتحدث إلى غيره ؛ ولكن السجون قد هوجت <sup>(١)</sup> و ... »

فأجاب المركز : « ... وكانت السلاسل مسترخية ، فلاذ الأسرى بالفرار — وقدماً قيل : ليس من جب أكيد غير القبر . »

ثم استأنف القس السكرى حديثه وقال : « ولما يتفك أساره يواصل مسعاه ، فانه من طبع هذه الطائفة من السفاكين ألا يتخلل الواحد منهم أبداً عن طريق الفريسة بعد أن يشتم رائحتها . »

(١) هذه هي المكينة التي يدبرها رئيس فرسان العبد

فقال المركيز : « حسبك هذا ، إني ألس سياستك ، إنها لهيئة ، ولكن سبيل الخلاص قريبة » .

فقال صاحب المبد : « إنما ذكرت لك حتى تأخذ لنفسك حذرهما ، إذ سوف يكون الضجيج مروعاً ، ولن تدري على من يصب الإنجليز جام غضبهم — أى والله وإن هناك لخطر آخر — إن حاجبي يعرف ما بدخيلة هذا ( الخارجى ) ، وفضلاً عن ذلك فإنه أحق ، سريع الغضب ، قوى الإرادة ؛ وددت والله لو خلصت منه فهو يعترض سبيلى ، ويزعم أنه يرى بيمينه لا بيسنى ؛ ولكن طائفتنا المقدسة تحول لى أن أزيل أمثال هذه الحواجز . البت قليلاً — قد يجد العربى خنجراً طيباً فى جيبه ، وأنا قمين لك أنه سوف يعمد إليه حينما يريد الانطلاق ، وهذا أمر لا مزية فيه إذا ما دخل عليه الحاجب بالطعام » .

فقال كتراد : « هذا يلبس الأمر بالشبهات ولكن ... »  
فأجاب صاحب المبد : « إنما (ليت) و (لكن) من كلمات الحقى الأغبياء ، ولكن الحكماء المقلاء لا يترددون ولا يتراجعون — إنهم إذا قالوا فلوا » .



## الفصل العشرون

إذا أوقعت الليث في حبالها الحناء ،  
سحرته فلا يتفنى غضباً ،  
ولن ينصر من مخالفه رعباً .  
وقديما جعل من عصاه مفزلاً .  
(الديز العظيم) ويات (لأعلى الحناء) .  
ينزل كي يسر قلبها .  
لشاعر غير معروف

كان رنشارد لا يتداخل قلبه الريبة ، ولا يعلم بتلك المؤامرة التي كانت تدبر له في الظلام والتي فصلنا في مختتم الفصل السابق ، وقد نجح الآن على الأقل في الظفر بتوحيد الأمراء الصليبيين ، معترفاً أن يواصل الحرب بمنتهى وشدة ، ولو لم يكن أحب إلى قلبه بعد هذا من أن يقر السكينة بين أهله ؛ والآن ، وقد أضحي في حكمه أشد أترانكا ، أراد أن يدقق البحث في الظروف التي أدت إلى ضياع رايته ، وفي طبيعة العلاقة بين ذات رحمه أدب والمخاطر الاسكتلندي الطريد .

ومن أجل هذا باغت السر توماس دي فو الملكة ووصيفاتها بالزيارة ، يطلب مشول السيدة (كالستا متفوكن) أول رفيقات الملكة في مخدعها ، لدى الملك رنشارد .

فقالت كالستا للملكة وهي ترتجف : « ماذا عساي أن أقول يامولاني ، إنه سوف يقتلنا جميعاً » .

فأجابها دي فو وقال : « كلا . لا تخشى ياسيدي ، لقد أبقى جلالتك للفارس الاسكتلندي حياته ، رغم أنه كان أشد من أساء إليه ، ونخلعه على الطبيب الغربي فلن يكون جلالتك شديداً على سيدة حتى وإن كانت خاطئة » .

وقالت برنجاريا : « ابتكري لك قصة ماكرة أيتها المرأة ، فإن زوجي وقته يضيق بالبحث وراء الحقيقة » .

وقالت أدبث : « قصى عليه القصة كما وقعت وإلا قصصتها نيابة عنك » .  
وقال دى فو : « إني أتمس من مولاتى المليك خاضعا أن تأذن لي أن أقول  
بأن السيدة أدبث قد أصابت فيما أشارت به ؛ فالملك رتشارد قد يسره أن يمتدق فيما  
يلد للجلالتك أن تقصى عليه ، إلا أنى أشك في أنه يقيم للسيدة كالستا مثل هذا  
الاحترام ، وبخاصة في هذا الأمر الذى نحن به » .

وخطر لكالستا ما سوف يجرى من بحث وتدقيق في هذا الشأن ، فعراها  
اضطراب شديد وقالت : « لقد أصاب لورد جلزلاند . وفضلا عن ذلك فإنه لو كان  
لي من حضور الذهن ما يكفي للخداع بقصة معقولة ، فصدقوني إني لأحسب أنى  
سوف لا أجد من نفسى الشجاعة على قصها » .

وبهذا الميل إلى الصراحة في القول ساردى فوبكالستا إلى الملك حيث أقرت —  
كما عجزت — لإقرار آصرىج بالخدعة التى أغرى بها فارس النمر التمس على أن يهجر  
مقر واجبه ؛ وبذا برأت السيدة أدبث ، وكانت تعلم أنها لن تقصر في تبرة نفسها ،  
وألقت بالمعب كله على عاتق الملكة سيدها ، وكانت تعرف حق المعرفة أن حظها في  
هذا المزاج بالفارس سوف يكون في عيني قلب الأسد أشد ما هو جدير بالمغو .  
وحقا لقد كان رتشارد زوجا متيا ، بل خاضعا لوجه ذليلا لها ؛ وقد طال الأمد منذ  
انفجر غاضبا أول الأمر ، ولم يعد الآن يميل إلى اللوم الشديد في أمر لا سبيل إلى  
تقويمه ؛ وكانت السيدة كالستا الخبيثة قد تعودت منذ نمومة أطفالها أن تسبر  
غور دسائس البلاط ، وترقب ما قد يدل على إرادة المليك ، نغفت كالطائر مسرعة  
تحمل أمر الملك إلى زوجه بأن تتأهب لزيارة مباغتة منه ، وزادت على هذا الأمر  
رفيقة الملكة في خدعها تمليقا من عندها ، يقوم على ملاحظاتها الخاصة ، أرادت  
أن تبين به أن رتشارد لم يقصد إلا إلى أن يظهر يعض الشدة ، كي يحمل زوجه  
المليكة على أن تقر ببندها على مزاحها ، ثم يحبوها هي وكل من له يد في الأمر  
بغفوه الكريم :

وسرى هذا النبأ عن الملكة كثيرا فقالت : « هل هذا كل ما في الأمر أيتها

الزّاءة ؛ صدقيني إن رتشارد قائد عظيم ، لكنه سوف يتعسر عليه أن يراوغنا في هذا الشأن ، وهو في هذا ينطبق عليه قول رعاة (البرائيس) المألوف في وطني (نافار) : « ما أكثر من أنى طلبا لصوف الأغنام وعاد بقمته مجزوزا » .

وبعد ما ألفت الملكة برنجاريا بكل ما حدثتها به كالستا من خبر ، ارتدت فاخر الثياب ، ولبت هادئة الخاطر ، مستقرة النفس ، تقرب قدوم رتشارد الجسور . ولما أن قدم الملك أنى نفسه وهو في موقف الأمير الذى يدخل إقليما أساء أهله إليه (إلى الأمير) ، وهو على ثقة من أن عمله سوف لا يمدو توقيع اللامة وتلقى الخضوع ، فإذا به يجد أهل الإقليم — على غير ما كان ينتظر — فى أشد حال من المناوأة والمصيان ؛ فلقد كانت برنجاريا تعرف حق المعرفة سحر جملها ، ومبلغ حب رتشارد لها ، وتحس بالثقة فى أنها تستطيع أن تتفق معه على ما يرضيها بعد ما انقشعت عنه نائرة الغضب المخوفة الأولى دون أن يصدر عنه أذى أو ضرر ، وما كان أبدها عن أن تستمع إلى ما اعترم الملك من عدل حق عليها لرعونتها فى مسلكتها ، فقد أخذت تلتمس المآذير عما اتهمت به ، بل وتدفع عنه على أنه مزاح لا ضرر منه ، وقد أنكرت — وكانت صيغة الإنكار جميلة حقا — أنها بشت بنكتبائس كى يغرى بالفارس إلى أبعد من حافة الجبل الذى وقف حارسا على قمته ؛ وحقا لقد صدقت فيما قالت ، إذ أنها لم ترد بالسر كنث أن يدخل فسطاطها ؛ ولئن كانت الملكة فى سياقتها لدفاعها ذلقة فصيحة ، فلقد كانت أفصح وأذلق فى اتهامها لرتشارد بالقسوة لضعفه عليها بمنحة حقيرة يمنحها إياها ، وتلك هى حياة فارس بائس ، ساقه إلى خطر القانون العسكرى مزاج غير مقصود ، ثم بكّت ونشجت وبالت فى وصفها لعناد الملك فى هذا الأمر ، وقالت إن صرامته تهددها بالشقاء فى حياتها ، كلما فكرت فى أنها كانت — على غير قصد منها — الباعث الأول على هذه المأساة ، فلسوف ينتابها فى أحلامها مرأى الفريسة الصريمة ، ولسوف يقف إلى جوار سريرها شبحه بعينه ويجرحها النوم ، وما تعرف لهذا من سبب ، ولكن هذا هو ما يحدث فى غالب الأحيان ؛ ولن تستهدف

لهذا الشقاء النفسى إلا من قسوة رجل ، بينما هو يزعم أنه يموت هوى فى أدنى إشارة منها ، لا يتخلى عن تقمته على ذلك الرجل المسكين مهما نجم عن ذلك من شقاء لها .

وحسبت كل هذه الفصاحة النسوية المتدفقة لثة الدموع والحسرات ، وكان فى حديث الملكة من النغم والحركات ما يدل على أن استيائها لم ينشأ عن كبر أو نزق ، وإنما عن شهور أثلم حيناً أدركت أن نفوذها على زوجها أضعف مما كانت تظن .

وكان رتشارد الملك الصالح شديد الحيرة والارتباك ، وعبثاً حاول أن يتفاهم وامرأة أعجزتها غيرتها على محبته عن الإصغاء للحديث ؛ ولم يستطع الملك أن يعتمد إلى ماله من نفوذ شرعى يسيطر به على سيدة لها هذا الجلال ، وهى فى شدة الحزن الذى ليس له ما يبرره ، فتراجع إلى حدود الدفاع ، وحاول متلطفاً أن يعذلها على ربيتها ، وينخف من غلوائها ، ويذكرها أن لاجأه بها إلى ذكر الماضى بالدم أو بالخوف الشديد ، مادام السر كنت ما برح على قيد الحياة وما به من سوء ، فقد تخلعه الملك على الطبيب النطاسى العربى ، وهو رجل — من دون الرجال لاريب — عرف كيف يحفظ له حياته ؛ ولكن هذه الكلمة الأخيرة كانت أشد كلمات الملك على نفسها وقما ، فتجددت للملكة أحزانها حيناً ذكرت أن عريباً طيباً قد نال هذا المعطاء الذى طلبته هى إلى زوجها جاثية على ركبتها ، ورأسها حامر ، ولكن بغير جدوى ؛ وما إن فرغت من هذه التهمة الأخيرة حتى نقد صبر الملك ، وقال فى نعمة الجذ : « أى برنجاريا ، اعلمى أن هذا الطبيب قد أُنقذ لى حياتى ، فإن كان لحياتى فى عينيك وزن فلن تضنى عليه بجزاء خير من هذا الجزاء الوحيد ، الذى استطعت أن أحمله على قبوله » .

وسرت الملكة لبلوغها بر السلامة بعد غضبها ودلالها .

فقال : « حبيبى رتشارد ، لمْ تَأْت لي بهذا الحكيم ، حتى تستطيع ملكة إنجلترا أن تبين له قدره فى عينها ، وقد أُنقذ من الخبو مصباح الفروسية ،

ونغار انجلترا ، ونور حياة برنجاريا الضعيفة ، وأملها ورجاءها ؟ .

وهكذا اتعنى النزاع الزوجى ، ولكن الملك والمملكة كليهما ارتأيا أن العدالة تتطلب بعض العقاب ، وانفقا على صب اللوم بأسره على عاملهما نكتبانس ، وكانت المملكة إذ ذاك قد ملت نكات القزم المسكين ، فأصدرت مع الملك حكما عليه وعلى حليته المملكة جنفرا بإبمادها عن البلاط . وما كان للقزم التمس أن ينجو من الضرب بالسياط ، لولا أن المملكة قدأ كدت أنه قد نال عقوبته الشخصية من قبل ؛ وكذلك أصدر صاحبها الجلالة إرادتهما بأنه لما كان لا بد من بعث رسول إلى صلاح الدين في وقت قريب لإخطاره باعتزام المجمع على مواصلة العداء بمد انتهاء الهدنة مباشرة ، ولما كان رتشارد يفكر في إرسال هدية قيمة للسلطان اعترافاً بالجميل الكبير الذى ناله على يدى الحكيم ، فإن ذينك الشخصين البائسين ينبى أن ينضبا إلى الهدية طرفتين تصلحان للإهداء من ملك إلى ملك ، لما لها من ظاهر غاية فى الغرابة ، وعقل موزع شتيت .

وكان على رتشارد ذلك اليوم أن يكابد مقابلة نسوية أخرى ، ولكنه تقدم إليها قليل الاكتراث غير آبه ، وذلك لأن أدب وإن كانت جميلة يحلها قريبها الملك محلا رفيعاً ، بل ولئن كانت قد عانت فعلا من جراء شكوكه الجائرة ذلك الأذى الذى تظاهرت برنجاريا بالشكاية منه ، إلا أنها لم تكن لرتشارد زوجاً ولا حظية ؛ فكان يخشى عتابها — على ما فى عتابها من حق — أقل مما كان يخشى عتاب المملكة ، رغم ما فيه من جد وشذوذ . وبعد ما طلب الملك أن يتحدث إليها منفردة ، سبق إلى غرفها الساخنة لحجرة المملكة ، وما برح جاريتاها القبطيتان جاثبتين على الركب فى أقصى زاوية طوال المقابلة ؛ وكان يستر هذه الفتاة الكريمة النسب حجاب أسود رقيق ، تبدل ثيابه الكثيفة على قدها الفاتن المشوق ، ولم تتحل بأية زينة مما يتجمل به السيدات ، وما إن دخل عليها رتشارد حتى نهضت وانحنت لإجلالا ، ثم عادت إلى مقعدها بمد ما أشار إليها بذلك ، ولما جلس إلى جوارها لثمت الصمت ، ولم تنبس بىنت شفة ، حتى يبدأها الحديث بما يريد .

وقد ألف رتشارد مع أدith الصراحة التي تخولها لها صلة الرحم ، إلا أنه أحس ببرودة هذا اللقاء ، وافتتح الحديث في شيء من الحيرة والارتباك .

وأخيراً قال : « إن ابنة العم الحسنة غاضبة منا ؛ وأنا نقر بأن ظروفنا قاسية قد حدث بنا - لنير ماسبب - إلى أن نمزو إليها مسلكتنا لا يتفق وما عرفنا من قديم عن سيرتها في حياتها ، ولكننا إذ نسير في وادي الإنسانية المظلم نخطئ الأشباح نحسبها جسوماً ، فهنا صفحت ابنة العم الحسنة عن ابن جلدتها رتشارد ، الذي يشوبه شيء من الشدة والعنف ؟ » .

فأجاب أدith وقالت : « من ذا الذي يضمن بالصفح عن رتشارد ، إن كان رتشارد الرجل يأتي بالفو من رتشارد للملك ؟ » .

فأجابها قلب الأسد قائلاً : « تعالى قريبتى ، هذا جد صارم ، أقسم بالسيدة العذراء إن هذه النظرات الكثيرة ، وهذا الحجاب القائم الطويل ، لتحذو بالرجال إلى أن يحسبوك أرملة محدثة ، أو على الأقل امرأة فقدت عشيقها وخطيبها ، سرى عن نفسك - ألم يملك أن ليس هناك سبب حق للحزن والأسى - فلماذا تظهرين بمظهر الحداد ؟ » .

« أظهر به أسى على شرف بلاتاجنت الضائع ، وعلى الجلال الذي خلف بيت أبى » .

فقطب رتشارد الجبين ، وكرر قولها غاضباً وقال : « الشرف الضائع ! والجلال الذي خلف بيتنا ؟ ولكن ابنة عمى أدith على حق ، فلقد حكمت عليها متعجلاً ، فمن حقها إذن أن تغلظ على وتقسو ، ولكن لا أقل من أن تخبرينى فيم كان خطئى » .

فكانت أدith : « كان على بلاتاجنت إما أن يتسامح في الإساءة أو يجازيها ، وما يليق به أن يكبل في قيود الكفار رجالاً أحراراً من المسيحيين وبواسل الفرسان ، وما ينبغي له أن يفاوض ويساوم ، أو أن يمنح الحياة على أن يسلبها حربتها ؛ والله لو أنك قضيت على هذا البائس بالموت لكان قسوة منك وغلظة ، ولكنها

الغلظة في ثياب العدالة ؛ أما أن تحكم عليه بالرق والنفي فهذا ظلم صراح .  
فقال رتشارد : « ما أحسب ابنة عمي الحسنة إلا من أولئك النfid اللواتي  
يرينُ بعدُ الماشق وموته سواء ؛ صبراً فتان ، إن عشرة من خفاف الفوارس  
يستطيعون أن يتبعوا الرجل ويصلحوا ما أخطأنا ، إن كان لدى محبك هذا سر  
من الأسرار يحمل موته خيراً من نفيه » .

فاشتد أحرار أدبث وقالت : « كفالك بذاءة في الزناح ، واعلم أنك كي تسترسل  
في هواك تبرت من هذا المشروع العظيم عضواً كريماً ، وحرمت الصليب دعمة  
من أقوى دعائمه ، وأسلمت خادماً من خدام الإله الحق إلى أيدي الكفرة المشركين ؛  
وأعطيت كذلك لمقول مرتابة — كمقك التي أبدت في هذا الشأن — بعض  
الحق في القول بأن رتشارد قلب الأسد قد نفي من معسكره أشجع جنوده ، خشية  
أن يبارى باسمه في القتال اسمه » .

فصاح بها رتشارد ، وقد غلت نائرة الآن حقاً ، وقال : « أنا — أنا ! أفتحسينني  
ممن يغارون من الذكر وبعد الصيت ؟ — وددت لو كان هنا وأقرَّ بمساواته بي !  
إذن لنفضت عني شرقي وتاجي ، ولاقيته كما يلاق الرجل الرجل في ساحة الزال ،  
حتى يبدو للعيان إن كان رتشارد بلا تاجت لديه مجال للحسد أو للخوف من جرأة  
إنسان فان أيا كان . تعالى أدبث ، إنك لا تمتقدين بما تقولين ؛ لا تكوني لنضبك  
أو حزنك على غياب عشيقك لقريبك ظالمة ، وهو — رغم هياجك وثورتك —  
يحمل لحسن طوبيتك تقديرأ كبيرأ لا يملوه تقدير لأى أرى على قيد الحياة » .  
فقلت السيدة أدبث : « غياب عشيق ؟ أى نعم ، تستطيع أن تسميه عشيق  
بعد أن دفع لهذا الاسم ثمنأ غاليا ؛ إني يامولاى — وإن كنت غير قينة بولائه هذا —  
إلا أنى كنت له كالضياء أهديه سبيله قدأ في طريق القروسية النبيلة ؛ أما أنى  
قد نسيت مكانتي ، وأما أنه قد زعم لنفسه ما ليس له فزور وبهتان ، حتى وإن  
كان مَلِكاً من يقول بهنا » .

فقال رتشارد : « لا تتقولى على يا ابنة العم الحسنة بما لم أقُل ، أنا لم أذكر

أنك جوت هذا الرجل بأكثر مما قد يكسب فارس كريم من رضا — حتى من أنيرة — مهما يكن منبته . ولكنني أقسم لك بالسيدة المذراء إنى أعلم شيئا عن هذا الضرب من الحب . إنه يبدأ بالاحترام مع الصمت ، والتقدير مع البعد ؛ ولكن ما إن تسنح الفرصة حتى تنمو الألفة ، ثم . . . ولكن دعينا من هذا ، فليس من الكياسة أن أحدث إلى سيدة ترى نفسها أحكم العالم طرا . »  
فقال أديث : « يسرنى أن أضنى عن طيب خاطر لما يشير به قريبي ، إن كانت مشورته لا تنطوى على المهانة لسكانى وخلقى . »

فأجابها رتشارد وقال : « إن الملوك يا ابنة عمى الحسناء لا ينصحون ، وإنما هم يأمرون . »

فقال أديث : « حقا إن السلاطين ليأمرّون ، وما ذلك إلا لأن لهم رقيقا يحكمون . »

فرد عليها الملك وقال : « هيا أديث ، ولا تزدري المظنة جانبنا ، ما دمت ترفعين رجلا اسكتلنديا إلى هذه المرتبة العالية . والله إنى لأرى صلاح الدين أبر بكلمته من وليم صاحب اسكتلندا ، الذى يلقب بالليث ؛ لقد أساء إلى إساءة شنعاء بتقصيره فى إرسال اللد والمونة التى وعدنى ؛ دعينى أخبرك يا أديث أنك قد تخين حتى باتى يوم تؤثرين فيه تركيا صادقا على اسكتلندى كاذب . »

فأجابته أديث قائلة : « كلا . أبدا ! إن رتشارد نفسه لن يمتنق الدين الكاذب الذى عبر البحار لإقصائه عن فلسطين . »

فقال رتشارد : « لك الكلمة الأخيرة ، وسوف تُعطينها ، ولتظنى بى ما شئت يا أديث الحسناء ، فلن أنسى أننا بنو عمومة قريبة وعزيرة . »

وما إن أتم حديثه حتى انصرف فى رقة وكياسة ، ولكنه قليل الرضا بما انتهت إليه زيارته .

وفى اليوم الرابع منذ أهدى السر كنت عن المعسكر ، جلس الملك رتشارد فى مرادقه يستمتع بنسيم المساء يهب من الغرب ، ويحمل على جناحيه برودة غير



ممهودة فيه ، كأنه يصاعد من أنجترا الطروبة لا إنعاش ملكها المخاطر ، وهو يسترد شيئا فشيئا كامل القوى الضرورية لإفناذ مشروعه الخطيرة ؛ وكان وحيدا لأنه بعث بدى فو إلى عسقلان كي يأتى بالمدد والمؤونة من الدخيرة الحربية ، وكانت الكثرة الأخرى من حاشيته مشتغلة بمختلف المهام ، كلهم يتأهبون لفتح باب العداوة من جديد ، ولاستمداد عظيم إعدادى لجيش الصليبيين يقام فى اليوم التالى ؛ وجلس الملك منصتا للطنين والضجيج بين الجند ، وللقطعة النبعثة من الأكوار ، حيث كانت الخيل تُمد بمخافر من حديد ، وللشغب يصدر من صانعى الأسلحة الذين كانوا يصلحون عدة الخيول ؛ وكذلك كانت أصوات الجند — وهم يسرون جيئة وذهابا — عالية مرحة ، فى نبراتهما ما يؤكد الهمة القمءاء والبسالة الثائرة ، وما يبشر بالنصر القريب ؛ فاهتزت أذنا رتشارد طربا لهذه الأصوات واسترسل لأحلام الظفر والمجد التى أثارها فى نفسه هذا الصخب . وبينما هو كذلك إذا برئيس الحجاب يخبره أن رسولا من صلاح الدين ينتظر واقفا بالباب . فقال الملك : « أدخله توا ، وأدِّ له ما يجب من الاحترام يا جوسلين » .

فصعد الفارس الانجليزى بالأمر ، وأقبل ومعه رجل يدل هيمته على أنه لا يعلو على العبد النبوى مرتبة ، ولكن ظاهره — رغم ذلك — يسر الناظرين . كان طويل القامة ، سمح البزة ، ملاحه نافذة حالكه ، ولكنها لا تنم عن شيء من سلاطة الزنوج ؛ وكانت تغطى خصلات شعره الفاحم عمامة ناصعة البياض ، وعلى كتفيه وشاح قصير من لون العمامة ، متفرج من مقدمه ومن كفيه ، ويظهر من تحته صدر من جلد النمر المدبوغ ، يتدل إلى ما فوق الركبتين بعرض الكف ، وأما ما بقى من أطرافه المقتولة ، ساقيه وساعديه ، فقد كان عاريا ؛ اللهم إلا خفين فى قدميه ؛ وكان يلبس طوقا على رقبته ، وسواراً من فضة ، ويتدل من خصره سيف مستقيم عريض النصل ، له مقبض من خشب البقس ، وغمد يكسوه جلد الأنفوان ، ويمينه نشابة قصيرة ، رأسها عريض لامع صلب ، طولها شبر ، ويساره يقود كلبا كبيرا نبيلاً يجذبه برباط من خيوط الذهب والفضة الفتولة .

وخر الرسول ساجدا ؛ وقد عرّى جانباً من كتفيه إشارة إلى خضوعه ؛ وما إن لمس الأرض بجبينه حتى نهض جاثياً على ركبتيه ، وناول الملك منديلاً من الحرير يضم آخر من فاش من صفائح الذهب ؛ بداخله خطاب من صلاح الدين ، عبرني أصله ، ومصحوب بترجمة إلى الإنجليزية النورماندية تعريبها كما يلي :

« من صلاح الدين ملك الملوك ، إلى الملك رتشارد ليث أنجلترا ؛ نما إلينا من رسالتكم الأخيرة أنكم قد آتتم الحرب على السلم ، وعداوتنا على صداقتنا ، وما نحسبك في هذا إلا رجلاً أعمى الله بصيرته ، وإنا على يقين أنما عما قريب سوف نقفك بمخبطك ؛ تماوتنا في ذلك جيوش ألف قبيل لا تقهر ؛ وسيفصل الله فيما بيننا من خصومة . وأما ما خلا ذلك فنحن نعتقد في نبل خلقك ؛ ونقدر الهدايا التي يبعث بها إلينا قدرأ كبيراً ؛ كما نقدر القزمين الفريدين في تشويه خلقهما كأن كلا منهما ( عيسو ) ، الطرويين . كقيثارة إسحق ؛ رداً على هذه الهدايا التي بعث من كنوز جودك ، نرسل إليك عبداً نوبيا اسمه ( زوهاق ) لا تحكم عليه ببشرته كما يحكم الأغبياء في هذه الدنيا ، فإن الثمر إذا اسودت قشوره حلا مذاقه ؛ واعلم أنه يقوى على تنفيذ إرادة سيده ، كما كان ( رسم زبلاستن ) . وإن تعلمت مخاطبته ألفتك حكيماً في مشورته ، واذكر أن ( رب الفصاحة ) قد أصابه الهوى وهو بين جدران قصره العسجية . نحن نسله لرعايتك آملين أن لا يطول الأمد قبل أن يؤدي لك خدمة طيبة ؛ ونحن مع هذا نقرئك السلام راجين أن يمن عليك نبينا صلى الله عليه وسلم بإدراك الحق ، ولئن فاتك نور الحق فرجاؤنا لك أن تسترد حجتك العريضة عاجلاً ، حتى يحكم الله بيننا وبينك في ساحة الوغى . »

وكانت الرسالة مذيلة بتوقيع السلطان وخاتمه .

وحقق رتشارد في النبوي صامتا ، والرجل مائل أمامه ، خافض الطرف ، وقد أطبق ذراعيه على صدره ، يشبه في وقفته تمثالاً من الرمرم الأسود ، دقيق الصنع ، ينتظر الحياة من لمس ( بروميتيس<sup>(١)</sup> ) ؛ وقد قال هنري الثامن خليفة ملك إنجلترا

(١) إله من آلهة اليونان يخلق الإنسان من الطين ، ويسرق النار من فوق (أولب)

ويعلم الناس استخدامها كما يعلمهم قنونا أخرى .

بصفة التأكيد عن رتشارد إنه يحب النظر إلى الرجال ، وحقا قد سره كثيرا أن يشهد من ذلك المائل أمامه عصبه ومفتول عضلاته واتساق جسمه ، ووجه إليه السؤال باللغة الفرنسية ، وقال له : « هل أنت وثقى ؟ » .

فهز الببد برأسه ، ورفع إصبعه إلى جبينه ، ورسم علامة الصليب على نفسه دليلا على إيمانه بالسيحية ، ثم عاد إلى وقفته خاشعا لا حراك به .

فقال رتشارد : « لا مشاحة في أنه نوبى مسيحي ، وقد حرمه القدرة على الكلام هؤلاء الأوغاد الناقصون ، أليس كذلك ؟ » .

فهز الرجل الأبكم برأسه ثانية في تودة وأناة دلالة النفي ، وأشار بسبابته إلى السماء ، ثم وضعها على شفتيه .

فقال رتشارد : « إنى أدرك ما ترى إليه ، إنك تعاني من الله بلواه ، ولا تشكو قسوة الإنسان . هل تستطيع أن تجلو السلاح وتنظف النطاق ، وتعمده عند الحاجة ؟ » .

خفص الأبكم رأسه ، ثم سار نحو الزرد الذى كان معلقا — مع درع الملك الفارس وخوذته — بدعامة من دعامات السراشق . وأمسك به بهوادة ورفق ، وكان في ذلك دليل كافى على أنه كان يعرف حتى المعرفة واجب حامل السلاح .

فقال الملك : « حقا إنك لهذا لكفاء ، ولا ريب فى أنك تصلح خادما نافعا . عليك أن تقف بحجرتى وتقوم على خدمتى ، حتى يرى الناس كم ذا أنا أقدر عطية السلطان المسكى ؟ وليس لك لسان ، ففى إذن أنك لا تستطيع رواية ما ترى ، ولن تستغنى فأتعجل بجواب غير لائق » .

نغر النوبى ساجدا ثانية حتى مس جبينه الأرض ، ثم انتصب قائما بعيدا عن الملك يبيض خطوات ، كأنه يرتقب ما يأمر به سيده الجديد .

فقال رتشارد : « أى والله ، لتبدأن عملك توا ، فإنى أرى أثرا من صدإ يسوء وجه هذا الدرع ، وأنا أوده — إذا ما هزرت به فى وجه صلاح الدين — أن يكون براقا لاحتام فيه ، كشرفى وشرف صلاح الدين » .

وفي تلك الآونة نفخ في البوق نافخ خارج السرادق ، ودخل في الحال السر هنرى شيل ومعه ثلة من الرسائل ، قال وهو يقدمها : « هذه الرسائل من إنجلترا يا مولاي » .

فكررتشارد قوله بنعمة المتلف الحزين وقال : « من إنجلترا ! من بلادى العزيزة ! وأأسفاه ! إنهم لا يفكرون إلا قليلا كيف حاق بملكهم المرض المضال والأسى الشديد — ما أوهى صداقتهم وما أجرأ عداوتهم ! » ثم فض الرسائل ، وقال عاجلا : « ها ! ليست هذه الرسائل من بلد آمن ، إن أسباب الشحنة بينهم كذلك — اعزب عني يا شيل — ينبغي أن أطلع هذه الأخبار وحيدا وعلى مهل » .  
فانسحب شيل على إثر ذلك ، وسرعان ما أنهمك رتشارد في تفصيل الأمر الأليم الذى جاءه نبأه من إنجلترا ، وهو يتعلق بالحصومات الحزبية التى كانت تمزق وطنه إربا إربا من جراء الخلاف بين أخويه (جون) و (جوفرى) ، والنزاع الذى نشب بينهما من ناحية ، وبين كبير القضاة (لنچتشمب) أسقف (للملى) من ناحية أخرى ، كما يتعلق بالظالم التى يفرضها النبلاء على أهل القرى ، وثورة هؤلاء على أولى الأمر منهم ثورة نجمت عنها ضروب من الخسومة فى كل مكان وإراقة الدماء هنا وهناك ، ووردت إليه فى الرسائل أنباء مفصلة عن حوادث قاتلة لكبريائه ، ومحطة بنفوذه ، يصحبها النصيح الشديد من أحكم مستشاريه وأقربهم إليه ، يشبهون عليه بالمودعة إلى إنجلترا عاجلا ، إذ أن فى وجوده بينهم الأمل الوحيد فى إنقاذ المملكة من مخاوف الخسومة الأهلية جميعا ، تلك الخسومة التى يرجح أن تفيد منها فرنسا واسكتلندا ؛ وجن عرتشارد لهذه الأنباء أشد الجزع ، فقرأ تلك الرسائل المشعومة مرة تلو الأخرى ، ووازن بين ما يحتويه بعضها من خبر وبين الحقائق عينها كما سيق فى بعضها الآخر سياقا آخر ، وسرعان ما أضفى وهو لا يحس بما كان يدور حوله ، رغم أنه كان يجلس قريبا من مدخل فسطاطه قصد الاتعاش بالهواء البارد ، وقد أمر برفع السجف حتى يمكنه أن يرى الحراس وغيرهم من الواقفين فى الخارج ويرويه .

وفي ظل السراشق كان العبد النوبي يجلس مستغرقاً في عمله ، مشتغلاً بالواجب الذي فرضه عليه سيده ، مولياً ظهره شطر المليك ، وكان قد فرغ من إعداد الزرد والدرع وتنظيفهما ، وشرع يشغل بدرقة عزيزة كبيرة الحجم مكسوة بصفايح الصلب ، كثيراً ما يستخدمها رنشارد ، حينما يخرج لاستطلاع الأماكن الحصينة أو لضربها فعلاً ، حماية له وذريعة تقيه قذائف الأسلحة أكثر مما يقيه الدرع الضيق الثلاثي الذي كان يستخدمه وهو على ظهر الجواد ؛ ولم تسلم هذه الدقة ، لا بأسد أنجلترا ، رمز سلطانها ، ولا بأى رسم آخر فتجذب أنظار القائدين عن الجدر التي كانت الدقة تنطلق صوبها ؛ فكانت إذن عناية خادم السلاح مقصورة على إجلال وجهها حتى يضى ضياء البلور اللامع ، وقد نجح الخادم في هذا العمل غاية النجاح . وإلى ما وراء النوبي كان يرقد الكلب الكبير ، وتكاد لا تراه العين من الخارج ، وتستطيع أن تقول عن هذا الكلب إنه صنو النوبي في رقه واستعباده ، وكان كأنه يحس بالخوف من الانتقال إلى حيازة الملك ، فاستلقى ملاصقاً لجوار الرجل الأبيك ، ورأسه وأذناه إلى الأرض ، وذيله وأطرافه متجمعة قريب بعضها من بعض تحته وحواليه .

وبينا كان الملك وخادمه الجديد مشتغلين بما هما فيه ، انضم إلى هذا النظر الذي وصفنا رجل آخر ، واختلط بجماعة العامة من الإنجليز ، وكان نحو العشرين منهم يقومون بالحراسة أمام سراشق الملك صامتين — خلافاً لما عهد فيهم — نظراً لهيئة التأمل والتفكير العميق والانهماك الشديد الذي استرسل فيه مليكهم استرسالاً لم يألوه فيه من قبل ، ولكنهم — رغم هذا — لم يكونوا في حراستهم أشد يقظة منهم في أى وقت آخر ، فكان بعضهم يلعب بالحصى الصغير مقامراً ، وبعضهم يتهايمسون عن يوم القتال القريب ، وكثيرون منهم قد استلقوا وأغرقوا في النوم ، وأطرافهم الجسمية منطوية في برودهم الخضر .

تسلل وسط هؤلاء الحراس النافلين رجل تركى هرم ، صغير الجسم ،

زري الهيثة ، حقير اللباس ، يشبه بزيه وليا أو شيخاً من شيوخ الصحراء المتحمسين للدين ، الذين كانوا أحياناً يقتحمون معسكر الصليبيين ، رغم ما كانوا يلاقون دائماً من سخيرية ، بل ومن قسوة وشدة في غالب الأحيان . وحقا لقد كان الترف والانتفاش في الملاذ الذي يسرف فيه زعماء المسيحيين يأتى إلى خيامهم بمحشد خليط من المطربين والعاشرات والتجار اليهود والأقباط والترك ومختلف الرجال من أمم الشرق ، وجميعهم من سقط المتاع ، حتى باتت العامة والفطنان شيكاً مألوفاً في معسكر الصليبيين ، رغم ما كان يسود بينهم من أن الحملة إنما ترمى إلى إقصائهما من الأرض المقدسة ؟ ولما دنا هذا الرجل الصغير الحجم ، الزرى الهيثة ، الذى وصفنا ، وبات على مقربة من الحراس ، حتى وقفوا في سبيله ، طرح عمامته الداكنة الخضراء عن رأسه ، وظهر للرأى أنه حليق اللقن والحاجين كأنه مهرج محترف ، وأن سياء ملامحه الملتوية المعجية ، وعينه الصغيرتين السوداوين اللتين كانتا تتألقان كالسكرمان الأسود ، نمت عن خيال شارد مخبول .

وكان الجند يعرفون أساليب هؤلاء المعتوهين المتجولين ، فصاحوا بالرجل : « ارقص لنا أيها الشيخ ، ارقص وإلا ضربناك بحبال نبالننا حتى يدور جسمك كما يدور الخندروف يحركه الصبي بسوطه » . وهكذا علا صياح الحراس الطائشين ، فرحين جذلين لأنهم وجدوا بينهم رجلاً يغيظونه ، كما يفرح الطفل حيناً يمسكه بالفراشة ، أو التلميذ إذا كشف عن عش طائر .

وكان الشيخ قد سره أن يصدع بما أمر قفز من الأرض واستدار بحسمه المائد أمامهم بخفة ما بعدها خفة ، إذا قرنت بها جسده النحيل الهزيل ، ومظهره الضئيل ، ألفتته شبيها بورقة زاوية من أوراق الشجر ، تترنح على هوى ريح الشتاء العاصف ، وله ذؤابة من الشعر تمتد من رأسه الأصم الحليق إلى أعلى ، كأن عفريتاً من الجن يعلقه بها . ويظهر أن فنا سماويا كان يلزمه للقيام بهذا الرقص الهمجي الدائر ، الذى توشك معه أن لا ترى أطراف قدمى الراقص وهى تمس الأرض ؟ وبينما كان الرجل يرقص هذا الرقص المعجيب ، كنت تراه يتأيل يمنة ويسرة ، وينقل

من مكان إلى آخر ، مقتربا شيئا فشيئا من مدخل السرادق الملوكي ، بحيث لا يكاد الرائي يدرك منه ذلك ، حتى إنه لما خر على الأرض أخيرا منهوك القوى ، بعد ماقفز قفزتين أو ثلاث أعلى من كل وثبة وثبها من قبل ، لم يكن بينه وبين شخص الملك ما ينيف على ثلاثين ذراعا .

فقال أحد العامة : « اعطه ماء . إنهم جميعاً يتشوقون إلى الشراب بعد الرقص والطرب » .

فأجابه نبال آخر بصيغة التأكيد والازدراء بهذا الشراب الحقير وقال :  
« آه ! أتقول ماء يا (لنج ألن) وكيف تحب أنت شربا كهذا بعد رقص مغربي كذلك الذي رأيته » .

وقال ثالث : « لن نمطى الوغد قطرة ماء ، ولنسوف نعلم هذا التناقض الهرم الخفيف القدم أن يكون مسيحيا صالحا ويمتسني نبيذ قبرص » .  
وقال رابع : « أى والله ، ولئن كان شموسا فلتأت بكأس (دك هنتر) التي يسقى بها فرسه » .

وسرعان ما أحاط (بالدرويش) — وهو منهوك طريح الأرض — حشد من الرجال ، ورفع واحد منهم طويل القامة جسم الرجل المهزول عن الأرض ، بينما قدم له الآخر قدحا كبيرا من النبيذ ، ولكن الرجل الهرم ، وقد عبي عن الكلام ، هز رأسه وأبعد يده الشراب الذي حرمه عليه النبي ؛ ولكن القوم الذين أرادوا به العذاب ما كانوا بهذا يرجعون .

فصاح أحدهم : « الكأس ، الكأس ! ما أشبه الرجل التركي بالجواد التركي ، ولنسوف نعامله معاملة الخيول » .

وقال (لنج ألن) : « أقسم بالقديس جورج إنكم لتخفقنه ! وإنه لا يتم أن ترموا وغدا وثنيا بمقدار من النبيذ يفتى رجلا مسيحيا عن ثلاثة أضعاف ما يحرز من سكرة النوم » .

فرد عليه (هنرى ودستول) وقال : « إنك لا تعرف طباع هؤلاء الأتراك

الملاحدين يا (لنج ألن) ؛ أعلم أيها الرجل أن قدحا من نبيذ قبرص تلعب برأسه وتديره في اتجاه غير الاتجاه الذى تدرج إليه وهو يرقص ، فيثوب إلى رشده ، ويعود كما بدأ — الخمر تخنقه ؟ إنها لا تخنقه إلا كما يخنق رطل من الربد كلب (بن) الأسود .

فقال (تالين بلاكينز) : « وهل تصنون على هذا الشيطان المسلم المسكين بقطرة من شراب في هذه الدار ، وأنتم تعلمون أنه لن ينال قطرة يرطب بها طرف لسانه في دار البقاء ؟ » .

فأجاب (لنج ألن) يقول : « تأله إن هذه لشريعة صارمة ، أفكل هذا لأنه تركي كما كان أبوه من قبله ؛ إني أؤكد لكم أن أشد الأرجاء حرارة لتكونن عليه بردا وسلاما لو أنه كان مسيحيا مرتدا » .

فقال (هنرى ودستول) : « الزم الصمت يا (لنج ألن) ، وصدقني أن لسانك ليس بأقصر جوارحك ، وإني أتنبأ لك أنه ليسوقفك إلى الخزي من أيننا (فرنسيس) كما حدث مرة للمرأة السورية الحوراء — ولكن دعنا من هذا فما هي ذى الكأس قادمة — أنشط قليلا أيها الرجل ، وافتح فمه عنوة بنصاب خنجرك » .

فقال (تومالين) : « ارجعوا عن هذا . إنه طيع غير عصي ، انظروا تجوده يشير إلى القدح . افسحوا له أيها الرجال . أى والله ، إنهم قوم إن شرعوا يشربون ما تركوا الخمر حتى ثملوا ؛ إن هذا التركي لا يعمل في الكأس ، ولا يترث في الشراب » .

وحقا لقد شرب ذلك (الدرويش) — أو سمه ما شئت — القدح الكبير حتى ثملته في جرعة واحدة ، أو تظاهر بذلك على الأقل ، ولما رفع الكأس عن شفثيه ، بعد ما غاض كل ما به ، تهدهد عميقا وتغم قاثلا : « الله كريم » ، فسرى الضحك بين العامة الذين شهدوا الرجل وهو يجترع الكأس في شربه ، وكانت ضحكاتهم عجاجة صخابة حتى هب الملك من نومه مضطربا ، ورفع إصبعه وقال



غاضبا : « ما هذا أيها اللئام ، أما لديكم لغيركم احترام ، وهل لا ترعون لنا حرمة ؟ »  
فسكت الجميع ولزموا الصمت ، إذ كانوا يعرفون مزاج رتشارد ، الذي كان يسمح  
بالكثير من الألفة الحريية أحيانا ، وأحيانا أخرى يتطلب أجل الاحترام ، وقلما  
كان هذا المزاج الأخير يملك عليه نفسه . وبمدئذ سارع الرجال إلى مكان قصي  
عن شخص الملك حتى يبقى له جلاله ، وحاولوا أن يجذبوا معهم الشيخ الولي ، الذي  
بدا عليه الإنهاك من المشقة السابقة ، أو غلبته الجرعة القوية التي غلبها غبا منذ  
حين ، فقاوم إبعاده عن هذا المكان تارة بالنضال وطورا بالآتين .  
فهمس (لنج ألن) لزملائه قائلا : « خلوا سبيله أيها النافلون ؛ ناشدكم  
القديس « كرسطوفر » لتخلفن الرجل وإلا طاح منه خنجره ، وشق رؤوسنا  
عاجلا ، خلوا سبيله ، فإنه سوف ينام كالسنبجاب بعد دقيقة » .  
وفي تلك الآونة رى الملك بهم آخر من سهام نظراته إلى مكان الزحام ،  
فكروا جميعا قافلين ، خلفين الشيخ فوق الأرض عاجزا — كما يبدو — عن أن  
يحرك عضوا أو مفصلا من جسمه . وما انقضت لحظة حتى ساد الهدوء والسكينة ،  
وعادت الأمور كما كانت قبل قدوم الشيخ .

## الفصل الحادى والعشرون

أنا القاتل الواهن ،  
وهذا الذئب يسوى كأنه يرقبني ؟  
بخطى خفيفة الوطء تخطى « تاركون » (١)  
أسير نحو الفريسة كما تسير الأشباح .  
من « ماكث » لتكسير

ما انقضى ربع ساعة أو ما يزيد بعد الحادث الذى رويناه حتى ساد السكون التام أمام مسكن الليك ، وجلس الملك لدى مدخل السرادق بين القراءة والتأمل ، وكان العبد النوبى ما يزال يجلو الدرقة الضخمة ، مولياً ظهره باب الفسطاط . وأمام هذا المشهد — على بعد نحو مائة خطوة — وقف بمض من عامة الحراس ، وجلس بعضهم الآخر أو رقدوا مستلقين فوق المشب ، لا يحفلون بغير قصفهم وطربهم ، ويتبعهم فى صمت وسكون ذلك الشيخ لا يحس به أحد ، وما فتئ فى الرحبة التى تمتد بين الحراس والسرادق ، ما تكاد تميزه عن حزمة من الخرق البالية .

وكان النوبى يستخدم الدرقة كالمرآة ، إذ كان لوجهها بريق وهاج تنعكس عليه المراتبات انعكاساً واضحاً ؛ ولشد ما كانت دهشته وذعره حيناً رأى فيها أن الشيخ قد رفع رأسه قليلاً عن الأرض حتى يرى كل ما كان يدور حوله ، وأخذ يتحرك بحذر وإحكام لا يتفقان ألبتة وما كان عليه من ثمل ، ثم نكس رأسه فى الحال ، وكأنه اطمأن إلى أن أحداً لم يكن يرقبه ، وشرع يزحف وما يكاد الرأى يلس فى حركته جهداً تلقائياً ، كأنه يتقدم عفواً نحو الملك شيئاً فشيئاً ، ولكنه بين الحين والحين يقف ويلبث ساكناً ، كالمكبوت يسير نحو غايته ثم تراه وكأن معين الحياة قد نضب منه ، إذا ظن أنه بات محط النظر ؛ فارتاب النوبى فى هذا الضرب من الحركة ، وتأهب من جانبه — مسرعاً على قدر ما يستطيع —

---

(١) اسم فارس من فرسان قصة آرثر الخيالية المعروفة فى الأدب الإنجليزى .

حتى يتدخل في اللحظة التي يمسى تدخله فيها أمراً لا مندوحة عنه .

وواصل الشيخ الزحف شيئاً فشيئاً كالأنفى أو القوقعة ، وما يكاد الرأى يحس به ، حتى بات على بعد عشر أذرع من شخص رتشارد ، ثم نهض على قدميه ، ووثب قُدماً كما يشب النمر ، ووقف إلى ظهر الملك فى أسرع من لمح البصر ، ولوح بمنجرجه فى الهواء ، وكان قد أخفاه فى كه ، وما كان جيش رتشارد بأسره حينئذ بمستطيع أن ينقذ مليكه البطل ، ولكن النبى كان — كذلك الشيخ التهوس — يسير بقدر ، فا إن هم الثانى بالطن حتى أمسك الأول بذراعه المرفوعة ، فحول «الخارجى» — وظاهره كالأولياء — ثورة غضبه نحو ذلك الذى اعترض ما بينه وبين مرماء نجاة وبغير انتظار ، وطمع النبى بمنجرجه طعنة سحبت ذراعه ، بينما انقض عليه النبى وطرحة أرضاً ، وما أيسر ما هشمه بقوة التى ترجح قوة الشيخ أضغافاً مضاعفة ؛ وحينئذ أدرك رتشارد ما دار بين الرجلين ، فنهض ، وما عراه من الدهشة والغضب ، أو ارتسم على محياه انفعال ما ، غير ما يبدى الرجل العادى حينما يبعد عن نفسه زنبورا دخيلاً أو يسحقه . ثم أمسك بالمقعد الذى كان يستوى عليه ، وما زاد على أن صاح قائلاً : « ها ! وغد دنى ! » ، ثم هشم رأس القاتل تهشياً ، وصاح الرجل وقال : « الله اكبر ، الله اكبر » مرتين ، مرة بنهم عال ، ومرة بصوت متهدج ، ثم أسلم الروح عند قدى المليك .

هذا الشغب الذى صحب ما وقع ، نبه النباليين من أتباع رتشارد ، فاندفعوا إلى السراشق مرتاعين صاخبين ، فصاح بهم رتشارد فى صوت فيه نهم الغتاب والتهكم وقال : « حقاً إنكم لحفظة ساهرون ، وحراس نابهن ، فلقد تركتمونى أقوم بعمل الجلال يبدى لا يبدى عمرو — أنصتوا جميعاً ، وقفوا عنيحكم هذا الذى لا ينطوى على شيء ! هلا رأيتم أبداً من قبل رجلاً تركياً قتيلاً ؟ هو ذا — ابنوا هذه الجليفة من المعسكر ، وافصلوا الرأس عن جذعه ، وعلقوه فوق رمح ، وولوا وجهه شطر مكة ، حتى يتيسر له أن يقول لذلك المدعى الدنس ، الذى أوحى له أن يأتى إلى هنا ، كيف بلّغ الرسول رسالته » . ثم قال وقد التفت نحو الأتوبي : « أما أنت

يا صاحبي الأسود الصامت - ولكن ما هذا ؟ - إنك جريح - وبسلاح في ظبانه السم لا ريب ، إذ أن حيوانا ضعيفا كهذا لا يستطيع بقوة الطمن وحدها أكثر من أن يصيب إهاب الليث - ليمتص السم من جرحه أحداكم - إن السم قاتل إذا اختلط بالدماء ، ولكنه لا يؤذى الشفاء إن مسته .

فأخذ عامة الحراس يتبادلون النظر مضطربين مترددين ، وغلب الرعب من هذا الخطر الداهم أولئك الرجال الذين ما كانت الخشية تنطرق إلى قلوبهم .

ثم واصل الملك حديثه وقال : « ثم ماذا أيها الرجال ؟ هل أنتم ذوو شفاء رقيقة ، أم هل تخشون الموت فتتأخرون ولا تتقدمون ؟ » .

فقال ( لنج أن ) وكان الملك ينظر إليه وهو يتكلم : « نحن لا نخشى موت الرجال ، ولكن لا أحب أن أموت كما تموت الفأر المسمومة في سبيل تلك الكتلة السوداء الملقاة هناك ، التي تباع وتشتري في السوق كثور (مارتلناس) » .

فتمتم رجل آخر وقال : « إن جلالة الملك يطلب إلينا مص السم وكأنه يقول لنا هيا احتسوا من هذه الحجرة ! » .

فقال رتشارد : « كلا ، والله ما سألت يوما رجلا أن يعمل ما لم أعمل » .  
ثم وضع الملك شفتيه على جرح العبد الأسود ، غير آبه ولا مكترث بأصوات الاحتجاج ممن أحاط به ، ولا بمعارضة النوبي نفسه الذي كان يجمل سيده ، فلقد هزأ رتشارد بكل عتاب وغلب كل مقاومة ، وما إن توقف لحظة عن هذا العمل الفريد الذي أقدم عليه ، حتى أملى منه النوبي ، ورمى فوق ساعده وشاحا ، وألغ -  
بشارات تم عن الحزم كما تم عن إجلاله للملك - إلى عزمه على أن لا يسمح للملك أن يعود إلى هذه الخدمة المحطية به ؛ وتعرض ( لنج أن ) كذلك وقال :  
« إن كان لا بد من إبعاد الملك عن الاشتغال بمثل ذلك العلاج فإنه يقدم شفتيه ولسانه وأسنانه لخدمة العبد ( وكان يسمى الأتيوبي كذلك ) ، وإنه ليلتهم جسده التهاما قبل أن يلمسه الملك رتشارد بقمه .

ثم دخل شيل مع ثلة من الضباط ، وضم صوت احتجاجه إلى أصوات الآخرين .

فقال الملك « كلا ، كلا ، لا تصيحوا صياحا لا طائل منه بعد أن يفلت النطي من كلاب الصيد ، أو بعد ما يقبل الخطر ثم ينقضى . سوف يكون الجرح طفيفا لأننى لم أكّد أمتص من الدماء قطرة . وإلّله لو كان قطا غاضبا لكان خدشه أشد وأعنى — أما أنا فحسبى أن أتناول حبة من بلسم شاف أتقى بها ، وإن تكن لا حاجة لى بها » .

وهكذا كان يتكلم رتشارد غير مستح من تنازله من عليائه ، بل لقد كسا جلالا حنوه واعترافه بالجبل ، ولما واصل شيل اللوم والعتاب على تعريض الملك ذاته الكريمة للخطر ، فرض عليه الملك أن يلزم السكون .

وقال : « أرجوك الصمت وأن لا تذكر هذا الأمر بعد هذا — إنما فلت ذلك كى أئين لهؤلاء السفلة الجهلة التحاملين كيف يستطيعون أن يماون بعضهم بعضا إذا ما هاجمنا أولئك الأذنياء الأذنال بمجالهم ونبالهم المسمومة » ، ثم قال : « خذ هذا النوبى إلى مسكنك يا شيل ، لقد عدلت عن رأيى فى أمره ، وأسبغ عليه رعاية كافية ، ولكن اسمع منى هذا فى أذنك — تنبه كى لا يفر منك — إن مخبره خير من مظهره ؛ أعطه الحرية كاملة كى لا يترك العسكر ، وأما أنتم أيها الأوغاد الإنجليز أكلة اللحوم ونهالة الخمر ، فعودوا إلى أما كن حراستكم ثانية ، واستوثقوا من زيادة الحذر فى رقابتكم . لا تحسبوا أنكم الآن فى بلادكم حيث الصراحة فى المعاملة ، وحيث يتكلم الرجل قبل أن يضرب ، ويصافح قبل أن يحز الرقاب . إنما الخطر فى بلادنا يسير صراحا وظبانه مستونة مسلولة يتحدى العدو الذى يريد به المهجوم ، وأما هنا فخصمك يستهدك وعلى يديه قفاز من الحرير لا من الحديد ، ويحز رقبتك بريش اليمام ، ويطعنك بطرف دبوس القس ، أو يخنقك برباط ثياب العيد . اذهبوا وافتحوا أعينكم وأغلقوا أفواهكم ، وأقلوا من شرايكم ، وأحدوا من أبصاركم ، واشهدوا ما حوالىكم ، وإلا قصرت فى إطعام بطونكم الكبيرة حتى يشكو الجوع أشد الاسكتلنديين صبرا » .

نفجّل الحراس وخارت نفوسهم ، ثم عادوا إلى أماكنهم ، وبدأ شيل يمتب على سيده مخاطرة بهوانه في إهمال الحراس لواجبهم ، وضرهم لغيرهم مثلاً شيئاً في أمر بالغ الخطر كما بهم لرجل مريب كالشيخ أن يدنو حتى يصير من شخص الملك قاب قوسين ، وهنا عارض الملك شيل وقال : « لا تذكر هذا الأمر يا شيل ، أفكنت تريدني على أن أتعلم لنفسي من خطر زري كهذا بأشد من تعمي على ضياع راية انجلترا ؟ لقد انتزعت وسرقها لص ، أو اختطفها خائن ثم أسلمها ، ولم تُرق في سبيلها قطرة من دم — أي صاحبي الأسود ، يقول السلطان المجيد إنك تدرك من الأمور خفيها ، والآن لو استخدمت رجلاً أشد منك حلوكة ، أو أي وسيط آخر أردت ، كي تكشف لي عن اللص الذي ألحق بشرفي الإساءة ، أعطيتك وزنك ذهباً ، ماذا تقول في هذا ؟ ها ! » .

وبدت على الرجل الأبكم الرغبة في الكلام ، ولكنه تميم بصوت خافض متقطع ، صادر عن نفس حزينة كثيفة ، ثم أطبق ذراعاً فوق الأخرى ، ونظر إلى الملك بعين فيها لمحة الأريب ، ونكس رأسه إجابة على ما سئل . فقال رنشارد جازعاً متلهفاً : « ماذا تقول ! هل تأخذ على نفسك أن تكشف عن هذا الأمر ؟ » .

فكرر العبد النبوي الإيحاء الأول .

وقال الملك : « كيف لنا أن نتفاهم ؟ هل تستطيع الكتابة أيها الرجل الكريم ؟ » .

فنكس العبد رأسه ثانية إيجاباً .

فقال الملك : « أعطوه ما يكتب به ، لقد كانت أداة الكتابة أبداً في فسطاط أبي أقرب منا لأمنا في فسطاطي ، ولكن إن بحثتم وجدتموها هنا أو هناك ، اللهم إلا إن كان هذا الجو المحرق قد جفف اللداد — والله يا شيل إن هذا الرجل لجوهرة ، بل لؤلؤة سوداء » .

فقال شيل : « هل لا يأذن لي مولاي أن أقول ما أرى ، والله ياسيدي

ما أحسب هذا الأمر إلا صفقة خاسرة ، وما أحسب هذا الرجل إلا ساحراً ،  
والسحرة ينضمون إلى الخصوم الذين يريدون أن يدمسوا لنا السم في السم ، وأن  
يشربوا الشقاق في صفوف مجامعنا و . . . » .

فقال رتشارد : « صه يا ثقل ، إذا ما دنا كلبك الثمالي من ردف النزال فصح  
به وارث تليته ، ولكن إذا ما كان بلا تاجنت يأمل أن يسترد شرفه فلا تحاول  
أن تقف في سبيله » .

وفي غضون ذلك الحديث كان المبد يكذب وكأنه قد حذق فن الكتابة ، ثم  
نهض ورفع ما سطر إلى جبينه ، وخر ساجداً — كمادته — قبل أن يسلم  
الكتوب إلى يدي رتشارد ؛ وكان المخطوط بالفرنسية ، رغم أن رتشارد كان يتكلم  
بالفرنسية حتى ذلك الحين .

« إلى رتشارد الملك الطافر الذي لا يقهر ، ملك إنجلترا ، يقدم هذا أشد  
رقيقة خضوعاً . إنما الأسرار الخفية صناديق السماء المعلقة ، ولكن الحكمة قد  
تفتق الوسيلة لفض ما أوصد . لو كان لمبدك أن يقف حيث زعماء الجيش المسيحي  
يسرون أمامه واحداً تلو الآخر ، فكأن على يقين أنه إن كان بين جموعهم من  
صدرت عنه الإساءة التي يشكوها الملك ، فسوف يدنو للبيان إثم ، حتى وإن كان  
مستوراً وراء حجب سبعة » .

فقال الملك رتشارد : « أقسم بالقديس جورج لقد تحدثت بأحسن حديث ،  
ثقل ! أنت تعرف أنا سوف محشد جندنا غداً ، وقد اتفق الأمراء أن يسير  
الزعماء برايتنا الجديدة وهي ترفرف فوق قمة سنت جورج ، ثم يحويونها بما يليق من  
إجلال ، تكفيراً عن الهوان الذي لحق بإنجلترا من ضياع العلم . صدقني إن الخائن  
المتستر لن يجرؤ على التنبيب عن هذا المشهد الرائع الذي تمحي به الإهانة ،  
خشية أن يكون غيابه موضعاً للريبة . هنالك سوف تقيم هذا الرجل الأسود  
صاحب الرأي السديد ، وإذا استطاع بفنه أن يكشف عن الوغد الدنيء ، فدعني  
أفعل به ما أريد » .

فقال شيل في صراحة البارون الإنجليزى : « مولاي ، احذر ما أنت شارح فيه ، لقد تجدد الوثام بين أفراد عصبتنا المقدسة ، وهو أمر لم يكن في الحسبان ، فهل تريد على أساس واه من الريية ، يبعثها عبد أسود ، أن تثلم جراحاً ما اندملت إلا منذ عهد قريب ، أم هل تريد أن تجعل من الموكب المهيّب — الذى سوف يحتشد لاسترداد شرفك وتأسيس الوحدة بين الأمراء المتنافرين — وسيلة جديدة لايجاد سبب آخر للأذى ، أو إحياء إحن قديمة في النفوس ؟ وما كان أغنانى عن هذا القول ، فاهو إلا لحة من البيان الذى أدلت به جلالتك لجمع الصليبيين الحاشد .  
فمبس الملك واعترض شيل وقال : « أى شيل ، لقد جعلتك غيرتك وحقاً لا خلاق لك ، إني ما وعدت قط أن أحجم عن السير في أية سبيل تؤدي إلى الكشف عن ذلك الرجل المقوت الذى ابنت تهجم على شرفي . والله ما كان أجدرنى أن أنزل عن ملكي — بل عن حياتي — قبل أن أفعل ذلك . إن كل بيان أدليت به كان لا يخلو من هذا الشرط الضروري الحاسم ، وما كنت لأعفو عن دوق النمسا من أجل العالم المسيحي إلا إن تقدم وأقر بإثمه إقرار الرجال .  
ثم استأنف البارون حديثه جازعاً والمها وقال : « ولكن أى أمل لنا في أن هذا العبد المحتال لن يخدع جلالتك ؟ » .

فقال الملك : « صمتاً شيل ، إنك تحسب نفسك حكماً قديراً ، وما أنت إلا أحمق جاهل . فإن ذكرت أمرى مع هذا الرجل فحاذر — واعلم أنه أسحق غوراً من أن تدرك كنهه بفطنتك وذكائك ، ذكاء « وستمورلاند » ، وأما أنت أيها الأسود الصامت ، فأعدّ عدتكَ لتتجز العمل الذى وعدت ، وخذها كلمة من ملك أنك سوف تختار لنفسك جزاءها . صه ، صه ! لقد طوّد الكتابة » .

وخط الرجل الصامت إذ ذاك ورقة أخرى ، قدمها إلى الملك ماثلاً كما فعل أول مرة ، وجاء في مکتوبه هذه الكلمات : « إن إرادة الملك شريعة عبده ، ولا يليق للعبد أن يطلب الجزاء على أداء واجبه » .  
فتوقف الملك عن القراءة وقال متعجباً : « الجزاء ، والواجب ! » ثم وجه



الخطاب إلى شيل ، وكلمه باللسان الإنجليزى وبصينة التأكيد قائلا : « سوف يفيد أهل الشرق هؤلاء من الصليبيين — إنهم يتعلمون منهم لغة الفروسية ! — أنظر يا شيل إلى هذا الرجل كيف هو مضطرب جازع ، ولولا لونه الأسود لبدأ الاحرار على وجنتيه . والله ما عجبت لو أنه أدرك ما أقول ، فهم فى حذق اللغات بارعون » .

فقال شيل : « ليس فى الأمر إلا أن هذا العبد المسكين لا قبل له بنظرة جلالتك » .

ثم واصل الملك كلامه ، وضرب على الورقة بإصبعه وهو يقول : « ولكن هذا المكتوب الجريء يذكر أن رجلنا هذا الصامت ، الذى وثقنا فيه ، يحمل رسالة من صلاح الدين إلى السيدة أديث بلاتاجنت ، وهو الآن يرجو الوسيلة والفرصة لإبلاغ ما يحمل ، فماذا ترى يا شيل فى هذا المطلب المتواضع ؟ » .

فقال شيل : « إنى لا أدرى كيف تستسيغ جلالتك مثل هذه الحرية ، ولكنى ما أشك فى أنك لو بعثت من لديك رسولا يحمل إلى السلطان مثل هذا المطلب ما استقام على كتفى رسولك رأسه طويلا » .

فقال رتشارد : « الحمد لله على أنى لا أشتهى واحدة من حسانه اللاتى لفحتهن الشمس ، وأما أنى أجازى هذا الرجل على أداء رسالة سيده ، وأن أجازيه بعد ما أقتد حياتى بزمى وجيز ، فما أحسب إلا أن هذا عمل جائر . سوف أبوح لك بسر يا شيل ؛ ولئن كان خادمنا الأسود الصامت واقفاً إلا أنه لا يستطيع — كما تعلم — أن يعيد الكلام ، حتى وإن أدرك ما نقول ؛ اعلم يا شيل أنى فى الأسبوعين الماضيين كنت تحت تأثير تمويزة عجبية ، وكم وددت لو خلصت من سحرها ، وما تقدم لى رجل بخدمة طيبة حتى محامى ما عمل من خير بأذى بالغ ، وما استحق الموت على يدى لخيانة أو إهانة إلا — رجل من بين الرجال جيما — صنع بى جميلا يرجح كل ما به من مثالب وأصبح له — رغم ما يستحق من جزاء — دين على شرفى ؛ وهكذا ترى أنى حرمت خير جانب من جوانب وظيفتى ، فأنا لا أستطيع أن أجزى خيرا

ولا شراً ؛ والله إلى أن يبدل الله الأرض غير الأرض ، لن أقول عن مطلب خادمنا هذا الأسود إلا أنه مطلب جرىء جرأة ما بعدها جرأة ، وإن خير فرصة له لكسب عفونا ورضانا ، هي أن يحاول أن يكشف لنا عن الجارم كما عرض ، وحتى آتئذ أوله رعايتك يا هيل واسع في العناية به عناية لائقة » . ثم قال الملك في صوت خافت : « واستمع إلى مرة أخرى ، اذهب في طلب ناسك عين جدة وتعال به إلى تونا ، قديساً كان أو همجياً ، عاقلاً أو مجنوناً ، ودعني أكله خفية وسراً .

ففضل شيل عن السراق الملكى ، وأشار إلى النوبى أن يتيهه ، وهو شديد المجدب بما رأى وسمع ، وبخاصة من مسلك الملك مسلوكا غير معهود . ولم يكن على الجملة هناك أسير على المرء من أن يكشف عن مشاعر رتشارد وإحساساته المباشرة العاجلة — وإن يكن عسيرا في بعض الأحيان أن تعرف كم ذا يطول بقاؤها ، فلقد كان الملك لمواصف انفعاله أطوع من الريشة في مهب الريح القلب ، ولكن طبعه في هذا الظرف كان — على غير المهود — هادئاً غامضاً ، ولم يكن من اليسير أن تحكم أيها غلب عليه في معاملته لهذا الرجل الذى انضم إلى حاشيته أخيراً : الفضب أم الشفقة ، أو أن تعرف بأى عين كان ينظر إلى الرجل الفينة بعد الفينة ؛ ولقد كان في الخدمة العاجلة ، التى أداها الملك للنوبى كي يقيه ما قد ينتجم عن جرحه من مميء الأثر ، كفء للجميل الذى صنعه العبد فيه ، حينما تمرض لضربة القاتل المقتال ، ولكن يظهر أن حسابا طويلا ما برح بينهما رهن التصفية ، وكان الملك في شك هل سيخرج من هذه التصفية على الجملة دائناً أو مديناً ، ولذا فقد اتخذ في ذلك الحين طريقا وسطا تليق به إن كان هذا أو ذاك ؛ أما عن النوبى وأنى تعلم فن كتابة اللغات الأوروبية ، فقد كان الملك يعتقد أنه لم يحذق اللسان الإنجائزى على الأقل ، لأنه راقبه عن كئيب خلال ما دار أخيراً ، ورأى أنه يستحيل على رجل يفقه حديثاً يدور بشأنه أن يظهر وكأنه لا يابه الأتة بالحديث .

## الفصل الثاني والعشرون

من هناك ؟ — هيا اقرب — إنه فضل منك —  
هو طبيب الحكيم ، وصديق الجيم .  
السريوستاس جرى

والآن نود بروايتنا إلى الفترة التي سبقت ما ذكرنا أخيراً من حوادث بمدة وجيزة ، وذلك حينما أبعده فارس النمر البائس عن معسكر الصليبيين ، وقد تميز بين صفوفه امتيازاً كبيراً ؛ ووجهه الملك رتشارد الطبيب العربي — كما يذكر القارىء — وهو إلى مرتبة الرقيق أقرب منه إلى أى شئ آخر . تبع الفارس سيده الجديد — كما يصح لنا الآن أن نسمى الحكيم — وقصدوا خيام المغاربة التي كانت تضم حاشيته وأملاكه ، وشعوره فاقد الرشد كرجل سقط من قمة جبل ونجا بحياته على غير انتظار ، وهو لا يقوى إلا على أن يسير متخاذلاً من المكان الذي صرع فيه ، ولكنه لا يستطيع أن يسير مدى ما لحق به من أذى وضرر ؛ وما إن بلغ القسطاط حتى ارتقى دون أن ينبس بيئت شفة فوق فراش من جلد الجاموس المدبوغ ، دله عليه مرشده ، ثم أخفى وجهه بين يديه ، وأخذ يئن أنينا عالياً وكأن قلبه يوشك أن يتفطر ، وقد سمعه الطبيب — وهو يلقى بأوامره على خدمه العديدين كي يستعدوا للرحيل صبيحة اليوم التالى قبل منبثق النهار — فتحركت في نفسه الشفقة ، وتوقف عما كان مشغولاً به ، ثم جلس ملقياً ساقاً فوق الأخرى إلى جانب سريره ، وأخذ يواسى الرجل كما يفعل أهل الشرق عادة .

وقال : « أى صديقى ، هوّن على نفسك ، فلقد قال الشاعر ما معناه : « خير للرجل أن يكون خادماً لسيد شقيق من أن يكون عبداً لشهواته القوية الخاصة ، وتشجع ، فإن يوسف بن يعقوب قد باعه إخوته إلى فرعون ملك مصر ، ولكن مليكك وهبك رجلاً سوف يكون لك كالأخ الشقيق » .

وجاهد السر كنث أن يشكر الحكيم ، ولكن قلبه كان مفعما ، فصدرت عنه صوات غامضة وهو يحاول دون جدوى أن يجيب ، فدفقت هذه الأصوات لطبيب الشفيق إلى أن يكف عن محاولاته المبتسرة لتنزيه الفارس ، وخلف خادمه هذا الجديد — أو قل ضيفه هذا — وادعاً ساكناً يسترسل في أحزانه . وبعد ما أمر بكل ما يلزم من إعداد للرحيل صبيحة الغد ، جلس على بساط الفسقاط ، تناول وجبة وسطا بين بين ، ولما انتمش بالطعام قليلا ، قدم للفارس الاسكتلندي نوتا كقوته ؛ ورغم أن العبيد قد أفهموا السر كنث أنهم لن يقفوا في اليوم التالي للطعام إلا بعد أن تتقدم من اليوم ساعات عديدة ، فإن الرجل لم يستطع أن يتقلب على النفور الذي كان يحس به من تناول القوت ، وعبثاً ألحفوا عليه أن يتذوق شيئاً اللحم إلا جرة من الماء البارد .

واستيقظ السر كنث بعد ما أدى مضيفه فريضة الصباح ثم أوى (المضيف) إلى نراشه بمن طويل . ولم يزر الكرى جفنى العربي حتى انتصف الليل ، وسرت بين خدمه حركة لم يصحبها حديث ولا ضجيج كثير ، ولكنه علم منها — رغم ذلك — أنهم كانوا يمحطون البعير ويتأهبون للرحيل ، وبينما هذا الإعداد قائم على قدم وساق ، كان فارس اسكتلندا آخر من هب من رقاده إذا استثنينا الطبيب . وإسا كانت الثالثة صباحا أو ما إلى ذلك ، قال له رئيس الخدم إنه ينبغي له أن ينهض ، ففعل دون أن يحير جوابا ، وتبعه في ضياء القمر حيث الجال قائمة ، وأكثرها بحمل على ظهره عبثه ، ولم يبق منها غير واحد أناخ حتى يتم تحميله .

وعلى كئيب من النوق وقف عدد من الخيل ملجمة مسرجة ، ثم أقبل الحكيم نفسه وامتنطى واحدا منها برشاقة تتفق ورزانه مركزه ، وأشار إلى آخر كي يساق إلى السر كنث ، وكان بانتظارهم ضابط انجليزى كي يخفرهم خلال معسكر الصليبيين . يتثبت من رحيلهم آمنتين ؛ وكان كل شيء على أهبة للسفر ، ثم أقتلع السراقذ لندى خلفوه بخفة عجيبة ، وكان حمل الناقة الأخيرة يتألف من أغطية الفسقاط قوائمه العشرة ، ثم كمر الطبيب هذه البارة في مهابة وخشوع « الله

يهدينا ومحمد يقينا في البر والبحر » ثم فصلت القافلة بأسرها في الحال .  
واعترض سبيلهم — وهم يشقون المعسكر — الخفراء المديدون الساهرون على  
الحراسة هناك ، وإذا ما مررت القافلة بحى من أحياء الصليبيين الغيورين ، سار  
رجالها اضطرابا في سكينة وهدوء ، أو استمعوا إلى اللعنات تنصب على نبيهم  
تمتمة ففصوا عنها الطرف كارهين ؛ وأخيرا تخطوا آخر المقبات ، والتأمت جماعتهم  
وهي تسير سيرا عسكريا حذرا ، وتقدمهم اثنان أو ثلاثة من الركبان طليعة لهم ،  
يتبهم واحد أو اثنان على قيد رمح ، وكلتا تهيأت الظروف انفصل بعض منهم  
ليرقب الجناحين ، وهكذا سار الجميع قُدُماً ، ونظر السركنت وراءه إلى المعسكر  
يفضضه ضياء القمر ، فأحس إحساساً قويا بحرماته من الشرف والحرية ، وبإقصائه  
عن الأعلام الخفاقة التي كان يأمل أن يحظى تحت ظلها يبعد الصيت ، وأحس  
كذلك يبعده عن خيام الفروسية والمسيحية و... عن أديث بلاتاجنت .

وكان الحكيم راكباً جواده إلى جواره ، فأخذ بنغمه المألوف يسرى عن  
السركنت بسديد الحكم وقال : « إن كان السفر أمامك فليس من الحكمة  
أن تتطلع وراءك » وبينما هو يتكلم زلّ جواد الفارس في مشيته زلة خطيرة كأنها  
درس خلقى عملي يتم قصة العربي .

وقد اضطرب الفارس من هذه العثرة أن يشتد في إمتلاك زمام الجواد ، واضطر  
أكثر من مرة أن يلجأ إلى العنان ويستعين به ، وأما فيما عدا ذلك فلم يكن ثمة  
أسلس قيادا ولا أخف حركة من هذه الفرس وهي تسير وخذاً بخطى متزنة .  
وقال الطبيب صاحب الأمثال : « ما أشبه جوادك هذا بحظ الإنسان . لا بد  
للراكب — والجواد يخف به بخطى هينة لينة — أن يحذر من السقوط ، وكذلك  
الأمر إن بلغ بنا الجُدُّ ذروته ، ينبئ لحكمتنا أن تتيقظ وتنبه كي ننجو من  
سوء الطالع » .

ولكننا إذا ما امتلأت منا البطون ، نفرنا حتى من أقراص الشهد ؟ فليس  
عجيباً إذن أن يضيق بالفارس الصبر — وقد أذله نكد الطالع ، وخارت عزيمته مما

لحقه من الهوان — فلا يستمع إلى شقوته وقد باتت في كل مناسبة مضرباً للحكمة والمثل ، مهما صدق المثل وأصاب .

فقال متبرماً : « ما أحسبني بحاجة إلى زيادة الإيضاح عن تذبذب الجَدِّ ، ولأشكرنك يا سيدي الحكيم على حسن انتقائك لجوادي لو أنه زل زلة قاضية تنكسر فيها رقبتى ورقبته » .

فأجاب الحكيم العربي مهيباً رزينا رابط الجأش وقال : « أخى ! إنما أنت تتكلم كما يتكلم الحقى ؟ أنت تقول فى سرِّرتك إن الحكيم كان ينبغى له أن يعطيك — كضيف له — خير الجوادين وأصغرهما ، وأن يحتفظ بالفرس المجوز لنفسه ، ولكن اعلم أن مثالب الفرس المجوز يقابلها نشاط الراكب الشاب ، وأن شدة الجواد الفنى يكسر من حدتها طبع الشيخ البارد » .

هكذا تكلم الحكيم ، ولكن السر كنت لم يحرم لهذا الخاطر جواباً مما قد يؤدى إلى مواصلة الحديث بينهما ؟ ولعل الطبيب قد كلَّ من التمزية يتقدم بها إلى رجل لا يقبل التمزية ، فأشار إلى واحد من حاشيته .

وقال : « أليس لديك ، يا حسن ، شيء تقتل به ملل الطريق ؟ »

وحسن هذا قصاص شاعر ومحترف ، دفعه هذا السؤال إلى أن يجيب إلى ما سئل ، فقال محدثاً الطبيب : « أى مولاي ، يا سيد دار الفناء ، أنت ذلك الذى إن رآه الملكُ عزرائيل نشر جناحيه وطار ، أنت أحكم من سليمان بن داود الذى انطبع على خاتمه ( اسم الجلالة ) ، هذا الاسم الذى يسيطر على الأرواح فى هذه الدنيا — أنت تسير على جادة الخير تحمل حيث تحمل الشفاء والأمل ، فحاشا لله أن تكتب حياتك من قلة القصص أو الفناء . إستمع إلى ! ما دام خادمك إلى جوارك ، فسوف تندفق كنوز ذاكرته كما يتدفق من النبع فى الدرب تيار الماء ينتمش به كل من سار على الطريق » .

وبعد هذه الديباجة ، رفع حسن صوته ، وشرع يقص قصة حب وسحر ، تتخللها مآثر الظفر والقتال ، وتحلبها المقتبسات من شعر الفرس ، والمحدث بأقوالهم

علم ، وإذ ذاك احتشدت حول القصاص حاشية الطيب كلها ، ما خلا أولئك الذين كان لا بد لهم من التخلف لرعاية البعير ، وتزاحوا — على قدر ما يسمح لهم احترامهم لسيدهم — كي ينعموا بتلك اللذة التي يجدها أبدا أهل الشرق في هذا الضرب من الرواية .

ولربما لذل للسركنت في ظرف غير هذا أن يستمع إلى هذه الرواية ، التي كانت شديدة الشبه بقصص الفروسية الخيالية الدائعة في أوروبا في ذلك الحين ، وذلك رغم عجزه عن فهم اللسان العربي فهما صحيحا ، ورغم أن هذه القصص كانت من إملة خيال أشد إسرافا ، ومسوقة في لغة أكثر مبالغة ، ومليئة بالاستمارة والكناية ، لكنه — في هذا الظرف — لم يكدي بحس حتى بأن رجلا قد توسط القافلة وأخذ ينشد وينفي في نعم خافت نوحوا من ساعتين ، مترنما بصوته ترغا يقابل به شتيت المواطن وألوانها المختلفة التي ساقها في قصته ؛ وهو يستمع لقاء ذلك مرة إلى الإعجاب به في دمدمة خافتة ، ومرة إلى استحسانه في تمتة خافضة ، وحينما إلى التحيب والبكاء ، وحينما إلى إجابته بالسبات ، بل وبمالي الضحكات — والضحك على قلوب سامعيه ثقيل .

وسهما بلغ بالرجل الطريد من شرود الدهن والامترسال في الأحزان ، فقد كان يوقظ انتباهه الفينة بعد الفينة خلال هذا القصص نباح خافت يصدر عن كلب وضع في صندوق من الصفصاف يتدلى من إحدى النوق ؛ وفارسنا — كالحاطب الحنك — لم يتردد في معرفة الكلب ، فلقد كان كلبه الأمين بعينه ، ولم يشك من نباح الكلب وأنيته أن الكلب كان يدرك قرب سيده ويناشده — بطريقته — العون على إيقاظه وتحريره .

فقال : « واأسفاه يا (رزوال) المسكين ، أنت تطلب النجدة والمطف من رجل مكبل في أصفاد أضيق مما أنت فيه . سوف أظاهر بعدم الاكتراث لك ، ولن أجوبك المحبة ، ما دام ذلك لن يؤدي إلا إلى اشتداد المرارة عند الفراق » . وهكذا انقضت ساعات الليل ، وانقشع الفجر العمم القاتم الذي يسبق تبشير

«الصباح في سوريا ، ولكن ما إن أشرق الخيط الأول من قرص الشمس وعلا فوق الأفق ، وما إن اندلع الشماع الأول وتألقت قطرات الندى — التي كانت تنتثر فوق القفر الذي بلغه الركب إذ ذاك — حتى علا صوت الحكيم الجمهوري على صوت القصاص ، وقطع عليه روايته ، وأخذ يردد فوق الرمال ذلك النداء المهيّب الذي يدوي به المؤذنون في المساجد فوق المنائر كل صباح ، ويقول : « حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، لا إله إلا الله — حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، محمد رسول الله — حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، هذه الدار إلى الفناء — حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، إن يوم الحساب قريب »<sup>(١)</sup> .

وفي أسرع من لح البصر ، نزل المسلمون جميعاً من فوق الجياد ، وولوا وجوههم شطر مكة ، وتيمموا بالرمال عوضاً عن الوضوء بالماء ، ودعا كل منهم ربه ونبيه — في عبارة موجزة حارة — أن يشملاه بالرعاية ويفرأله ذنوبه وآثامه .

ولما رأى السركنت أقرانه يقومون بعمل لا يحسبه إلا الوثنية بعينها ، تألم في قلبه وفي نفسه ، ولكنه رغم ذلك لم يسمع إلا أن يجمل فيهم إخلاصهم ومحاسنهم هذه ، وإن يكن في طريق الضلال ؛ واستحثته حرارة إيمانهم على أن يضرع إلى الله هو ذاته بدعاء أطهر من دعائهم ، ولكنه عجب — مع ذلك — من هذا الإحساس الجديد الذي دفع به إلى مشاركة أولئك الأعراب في الصلاة — حتى وإن يكن بآبهاال غير آتياهم — أولئك الأعراب الذين رأى في صلاتهم إجرأماً مشيناً بالأرض التي قامت فيها عجائب المعجزات ، وأشرق فيها نجم الخلاص<sup>(٢)</sup> .

هذا الآبهاال — الذي تضرع به السركنت في هذه البيئة الفرية — كان يتفجر من شعور طبي خالص بالواجب الديني ، وكان له الأثر المعهود في تهدئة الخواطر التي اضطربت طويلاً من هذه التكببات التي توالى عليه واحدة إثر الأخرى ؛ وتقرَّب المسيحي إلى عرش الواحد القهار مخلصاً جاداً يعلمه خير درس في الصبر تحت الأرزاء ، لأننا إن كنا نبرم بحكم الله فنحن إذن نسيء إليه ، وإن كنا نسيء

(١) ليست هذه صيغة الأذان المعموعة في الإسلام . (٢) يقصد أرض فلسطين .



إليه فكيف لنا أن نتظاهر بالضراعة إليه ؟ أو إن كنا في صلواتنا نقر في كل عبارة ببث هذه الدار القانية وهباتها إذا قيست بما في دار الخلود والبقاء ، فكيف لنا أن نأمل في خداع علام الغيوب ونسمح للدنيا وللشهوات الدنيوية أن تملكنا في كل حين ، بل وبعد الدعاء الخاشع لله توا ؟ ولكن السر كنث لم يكن من هؤلاء ؛ فلقد أحس بالراحة والقوة ؛ وشعر بأنه أكثر استعداداً للخنوع أو للقيام بما تتطلبه الظروف من العمل والعناء .

وكان جماعة الأعراب إذ ذاك قد عادت إلى ظهور الجبال ، واستأنفت المسير ، وواصل حسن القصاص جبل روايته ، ولكن سامعيه لم يعودوا — كما كانوا — مصغيين منصتين ؛ وكان أحد الخيالة قد صعد على نشز من الأرض إلى عيين الصف القصير ، والآن عاد يهرول مسرعاً إلى الحكيم وأخذ يحاده ، وعلى إثر ذلك بثت بأربعة أو خمسة من الفرسان ، وشرعت القافلة الصغيرة — وعدتها نحو من عشرين أو ثلاثين رجلاً — تبهمهم بالنظرات ، كأنهم قوم في شاراتهم أو تقدمهم أو تقهقرهم ما يبشر بالخير أو ينذر بالشر . ولما رأى حسن أن سامعية غير منصتين ، أو قل لما صرفته هو نفسه هذه المظاهر المريبة في جناح القافلة ، وقف عن الفناء ، وسار الركب في صمت لا يضطرب إلا حيناً يحذو البعير الصابر راكب من الركبان ، أو حيناً يتحدث رجل قلق من أتباع الحكيم إلى جاره في همس خافت وعلى عجل . وبقوا على هذا الركود حتى أتوا سفح رابية من الرمال أخفت عن قافلهم ما كان قد حدا بطلاتهم إلى الدعر ، واستطاع السر كنث إذ ذاك أن يرى على بعد ميل أو ما ينيف ، شيئاً أسود يتحرك في قلب الصحراء سريماً ، نظر إليه بعين الحنك فأدرك أنه قافلة من الفرسان أوفر من قافلهم عديداً ؛ وكان الوهمض الكشيف المتلاحق الذي يمسك الأشعة الأفقية من الشمس الشرقة يدل على أن تلك الجماعة كانت ثلة من الأوربيين في كامل عتسهم وسلاحهم .

فالتى فرسان الحكيم على زعيمهم نظرات جازعة قلقه تم عن خوف في النفوس شديد ، أما الحكيم فلبث رزيناً رابط الجأش كما كان حيناً دعا قومه

للصلاة ، ثم بعث باثنين من خيار فرسانه الركبان وأمرهما أن يدنوا — ما سمح لهما الحذر — من أولئك المسافرين في الصحراء ، وأن يرقبا عديدهم على وجه دقيق ، وأن يتعرفا صفاتهم ومراميمهم إن استطاعا إلى ذلك سبيلا ؛ وهذا الخطر — أو شبه الخطر — كان وهو يقبل على القافلة حافزاً يبحث كل غافل ، فتنبه السر كنث إلى نفسه وإلى موقفه .

وقال للحكيم : « ما إخال أولئك الرجال إلا فرساناً مسيحيين ، فإن كانوا كذلك ، فم أنت خائف ؟ » .

فرد عليه الحكيم قائلاً : « خائف ! » مررداً لفظ السر كنث باستخفاف وازدراء ، ثم قال : « إن الحكيم لا يخشى غير الله ، ولكنه أبدأ يرتقب من أشرار الرجال أسوأ ما يفعلون » .

فقال السر كنث : « إنهم مسيحيون ، ونحن في وقت الهدنة ، فلماذا نخشى الحنث في اليهود ؟ » .

فقال الحكيم : « هم جنود المبد من القساوسة الذين تحظر عليهم عهودهم أن يبرفوا مهادة المسلمين أو الثقة فيهم ؛ أصبحهم بالوباء يارسول الله جذورا وفروا وأغصنا ! — سلمهم حرب ، وعهودهم بهتان وزور ؛ إن غيرهم من غزاة فلسطين لهم فترات وأحوال تُشرب فيها قلوبهم بالشفقة والرحمة ؛ فرتشارد الأسد إذا ظفر عفا ، والنسر فيليب يخفض جناحه إذا أصاب الفريسة — وحتى دب النمسا إذا امتلأت بطنه أدى إلى النوم ؛ ولكن هذه المشيرة من اللذائب الجياع لا تعرف السكون ولا الشعب فيما تسلب وتنتصب — أما ترى أنهم قد فصلوا عدداً من جماعتهم ، وأنهم يسرون شرقاً ؟ هنالك ترى غلمانهم وأتباعهم الذين ينشئونهم على مبادئهم الخفية اللئيمة ، والذين يمشوا بهم — لحفتهم — كي يحولوا بيننا وبين الماء ؛ ولكن والله لبيوءن بالخفية والفشل ؛ أنا أعلم منهم بحرب الصحراء » .

ثم وجه إلى كبير ضباطه بضع كلمات ، وتبدل مسلكه ومحياء في الحال من الاسترخاء والوقار — وهما في الشرق من صفات الحكماء الذين تمودوا التأمل أكثر

مما تعودوا الحركة — إلى الظهور بالهمة والكبرياء — وهما من صفات الجندي الباسل يستفز نشاطه ذو الخطر يلحجه من بعيد ويستخف به .

ولكن هذا الخطر المقبل كان له في عيني السركنت وجه آخر ، فلما أن قال له (أدنبك) : « عليك أن تتمهل وتلزم أبداً جوارى » أجابه بالنفي مطمئناً رابط الجأش .

وقال : « هنا لك أرى صحابي بالسلاح مدججين ، هنالك أرى رجالاً أخذتُ على نفسي أمامهم أن أقاتل أو أموت — وعلى رأيهم تتألق علامة خلاصنا المبارك — إنى لا أستطيع أن أفر من الصليب إلى حجة الهلال » .

فقال الحكيم : « أحق بك من جاهل ! والله لو استطاعوا إخفاء الخنث في شروط الهدنة ، لكان أول ما يقطعون به من عمل هو أن يزلوا بك الموت » .

فأجاب السركنت قائلاً : « على أن آخذ لنفسي حذرهما من ذلك ، ولكنى إن استطعت أن أززع عنى قيود الكفار فلن أتكبل بها لحظة واحدة بعد ذلك » . فقال الحكيم : « إذن فأنا أشرك أن تتبعنى » .

فأجابه السركنت غاضباً وقال : « تأمرنى ! والله لولا جليل صنعت بى ، ولولا أنك أردت بى خيراً ، ولولا أنى مدين لثقتك بحرية هاتين اليدين اللتين كان بوسمك أن تكبلهما بالأصفاد ، لولا ذلك لأريتك أن إرغامى — وإن كنت من السلاح أعزل — ليس بالأمر الهين أو اليسير » .

فأجاب الطبيب العربى وقال : « حسبك هذا وكفى ، إننا نضيع الوقت وهو نفيس » .

وما إن أتم حديثه حتى لوح يساعده في الفضاء ، وصاح صياحاً عالياً أجش ، نذيراً لمن كان في حاشيته ، فتفرقوا على الفور جميعاً على صدر البادية ، وكأنهم عقد انقطع حبله ، وانتثرت جباهه كل منها في ناحية . ولم يكن لدى السركنت من الوقت ما يمكنه من أن يرقب ما جرى بعد ذلك ، لأن الحكيم في تلك اللحظة عينها أمسك بزمام فرسه وأطلق لجواده العنان ، وانطلقا معاً كالبرق الخاطف ،

وبسرعة كادت أن تسلب الفارس الاسكتلندي القدرة على التمييز ، ولئن أراد أن يوقف قائده عن السير لمعجز كل المعجز ؛ والسر كنت مدرب على القروسية منذ نعومة أظفاره ، ولكن أخف ما امتطى من جواد — رغم ذلك — لم يكن إلا كالسحفاة إذا قيس بخيول الحكيم العربي . وأثار الجوادان وراءهما النقع ، وكأنهما ينهيان الغلاة نهياً ، ويطويان الفراسخ في لحظات ، ومع ذلك فإن قوتيهما لم تفقرا ، وبقيت أنفاسهما خالصة كما كانت حينما بدءا هذا العدو العجيب . والحركة كلها يسرها وخفها كانت بالتحليق في الهواء أشبه بالركض على الأديم ، ولم يصحبها شعور أليم اللهم إلا ذلك الرعب الذي يحس به المرء بطبيعته وهو يتحرك بسرعة فائقة ، وعسر التنفس الذي ينشأ عن شق الفضاء بسرعة الريح .

ومضى ما ينبغي على الساعة بعد هذا الركض الرائع ، الذي يقصر مجهود البشرية بأسرها عن اللحاق به ، ثم أرخى الحكيم من سيره وأبطأ من خطى الخيل ، حتى بات عدوها محتلماً ، وشرع يتحدث الاسكتلندي حديثاً طويلاً عن جدارة خيوله في صوت هادئ مطمئن ، كأنه إنما كان يمشي على قدميه في الساعة التي انقضت ، والاسكتلندي مقطوع الأنفاس ، أعشى البصر ، قليل السمع ، وجسمه كله في دوار شديد من سرعة هذا العدو الشديد ، فلم يكدر يفهم الكلمات التي كانت تتدفق من صاحبه تدفقاً .

قال العربي : « هذه الخيول من سلالة تعرف (بذات الجناح) تبارى بسرعتها كل شيء عدا براق النبي ، وهي تطعم شعير اليمين الذهبي ممزوجاً بالتوابل ، وقليلاً من لحم الضأن المجفف ؛ وكمن ملك بذل ما يملك ليظفر بها ، وهي في شبيها نسيطة كما في شبابها ، وأنت أيها النصراني — إذا استثنينا المسلمين — أول من علا بمتنه جواداً من هذه الفصيلة الكريمة ، وهي من هدايا النبي لملي كرم الله وجهه ، وهو قريبه وخليفته ويسمى بحق (أسد الله) ؛ هلا عرفت أن الزمن لا يمس هذه الخيول الكرام إلا مساً خفيفاً ، وأن الفرس التي تمتطي صهوتها الآن قد عمرت خمسة وعشرين عاماً وما تزال تحتفظ بقوتها وبسرعتها الفطرية ،

ولو كان عنانها في يد أكثر حنكة من يدك ، ما احتاجت في سيرها إلى أكثر من أن يمسك الراكب بزمامها ؛ صلى الله على نبينا الكريم الذى خلع على المؤمنين وسائل يتقدمون بها ويتأخرون ، وسائل تجعل خصوصهم المتشجعين بالحديد ينهكون من ثقل ما يحملون ! كم ذا نفخت خيول أولئك الأوغاد أصحاب المعبد ، وتساعدت منها الأنفاس ، بعد ما جاهدت وضربت بجوافرها في رمال الصحراء كي تطوى عشر معشار ما نهبت بخطاها هذه الجياد الفوارس دون أن تنهد مرة أو تلو ظهورها الناعمة المساء قطرة واحدة من عرق ! » .

والآن حيناً بدأ الفارس الاسكتلندى يسترد أنفاسه ، ويستجمع قوة انتباهه ، لم يسمعه إلا لأن يعترف في نفسه بالميزة التي يتميز بها هؤلاء المقاتلون من أهل الشرق في الركض بالخيول مهاجمين أو متراجعين ، وهي ميزة تلتهم كل الملاءمة والصحارى الرملية المستوية في بلاد العرب وسوريا ؛ ولكنه لم يرد إلى أن يزيد من كبرياء ذلك السلم بأن يقر له بما كان يزعم لنفسه من فضل ، ولذا فقد توقف عن مواصلة الحديث ، وتلفت حواليه ، واستطاع حينئذ — بعد ما أبطأ ومواجهه في السير — أن يحس بأنه إنما يشق بلاداً ليست غريبة عنه .

فتخوم البحر الميت الجرداء ، ومياهه الكثيبة ، وسلسلة الجبال الشاهقة المعقدة التي كانت ترتفع إلى يساره ، والنخيل المتلاصقة التي يتألف منها المكان الوحيد الأخضر على صدر القفار الجرداء — وهي مشاهد إن وقعت عليها العين مرة لن تتيب عن الذكر أبداً — كل ذلك دل للسر كنث على أنه وصاحبه كانا يقتربان من العين المعروفة باسم (درة الصحراء) ، التي التي لديها فيما مضى بالأمير العربي شيركوه أو (الضريم) ، وبعد قليل من اللحظات أوقف الرجلان جواديهما إلى جوار العين ، ودعا الحكيم السر كنث أن ينزل عن ظهر الحصان ، وأن بأوى إلى الراحة كأنه في دار مطمئنة ، وجردا جواديهما من زماميهما ، ورأى الحكيم في ذلك ما يكفهما من عناية ، لأن بعضاً من خيار الفرسان من عبيده سوف يقدم عما قريب ويقوم بما تقتضيه الضرورة بعد ذلك .

ثم قال وقد طرح فوق العشب قليلا من طعام : « الآن اطعم واشرب يا صاح ولا تياس ، فالراء قد يعلو نجمه وقد يأفل ، ولكن عقل الحكيم والجندي ينبغي أن يعلو سلطان النجم » .

وحاول الفارس الأسكتلندي أن يبين عن شكره بوداعته ولين عريكته ؛ وجاهد أن يأكل شيئا تأديبا وبجاملة ، إلا أن البون الشاسع بين موقفه حينذاك ، وموقفه حينما كان بهذا المكان من قبل رسولا من الأمراء ، وظافرا في الزلزال ، مرّ بخاطره من السحاب ، واسترخت قواه البدنية من أثر الصوم والإعياء والكلال ، ففحص الحكيم نبضه السريع ، وعينه اللهبية الحمراء ، ويده الحارة ، وأنفاسه المتلاحقة . وقال : « كلما سهر العقل زادت حكمته ، ولكن الجسد - وهو صنو العقل وأخشن منه مادة - يحتاج إلى معونة الراحة ؛ فلتنم يا صاح ، ولكي يصبح نومك خذ جرعة من ماء ممزوجة بهذا الإكسير » .

ثم أخرج من صدره قارورة صغيرة من الباور في صندوق من الفضة المخرمة وصب قليلا من سائل قائم أسود في قلع صغير من الذهب .

ثم قال : « هذا مما أنبت الله لنا في الأرض من خيرات ، ولكن الإنسان بضغفه وبما ركب فيه من سوء كثيرا ما أحاله إلى الشر ؛ هذا الشراب قوى كنيذ التصرائى ، يسدل على العين الساهرة حجاب النوم ، ويخفف العبء عن الصدر المؤود ، ولكنه إن استخدم في أغراض الاستهتار والتهتك ، فهو يفتت الأعصاب ، ويهد القوى ، ويضعف العقل ، ويقوض الحياة من أساسها ، ولكن لا تخش أن تستغل فضائل هذا الشراب إذا دعتك الحاجة ، فالرجل الحكيم يدق نفسه بعين الجذوة التي يحرق بها الأحق خيمته » <sup>(١)</sup> .

فقال السر كنت : « لقد شهدت كثيرا من حذقك أيها الحكيم العاقل ، وإني لا أجادل في نصحك » وابتلع الخدر ممزوجا بماء من العين ، ثم التف في برده وكان موثقا برماته سرجه ، واستلقى وفقا لإرشاد الطبيب مسترخيا في

---

(١) الظاهر أن الإشارة هنا إلى بعض مركبات الأفيون .

الظل يرتقب الراحة المرجوة ؛ ولم يزر عينيه الكرى أول الأمر ، وتوالت عليه سلسلة من الإحساسات اللذينة ، لاهى إلى اليقظة ولاهى إلى الهوض ، ثم عمرته بعد ذلك حال شعر فيها — ولما يزل يحس بوجوده وما صار إليه — بأنه يستطيع أن يتأمل ما مر به بغير زعر أو أسف ، بل وبطأ نينة كأنه يشهد قصة نوائبه ممثلة على المسرح ، أو كأنه روح بغير جسم ينظر إلى ما عمل فى ماضى حياته . ثم انتقل بخواطره من هذا المجوع ، الذى كاد أن يفقد فيه الشعور بالماضى ، إلى المستقبل الذى كان — رغم كل ما يخيم عليه من سحب ممتعة ليس وراءها من رجاء — يتألق بألوان زاهية ، ما كان لخياله الضيق المحدود — وهو فى ظرف خير من هذا الطرف — أن يبدع خيرا منها ، حتى حينما يكون الخيال فى أشد حالاته إرهاقا ؛ فإن هذا الطريد الأسير ، هذا الفارس الهين ، بل هذا المحب اليائس ، الذى عقد رجاء سعادته على مدى بعيد عن مجال الأمل ، فى أيدي القدر القاسى الذى لا يشد أزره فيما يريد ، كان يرجو رجاء أكيدا أن يظفر فى وقت غير بعيد بالحرية وبعد الذكر والحب الموصول . ثم أخذت هذه الصورة الذهنية تغلم شيئا فشيئا ، وأصبحت هذه الأحلام المرحمة مبهمة غامضة كأشعة الشمس تذوى ساعة الغروب ، حتى هوت أخيرا فى وهدة النسيان السحيق ؛ وبقي السر كنت مستلقيا لدى قدى الحكيم ، ولولا أنفاسه العميقة لحسبه الرأى جسدا بغير روح ، كأن الحياة فعلا قد فارقتة .

## الفصل الثالث والعشرون

وسط هذه المشاهد الموحشة

مد البحر يديه ،

يغير وجه هذه الأرض ذات السر العجيب ،

حتى تبدى ما حوالينا من قياق القفار

عبثاً أبدعت ترهات الأحلام .

من روايات خيالية لأستقو

لما هب قارس النمر من هذا السبات الطويل العميق ، ألقى نفسه في بيثة تخالف تلك التي نام في أحضانها ، ولم يدرك هل هو ما فتى مستغرقا في الأحلام ، أم هل بدل السحر من بيثته ، فقد رأى نفسه بعد العشب الرطب ملقى على فراش دونه فُرُش الشرق الوثيرة ، وقد امتدت إليه خلال نعاسه يد رحيمة ، ونزعت عنه ثوب الجلد الذي كان يرتدى تحت درعه ، وألبسته عوضا عنه رداء للنوم من الكتان الرقيق وثوبا فضفاضا من الحرير ؛ وما كان من قبل يظلمه غير نخيل الصحراء ، أما الآن فهو يرقد في سرادق من الحرير ، يتألق بأزهى ألوان نسيج الصين ؛ وقد انتشر حول سريره ستار خفيف من الحرير الرقيق يقي نعاسه من الحشرات التي وقع لها — مذ حل في هذه الأقاليم — فريسة دأمة لا حول له ولا طول ؛ وتلفت الفارس حواليه كأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه يقظ حقا ، فكان كل ما وقع تحت بصره يتم عن سناء مخدعه وجلاله ، فقد أعد طست من الصدر فضض داخله ، خفيف الحمل ، يفوح منه عبق العطور التي ألقيت فيه ، وإلى جوار السرير على قائم صغير من الأبناوس وضع إناء من الفضة يحوى شرابا من أغفر الأصناف ، بارد كالثلج ، مذاقه بعد الظمأ الذي عقب تناول المخدر القوى شهي فائق اللذة ؛ ولكي ينفض الفارس كل أثر من آثار التمل الذي خلقه الدواء ، اعترم أن يستخدم الحمام ، وكانت له في ذلك لذة واتعاش ، وبعد ما جفف جسده



بقطيلة من صوف الهند ، لم يكن أحب إلى نفسه من أن يعود إلى ارتداء ملبسه الخشن ، حتى يستطيع أن يخرج ويرى إن كان العالم في الخارج قد بدل وجهه غير وجهه ، كما تبدل مقر نومه ؛ ولكنه لم يعثر على هذا اللباس ، بل وجد في مكانه رداء أعرياً من النسيج النفيس ، ومعه حسام وخنجر ، وكلها مما يليق بأمر جليل ، ولم يستطع أن يتخخص بالباحث على هذه العناية الفارطة ، ولشد ما كان يخشى أن يكون القصد من هذه الرعاية أن يترشح عن دينه وعقيدته ، فلقد كان يعرف حقاً عن السلطان أنه يقدر العلم الأوروبي والبسالة الأوروبية قدراً عالياً ، فكان يكيل المطايا بغير حساب لأمره ويضربهم بلبس العامة ، ولذا فقد رسم السر كنث علامة الصليب على نفسه متورعاً خاشعاً ، واعتزم أن يتحدى كل هذه الشباك والأحاييل ، ولكي يتم له ذلك تماماً عقد النية عامداً على أن يفيد مما كيل له بسخاء من أسباب الترف والرفاهية بقدر يسير ، ولكنه كان يئس بدوار في رأسه ، وثقل في جفونه ، وكان يدرك أنه لا يلبق به أن يظهر خارج القسطنطينية وهو عار ، فاستلقى على الفراش ، وطوقه الكرى بذراعيه مرة أخرى .

ولكن نعاسه هذه المرة لم يكن متصلاً ، فقد أيقظه صوت الطبيب وهو لدى مدخل القسطنطينية يستفسر عن صحته ، ويسأل هل أخذ يقسط وافر من الراحة ، ثم ختم كلامه بقوله : « إني أرى الستار مسدولاً على الباب ، فهل لي أن أدخل خيمتك ؟ » .

واعتزم السر كنث أن يظهر له أن الدهشة لم تبلغ به حدا ينسيه مركزه . فأجاب قائلاً : « ليس السيد بحاجة إلى أن يطلب الإذن كي يلج قسطنطينية » . فأجاب الحكيم دون أن يدخل وقال « وهب أُنَى ما أيتيك سيداً ؟ » .

فقال الفارس : « للطبيب أن يدخل إلى سرير مريضه بغير قيد » .

وقال الحكيم : « وما أيتيك الآن طبيباً ، ولذا فإني ما زلت أطلب إليك الإذن قبل أن أدخل تحت خباء خيمتك » .

فأجاب السر كنث وقال : « بيت الصديق مفتوح على مصراعيه لمن جاء بديقا ، ولقد أريتني حتى الآن أنك لى صديق » .

فقال الحكيم الشرقى بأسلوب الكتابة المألوف بين بنى قومه : « وهب أنى أتيتك صديقا ؟ » .

ولما نقد صبر الفارس الاسكتلندى من هذه المراوغة قال : « تعال كما شئت - ولكن من شئت - فإنك تعرف أنى لا أستطيع ، بل ولا أحب ، أن أمنعك من الدخول » .

فقال الحكيم : « فأنى أتيتك إذن بصفى عدوك القديم ، ولكنى الآن تدل كرم » .

ثم دخل وهو يتكلم ، ولما وقف إلى جوار سرير السر كنث بقى فى صوته دنبك) الطبيب العربى ، ولكن هيئته زرية وملاحه كلها كانت تدل على أنه لضريم) الكردستانى المروف باسم (شيركوه) ، فخدق فيه السر كنث وكأنه ظفر من هذا الشبح أن يمتحنى كما تحتفى الصورة التى يخلقها الخيال .

فقال (الضريم) : « هل يدعشك - وأنت مقاتل معروف - أن ترى جنديا فى شيئا من فن الشفاء ؟ اعلم أيها النصرانى أن الفارس الكامل ينبغى له أن يعرف كيف يضمج جراح جواده كما يعرف كيف يمتطى صهوته ، وأن يعرف كيف يرهف بفه فى كود الحداد كما يعرف كيف يستخدمه فى ساحة الوغى ، وأن يعرف كيف يجلو السلاح كما يعرف كيف يمتشقه ؛ وفوق كل ذلك يجب أن يعرف كيف فى الجراح كما يعرف كيف يشخصها » .

وكان الفارس المسيحى يلقى عينيه بين الآونة والأخرى والعربى يتكلم ؛ ثم أغمض عينيه ، وتمثل فى مخيلته صورة الحكيم فى ثيابه الطويلة الفضفاضة السود ، وعمامته زرية المرتفعة ، ومحياه الثابت الرصين ؛ وما إن فتح عينيه حتى عرف من العمامة نيقة المرصعة بالجواهر ، والقميص المصنوع من حلق الحديد المجدول بالفضة ، كان يتألق ويلعب كلما ترنح الرجل بجسمه ، ومن الطلعة التى لم يعد بها أثر من

وقار العلم ، ومن الوجه المشرق الذي لم يمد يظله الشعر الكث ، (ولم يبق منه الآن سوى لحية مشدبة جميلة) عرف أن السائل أمامه هو الجندي لا الحكيم .  
وقال الأمير : « أفا فتئت ذاهلاً ؟ عجباً ! كيف سرت في هذه الدنيا ولم تلحظ أن الرجال ليسوا دائماً كما يدل عليهم ظاهرهم ! انظر إلى نفسك — هل أنت كما ينم عنك ظاهرك ؟ » .

فصاح الفارس قائلاً : « كلا ، وحق القديس أندراوس . إن ظاهري في معسكر المسيحيين بأسره ظاهر الجندي الخائن ، وأنا أعرف أني رجل مخلص رغم ذنوبي » .

فأجابه (الضريم) وقال : « والله لقد عرفتك كذلك ، ولما كنا قد تناولنا من ملح الطعام معاً فقد رأيت أن في ذمتي أن أقضك من الموت والمار — ولكن هلا خبرتني لماذا أنت ما تزال على فراشك ، أفا تعلم أن الشمس قد ضربت في كبد السماء ؟ أم هل الثياب التي بمتي إليك على ظهر ناقتي لا تليق بملبسك ؟ » .  
فأجابه الفارس وقال : « كلا إنها تليق بي ، ولكنني لست بها خليقاً . أعطني ثياب الرق أيها (الضريم) النبيل أردها جذلاً مسروراً ، ولكنني لا أطيق ارتداء زي المقاتل الشرقي الحر ، وليس عمامة المسلمين » .

فأجاب الأمير قائلاً : « أيها النصراني ؛ إنكم أمة اتخذتم الرية ديدنكم حتى حق لنا أن نرتاب فيكم ؛ ألم أقل لك إن صلاح الدين لا يجب أن يدخل في حظيرة الإسلام سوى أولئك الذين يهدهم النبي الكريم لأن يدينوا بشريعته ؟ إنما الشدة واللين كلاهما ليسا من سياسته في نشر الدين الحنيف . استمع إلى يا صاح ! لما ارتد للأعمى بصره بمعجزة من ربه سقطت عن عينيه النشاوة بإرادة الله — أفتظن أن طبيباً من هذه الدار كان قادراً على أن يزيل الحجاب عن عيني الرجل ؟ كلا . ما كان لثل هذا الطبيب إلا أن يعذب المريض بعمده وآلاته ، أو أن يخفف عنه يلسمه ومنهاته ، ولكن الضرير سوف يبق ضريراً ؟ وما أعمى البصيرة إلا كذلك ؟ إن كان بين الفرنجة من لبس العمامة واتبع شريعة الإسلام ، ك

يبحثى المال الحرام فهو آثم لا ضمير له ، وهو الذى سلك طريق الغواية ، وما شقها . له السلطان . وإذا ما لاقى فى الدار الآخرة جزاء نفاقه وزُج به فى أسفل سافلين ، فى جحيم تحت جحيم النصارى واليهود والسحرة وعبداء الأوثان ، وقضى عليه أن يأكل من شجرة الزقوم ، وهى شجرة طلعها رؤوس الشياطين ، فأثمه وجزأؤه فى عنقه لا فى عنق السلطان . وإذن فلتتردد ما أعد لك من لباس ، ولا تداخلك ريبة أو شك ، لأنك إن سرت إلى معسكر صلاح الدين فإن زيك الوطنى يعرضك للشقة والرقابة ، بل وللذلة والمهانة .

فقال السر كنث مررداً ألفاظ الأمير : « إن سرتُ إلى معسكر صلاح الدين ؟ واحسرتاه ! خبرنى هل أنا رجل طليق ، وهل لى أن لأذهب حيثما شئت ؟ » . فقال الأمير : « سر أنتى شئت ، وانطلق حراً كالريح التى تلبس بالمال فى الصحراء وتشبها حيثما أرادت ؟ ما كان للعدو النبيل الذى تلقى مهندي ، وكاد أن ينزعه من كفى ، أن يكون لى عبداً كمن خر تحت ظبائه . والله لو كان المال والسلطان يحضانك على أن تنضم إلى أمتنا لكفلتهما لك ، ولكنى أخشى أن الرجل الذى أبى على نفسه هبات السلطان ، والسيف مشهور على رأسه ، أن لن يقبلها الآن ، وأنا أقول له إنه حراً فيما يريد » .

فقال السر كنث : « أتم على نعمتك أيها الأمير النبيل ، واجتنب أن تريبى طريقاً للشوبة يابى على ضميرى أن أسلكها ، واسمح لى أن أعبرك — وقد طوقتنى برفقك — عن عرفاتى لهذا السخاء الكريم ، وهذا الجود الذى لست به قينا » . فأجابه الأمير (الضريم) قائلاً : « لا تقل إنك لست به قينا ، ألم يكن حديثك مى ، وما رويت لى عن الحسان اللاتى يحملن بلاط الملك رتشارد هو ما دفع بى إلى أن أسير متخفياً إلى هناك ، وأظفر بمنظر هو أروع ما رأيت ، وما سوف أرى ، إلى أن تكتحل عيناي بجلال الجنان ؟ » .

فتناوبت وجه السر كنث الحجرة مرة والشحوب أخرى ، وكأنه أحس بأن الحديث قد أخذ يضرب على وتر حساس أليم ، ثم قال : « لى لا أفهمك » .

فصاح به الأمير : « لاتفهمي ! إن كان النظر الذي شاهدت في سرادق الملك رتشارد قد فأنك أن تراه ، إذن فبصرك أكل من حدة الغضب الخشبي في يد المهرج . نعم إنك كنت إذذاك تحت حكم الموت ، أما أنا فوالله لو كان رأسي يسقط عن جذعي لصوبت من مقلتي لمحاتهما الأخيرة الكلية على تلك الصور الحسناء وكلى جبور ، ولتدحرج رأسي صوب أولئك الحور البارعات جمالا ، يلثم بشفتيه المرتدتين أهذاب أرديتهم — هنالك شهدت ملكة إنجلترا ، وهي بحسبها الفاتن جديرة بأن تكون ملكة على العالم بأسره — أى رقة تلك التي تشع من عينيها الزرقاء ! وأى بريق ذلك الذي يتألق في فرعها الذهبي التهديل ! أقسمت بالرحمن ما أحسب الحوراء التي سوف تقدم لي كأس الخلود اللؤلؤى بأحق من هذى بأحر المناق . »

فقال السركنث عابسا مقطب الجبين : « أيها العربي ، إنك تتحدث عن زوج رتشارد ملك إنجلترا ، وهي امرأة ليس للرجال أن يفكروا فيها أو يذكروها كما تذكر النساء اللواتي تجوز حيازتهن ، وإنما يذكرونها كملكه احترامها واجب . » فقال العربي : « ناشدتك الرحمة ، والله لقد نسيت إجلالكم الخرافي الذي تحمّلون للنساء اللائي تحسبونهن بالإعجاب والعبادة أقن منهن بالعشق والمواتاة ، وإني على يقين أنك إن كنت تكن هذا الإجلال الرفيع لتلك المخلوقة الرقيقة الضعيفة ، التي تنم كل حركة وكل خطوة من خطاها ، وكل نظرة تنظر ، على أنها امرأة حتى الصميم ، فإن ذات الجدائل السود ، والعين التي تنم عن النبيل والشرف ، جديرة منك بما لا يقل عن العبادة الخالصة ؛ وإني لأقرحقا أن لها في قدها وسيماها الجليل شيئا من العفة والثبات — ولكن صدقني أن المرأة لو أقدم عليها محب جريء ، وضافت بها الحيلة ، لشكرت من أعماقها ذلك المحب الذي ياملها ك مخلوق فان لا إله باق . »

فقال السركنث في نغمة بينة الغضب : « احترم قرية قلب الأسد . » فأجاب الأمير هازئا : « أحترمها ! وحق الكعبة لو احترمتها جعلتها عروسا لصالح الدين . »

فصاح المسيحي وقد هب من مرقده وقال : « إن هذا السلطان الكافر ليس قينا بأن يلثم الأرض التي تَطُوهَا أدبث بلا تاجنت بقدمها ! » .

فصاح به الأمير وقال : « ها ! ماذا تقول يا منافق ؟ » ووضع يده على مقبض خنجره ، وتآلق جبينه كما يتآلق النحاس البراق ، وارتجفت شفتاه وخداه حتى لكأن كل خضلة من خضلات لحيته قد أخذت تهتز وتلتوى كأنها أحست بالغضب الفطري ، ولكن الفارس الاسكتلندي ، الذي وقف في وجه الليث الناضب رتشارد ، لم يرتع لهذا العربي الهائج ، وما هو في ثورته إلا كالنمر الحائق .

ثم واصل السركنت حديثه وذراعه مطبوعتان ، ولا أثر للجنين في عينيه وقال : « والله طالما كانت يداي طليقتين لأقفن مدافعا عما قلت — راجلا أو راكبا — في وجه الأحياء جميعا ؟ وليس كثيرا على سيفي هذا العريض الكريم أن يحطم عشرين من هذه المناجل والمثاقب » مشيراً إلى سيف الأمير المعقوف ، وخنجره الصغير .

فهدأت نائرة العربي والمسيحي يتكلم ، ورفع يده عن سلاحه كأن حركته الأولى لم يكن لها معنى ، ولكنه ما فتى في وطيس ثورته .

وقال : « وحق سيف النبي ياصباح ، وهو مفتاح الجنة والنار ، إن من يقول بقولك هذا لا يقيم لحياته وزنا ، صدقني أن لو كانت يداك طليقتين — على حد تعبورك — فإن مسلما واحداً مؤمناً قد يشغلها طويلا حتى لتود لو تكبلتا في أصفاد الحديد من جديد » .

فأجاب السركنت قائلاً : « والله لأن أبتريها بعظام اللوح خير لي من هذا » . فقال له العربي في نهم أكثر تودداً : « إذن فهذه العاطفة الرقيقة تغل يدك الآن ، وليس في عزى أن أطلق سراجهما ؟ لقد كنا قبل الآن متكافئين قوة وبسالة ، وربما نلتقي ثانية في ساحة النزال المادلة — ويا لمار من يفصل من خصمه قبل أخيه ! أما الآن فنحن صديقان ، وإنى لأنتظر منك المون لا شديد العبارة والتحدى » .

فأجاب الفارس مرهداً عبارته : « أجل نحن صديقان » ، ثم كانت بينهما فترة . من السكون ، أخذ العربي المتجد يجوب فيها الفسطاط بخطاه ، كاليث يشتد هياجه ثم يشوب إلى إطفاء حرارة دمه قبل أن يستاق للراحة في عرينه ؛ أما الأوروبي — وهو أكثر من صاحبه برودة — فقد لبث في وقفته وهيئته لا يبدل منها ، ولكنه كان — لاريب — رغم ذلك يكابد إطفاء مشاعره وقد توقدت غضبا واشتعلت على غير انتظار .

ثم قال العربي : « دعنا نفكر في هذا الأمر هادئين . إني كما تعلم طبيب ؛ ومن أراد لجرحه التئاما ينبغي له أن لا ينقبض إذا جاءه الطبيب يسبر جرحه ويضع فيه الفتيل . أما ترى أنني أوشك أن أضع إصبعي على مكن الداء ؛ أنت تحب هذه المرأة قريبة الملك رتشارد — فلتمزقن ذلك الحجاب الذى يستر خواطرك — أو إن شئت فلا تمرقه ، فإن عيني تنفذان إلى ما وراء الحجاب » . فسكت السر كنث هنيهة ثم قال : « لقد أحبتها كما يحب الرجل رحمة به ، وطلبت رضاها كما يطلب الجاني غفران السماء » .

فقال العربي : « أو ما تحبها بعد ؟ » فأجاب السر كنث قائلاً : « واحسرتاه ! إني لم أعد بحبها قيناً . ربك إلا قطعت هذا الحديث ، إن كلماتك على فؤادى كالخنجر » . ثم استأنف (الضريم) حديثه وقال : « عفوك لحظة ، وقل لى أفلم ترج أن يملك هذا الحب حيناً جسرت — وأنت جندى مسكين مجهول — على أن تعقد حبك بهذه الفتاة الكريمة » .

فقال الفارس : « ليس هناك حب بغير أمل ، ولكن حبي كاد أن يكون حليف اليأس ، ومثلى فى ذلك مثل الملاح الذى يريد لنفسه الحياة فيسبح ويسبح ويطوى موجاً إثر موج ، وأمام بصره شعاع من ضوء ناه يراه الفينة بعد الأخرى فيعلم أنه فى الأفق مرسى ، ولكن قلبه الواهن وأطرافه المهوكة تؤكد له أنه لن يبلغه » .

فقال (الضريم) : « والآن غاص الأمل وانطفأ ذلك الضوء الفريد إلى الأبد ؟ »  
فأجاب السر كنث بنتم كالصدي يصدر عن جوف أطلال القبور وقال :  
« أجل إلى الأبد » .

فقال العربي : « أحسب إن كان ما ينقصك لحمة من السعادة خاطفة بميدة  
كتلك التي كانت لك من قبل ، فإن الضوء الذي عقدت به الرجاء قد يتقد ثانية ،  
والأمل الذي غاص منك في لجج الأمواج قد يطفو ، وتمود أيها الفارس الكريم  
إلى الاستمتاع بتغذية عواطفك الخيالية بفداء كضياء القمر شفوفا ورقة ؛ فلئن  
بقيت إلى الغد طيب الأحذوتة — كما كنت أبداً — فسوف ترى معشوقتك في  
مكانة لا تقل عن مكانة بنات الأمراء ؛ سوف تراها عروس صلاح الدين المنتقاة » .

فقال الأسكتلندي : « وددت لو تم ذلك ، وإذن فوائده إن لم ... »

ثم سكث عن الكلام كرجل يخشى المفارقة في طرؤف لا تسمع له بأن يثبت  
بالفعل صدق ما يقول ، فابتسم العربي وعقب قائلاً : « هل أنت تتحدى السلطان  
السجالي ؟ »

فأجابه السر كنث شاغراً بأنفه وقال : « ولئن تحديته فما عمامة صلاح الدين  
بأولى العاهم ولا خير ما طمنت برحى » .

فقال الأمير : « أجل ، ولكنني أحسب أن السلطان قد يرى هذه وسيلة غير  
عادلة ، يستهدف فيها للخطر حفظه في العروس الملكية ونهاية الحرب الضروس » .  
فتألفت عينا الفارس بالحواطر التي أوحى بها إليه هذا الرأي وقال : « قد  
ألافية في طليعة معركة من المارك » .

فقال (الضريم) : « لقد كان أبداً في الطليعة ، وما كان من سجيته أن  
ينصرف بجواده عن منازل جرى . ولكنني ما كنت أريد أن أتحدث عن  
السلطان . وموجز القول إن كان يرضيك أن تنال من الذكر ما يستحق من  
يكشف عن اللص الذي سرق راية إنجلترا ، فإني أستطيع أن أرشدك إلى خير



سبيل تؤدى بك إلى القيام بهذا العمل — أعنى إن أردت أن تنساق لى ؟ ولقد قال لقمان : « إن أراد الصبي أن يسير فليسترشد بعريته ، وإن أراد الجاهل أن يفهم فلي العاقل أن يعلمه » .

فأجابه الأسكتلندى بقوله : « وإنك لما قل أيها (الضريم) ، عاقل رغم عروبتك ، وكريم رغم كفرك ، ولقد شهدت فيك الخلقين ، إذن فلتسكن في هذا الأمر رائدى ؟ وما دمت لا تسألنى شيئاً يتناقض وإخلاصى أو يناقض مسيحيتى فلأصعدن بأمرك في حينه ، افعل كما قلت ثم خذ منى حياتى بعد ذلك » .

فقال العربى : « إذن فاستمع لى ، لقد عوفى كلبك الكريم بيركة ذلك الدواء السابوى الذى يشفى الإنسان والحيوان ، ولسوف يكشف لك بمحكته عنى هاجوه » . فضحك الفارس وقال : « والله لقد أدركت ما تعنى ، وما كان أغباني ألا أفكر في ذلك ! »

فأردف الأمير وقال : « ولكن خبرنى ، هل لك في المسكر من الأتباع أو الخدم من يعرف الكلب ؟ »

فقال السر كنث : « لقد عزلت خادى المعجوز مريضك الذى باشرت ، والصبي الذى كان يرعاه حينما كنت أتوقع أن الموت سوف ينالنى ، وأعطيته رسائل ييلفها أصدقائى في أسكتلندا ؛ ولا يالف الكلب غير هذين ؛ ولكنى إن ذهبت بنفسى فأنا جد معروف ، وسيفضحنى كلالى في معسكر لعبت فيه دوراً شريفاً عدة شهور » .

فقال العربى : « سوف تتخفيان كلاكما ، ولن يعرفكما أحد حتى وإن أمعن فيكما عن كذب ؛ وصدقنى أن زملاءك في السلاح ، بل وإخوتك الذين هم من لحك ودمك ، لن يكشفوا أمرك لو استمعت لنصيحى ؛ ولقد شهدتنى أقوم بأمور أشد من هذه عسراً ؛ إن من يخرج البيت من ظلام ظلال الموت يسير عليه أن يسدل حجاباً من الظلمة على أعين الأحياء ؛ ولكن استمع إلى ، إن هناك شرطاً يرتبط

بهذه الخدمة ، وذلك أن تحمل من صلاح الدين رسالة إلى قرية الملك رك (رتشارد) ، واسمه على لساننا وشفاها الشرفية عير ، كما أن جهاها في أعيننا بهيج .  
فسكت السر كنث هنية قبل أن يجيب ، ولحظ العربي تردده ، فسأله إن كان يخشى أن يؤدي هذه الرسالة .

فقال السر كنث : « كلا ، حتى وإن كان في أداها الهلاك ؛ إنما سكت كي أفكر إن كان يليق بشر في أن أحمل رسالة صلاح الدين ، أو يليق بشرف السيدة أدبث أن تسلمها من أمير مشرك » .

فقال الأمير : « بحق محمد ، وبشرف الجندية وبحرم الكعبة ، وبروح أبي أقسم لك إن الرسالة لا تحمل بين سطورها إلا الشرف الرفيع ، والاحترام السامي ، والله لتفريد البلبل أقرب إلى إفساد العش الوردي الذي يمشق من أن تسيء كلمات السلطان إلى أذن قرية ملك أنجلترا الحسناء » .

فرد عليه الفارس وقال : « إذن فسوف أحمل خطاب السلطان مخلصاً كما نبي ولدت له عبداً — ولتعلم أنني ، فيما عدا هذا العمل الساذج وهذه الخدمة التي سوف أقوم بها صادقاً أميناً ، أبعد الرجال قاطبة عن أن يرتقب مني السلطان وساطة أو نصحاً في أمر هذا العشق الغريب » .

فأجابه الأمير قائلاً : « إن صلاح الدين رجل نبيل ، ولن يحفز جواداً كريماً على أن يشب وثبة لا يقبل له بها » .

ثم قال : « تمال معي إلى فسطاطي ، وسوف أعدك في الحال بزي تنكر به ، وكأنه ظلام الليل الدامس لا ينفذ إلى ما وراء أحد ، وبعدئذ تستطيع أن تسير في معسكر النصارى وكأن على إصبعك خاتم جيوجي <sup>(١)</sup> » .

---

(١) ربما كان العربي يشير إلى جيجيز ، وجيجيز هذا من ملوك ليديا عاش في القرن السابع قبل الميلاد ، ويصرف في القصص الخرافية بجأته السحري وثروته الطائلة .

## الفصل الرابع والعشرون

إن خالطت كؤوسنا ذرةً من تراب ،  
لفظنا العراب عيافة  
وقد كنا لرأيه ظمأى ؟  
وإذا ما جانب المسار العبرى .  
لبرة الملاح — وهي دقيقة —  
أمالها عن الحق ، وتحطم السفين .  
وهكذا أدنى باعث للغضب والنفور  
يقطع بين الأمراء جبل المودة  
وعظم فيهم أنبل الأعراس .  
من « الحرب الصليبية »

لا يشك القارىء بعد هذا إلا قليلاً في من كان ذلك البعد الآتيوي في حقيقته ،  
ولأى غرض سعى إلى ممسك رتشارد ، ولماذا وبأى رجاء وقف على كذب من  
شخص ذلك الملك الذى أحاط به أسراؤه الشجعان من الإنجليز والتورمان ، على  
كذب من قلب الأسد وهو على قمة جبل سنت جورج ، وإلى جواره راية إنجلترا  
يرفها خير رجال الجيش جيما ، أخوه الطبيعى ، ولیم صاحب السيف الطويل إيرل  
سالزبرى سليل هنرى الثانى من محبوبته (روزامند) الشهيرة ابنة (ودستك) .  
وقد دار بين الملك وثقيل فى اليوم السابق حديث تبين للتوبى من خلال  
الكثير من عباراته ما أدخل فى نفسه الشك والقلق على أن تنكره قد انكشف ،  
وبخاصة حيناً بدا على الملك أنه يدرك الأسلوب الذى سوف يكشف به الكلب  
الوسيط عن اللص الذى سرق الراية ، وذلك رغم أن الظروف التى أدت إلى جرح  
الكلب فى حادث العلم لم يكدها ذكر فى حضرة رتشارد ؛ ولكن الملك لبث  
— رغمًا عن كل هذا — يعامل الرجل الماملة التى تطلها مظهره ، فى التوبى فى  
شك من اكتشاف أمره ، واعتزم أن لا يطرح زى التنكر عنه طوعاً .  
وإذ ذاك توالى على سفح الجبل الصغير جيوش الأمراء الصليبيين المتعدين

في خط طويل ، مصطفىين خلف زعمائهم من الملوك والأمراء ؛ وبينما كانت جنود الدول المختلفة تسير متتابعة ، تقدم زعمائهم خطوة أو خطوتين إلى أعلى التل ، وقدموا دلائل المجاملة لرتشارد وللراية الإنجليزية « إشارة إلى الاحترام والمحبة » كما جاء النص صريحا في الاتفاق الذي عقد بشأن هذا الحفل « لا إلى الخضوع أو التبعية » ؛ أما رجال الدين الروحانيون — وكانوا في تلك الأيام لا يطاقثون الرؤوس لمخلوق كائن — فقد خلعوا على رتشارد وعلى شارة زعامته بركاتهم بدلا من أن يقدموا له ولاءهم وطاعتهم .

وهكذا أخذت الصفوف الطويلة تسير ، ورغم تناقص عديدها لأسباب عدة ، كان ظاهرها ظاهر الجيش المسلح الذي ليس غزو فلسطين له إلا عملا يسيرا . وكانت تسرى بين الجند روح الإحساس بوحدة القوى ، فيجلسون منتصبين القامة على سروجهم الصلبة ، وينفخون في الأبواق بأنغام طروبة . أما الخيول فبعد أن انتعشت بالراحة والعلف ، أخذت تفرك أزمها ، وتضرب في الأرض مرحا ؛ وسار الجمع فيلقا إثر فيلق ، والأعلام تحفق والراح تتألق ، والريش يرقص وهم يسرون صفا صفا ؛ وكان جيشا يتألف من أمم مختلفة وبشرات متباينة ولغات عديدة وأسلحة متنوعة ومظاهر متلونة ، ولكنهم كانوا جميعا إذ ذاك يشتملون حماسة لذلك الغرض المقدس الخيالي ، وهو إنقاذ ابنة صهيون المنكوبة من ذل الاستعباد ، وتخليص الأرض المقدسة ، التي وطأها أقدام الأنبياء ، من نير الوثنيين النافقين . وينبئ لنا هنا أن نذكر أنه إن كان في الطاعة يقدمها إلى ملك إنجلترا — في ظرف غير هذا الظرف — مثل هذا العدد العديد من المحاربين الذين ما كان له عليهم حق الخضوع الطبيعي ، تقول إنه إن كان في طاعتهم له شيء من الدلة والخنوع ، فإن طبيعة الحرب التي هم فيها وبواعثها كانت تلائم صفة الفروسية الممتازة فيه ، كما تتفق ومآثره المعروفة في القتال ، حتى إنه لو كان لأحد في وقت غير هذا أن ينازعه أو يدينه فما كان له إذ ذاك إلا أن يقنأسي أسباب الإذانة والنزاع ؛ فتقدم الشجاع طوعا بالولاء إلى من هو أشجع منه في حملة يتطلب نجاحها إقداما لا يفتر ولا يلين .

وكان الملك الصالح على صهوة الجواد في منتصف الطريق إلى قمة الجبل ، وعلى رأسه خوذة مفتوحة يعلوها تاج ، وملامح الرجولة فيه بادية لعين الرائي ، وهو بنظرة ، فيها استهانة وفيها إيمان ، يطالع صفوف الجيش وهي تمر به ، ويرد للقواد التحية ؛ وقيصه من الخمل ، لونه لون السماء ، تغطيه صفائح الفضة ، وجواره من الحرير القرمزي المحلى بالذهب ، وإلى جواره يقف الرجل الذي كان ظاهره ظاهر العبد الآتيوى ممسكا الكلب النبيل بمقود ، كذلك الذى كان يستخدم وفقا لقواعد الصيد في تلك العصور ؛ ولم يكن في وجود هذا الرجل ما يلفت النظر ، إذ أن كثيرا من الأمراء الصليبيين كان يستخدم الرقيق الأسود في حاشيته مما كاة لأبهة العرب الوحشية .

وكانت ثنایا العلم الكبيرة ترفرف فوق هامة الملك ، وهو ينظر إليها الفينة بعد الفينة وكأنه يرى في خفقاتها احتفاء لم يوجه إليه ، ولكنه ذو خطر لأنه كان بمثابة التكفير عن المهانة التى لحقت بالملكة التى يسود عليها . ووراء هذا كله ، على رأس الجبل وفوق قمته ، أقيم برج من الخشب لهذا الظرف كى تأوى إليه الملكة برنجاريا وكبريات سيدات البلاط ، وكان الملك يتطلع إلى هذا البرج حينما بعد الآخر ، ثم يوجه بصره من وقت لآخر صوب النوبى والكلب كلا دنا قائد ، ممن عرف فيهم من قبل سوء الطوية فارتاب في مساهمتهم في سرقة العلم ، أو رأى فيهم القدرة على مثل هذا الجرم الوضع .

وعلى ذلك لم يرفع بصره إلى قمة الجبل حينما دنا فيليب أغسطس ملك فرنسا على رأس جنده الباهر من فرسان الغال — كلا ، بل لقد كان يرتقب مجيء ملك فرنسا فهبط من الجبل وفيليب يصعده ، حتى التقتيا في منتصف الطريق ، وتبادلا التحية بلطف ، حتى إن الرائي ليحسب أن في المقابلة مساواة الإخاء ؛ وهذا المنظر ، منظر أعظم أميرين في أوروبا مرتبة وسطوة وهما يعلنان للآلأ الوثام بينهما ، دفع بالجيوش الصليبية على بعد أميال إلى أن تنفجر بهتاف كهزيم الرد ، كما جعل كشافة الصحراء من العرب الجوالاة تسارع إلى معسكر صلاح الدين تنذره بزحف

جيوش المسيحيين ؛ ولكن من غير ملك الملوك يستطيع أن يعلم ما تخفى أئدة الملوك ؟ وتحت هذا الظهر الرقيق من اللاطفة كان رتشارد يكن لفيليب السخط والرية ، وفيليب يفكر في الانسحاب بجنوده من جيش الصليب ، مخلفا بعده رتشارد كي يتم المشروع أو يفشل فيه بمجيوشه وحدها من غير معين .

وتغيرت ملامح رتشارد حينما دنا رجال المبد ذوو الأسلحة السوداء من فرسان وأتباع ، وهم رجال اسمازت بشرتهم حتى باتوا بسواد أهل آسيا على شبه عظيم ، وذلك من أثر الشمس في فلسطين ، وخيولهم الباهرة وأزيائهم الفاخرة تفوق كثيرا ما نلخار الجنود الفرنسية والإنجليزية ؛ وحينئذ رنا الملك جانبا بنظرة عجي ، ولكن النوبي لبث صامتا ، وقبع كلبه الأمين لدى قدميه ، يقب بعين مستبشرة حكيمة ، تلك الصفوف التي كانت تسير تحت بصره ، ثم عرج الملك يصره ثانية صوب رجال المبد الفرسان حينما صر به كبيرهم واستغل صفته المزدوجة — الدينية والحربية — وجبا رتشارد بيركانه كقس بدلا من أن يقدم له الولاء كقائد من قواد الحرب .

فقال رتشارد إلى إيرل سولزبرى : « إن هذا الوغد المتصلف ، هذا الرجل المتلون يقابلني راهبا ، ولكن دعها تذهب يا (لنفسورد) ؛ لا ينبغي لنا أن نضيق على المسيحية من أجل هذه التقاليد خدمات هؤلاء المقاتلين المدربين الذين أدخل الظفر في قلوبهم الفرور — صه يا صاح ! ها هو ذا قد أقبل خصمنا الباسل دوق النمسا ، انظر إلى صورته وهيئته يا (لنفسورد) ، وأنت أيها النوبي دع الكلب يعلأظريه ، وحق السماء لقد أتى نديمه معه ! » .

وحقا لقد أقبل ليوبولد يتبعه المحدث والمهرج ؛ إما لأنه تعود صحبتها ، أو لأنه — على الأرجح — أراد أن يلمع إلى استخفافه بالحفل الذي أوْشك أن ينضم إليه ، ثم تقدم إلى رتشارد وأخذ يصفر صغيرا أراد أن يدل به على قلة اكترائه ، ولكن رزاة ملاحه كانت تم عن اكتئاب في نفسه يمازجه خوف تكوف الصبي المارب من المدرسة وهو يقترب من أستاذه .

أقبل الدوق في حشمة ووقار ، وأدى التحية وهو كاره ، وفي عينيه التجهم والعبوس ، فhez المحدث بعصاه ، وأعلن كما يعلن الرائد أن أرشدوق النمسا ، وهو يقدم لرتشارد الخضوع والولاء ، لا ينزل عن امتيازهِ ومرتبته مرتبة الملك الأمير ، فأجابه المهرج بصوت جهورى وقال : « اللهم آمين ! » فأثار الضحك بين الواقفين . وتطلع الملك رتشارد إلى النبى وإلى كلبه أكثر من مرة ، ولكن النبى لم يبد حراكا ، ولم يجنب الكلب مقوده ، حتى إن رتشارد قال للمبد فى شيء من السخرية والازدراء :

« إني لأخشى أن نجاحك فى هذا المشروع يا صاحبي الأسود — وقد أتيت بكلك يؤيدك بمحكته — لن يرفعك إلى مرتبتك بين السحرة ، ولن يزيد من حقت علينا » .

فلم يجب النبى كمادته بأكثر من انحناء قليل . ثم سارت بعد ذلك أمام ملك إنجلترا جنود المركيز متسرا متتابعين حسب مراكزهم ، ولكى يعرض هذا البارون القوى الماكر صفوف جيشه عرضا يهر الأبصار ، قسمهم كتيبتين ، ووضع أخاه (انجراند) على رأس أولاها ، وهى تتألف من أنصاره وأتباعه الذين جمعهم من أملاكه فى سوريا ، ثم جاء بنفسه يتبع أخاه على رأس فرقة بأسلة من مائتين وألف مقاتل من خفاف الفرسان الذين جمعهم أهل البندقية من أملاكهم فى دلاشيا وأسلموا قيادتهم للمركيز ، وهو يرتبط بالجمهورية بروابط عدة . وكان هؤلاء المقاتلون يرتدون أزياء نصف أوربية ، عليها كثير من سمات اللباس الشرقى ؛ كانوا يلبسون الزرد ويفطونه بجلباب من فاخر الثياب بهيج اللون ، ويلبسون السراويل الفضفاضة والأحذية القصيرة ، وعلى رؤوسهم قلنسوات مستقيمة معتدلة تشبه قلنسوات الإغريق ، ويحملون تروسا صغيرة مستديرة ، وسهاما وقسيًا وخناجر وسيوفا ، وكانوا يمتطون جيادا عنى باتقانها وأعدت كامل الإعداد على حساب دولة البندقية ، وسيوفهم وعددهم تشبه ما يستخدمه الأتراك ، وكانوا كذلك — كهؤلاء — يضعون أقدامهم على ركابات قصيرة

ويجلسون على مقاعد مرتفعة ؛ وكان هؤلاء الجند ذوى نفع عظيم فى مناورة الأعراب ، ولكنهم ما كانوا يقدرّون على الحرب السجّال ، مثلهم فى ذلك مثل رجال الحرب فى غرب أوروبا وشمالها المدجّجين بالسلاح .

وفى طليعة هذه الفرقة الرائعة أقبل كتراد فى زىّ كأزياء الجند ، ولكنه أغفر ثيابا ، حتى لقد بدا للرأى وكأنّه يتألّق ذهباً وفضة ، وقد علق بقلنسوته ريشة ناصعة البياض ، ووثقها بمشبك من الماس ، وهى تكاد بطولها تناطح السحاب ، وكان الجوّاد النبيل الذى يمسك بمناته يقفز ويدور بمنّة ويسرة ، مبديا خفته ورشاقتة على صورة ربحا كلّ منها فارس أقلّ مهارة من المركّيز الذى ملك زمامه برشاقة باحدى يديه ، ورفع بالأخرى عصاة لها من مطلق النفوذ على صفوف جيشه ما للمركّيز على جواده ، ولكن سلطان المركّيز على معاريه — رغم هذا — كان ظاهرا أكثر منه حقيقة ، إذ كان يسير الهوينى إلى جواره رجل ضئيل الجسم ، يستر جسمه كله بالسواد ، أجرد اللحية والشارب ، ومظهره على الجملة وضيع زرى إذا قيس بالأبهة والعظمة التى تحيط به ؛ ولكن هذا الرجل السن الزرى الهيئة كان أحد أولئك المندوبين الذين كانت حكومة البندقية تبعث بهم إلى المسكرات كي يرقبوا مسلك الزعماء الذين وكلت إليهم القيادة ، ولكي يبقوا على الفيرة ويحافظوا على نظام التجسس والرقابة اللذين تميزت بهما سياسة الجمهورية زمنًا طويلا .

وكان كتراد قد أخذ عن رتشارد روح الفكاهة فأحرز شيئا من رضاه ، وما إن اقترب من رتشارد حتى هبط ملك أنجلترا خطوة أو خطوتين كي يقابله ، وصاح به فى الوقت ذاته قائلا : « ها ، أفقد أتيت أيها اللورد مركّيز على رأس خنذك ، وظلك — كمادته — يتبعك سواء أشرقت الشمس أو لم تشرق ! — هل لى أن أسألك إن كانت إمرة الجند بيدك أم بيد ظلك ؟ »

فهمّ كتراد بالجواب وعلى شفّيته ابتسامة ، حينما أخذ رزوال ذلك الكلب النبيل ينبج نباح الهامّج المستشرى ، ثم قفز إلى الأمام ، وأفلت النوبى زمام الكلب من يده ، فانطلق الكلب ووثب على جواد كتراد النبيل ، وأمسك بالمركّيز من حلقه



وأنزله عن صهوة الجواد ، فأخذ الراكب ذو الريشة يتدحرج فوق الرمال ، وفرد الحصان — وهو يرتعد — يمدو عدواً ثأراً خلال المسكر .

فقال الملك للنوبي : « أشهد لقد أصاب كلبك الفريسة الحق فيمن أنزل ، وإني لأقسم بالقدّيس جورج إنه لحيوان نبيل ! — أبعد خشيّة أن يخنق الرجل » .  
فباعد النوبي ما بين الكلب وكنزاد ، ولم يتم له ذلك دون مشقة ، ووثق الكلب وما برح في سحي هياجه يتاضل كي يفلت من مقوده ؛ وإذ ذاك احتشد لدى المكان جم غفير ، وبخاصّة من أتباع كنزاد وضباط جيشه الذين ما إن رأوا قائدهم مستلقياً يحدق في السماء وهو نائم محتاج ، حتى رفعوه وهم يضجون صاخين ، ويقولون : « بالمبد وكلبه ومزقوها إرباً إرباً » .

ولكن صوت رتشارد علا إذ ذاك ورن رنينه وتميز وانحما جهورياً فوق كل صياح وهتاف ، واستمع إليه الجميع وهو يقول : « من أصاب الكلب بأذى فجزأه . الموت الزؤام ! إنما قام الحيوان الجسور بواجبه ورائده الحكمة التي حباها الله والطبيعة — أي كنزاد مركزيز منتسراً ، تقدم ، إنك مخاتل خدّاع ، وإني أهمك بالندر والحياة » .

وحينئذ أقبل كثير من القواد السوريين ، فصاح كنزاد — والغضب والنفسيحة — والارتباك تصارع حدة الماطقة في صوته وأسلوب كلامه — وقال : « ماعنى هذا ؟ بم تدينوننى ؟ وفيم هذه المعاملة الوضيعة ، وهذه الألفاظ التي تنطوى على اللوم . والتأنيب ؟ هل هذا هو عهد الوفاق الذي جدته انجلترا منذ زمن غير بعيد ؟ »  
فقال كبير رجال المبد في صوت كأنه ينبعث عن القبور : « هل انقلب الأمراء الصليبيون في عيني الملك رتشارد أرايب أو غزلانا يرسل الكلاب في طلب صيدها ؟ »

وقال فيليب ملك فرنسا ، وقد أقبل إذ ذاك راكباً : « لابد أن يكون حادثاً فريداً أو إعجاباً عمتاً » .

وقال رئيس أساقفة صور : « خدعة من العدو » .

وقال هنرى أمير شبنانيا : « إنها مكيدة من الأعراب ، ما أجدر هذا الكلب بالإعدام وذلك العبد بالمذاب » .

فقال رتشارد : « لا يمدد أحدكم عليه يده فهو يجب الحياة ! أى كنزاد ، تقدم إن جرؤت ، وأنكر الهمة التى رماك بها هذا الألبم بغريزته النبيلة ، همة الأذى أصبته به ، والمهانة الدينيئة ألصقتها ببلاد الانجليز ؟ »  
فقال كنزاد متعجلاً : « إني ما مسست الراية قط » .

فقال رتشارد : « إن كلماتك تفضحك يا كنزاد ! إذ أئى لك أن تعرف أن الأمر يتعلق برايتنا ؟ اللهم إلا إن كنت بالجرعة نحس ! »  
فأجاب كنزاد قائلاً : « أفن أجل هذا الباعث وحسب أثرت فى المسكر هذا الاضطراب ؟ وهل أنت تمزو إلى أمير وحليف جرماً ربما ارتكبه آثم دنىء طمعاً فى الخيط الذهبى<sup>(١)</sup> ؟ أم هل أنت الآن تهم أخاك على شهادة كلب ؟ »  
وحينئذ عم بين الحشد الدعر وذاع ، حتى تدخل فيليب ملك فرنسا فى الأمر .

وقال : « أيها الأمراء النبلاء ، إنكم تكلمون على مسمع من رجال سوف يسارعون إلى المقارعة بالسيوف إذا هم أنصتوا إلى زعمائهم وقد توترت بينهم الملائق ؛ فبالله ناشدكم أن تصرفوا جندكم إلى ثكناتهم ، ثم نلتق نحن جميعاً بعد ساعة فى سرادق الجمع كي نتخذ قراراً فى هذه الحال الجديدة المضطربة » .  
فقال الملك رتشارد : « إني بهذا راض ، وإن كنت أحب أن أسائل هذا الوغد وهو فى توبه الزاهى يتمرغ فى الرمال ، ولكن لتكن إرادة فرنسا فى ذلك إرادتنا » .

ثم تفرق الزعماء كما أشار فيليب ، كل أمير على رأس جنده ، وعلا الهتاف بالحرب من كل جانب ، ونفخ فى الأبواق ، وتردد صداها نداءً لكل هائم وكل شارذ كي ينطوى تحت راية أميره ؛ وسرعان ما اضطرب الجند وسلك كل منهم

---

(١) يقصد الخيط الذى علفت الراية به .

سبيله نحو ثكناته خلال المعسكر ؛ وهكذا امتنع كل عمل عنيف مباشر ، إلا أن الحادث الذى وقع ترك — رغم ذلك — أثره فى كل ذهن ، وعاد الآن إلى التحامل على كبرياء رتشارد وشده أولئك القوم الأغراب الذين هتفوا صباحا لرتشارد على أنه أجدر من يقود الجيوش ؛ أما الإنجليز فلما كانوا يرون أن شرف بلادهم يتماق بالنزاع الذى ذاع أمره بين الناس ، فقد كانوا يرمون أهل البلاد الأخرى بالنيرة من حيث إنجلترا واسم مليكها ، وبالليل إلى إحاطتهما بأحط ضروب الدسائس ؛ وما أكثر الاشاعات التى انتشرت فى هذا الظرف وما أشدها اختلافا ، وكانت منها واحدة تجزم بأن الملكة وصاحباتها قد أصابهن من الضجيج زعر شديد ، وأن واحدة منهن قد سقطت مفضيا عليها .

وفى الساعة المضروبة التأم الجمع ، وكان كتراد قد نزع عن نفسه رداءه الذى أنشبت حرمة ، وخلص بخلمه من خزيه وبلبلته اللذين غلبا عليه — رغم ذكائه وسرعة خاطره — نظرا لثراية الحادث ومفاجأة الاتهام ، وكان الآن يرتدى ثياب الإيمارة ، ودخل غرفة الاجتماع وفى ذيله أرشودوق النمسا ، وكبير رجال المعبد ورهبان القديس يوحنا ، وكثير غيرهما من ذوى النفوذ الذين تظاهروا بتأييده والدفاع عن قضيته ، وكان أشد ما حفزهم إلى هذا باعث سياسى ، أو أنهم هم أنفسهم يكتنون لرتشارد عداوة شخصية .

هذا المظهر — مظهر الاتحاد فى صف كتراد — كان أبعد ما يكون عن أن يؤثر فى ملك الإنجليز ؛ فلقد دخل إلى الجمع وعليه سيا الاستخفاف الذى ألف ، وهو يزيه الذى نزل به عن ظهر جواده منذ حين ، ثم رنا بنظرة فيها عدم المبالاة وشيء من الازدراء ، رى بها الزعماء الذين اصطفوا حول كتراد يؤيدونه فى كثير من التكلف والتصنع ، وفى صريح البارة رى كتراد منتسرا بسرقة الراية الإنجليزية وجرح الكلب الأمين الذى وقف للدفاع عنها .

فهبض كتراد للجواب بشجاعة ، وأعلن براءته من الجريمة التى رُمى بها متحديا فى ذلك — على حد قوله — الإنس والوحش والملوك والكلاب .

وتطوَّع فيليب لأن يقف في الجمع موقف التوسط والاعتدال وقال : « أى  
أخى ملك إنجلترا ! إن هذه الهمة شتلاء ؛ إنا لا نسمعك تتحدث بما تعرف أنت  
نفسك في هذا الشأن ، وإنما عقيدتك تستند إلى مسلك هذا الكلب نحو مركز  
منتسرا ، ولا سراة في أن كلمة الفارس والأمير ينبئ أن تنصره على بناح الكلب » .  
فرد عليه رنشارد وقال : « أخى المليك ، أذكر أن الله التقدير الذى خلق  
الكلاب لتكون لنا رفاقا في السراء والضراء ، قد جباها بطبع نبيل لا يحتمل  
الخداع ؛ إن الكلب لا ينسى صديقه ولا عدوه ، وإنه ليذكر النفع والضرر أدق  
الذكر ، إنه يشارك الإنسان في ذكائه دون أن يكون له في نفاقه نصيب ، وإنك  
لتستطيع أن ترشو الجندى ليقتل بسيفه امرأ ، أو الشاهد ليقتصب الحياة يباطل  
اتهم ، ولكنك لا تستطيع أن تحث الكلب على أن يسيء إلى من أحسن إليه ؛  
إنه صديق الإنسان ، إلا إن جلب الإنسان على نفسه عداوته ، ولا تثريب على  
الكلب في هذا — استر الركيز بما شئت من زاهى الثياب — احجب عن العين  
ظاهره — بدل من لون بشرته بالمساحيق والأصباغ — خبئه وسط مئين من  
الرجال — فوالله — رغم ذلك — إنى لأطرحن عنى صولجانى إن لم يميزه الكلب ويعبر  
عن استيائه كما شهدت اليوم ؛ وليس هذا الحادث بمجيد ، وإن يكن غريبا في بابه ،  
فلقد أدين من قبل القتلة واللصوص وكابدوا الموت على مثل هذا البرهان ، وقال  
الناس إن ليد الله في الأمر نصيب ، وجرى مثل ذلك في بلادك ذاتها يا أخى  
المليك ، وفي مثل هذا الظرف ، وقضى في الأمر بمبارزة الرجل والكلب ، كأنهما  
مدع ومدافع في قضية قتل ، وانتصر الكلب وجوزى الرجل ، واعترف بالجرم ؛  
صدقنى يا أخى الملك إن خفى الجرائم كثيرا ما يبرزها إلى الضياء والنور شهادة حتى  
من الجناد ، بله الحيوان الذى هو أدنى في حكمته الفريزية من الكلب صديق  
الإنسان وزميله » .

فأجابه فيليب قائلا : « أجل ، لقد وقعت هذه المبارزة يا أخى الملك ، وكان ذلك  
في عهد أحد أسلافنا عليهم رحمة الله ، ولكن ذلك كان في قديم الزمان ، ولا نستطيع

أن تتخذة سابقة قيس عليها هذا الحادث؛ وكان التهم في ذلك الحادث رجلا من عامة الناس وضيع المرتبة، قليل الهبة، ولم يكن من أسباب الاعتداء إلا عصا، ومن أسباب الدفاع إلا سترة قصيرة من الجلد؛ ولكن لا يسعنا أن نحط من قدر أمير ونشينه باستخدام مثل هذا السلاح الساذج، أو نسوقه إلى عار مثل هذا النزال». فقال الملك رتشارد: «إنني ما فكرت في ذلك قط، وإنها لصفقة خاسرة أن نخاطر بحياة الكلب العزيز في سبيل خائن ذى وجهين — كما برهن كتراد على أنه كذلك؛ ولكن هاهو ذا قفازى، وإنى أدعوه للنزال بناء على التهمة التى وجهناها إليه، ولا أقل من أن يكون الملك خيرا من صنو المركيز».

ولكن كتراد لم يخف إلى مجاوبة هذا التحدى الذى قذف به رتشارد وسط الجماعة، فتوفر الوقت للملك فيليب لأن يجب قبل أن يتحرك المركيز لرفع القفاز. فقال صاحب فرنسا: «الملك أكبر من أن يكون ندا للمركيز كتراد، كما أن الكلب أقل من أن يكون له قرينا؛ أى رتشارد يا صاحب الملك، إن هذا لا يجوز؛ أنت قائد حملتنا، أنت درع المسيحية وسيفها».

فقال الضابط البندقى: «إنى أحتج على مثل هذا النزال إلى أن يرد ملك إنجلترا الخمسين ألف يرنط التى يدين بها للجمهورية؛ حسبتنا أنا فى خطر من خسران ديننا لو أن مديننا وقع فى أيدي النافقين، فكيف يزيد الطين بلة ونمرضه للموت فى هذه المنازعات تقوم بين المسيحيين من أجل الكلاب والأعلام».

فقال وليم صاحب السيف الطويل إرل سوتزبرى: «وأنا بدورى أحتج على أخى المليك بخاطر بحياته فى مثل هذا الأمر، وحياته يملك لأهل إنجلترا — أى أخى النبيل، هذا قفازك نغذه ثانية، وسأرى بقفازى بديلا عنه؛ إن ابن الملك حتى وإن كان فى درعه ما يدل على أنه ليس ابنا شرعيا — ند على الأقل لهذا المركيز القرد».

وقال كتراد: «أياها الأمراء النبلاء، إنى لأقبل من الملك رتشارد التحدى، لقد انتخبناه قائدا لناس فى وجه الأعراب، وإن كان ضميره يستطيع أن يجيب

على تهمة التحرش بحليف ، واستفزازه إلى ساحة النزال على نزاع طفيف كهذا ، فإن ضميرى أنا ، على الأقل ، لا يسهه أن يحتمل التأنيب على قبولها ؛ أما فيما يخص أخاه ابن الزنا ، ولیم أف ودستك ، أو أيا غيره ممن يحتضن هذه التهمة الباطلة أو يجسر على مؤازرتها ، فإنى سوف أدفع عن شرفى ، وأثبت أن من يكيلها إن هو إلا كذاب أشر .

وقال رئيس أساقفة صور : « لقد تكلم مركز منتسرا كما يتكلم الرجل الكريم العاقل العادل ، وإنى أرى أن هذا الجدل قد يقف عند هذا الحد دون أن يصيب أحد الطرفين خزى أو عار » .

فقال ملك فرنسا : « أرى أن ينتهى الجدل عند هذا على شريطة أن يسحب الملك رتشارد تهمة على أنها بنيت على أساس واه » .

فأجاب قلب الأسد : « أى فيليب ملك فرنسا . إن كلاتى لن تسمى إلى ضميرى إلى هذا الحد ، لقد أهمت كنزاد هذا كلص استر تحت جنح الليل ، وسرق شارة الشرف الإنجليزى من مكانها ، وإنى ما زلت أعتقد فيه ذلك وأتهمه بهذا ، وإذا ما حددنا للنزال يوما فلا تشكن ياصاح فى أفى سوف أجد بطلا يؤيد دعواى ما دام كنزاد لا يحب أن يلقانى ، أما أنت يا ولیم فلا ينبغى لك أن ترج بسيفك الطويل فى هذا النضال دون إذن خاص منا » .

فقال فيليب ملك فرنسا : « إن مرتبتى تجعل منى حَكَمًا فى هذا الأمر الأليم ، ولذا فإنى أحدد لكم اليوم الخامس بعد اليوم لحسم النزاع بالنزال وفقا لتقاليد الفروسية ، وعلى رتشارد ملك انجلترا أن يأتى وبطله كمدع ، وكنزاد مركز منتسرا بشخصه كمدافع ، ولكنى لا أعرف أنى أجد أرضا محايدة بين بين يقوم عليها هذا الصراع ، فهى لا تنبى أن تكون إلى جوار هذا المعسكر ، حيث يختصم الجند وينضم كل فريق إلى حزب » .

فقال رتشارد : « ما أجدنا أن نعهد إلى كرم السلطان صلاح الدين ، فهو وإن يكن وثنيا إلا أنى لم أعرف فارسا مثله يتوفر فيه النبى ؛ ونستطيع أن

نكل إلى عدله وكرمه أمرنا بقطع فيه ، وإنى إنما أقول بهذا لأولئك الذين قد يرتابون فى سوء المواقب — أما أنا فأنى حيثما لقيت عدوى كان موضع اللقاء مساحة تزالى » .

فقال فيليب : « ليكن ذلك ؛ سوف نخطر بهذا الأمر صلاح الدين ، وإن يكن فى ذلك ما يكشف للدعوى الروح السيئ ، روح التفرقة الذى نود أن نستره حتى عن أنفسنا إن استطعنا ؛ وأنا الآن أفض هذا الاجتماع ، وأكلفكم جميعا — بصفتكم رجلا مسيحيين وفرسانا نبلاء — ألا تولدوا من هذه الخسومة الأليمة شغبا جديدا فى المعسكر ، ولتتركوا الأمر لمدالة الخالق خاشعين ، وتضرعوا لله أن يجعل النصر فى الزوال حليف الحق فى أسباب الخسومة ؛ ولتكن مشيئة الله ! » .

فرددت الأصوات من كل جانب : « آمين ، آمين ! » ووسوس كبير رجال المبد للمركز وقال : « كتراد ، هلا طابت إليهم أن تخلص من سلطان الكلب كما جاء فى (الزماير) ؟ » .

فأجاب المركز : « أنصت يا .... ؟ إن بظاهر الفسطاط عفريتاً من الجن أماط عن نفسه اللثام ، وقد يأتينا نبأ من الأنباء ويخبرنا إلى أى حد أنت تؤمن بشعار هيتلكم الذى يقول : « لا تخش الأسد » .

فقال كبير رجال المبد : « وهل تستطيع أن تقف فى معلمان الزال ؟ » . فأجابه كتراد وقال : « لا ترتب فى أمرى ، حقا إني ما كنت لألقى — طائما — الحديد من رتشارد ؛ وإنى لا أستحي أن أقر بأنى قد اغتبطت لخلاصى من لقائه ؛ أما أخوه ابن الزنا ومن دونه جميعاً من صفوف الجيش ، فليس من بينهم رجل يتفلس أخشى لقاءه » .

فعاود كبير رجال المبد حديثه وقال : « ما أحسن هذه الثقة فى نفسك ، وإذن فقد عملت مغالب هذا الكلب على تفكيك عرى عصبة الأمراء أكثر مما عمل مكرك ودهاؤك ، وأكثر مما عمل خنجر العربى (الخارجى) . ألا ترى كيف

أن فيليب — رغم السحب القائمة التي يتكلف إظهارها فوق جبينه — لا يستطيع أن يخفى ما يحس به من رضا لما لاح له من الأمل في التحلل من الحلف الذي كان على نفسه ثقيلًا ؟ انظر كيف أن هنرى صاحب شمانيا ييسم لنفسه كقدحه الوهاج الذى يحترق فيه النيزك ؟ وانظر إلى دوق النمسا تراه يكتم الضحك والسرور وهو يظن أن خصومته توشك أن تنال ثأرها دون أن يتعرض لخطر أو مشقة ؟ أنصتوا ، إنه يقترب — أى دوق النمسا الملكى ! ما أسوأ الظرف الذى تكون فيه هذه الشقوق فى جدر صهيون .

فأجاب الدوق قائلاً : « إن كنت تعنى هذه الحرب الصليبية ، فوالله كم وددت لو تشتت إجماعها وآب كل منا إلى وطنه آمناً مطمئناً ! — وإنى لأقول بذلك واثقاً » .

فقال مركز منتسرا : « ولكن ما أشد على النفس أن تم هذه التفرقة على يدى الملك رتشارد ، وما رضينا أن تكابد كل ما كابدنا إلا فى سبيله ، وما خضنا له خضوع المبد لسيده إلا لىستخدم بسالته ضد خصومنا ، ولا يوجهها إلى أصدقائنا ! »

فقال الأرشدوق : « إنى لا أرى أنه أكثر من غيره شجاعة بكل هذا ، وإنى على يقين أن المركز النبيل لوالتي وإياه فى ساحة النزال لقلبه على أمره ، فلن كان رجل الجزيرة يضرب بقأسه ضرباً شديداً فهو لا يحرق الطعن بالرماح ، والله ما كان أخف على نفسى من أن ألقاه بنفسى — على ماينتنا من خصومة قديمة — فلو كان خير العالم المسيحى يسمح للأمرء الملوك أن ينفسوا عن أنفسهم بالنزال . وإن شئت ، أيها المركز النبيل ، ثبت عنك فى هذا النزال » .

وقال كبير رجال المبد : « وأنا كذلك » .

فقال الدوق : « إذن فلتأتيا سيدى إلى فسطاطى ، وتقضيا لى قىلوله هذا النهار ، حيث نستطيع أن نتحدث فى هذا الشأن على مائدة الشراب الرحيق » .

فدخلوا إثر قوله فسطاطه .



وكان المحدث قد استغل حريته ودنا من سيده بعد ما افرقع الجميع ،  
ووقف المهرج « جوناس شوانكر » على بعد احتراماً لسيده ، وقال لصاحبه  
المحدث : « ماذا كان بين مولانا وهذه الجموع الفقيرة ؟ »  
فقال المحدث : « خفف من تشوفك يا ابن الهرج ! لا يليق بي أن أخبرك  
بمشورة مولانا » .

فقال جوناس : « لقد أخطأت يا رجل الحكمة ؛ إنما نحن كلانا خادمان  
ملازمان لولي أمرنا ، وبهم اثنا تينا سواء أن نعرف أينما أكثر به اهتماماً من أخيه ،  
أصاحب الحكمة أم رجل الهرج ؟ »  
فقال المحدث : « لقد قال للمركز ورئيس رجال المبد إنه كل من هذه  
الحروب وكم يسره أن يعود إلى وطنه آمناً » .

وقال المهرج : « ما هذا بالأمر الهام وما به من خطر ، ومن الحكمة أن  
يخطر له هذا الرأي ، ولكن من الحق الشديد أن يخبر به الآخرين —  
أنهم حديثك » .

فقال المحدث : « ها ، ثم قال لها بعد ذلك إن رتشارد ليس بأشد من غيره  
شجاعة أو أكثر حذقا في الطمان » .

فقال شوانكر : « أشدد بهذا من حق يا قرة عيني ، ثم ماذا ؟ »  
فأجاب رجل الحكمة قائلا : « قاتل الله النسيان ؛ لقد دعاها كذلك إلى  
كأس من النبيذ » .

وقال جوناس : « في هذا ظاهر من الحكمة ، وهو من فضل مشورتك ؛ ولكنه إن  
أكثر من الشراب وهو الراجح — فسوف يكون ذلك من فضلي أنا — ثم ماذا ؟ » .  
قال الخطيب : « ليس بعد هذا ما يستحق الذكر إلا أنه ود لو أنه حظى بقاء  
رتشارد في ساحة التزال » .

فقال جوناس : « مرحى ، مرحى ! إن هذا إلا هراء من الباطل ، وإنني  
لأستحي أن أظفر عن هذه السبيل ، ولكننا رغم حقه سوف نبعه أيها المحدث  
الحكيم ، وسوف نأخذ بتوصيتنا من شراب النبيذ » .

## الفصل الخامس والعشرون

هذا حيود عنك تجليته قرّة عيني ،  
فما أحبتك وأفرطت فيك حبا ،  
إلا لأنّي للمرف أشد حبا وأقوى .

من شعر متروّز

لما عاد الملك رتشارد إلى سرادقه أمر أن يؤتى له بالنوبي ، فدخل الرجل يقدم آيات الاحترام التي ألف ، وانكبّ على وجهه ، ثم لبث مائلا أمام الملك كما يقف العبد يرتقب ما يأمر به سيده ؛ وربما كان من حسن طالعهِ أن القيام بأوجهه كان يتطلب منه أن يفض الطرف ، فلو أنه تلقى كل مارمقه به رتشارد من نظرات حادة صوبها نحوه فترة وهو صامت ، لما كان له قبّل باحتيالها .

وبعد هنية قال الملك : « إنك تعرف قواعد الصيد حق المعرفة ، وقد شرعت في مطاردة الغريسة حتى أوقفتها عند حدها بمجدارة كأنّ ( ترسترم ) نفسه قد علمك هذا<sup>(١)</sup> ؛ ولكن ليس هذا كل ما في الأمر — إنما ينبغي أن نسحق الصيد سحقا ، ما كان أحب إلى نفسي من أن أصوب رمح صيدى نحوه ، ولكن يظهر أن هناك أسبابا تحول دون ذلك ؛ إنك توشك أن تعود إلى معسكر السلطان برسالة نطلب فيها إلى عظمتهِ أن يعين مكانا على الحياد تقوم عليه أعمال الغروسية ، وأن يُجمع معنا على مشاهدتها إن شاء ؛ والآن ما أحسب — رجما بالنيب — إلا أنك واجد في ذلك المعسكر فارسا يقبل نزال هذا الخائن (متسرا) حبا في الحق ورغبة في الزيادة من شرفه » .

فرفع النوبي بصره ، وصوبه نحو الملك وهو ينظر نظرة فيها حرارة وغيرة ، ثم رفع عينيه إلى السماء يحمد الله من الأعماق حتى تألّى الدمع في مقلتيهِ ، ثم طأطا

---

(١) هذه أسطورة طالبة تمزى إلى السر (ترسترم) الذي عرف بحبه للمسكة (لزلت) الجيلة — وقد كانت القواعد المتعلقة بالصيد ذات خطر كبير في العصور الوسطى .

رأسه تأييدا لإرادة رتشارد ، وعاد إلى وقتته الأولى ، وقفة الخادم الخاضع .  
وقال الملك : نعمَ هذا ؛ إني أراك راغبا في التكرم علىّ في هذا الشأن ، وينبغي لي أن أقول إن في هذا فضل خادم مثلك ليس له لسان يجادل به أغراضنا ، أو يطلب شرحاً لما اعترمنا . لو كان مكانك خادم انجليزى لتصح لي وأصر على أن أكلّ بالزوال إلى رمّاح متين من أتباعي ، وهم جميعا من أخى (لنجسورد) فتازلا يتحرقون للقتال في صفى ؛ ولو كان فرنسيا ثنائراً لحاول ألف مرة أن يعرف لماذا أنا أبحث عن بطل في معسكر المسلمين ؛ أما أنت أيها الوسيط الصامت ، فتستطيع أن تؤدى رسالتى دون أن تجادل فيها أو تفهمها ، السمع لديك طاعة .  
فكان الجواب اللائق من الأتيوبى على هذا التعليق أن انحنى بحسمه وجنا إجلالا واحتراما .

وقال الملك وقد تكلم مفاجئا ومسارعا : « والآن لتتكم في شأن آخر ، هل رأيت أدبث بلاتاجنت ؟ » .  
فرفع الصامت بصره كأنه يوشك أن ينبس بكلمة — بل انفرجت شفثاه عن نفى صريح — ولكن هذه المحاولة المقيمة — محاولة الكلام — تلاشت في تئمة الأبكم تئمة ملتوية .

وقال الملك : « ما هذا ! والله لكأن رنين اسم المذراء الملكية ذات الجلال البارع ، ابنة عمنا الحسناه ، له من السلطان ما يكفى لأن ينطق الأبكم ؛ أى المعجزات إذن تصنع عيناها بمثل هذا الرجل ! لأقومن بالتجربة يا صاحبي العبد ، ولسوف ترى هذا الجلال المصطفى من بلاطنا ، ثم تؤدى للسلطان الملك الرسالة » .

هذا والنوبى تارة ينظر نظرة فيها التشوة والسرور ، وطورا يجتو إجلالا ؛ وما إن نهض حتى وضع الملك يده ثقيلة على كتفه ، وفي رزاة رصينة استأنف الكلام وقال : « دعنى أحذرك يا رسولى الأسود من أمر واحد : لو أحسست بأن لتلك التى سترها عما قريب أثرا على نفسك شقيقا يحل عقدة لسانك — وهو ، على حد تعبير السلطان الكريم ، يتحبس الآن في قلمة جدرانها من

العاج<sup>(١)</sup> — لو أحسست بهذا ، فاحذر أن تبدل من نفسك هذه الكتومة نفساً أخرى ، وحذار أن تنبس في حضرتها بينت شفة ، حتى وإن استمدت قوة منطقك استعادة تدعو إلى الإحجاب ؛ إذن فصدقي لأخرجن لسانك من جذوره ولأحطمن جذره العاجية — وما أحسبها إلا صفوف أسنانك — واحداً بعد الآخر ؛ وإذن فلتلزم الصمت والحكمة .

وما إن رفع الملك قبضته القوية عن كتف النوبي ، حتى طأطأ الرجل رأسه ، ووضع يده على شفتيه إشارة صامتة إلى طاعته .

ولكن رتشارد وضع يده فوقه ثانية ثم قال : « هذا الأمر نكلفك به بصفتك مولى ؛ ولو أنك كنت فارساً ورجلاً كريماً لطلبنا إليك أن تمدنا بالصمت ، وهو من أسباب ثقتنا فيك الآن » .

فانتصب النوبي بصلف وكبرياء ، وحقق في الملك ، ووضع يده على قلبه . ودعا بعد ذلك رتشارد كبير حجابيه وقال : « اذهب وهذا البسدي يا شيل إلى فسطاط زوجنا الملكة ، وقل لها نريد به أن يمثل وحيداً أمام ابنة عمنا أديث ، فإن لديه رسالة لها ؛ وتستطيع كذلك أن تدله إلى الطريق إن احتاج إلى إرشادك ، وإن يكن — كما رأيت — قد بات يعرف كل ما جاور معسكرنا معرفة تدعو إلى الإحجاب » . ثم واصل الملك الحديث وقال : « وأنت كذلك يا صاحبي الأتيوبي اصنع ما أنت صانع على عجل ، وعد إلى هنا بعد نصف ساعة » .

ولعب الشك في نفس النوبي المزعوم ، وظن أن الملك قد كشف أمره ، وتبع خطى شيل العاجية نحو فسطاط الملكة برنجاريا وهو مطرق البصر ، مطبق الذراعين وقال محدثاً نفسه : « لا صرية في أن الملك رتشارد قد كشف أمرى ، وعرف حقيقتى ولكنى لا أرى رغم ذلك أن يفضله لى شديد ؛ إن كنت لم أخطئ فهم كلماته ، — ومحال أنى فعلت — فلقد أعطاني فرصة سميدة أسترد بها شرفى على رأس هذا المركز الخداع ، الذى قرأت إنمعه في عينيه الواهنتين ، وشفتيه المرتجفتين ، حينما

(١) يقصد به وأستانه اليس .

وُجِّهَتْ إِلَيْهِ التَّهْمَةُ — أَيْ (رِزْوَال) ، لَقَدْ خَدَمْتَ صَاحِبَكَ مَخْلَصًا ، وَلَسَوْفَ يَدْفَعُ الْفَنُّ غَالِيًا تَأْرَاكَ ! — وَلَكِنْ مَاذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ النِّرْضُ مِنَ الْإِذْنِ لِي بِأَنْ أَظْهَرَ إِلَى مَنْ يَبْتَغِي مِنْ رُؤْيَيْهَا ثَانِيَةَ حَيَاتِي ؟ وَلَسَاذًا وَكَيْفَ يَرْضَى بِلَاتِجَانَتِ الْمَلِكِ بِأَنْ أَشْهَدَ قَرِيبَتَهُ الْإِلَهِيَّةَ ، سِوَاهُ كُنْتُ رَسُولًا مِنْ صِلَاحِ الدِّينِ الْمَشْرُوكِ أَوْ آتَمًا طَرِيدًا أَقْصَاهُ عَنْ مَعْسَكِرِهِ أَخِيرًا — وَقَدْ كَانَ اعْتِرَافُهُ الْجَرِيءُ بِحُبِّهِ الَّذِي يَفْخَرُ بِهِ هُوَ أَشَدُّ مَا يَدْعُو إِلَى الْمَجْبِ مِنْ جَرَمِهِ — ؟ أَمَّا أَنْ رَتَّ شَارْدَ يَرْضَى لَهَا بِأَنْ تَتَسَلَّمَ مَكْتُوبًا مِنْ حُبِّ مُتَافِقٍ ، وَمَنْ يَدُ رَجُلٍ مِثْلِي وَضِيعُ الرِّبَّةِ ، فَكَلَامُهَا أَمْرَانِ تَصْدُقُهُمَا عَسِيرٌ ، وَيُنَاقِضُ أَحَدَهُمَا الْآخَرُ . وَلَكِنْ رَتَّ شَارْدَ ، إِذَا كَانَ لَا يَنْدَفِعُ بِثَاثَةِ نَفْسِهِ ، رَجُلٌ سَمَحَ كَرِيمٌ وَنَبِيلٌ حَقًّا ، وَلَسَوْفَ أَجَازِيهِ عَلَى صِفَاتِهِ هَذِهِ وَأَعْمَلُ وَفَقًا لِمَا يَأْمُرُ بِهِ تَصَرُّيًّا أَوْ تَلْمِيحًا ، وَلَنْ أُسِيَّ فِي أَنْ أُعْرِفَ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَكَشَّفُ لِي شَيْئًا فَشَيْئًا دُونَ أَنْ أُسْتَعْلَمَ بِالْفَضُولِ عَنْ شَيْءٍ ؛ وَإِنِّي حَقًّا لَمَدِينٌ لَهُ بِالطَّلَاعَةِ وَالْخُصُوعِ ، إِذْ أَعْطَانِي هَذِهِ الْفُرْصَةَ الْبَاسِلَةَ أَرَى بِهَا شَرْفِي الْمُلُوثِ ، وَمَهْمَا يَكُنْ عَسِيرًا عَلَى النَّفْسِ فَلَسَوْفَ أُرَدُّ الدِّينَ » ، ثُمَّ انْتَفَضَ قَلْبُهُ انْتِفَاضَةَ الْكِبَرِيَاءِ ، وَخَطَرَ لَهُ مَا يَأْتِي ، وَقَالَ مَحْدَثًا نَفْسَهُ : « إِنْ قَلْبُ الْأَسَدِ — كَمَا يَدْعُونَهُ — رَجَعَا كَانَ يَقِيسُ مِشَاعِرَ الْآخَرِينَ بِمِشَاعِرِهِ ؛ كَيْفَ لِي هَذَا وَأَنَا لَمْ أَوْجِهْ إِلَيْهَا كَلِمَةً حِينَمَا نَاولْتَنِي يَدَهَا الْهَبَةَ الْمَلِكِيَّةَ — حِينَمَا كُنْتُ لَا أُعَدُّ مِنْ أَدْنَى الرِّجَالِ فِي أَعْمَالِ الْفُرُوسِيَّةِ بَيْنَ حِمَاةِ الصَّلِيبِ ! كَيْفَ لِي أَنْ أَدْنُو مِنْهَا وَأَنَا فِي تَنْكُرٍ وَضِيعٍ وَفِي لِبَاسٍ خَسِيسٍ ! يَا وَيْلَتِي ! إِنْ حَالِي حَقًّا لِحَالِ الْعَبْدِ ، يَطْلُخُ الْعَارَ شَرْفِي ، وَقَدْ كَانَ يَوْمًا دَرَعِي وَحَمَاي ! كَيْفَ لِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ ؟ إِنَّهُ لَا يَعْرِفُ عَنِّي إِلَّا الْقَلِيلَ ، وَلَكِنِّي أَشْكُرُهُ عَلَى هَذِهِ الْفُرْصَةِ الَّتِي قَدْ تَقَرَّبَ بَيْنَ قَلْبَيْنَا . »

وَمَا إِنْ اسْتَقَرَّ بِهِ الرَّأْيُ عَلَى هَذَا ، حَتَّى كَانَ وَصَاحِبُهُ بِيَابِ سَرَادِقِ الْمَلِكَةِ ، فَأَدْخَلَهُمَا الْحِرَاسَ ، بِطَبِيعَةِ الْحَالِ ، وَخَلْفَ هَيْلِ النُّوْبِي فِي غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ لِلانْتِظَارِ كَانَ يَذْكُرُهَا تَمَامَ الذِّكْرِ ، ثُمَّ انْسَلَّ إِلَى الثَّرْفَةِ الَّتِي كَانَتْ تَسْتَقْبِلُ الْمَلِكَةَ فِيهَا زَائِرِيهَا ، وَبَلَّغَتْهَا إِرَادَةَ مَوْلَاهُ الْمَلِكِ فِي صَوْتِ خَافَتِ التَّنَمُّرْنَ بِالْإِجْلَالِ ، وَيَخَالَفِ

أشد المخالفة إقدام توماس دى فو ، الذى كان له رثشارد كل شىء ، وبقية البلاط (وفيه برنجاريا ذاتها) لاشىء ، وما إن أتم إبلاغ رسالته حتى علت الأصوات بالضحك .  
وارتفع صوت قوى ، سرعان ما أدرك أنه صوت برنجاريا ، وقال : « وما هيئة هذا الرقيق النبوى الذى أناما سفيراً فى مثل هذه الرسالة من السلطان ؟ أليس يا شيل عبداً أسود الجلد ، شعره مجعد كشعر الكباش ، وأنفه أفطس ، وشفته غليظتان — أليس كذلك يا سر هنرى ، يأبها الرجل الكريم ؟ » .  
وقال صوت آخر : « ولا تنس جلالتك منه عظم الساق المنحنى إلى الأمام كظبابة الأحدب العربى » .

فقال الملكة : « بل كسهم (كيويد) إذ قد أناما فى رسالة محب عاشق . أى شيل يا كريم النفس ! إنك أبداً متأهب لأن تُدخل السرور على قلوبنا نحن السيدات المسكينات ، اللاتى ليس لديهن إلا القليل من أسباب اللوح نصراف بها ساعات المحلول ؛ ينبئ أن نرى رسول الحب هذا ، فلقد شهدت كثيراً من الأتراك والمغاربة ، ولكنى ما رأيت عبداً أسود قط » .  
فقال الفارس الطريف : « إنما خلقت لأن أطيع أمر جلالتك ؛ وإنك سوف تنيلينى الخطوة لدى سيدى إن سمحت لى أن أفعل ذلك ؛ ودعيني أوكد لجلالتك أنك سوف ترين رجلاً يخالف ما تتوقعين » .

« خير لنا هذا — هل هو أقبح مما يتصور خيالنا ، وهو مع ذلك رسول الحب المصطفى من هذا السلطان الباسل المجيد ! »

وقالت السيدة كالستا : « مولاتى صاحبة الجلالة ، هل لى أن أتوسل إليك أن تسمحى للفارس الكريم أن يذهب وهذا الرسول رأساً إلى السيدة أديث التى ينبئ له أن يوجه إليها الخطاب ؛ إننا ما كدنا ننجو من مثل هذا المزاح » .  
فكررت الملكة كلتها هازئة وقالت : « ننجو ؟ أى والله ، وقد تكونين مصيبة فى حذرِك يا كالستا ؛ ليؤد هذا النبوى — كما تسمينه — رسالته أولاً إلى ابنة عمنا — وفضلاً عن ذلك فهو أبكم ، أليس كذلك ؟ »

. فأجاب الفارس قائلا : « أجل مولاي الملكة » .

فقالت برنجاريا : « إنه للهو ملكي تتلعي به نساء الشرق ، إذ يقوم بخدمتهن رجال يستطعن أن يقتلن بحضرتهم ما شئن ، وما يقدرن على رواية شيء منه ؛ أما في معسكرنا ، فالطيور في سمائها تحمل الأخبار ، كما يقول أسقف سنت چود » .

فقال دى شيل : « ذلك لأن جلالتك قد نسيت أنك تكلمين داخل جدران من الور » .

وما إن قال كلمته هذه حتى خفت الأصوات ، وبعد قليل من الهمس عاد الفارس الإنجليزي ثانية إلى الأتوبي ، وأشار له أن يتيهه ، ففعل ، وسار به شيل إلى مرادق ضرب على بعد من مرادق الملكة ، وأعد — كما يبدو — لإيواء السيدة أديث وحاشيتها ، وقد تسلمت إحدى صيفاتها القبطيات الرسالة التي حملها هنرى شيل ، وبعد بضع دقائق سيق النوب إلى حضرة أديث ، وبقي شيل خارج الفسطاط ، وأشارت السيدة إلى الملوكة التي قدمت الرجل بالانسحاب ، ثم جثا الفارس البائس — وهو في هذا التتكرر المجيب — على إحدى ركبتيه خاضعا خاشعا لا يوقفته غصب ، بل ومن صميم قلبه وفؤاده ، ورونا يبصره نحو الأرض ، وأطبق ذراعيه فوق صدره كأنه جرم يرتقب قضاءه وقدره . وكانت أديث ترتدى الرداء عينه الذي استقبلت به الملك رتشارد ، وحجابها الطويل الشفاف يتدلى حولها كالظل في ليلة من ليالي الصيف على أرض جميلة النظر ، والحجاب يخفي بعض جمالها ويعتم بعضه الآخر الذي لا يخفيه ، وكانت تمسك يدها مصباحا من الفضة يتقد بسائل عبق يتلألأ حين يحترق تلالؤا غير موهود .

وما إن دنت أديث من العبد الساكن الجاني ، وأصبحت منه على قيد خطوة ، حتى صوبت الضوء على وجهه كأنها تريد أن تستشف ملامحه بدقة ، ثم أشاحت بوجهها عنه ، ووضعت مصباحها بحيث يرتعى ظل وجه العبد من أحد جانبيه على

صحاف يتدلى جانباً ، وأخيراً تكلمت بصوت فيه الطمأنينة ، ولكن رنين الأجر فيه شديد .

وقالت : « أفهذا حقاً أنت فارس النمر الباسل — السر كنت الاسكتلندى الثهم — أفهذا أنت حقاً ؟ — تنكرت هذا التنكر المشين ، وأحاطت بك مئين المخاطر ؟ »

وما إن سمع الفارس نبرات صوت معشوقته ، وقد وجهت إليه الخطاب على غير انتظار ، وبينهم فيه من العطف ما يوشك أن يكون خفة ورقة ، حتى استبق الجواب إلى شفثيه ، وكاد أن يرد ويخرج على ما أمره به رتشارد وما وعد من صمت ؛ فلقد كان المنظر الذى رأى ، والصوت الذى سمع ، يكفياه عوضاً عن رق مدى الحياة ، وأخطار يستهدف لها فى كل حين ؛ ولكنه استجمع قواه ، ولم يزد جوابه على سؤال أديث ابنة البيت الكريم عن نهدي عميق شديد الانفعال .

واستأنفت أديث حديثها وقالت : « أجل لقد أصاب حدى ، إنى عرفتك منذ ظهرت أول الأمر قريبا من النصبة التى وقفت عليها مع الملكة ، وعرفت كذلك كلبك الجسور ؛ إن كان تنكر الأذى أو تغير اللون يخفى عن فتاتك خادما مخلصا أمينا ، فهى ليست سيده مخلصه ، وليست قينة بخدمات أمثالك من الفوارس . تكلم إذن ولا تخش أديث بلا متاجنت ، فهى تعرف كيف ترفق بالفارس الكريم وهو فى محنته ، ترفق بالفارس الذى أدى واجبه وأحرز الشرف وأصاب المرمى من أجل اسمها حينما كان الخطر له حليفاً — أفأزلت صامتا ! أمن الخوف أو العار أنت لا تنطق ؟ ينبى لك ألا تعرف الخوف ، أما العار فليصب أولئك الذين أساءوا إليك » .

فيئس الفارس من الإبقاء على الصمت فى مثل هذا اللقاء الممتع ، ولكنه لم يستطع أن يمر عن خزيه بغير النهدي العميق ، ووضع إصبعه على شفثيه ، فتراجعت أديث كأنها مستاءة .

ثم قالت : « ما هذا ! هل أنت أبكم آسيوى فى فعالك ، كما أنت فى ردائك ؟



إني ما كنت أدتقب هذا ؛ ولربما ازدريتني لأنني اعترفت لك صراحة بأنني لحظت. ولاءك لي واكثرت له ، ولكن ناشدتك السماء ألا تسيء الظن بأدب من أجل هذا ! إنها تعرف جد المعرفة الحدود التي تنحصر فيها بنات البيوت الكريمة ، والخفر الذي يحق عليهن ، وهي تعرف متى وإلى أي حد ينبغي لتلك الحدود وذلك. الخفر أن يفسح في المجال للاعتراف بالجميل — لرغبتها الصادقة في أن تتمكن من إثابتك على خدماتك ، وأن تخفف من آلامك التي نالتك من جراء الإخلاص الذي حلتها لها ، كما يفعل الفارس الكريم — لماذا تطبق ذراعيك وتضبط عليهما بكل هذا الانفعال ؟ » ، ثم قالت وقد خطر لها خاطر اقشعر بدنها منه : « أخفا بلغت بهم القسوة حدا يحرمك فعلا من نعمة الكلام ؟ إنك تهز رأسك ؟ لئن كان هذا سحرا أو عنادا ، فلن أسألك بعد هذا ، وسوف أتركك تؤدي رسالتك. كما تحب ، فإني أستطيع كذلك أن أزم الصمت » .

فتحرك الفارس المتكرر حركة تدل على أنه يندب حاله ويستعيد من غضبها ، وقدم لها في نفس الوقت رسالة صلاح الدين مطوية كالعادة في حرير رقيق وقماش من ذهب ، قسستها وتصفحتها بغير اكتراث ، ثم طرحها جانبا وصوبت بصرها ؛ بعدها ثانية نحو الفارس ، وقالت بنهم خافت : « أفنا تقول ولو كلمة واحدة وأنت تؤدي الرسالة لي ؟ »

فضغط الفارس بكلتا يديه على جبينه ، كأنه يشير إلى الألم الذي أحس به لأنه لا يستطيع أن يصدع بأمرها ، ولكنها انصرفت عنه غاضبة .

وقالت : « اعزب عني ، لقد تكلمت كثيرا — بل وكثيرا جدا — إلى رجل لا يريد أن يصرف في سبيل كلمة واحدة جوابا علي . اعزب عني ! — وقل إن كنت قد أسأت إليك من قبل ، فقد كفرت الآن عن إثمى ؛ فلئن كنت أنا ذلك السبب التمس الذي هوى بك من منزلة الشرف ، فلقد نسيت في هذه المقابلة مكائتي ، وحططت من قدر نفسي في عينيك وفي عيني » .

ثم سترت عينيها يديها ، وبدا عليها الارتباك الشديد ، وكاد السر كنه أن.

يدنو منها ، ولكنها أشارت إليه أن يعود وقالت : « قف بعيدا ! لقد أعدت السماء روحك لأمر جديد ! لو كنت أقل غباء ورعبا من عبد أبكم لنطقت بكلمة شكر تواسيني بها في حطتي وعاري — لماذا تترث ؟ اعزب عني ! »

وكأن الفارس المتنكر قد وقع بصره على الرسالة عفواً إذ ذاك ، فحدق فيها معتذراً بها عن إطالة بقاءه ، فاخترقت الفتاة الرسالة ، وقالت بلهجة الهكم والازدراء : « أجل لقد نسيت — إن العبد الطائع ينتظر رداً على رسالته — ما هذا — أهي رسالة من السلطان ! »

وتصفحت فحوى الرسالة على عجل ، وكانت مكتوبة بالعربية والفرنسية ، وما إن فرغت من قراءتها حتى ضحكت ضحك الغضب المرير .

ثم قالت : « إن هذا لفوق ما يبلغ الخيال ! ما أظن أن هناك مشموذاً يستطيع أن يرينا مثل هذه الألعاب الحاذقة ! قد يستطيع بحيلته أن يحيل نقد تركيا وبزنطة إلى نقد هولندا وأسبانيا ، ولكنه لا يستطيع بفنه أن يقب الفارس المسيحي — الذى كان أبداً موضع التقدير بين أشجع الشجعان فى الحرب الصليبية المقدسة — إلى عبد يلثم الأديم للسلطان المشرك ، وإلى رجل يحمل الحطبة من مسلم وقع إلى فتاة مسيحية ؛ كلا بل وينسى قواعد الفروسية الشريفة وقواعد الدين ! ولكن ماذا عسى أن يجدى الحديث مع عبد مخلص لـكـب مشرك ؟ قل لـمـولـاك ، حينما يحمل بسوطه عقدة لسانك ، ما رأيته أفعـل » — وما إن أتمت حديثها هذا حتى رمت برسالة السلطان فوق الأرض ، وداستها بقدميها ثم قالت : « وقل له إن أديث بلا تاجت تردى ولاء مسلم لم يعتنق دين المسيح » .

وأوشكت بعد هذه الكلمات أن تنطلق من الفارس ، ولكنها جثا لدى قدميها ، وهو يعانى من حرارة الألم ، ثم استجمع جرائه ، ووضع يده على ثوبها معترضاً وحيلها عنه .

فقال : وقد التفتت إليه التفاتة يسيرة ، وتكلمت بلهجة التأكيد « أفلم تسمع ما قلت لك أيها العبد النقي ؟ قل للسلطان المنافق مولاك إنى أزدري خطبته ،

كما أحقر انكباب رجل زرى خرج على الدين والفروسية - ارتد عن الله وعن  
حيية قلبه ! » - .

وما إن فرغت من كلامها حتى فصلت عنه وتمزق ثوبها من قبضته ، ثم  
خلفت الفسقاط .

وأتشد علا صوت ثيل من الخارج يستدعى صاحبه ، نخرج الفارس البائس  
وتبع البارون الأنجليزى ، وهو يتمتر فى مشيته منهوكا مسترخيا من المحنة التى كابد  
عناؤها خلال المقابلة التى ما خلاص منها إلا بعد أن حث فى العهد الذى أخذ على  
نفسه أمام الملك رتشارد ، وهكذا سار الرجلان معاً حتى بلغا السراى الملكى ،  
وكانت أمامه جماعة من الخيالة نزلت عن ظهور الجياد ، وكان داخل الفسقاط  
خبياء وحركة ، ولما دخل شيل وتابعه المتنكر ألفيا الملك وكثيراً من النبلاء  
مشتغلين بالترحيب بالقادمين .

---

## الفصل السادس والعشرون

« لأذرفن الدمع دهر الباهرين ،  
فاي ما أبكى عاشقاً غائباً ؟  
فقد يمد الزمن ساعات الهناء ،  
ويلتق بعد الفراق العاشقان .

وما أبكى للوق الصامتين ؟  
فقد انقضت آلامهم ، وانتهت أحزانهم ،  
وسوف يتجمعهم من أحب خطام ،  
ويجمعهم للوت ، وما بعده من فراق . »  
ولكنها بكت شهراً من الفراق وشهراً من الموت ،  
بكت في حبيها ذكرأ ملطناً ،  
وبكت في الجندي اسمه الجريح ،  
وكرم أرومتها يشعلها ناراً موقدة .

من أغنية شعبية

علا صوت رنشارد الجمهوري الصريح وهو يحيي القادمين مستبشراً مسروراً ،  
ويقول : « أي توماس دى فو ! يا توم جاز البدين ! أقسم برأس الملك هنري إنك  
لرغيب إلى نفسى كقدح النبيذ إلى مدمن الخمر المرح ! والله ما كان لي أن أعرف  
كيف أردى زى القتال إلا إن كان جسمك البدين مائلاً أمام عيني أسترشد به  
في تنسيق هندامى ؛ وسوف نقتل عما قريب يا توماس إن حبانا القديسون بالرضا ،  
ولن يتم القتال في غيبتك إلا إن كنت معلقاً بشجر السيسبان » .

فقال توماس دى فو : « إذن لاحتمل الفشل بجلد المسيحي أكثر مما  
أحتمل لو أنى مت ميتة المارق عن دينه ، ولكنى أشكر جلالتك على ترحيبك بي ،  
وقد أسرفت فيه إكراماً لأنى أتيتك بشأن النزال - وأنت متأهب أبداً لأن  
تأخذ فيه بأكبر نصيب . ولكنى أتيتك برجل أعرف أن جلالتك سوف توليه  
ترحيماً أحر مما أوليتنى » .

وتقدم للخضوع إلى رتشارد رجل صغير السن ، قصير القامة نحيل القوام ، متواضع في زيه ، لا تؤثر في الرأي زنه ، ولكنه يلبس على قلنسوته مشبكاً من الذهب ، وجوهرة لا يباريها بريقاً إلا تألق العين التي كانت تظلمها القلنسوة ، وتلك العين كانت الملح الوحيد الذي يلفت النظر في طلعته ؛ وما إن رآها الناظر مرة حتى أثرت فيه تأثيراً قوياً متواصلاً ؛ وكان يتملق برقبته وشاح من الحرير في زرقه السماء ، عليه مفتاح من الذهب الخالص لإحكام النعم على القيثارة .

وكاد الرجل أن يجنو على ركبته إجلالاً لرتشارد لولا أن رفعه الملك بمجلة وبشر ، وضمه إلى صدره بحرارة وقبه في وجنتيه .

وصاح مسروراً : « مرحباً (يلندل دي زل) الذي أنا ما من قبرص ، مرحباً بملك المنشدين ! على الرحب والسعة عند ملك أجبلاً الذي لا يرفع كرامته الشخصية فوق كرامتك . لقد أصابني المرض يارجل ، وروحي ما كان مرضي إلا افتقادك ؛ فوالله لو أتي كنت في منتصف الطريق إلى أبواب السماء ، لردتني إلى الأرض أصوات أُنغامك — والآن ما وراك من بلد القيثارة يا سيدي الكريم ؟ هل من جديد عن منشدي بروفس ؟ هل من نبأ عن الفنانين في بلد النورماندي الطروب ؟ وفوق هذا وذاك — خبرني هل كان وراك ما يشغلك ؟ — ولكن لا حاجة بي إلى سؤالك — إنك لا تستطيع أن تلبث خاملاً حتى إن أردت — إن صفاتك النبيلة كالنار ، تحترق في أحشائك وتكرهك على أن تخرجها من بين جنبيك غناء وموسيقى » .

فأجاب بلندل الشهير قائلاً : « هذا شيء تعلمته فقلته أيها الملك النبيل . وتراجع تواضعاً ولم يستطع رتشارد — بكل حماسه — وإعجابه بمجده ، أن يزيل عنه الحياء .

وقال الملك : « سوف نستمع إليك أيها الرجل — لنصنِّع إليك الآن » ثم لمس كتف بلندل برفق وقال : « ذلك إن لم تكن متعباً من السفر ، وإلا فوالله

إنه لأحب إلى نفسي أن أمتطي صهوة جوادى وأسير نحو الموت من أن أودى  
نقمة من نفات صوتك » .

فرد عليه بلندل وقال : « صوتى — كما كان أبداً يا مولاي المليك — فى  
خدمتك » ثم لمح بضعة أوراق على المائدة وقال : « ولكن يدولى أن جلالتك  
مشتغل بما هو أهم ، ونحن فى ساعة متأخرة من النهار » .

« كلا يارجل ، كلا يا عزيزى بلندل ؛ إنما كنت أرسم زيا للقتال أردنيه حين  
ألقى الأعراب ، ولن يشغلنى هذا أكثر من لحظة قصيرة ، وسوف لا يستغرق  
أكثر مما تستغرق هزيمتهم » .

وقال توماس دى فو : « ولكنى أظن أنه كان من اللائق بجلالتك أن تستعلم  
كذلك عن الجند الذين سوف تقدمهم معك ، لقد أتيت نبأ فى هذا الشأن  
من عسقلان » .

فقال الملك : « والله يا توماس إنك لحمار ، حمار فى غبائك وعنادك ! تمالوا  
أيها النبلاء — افسحوا جميعا ، افسحوا ! التفوا حوله — أعطوا بلندل هذا  
المقعد — أين حامل قيثاره ! أو — مهلا — أعيروه قيثارتى ، فلربما أتلف  
السفر قيثارته » .

وقال توماس دى فو : « وددت لو أن جلالتك استمعت إلى نبئى ؛ لقد  
سافرت على مطيتى طويلا ، وأنا الآن إلى الفراش أشوق منى إلى العبت بأذنى » .  
قال الملك : العبت بأذنيك ! إن هذا إنما يكون بريش الدجاج لا بحلو النعم ،  
استمع إلى يا توماس ، هل تفرق أذنك بين غناء بلندل ونهيق الحمار ؟ » .

فأجابه توماس قائلاً : « حقا مولاي أنى لا أستطيع الجواب ، ولكننا إن  
أبعدنا عن دائرة الحديث بلندل ، وهو رجل كريم المولد وذو صفات عالية بغير  
مراء ، فأنى من أجل صالح جلالتك لن أنظر إلى منشد إلا وكأنى أنظر إلى حمار » .  
فقال رتشارد : « أفأكان من أدب اللياقة أن تستثنى ، وأنا رجل كريم المولد  
كبلندل ، وزميل مثله فى نقابة المطربين ؟ » .

فأجابه دى فو بإسما وقال : « لتذكر جلالتك أنه من العيب أن تتطلب آدابها اللياقة من حمار » .

فقال الملك : « لقد أصبت القول ، وإنك لحيوان زرى الهيئة . ولكن تعال هنا يا سيدى الحمار ، واطرح عنك عبئك حتى تستطيع أن تأوى إلى مخدعك دون أن نضيع فى سبيلك شيئا من الموسيقى ؟ وأنت ، أخى صاحب سولزبرى ، إلى أن ينتهى دى فو من ذلك ، اذهب إلى فسطاط مليكتنا وقل لها إن بلندل قد أتانا وجمعبته مفعمة بأحدث الأغاني ، ومرمها أن تأتى توا إلى هنا ، وقم على حراسها ، ولاحظ أن ابنة عمنا أديث بلا تاجنت لا تتخلف عن الحضور » .

ثم رنا النبى هنيهة بنظره ، وفى بحياه معنى الشك والارتياب ، الذى يبدو على ملاعبه عادة حينها يرمقه .

وقال : « أو قد عاد رسولنا الصامت الكتوم ؟ فف أيها العبد وراء ظهر دى ثجيل ، وسوف تطرق أذنيك عما قريب أنعام محمد الله من أجلها على أنه قد أصابك بالبكم لا بالصمم » .

وما إن أتم حديثه حتى أشاح عن بقية الجماعة ، وقصد دى فو ، واسترسل معه فى الحين عن دقائق الشؤون العسكرية التى عرضها عليه هذا البارون .

وحينما أوشك اللورد جلزلاند أن ينتهى من حديثه ، دخل رسول يعلن أن الملكة ووصيفاتها دانيات من السراى الملكى — فقال الملك : « هيا ، وآتوني بقدر من التبيذ ! آتوني بقدر الملك إسحق القديم ، ملك قبرص ، الذى عاش طويلا فى أمن وطمانينة ، ذلك القدر الذى غتمناه حين اقتحمنا (نجمستا) ؟ املاؤا الكأس اللورد جلزلاند البدين يا كرام الرجال ؛ فآله ما أحرز أمير خادما مثله أشد عناية وأكثر إخلاصا » .

وقال توماس دى فو : « يسرنى أن جلالتك قد ألفت فى الحمار عبدا ناعما ، وإن يكن صوته أقل فى موسيقاه من أنعام الأسلاك وشمر الخيل » .

فقال رتشارد : « ماذا تقول ؟ أفلم تقبل هذه النكتة عن الحمار ؟ إذن فلتحمها

« يارجل بكأس مفعمة حتى حافتها ، وإلا نُقصمت بها . عجباً ! أجل — لقد أجدت الاحتساء ! والآن استمع إلى ، إنك جندي مثلي ، وينبغي لنا أن نطبق ما يبتنا من نكات في الأيوان كما نطبق الضراب في المباراة ، وأن نوثق ما بين قلوبنا من حجة كلما احتدم النزاع ؛ تالله إن لم تردّ على نكاتي بمثل الشدة التي ضربتك بها حينما التقينا أخيراً ، إذن فلقد أسلمت كل ما بك من فطنة للعلمان ؛ ولكن هنا الفارق بينك وبين بلندل ، ما أنت إلا زميلي — بل تلميذي — في فن القتال ، أما بلندل فاستاذي في فنون الفناء والموسيقى ؛ فلك أسمح بحريه الإخاء الحميم ، أما له فعلى الاحترام ، لأنه أرفع منى منزلة في فنه . تعال يا رجل ، ولا تكن ضجوراً ، والبت واستمع إلى جدلنا وجبورنا » .

فقال لورد جلزلاند : « إن كان لا بد أن أشهد جلالتك وأنت في نشوتك ، فوالله لألبن حتى يسرد بلندل قصة الملك آرثر الخيالية بأسرها ، وهي تستغرق ثلاثة أيام » .

فقال الملك : « كلا ، إنا لن نحمّلك مالا تطيق عليه صبراً ؛ ولكن انظر ، هنالك ترى وميض المشاعل خارج السرادق إذ نادانا بمقدم مليكتنا — أخرج أيها الرجل واستقبلها ، وأصب لنفesk الرضا في أشد العيون بريقاً في العالم المسيحي طراً — كلا ، لا تترث حتى تحكم عباؤك ؛ انظر ! لقد سمحت لتفيل أن يحول بينك وبين أداء واجبك ! » .

ولم يرق لدى قو أن يسبقه كبير الحجاب — وهو (شيل) أوفر منه نشاطاً — فقال : « إنه لم يسبقني قط في ميدان القتال » .

فقال الملك : « كلا ، هنالك لم يسبقك لا هو ولا أحد غيره يا أخي العزيز قوم جاز ، اللهم إلا أنا بين الحين والآخر » .

فأجاب دى قو وقال : « أجل مولاي ، ودعنا لا نغبط التمساء حقهم ؛ لقد سبقني كذلك مرة فارس النمر الشقي ، لأنه خفيف على ظاهر الجواد ، ولذا ... » . فمارضه الملك بصيفة الجزم وقال : « صه ! لا تذكره بكلمة واحدة ! » ثم



تقدم في الحال لتحية زوجته للملكة ؛ وبمدا فعل ذلك ، قدم إليها (بلندل) باعتباره ملك الفناء وأستاذة في فن اللو والرح ، وكانت برنجارياً تعلم جيداً أن عشق زوجها الملك للشعر والموسيقى يكاد يوازي حبه للشهرة الحورية ، وأن بلندل هو عزيزه الحميم ، فعنيت واهتمت ببقائه لقاء فيه من الملق والاطراء ما يليق برجل يسر الملك أن يملو شأنه ، ورد بلندل بما يليق على ما أمطرته به صاحبة الجلال الملكي من وابل الثناء ؛ ولكنه لا مراء في أنه تلقى التحية الساذجة النبيلة من أدبث بإجلال من الأعماق ، وبالشكر والامثال ، وبدأ له أن ترحبها الرقيق ربما كان خالصا رغم إنجازه وبساطته .

وكانت الملكة وزوجها الملك كلاهما يلمان بهذه التفرقة ، ولما رأى رنشارد أن زوجته قد أغضبها ما خُصت به ابنة عمه من فضل ، لم يرض عنه هو نفسه كثيراً قال على مسمع منهما : « نحن المنشدين ، بارنجاريا ، كما ترين من مسلك أستاذنا بلندل ، نحترم الحكم الصارم كقريبتنا هذه أكثر مما نحترم صديقاً متميزاً رقيقاً مثلك ، يطيب له أن يسلم بقدرنا جدلاً » .

فثارت نفس أدبث لهذا التهمك من قريبها المليك ، وترددت في الجواب ، ولكنها قالت : « ما حكى الصارم الجازم بالصفة التي أتصف بها وحدي من بين أبناء بلاتاجنت جميعاً » .

وأدبث فتاة عليها مسحة من مزاج ذلك الليث الذي يشتق اسمه وشماره من عشب وضيق<sup>(١)</sup> زعموا أنه شارة الذلة والخضوع ، ولكنه من البيوتات الشديدة الأنفة ، الشائخة ، التي حكمت انجلترا ، ولذا فلربما تفوهت بأكثر مما قالت ، لولا أن عينها — وهي تنقد في جوابها — التقتا بفتة بميني النبوي رغم محاولته التخفي وراء النبلاء الحاضرين ، فأرتمت على مقعد ، وشجب لونها شحوباً اضطر للملكة أن تطلب الماء والمطور ، وأن تقوم بنير ذلك من الشماثر التي تليق بسيدة سقطت

---

(١) (بلاتاجنت) عشب تصنع منه الكأس .

منعشياً عليها ؛ أما رتشارد ، فكان يقدر قوى أدب العقلية خيراً من ذلك ، فأوماً إلى بلندل أن يعود إلى مقعده ويشرع في النشيد ، معلناً أن القناء خير من كل دواء آخر لإعادة الرجل أو المرأة من بيت بلا تاجنت إلى الحياة — ثم قال : « غننا أنشودة (الثوب الدامي) التي حدثتني عنها مرة قبل أن أغادر قبرص ، ولا بد وأن تكون الآن قد بلغت بها حد الإيقان ، أو انكسرت قوسك — كما يقول العامة — » .

ولكن عني النشد الشفيقتين اتجهتا نحو أدب ، ولم يطع أوامر الملك المتكررة إلا بعد أن رآها تسترد احمرار خديها ، فأخذ حينئذ يتغنى — وكأنه يتلو قصة محفوظة — بإحدى مقامرات الحب والفروسية القديمة التي كانت أبدأ في قديم الزمان تملك على الناس قلوبهم ، وصحب صوته بالضرب على القيثارة ضرباً يحلو معه معنى النشيد ولا يفيض الصوت . وما إن شرع في الديباجة حتى اختفى عن الرائي ظاهره الزرى ، وتألقت ملاحه بالنشاط والوحى ، وأطرب الأذان والقلوب بصوته العريض المسترجل اللين الذى كان مشبعاً كل التشيع بالدوق الرفيع ، فابتهج رتشارد وتهلل كما يتהלل بعد النصر ، ونادى بالصمت نداء يليق بالمقام وقال : « أنصتوا يا كرام القوم فى المخادع والأبهاء »

وبحس الحامى للفن والمتلذذ فيه صف الحاضرين فى دائرة ، وأثرهم الصمت وأسكتهم ، وجلس هو نفسه وعلى عيائه أمارات التسمع واللذة ممزوجة ببعض الشيء برزانة الناقد الفنى ، وحول رجال البلاط أبصارهم نحو الملك حتى يكونوا على استعداد لتغنى ما قد يبدو على ملاحه من عواطف ثم محاكاة ، وتناوب توماس دى فو طويلاً كأنه يستسلم — كارها — لكفارة شاقة ، وكانت أنشودة بلندل بطبيعة الحال باللسان النورماندى ، ولكننا فيما على نعرها معنى وأسلوباً .

### الثوب الدامى

على مقربة من مدينة ، (بَنَعَت) الجميلة ،  
والشمس تغيب فوق الأغصان والثنايا ،  
والقوارس تتأهب فى المخادع والخيام  
ليلة الاستباق إلى العباد ،  
حينما أرسلت الأميرة غلاماً فتياً  
يلبس حرير « لنكن » الأخضر اللامع ،  
ويحكي بزيه الحجاب ،  
فجاس خلال الخيام  
باحثاً أنى سار عن الإنجليزى « توماس بن كنت »

\*\*\*

فأمن فى الرحيل ، وسيمعن ويمعن ،  
حتى يجد سراقه ، وما هو بذى أبهة أو سناء —  
وما هناك سوى الصلب والحديد إلا القليل ،  
والفارس الكريم لا يملك المال يستأجر به صانع السلاح  
كى يعنى له بسلاحه ؛

فبساعدين مفتولين ، إلى الكتفين عاريتين ،  
انكب يصلح بالطريقة والمسلح  
زردها صوف يراه القدُّ وهو يرتديه  
إجلالا « لست جون » ولحبوبته الحستاء .

\*\*\*

قال الرسول ، وأحنى له الفارس رأسه وركبتيه ،  
« هذا ما تقول سيدى : هى أميرة بنعت عالية المقام ،

وأنت وضيع كأُوضع الفرسان ؛  
من يتسلق مثل هذه الشجرة العالية ،  
أو يثب فوق مثل هذا الحاجز يفصل ما بينها وبينك ،  
ينبئ أن يخاطر بعمل جليل  
حتى يرى أطاعه الناسُ جميعاً  
تؤيدها القروسية العليا .

\*\*\*

وقال الحاجب ، والفارس خافض الرأس واليدين ،  
« ولنا هذا ما تقول سيدتى :  
ألقى عنك السلاح الكريم الذى ترتدى ،  
والبس هذا المشب من ردائها بديلا عنه ،  
واستمض بثوبها الخيطى زرد الحديد ،  
واخرج بهذا الزى إلى فروع السجال .  
وقاتل كألفت حيث تجرى أكثر الدماء ،  
وعد بالشرف أو البث مع الموتى . »

\*\*\*

فما بدا على الفارس فى محياه الجزع ،  
وما لعب فى صدره القلق ،  
والعشب استلم ، وباجلال ثم : —  
« بارك الله فى ذا الزمن ، وبارك الله فى ذا الرسول !  
ما أراى إن صدعت بأمر سيدتى العالى إلا عظيم الشرف ؛  
قل لسيدتى إنى بهذا اللباس العزيز  
لن أضن بشجاعتى على خير الأبطال المسلحين ؛  
ولكنى إن حييت ، وأجدت القتال ،

فعلينا تدور الدائرة وتؤدي الاختبار .  
وهنا ، كرام الرجال ، ينتهى من أنشودة الثوب الهادى نصفها الأول .

فقال الملك : « لقد غيرت لنا وزن النشيد فى البيت الأخير يا عزيزى بلندل  
ونحن غافلون ! » .

فقال بلندل : « حقا مولاي ، فلقد نقلت الأبيات عن الإيطالية ، وكنت  
سمعتها من رجل هرم يضرب على القيثارة لاقبته فى قبرص ، ولما كنت لا أجد  
من الوقت ما يكتفى لنقلها نقلاً صحيحاً ، أو لحفظها عن ظهر قلب ، فإني أكتفى بأن  
أسد ما فى الموسيقى والنظم من مجز بدهاءة على قدر ما أستطيع ، كما ترى أهل الريف  
وهم يصلحون بالحطب السياج على مجمل » .

فقال الملك : « كلا وربى ، إنى لأحب هذه الأبيات الطويلة ذات الرنين ،  
وأرى أنها أكثر اثتلاقاً مع نغم الموسيقى من الأبيات القصيرة » .  
فأجابه بلندل قائلاً : « لنا فى كليهما حرية الوزن كما تعرف جلالتك جيداً » .  
فقال رتشارد : « أجل إنهما لكذلك يا بلندل ، ولكنى أظن رغم هذا أن  
المنظر — إذا كان فيه احتمال القتال — يتسق خيراً تساق مع البحر الطويل والأبيات  
الرئانة التى لها جرس كأنطلاق الفرسان ؛ أما الوزن الآخر فليس إلا كسير خيول  
الأنسان ليناً وانحرافاً » .

فرد عليه بلندل وقال : « لتكن إرادة جلالتك » وشرع يقدم للنشيد  
من جديد .

وقال الملك : « أجل ، ولكن هلا أرهفت خيالك أولاً بفدح من نبيذ  
( كيوس ) ؛ أصغ إلى ، إنى أريدك أن تطرح عنك هذه القيود الجديدة التى كبت  
بها نفسك ، وهى انتهاؤك بقواف متشابهة محكة ، فها هى إلا قيود لخيالك المتدفق  
تجملك أشبه برجل يرقص فى الأصفاة » .

فقال بلندل : « إن الأصفاة يتيسر على الأقل نزعها » ، وشرع يجيل أصابعه  
ثانية بين الأوتار كأن العزف أحب إليه من النقد .

وواصل الملك كلامه وقال : « لم تكبل نفسك بها يا رجل ؟ لم ترى  
بنو غل في سوار من حديد ؟ إني لأعجب لك كيف تقدمت ، وإني على يقين أنني  
ما كنت بمستطيع أن أنشد بيتاً واحداً في هذا البحر المقيد .  
فحسر بلندل بصره ، واشتغل بأوتار قيثارته كي يخفي بسمه ارتسمت على طلعتة  
ورغمًا عنه ، ولكنها لم تقب عن عين رتشارد .

فقال : « أقسم يا بلندل أنك لتضحك مني ، وحقا إن كل من يزعم أنه  
أستاذ — وهو لما يزل تلميذاً — لقمين بالسخرية . ولكننا نحن الملوك نكتسب  
حسن الظن بالنفس ، وهي عادة ذميمة . هيا ، وشف آذاننا بفنائك يا عزيزي  
بلندل ، وغننا كما شئت ، فإنه خير مما نقترح ، وإن يكن لا بد لنا من التعليق » .  
فعاود بلندل الغناء ، ولما كان يألف ارتجال النشيد فإنه لم يمحز عن أن  
ينصاع لما أشار به الملك ، وربما سره أن يبين السهولة التي يستطيع أن يكيف بها  
القصيد من جديد حتى وهو يلقيه .

## الثوب الدامي

### النصف الثاني

شهد صباح العباد الجليلُ جليل الفعّال —  
فكان اكتساب للشرف ، وكان ضياع للمنازل ،  
وكان ضرب بالسيف ، وكان قرع بالمص ،  
وأحرز الظافرون مجداً ، وفاز بالقبور المهزم .  
كم من فارس استبسل وأجاد القتال ،  
ولكن واحداً من بين أقرانه برز وبرع ،  
وذلك من لم يكن على جسمه ومصدره درع  
سوى قميص فتاة ترتديه حين تأوى إلى الفراش .

وكان من أصابه بمر الجراح وراى النكوم ،  
وأشفق لحاله الآخرون فكروا راجعين ،  
وقالوا : « إنها عين الشرف أقسمها ،  
ومن النذالة أن تقتله وهو ير باليمين . »  
ثم من أجله أوقف الأمير النزال  
ورى بحارسه ، ونفضوا فى البوق بالسلم مؤذنين ،  
وكان للقضاة الحكم ، وعلى البارين التسليم ؛  
وكان الفارس ، وترسه القميص ، فى الحلبة المجلى .

\*\*\*

ودنت ساعة المأدبة واحتشد الجميع ،  
وأمام الأميرة الحسناء أنحنى الوصيف خشعاً ،  
وأسلها قيصاً تعافه الميون  
مزقته السيوف ، ووخزته الرماح ، وكله خروق وكله ثقوب ،  
مهلهلاً مشققاً ، بالدماء ملطخاً ،  
عليه زبد الخيول وأثر الوحل والأديم ،  
لو لمسته السيدة بطرف خنصرها  
ما وقع الطرف على مكان تقى لم يلوث .

« سيدى سير توماس كَنتْ  
إلى أميرة بنقت الحسناء يرد هذا الشعار ؛  
من يصعد على الشجر ينل حقاً منه الثمر ؛  
من يثب فوق الجواجر ينبجح فيما سى ؛  
استهدفتُ حياتى لأشد المخاطر فنلت الجزاء ،  
والآن على سيدتى بيان الولاء .  
من تحفز الفرسان لمثل هذا الخطر ،

تقر لهم بخالص الفعّال أمام الشمس .

\*\*\*

يقول سيدى : « إني أرد القميص الذى ارتديت ،  
وللى الأميرة أطلب ارتدائه بدورها ،  
وليعل فى عينها قدره لها به من خروق ،  
فمار إن لم يلوث أو يصطبغ قرمزا ولو بخثر الدماء . »  
فاحمرت الأميرة خجلا ،  
ولثمت الثوب وقد تلطخ بالدماء ،  
وعلى شفتيها وإلى صدرها ضمته .  
إذهب وقل لفارسي الأمين لتظهرن الدولة والكنيسة  
إن كنتُ أقدرُ أو لا أقدر ما على هذا القميص من دماء .

\*\*\*

وحان الحين للنبلاء أن يسيروا  
فى موكب موقر إلى القس والقداس .  
وسارت فى المقدمة الأميرة فى بساط الرحمة والأرجوان ،  
وفوقها تلفعت برداء الليل الملطخ بالدماء ؛  
بل وفى الردهة حيث التأم الجمع للعداء ،  
وعلى ركبتيها جثت لأبيها وقدمت النبيذ ،  
وفوق كل غالى الثياب وثمان الجواهر  
لبست ذاك الوشاح الميب الخضب بالدماء .

\*\*\*

وحقا لقد همس للسيدات كرام الرجال ،  
وبالإيماء والبسمات وغمزات الميون أجاب السيدات ؛  
وأطرق الأمير غضبا وخزيا ،



ثم التفت إلى ابنته أخيراً وكلها مقطب الجبين :  
« الآن وقد صدرت عنك الحماقة والذنوب ،  
فلتكفري يديك عما أرقّت من دماء ؛  
ولتندمان كلاكما على الفحّة أشد الندم ،  
وسهجان من ينثنت الجميلة شريدين » .

\*\*\*

وفي الزدعة وقف توماس البدين ،  
منهوكاً مخنولاً ولكن قلبه جسور مقدم ،  
وبأعلى صوته صاح : « إن ما أرقّت من دماء في سبيل ابنتك  
قدفت به رافها ، كما يلفظ الوعاء النبيذ ؛  
ولئن عانت من قبل عقوبة أو عدلاً ،  
فثق أنني لأتجنّبها من العناء والمار ،  
ولن تأبه بالإمارة أو ريمها إلا قليلاً ،  
فلسوف أنادين بها في أنجلترا أميرة كنت ! » .

فسرت بين الحاضرين دمدمة الاستحسان ، متابعين في ذلك رشارد نفسه  
الذي أخذ يكيل لمنشده المحبوب الثناء كيلاً ، واختتم بتقديم خاتم عظيم القيمة إليه ،  
وسارعت الملكة إلى التعطف على هذا المغني العزيز بسوار نفيس ، وتبع كثير من  
النبلاء الحاضرين هذه السابقة الملكية .

وقال الملك : « هل باتت ابنة عمنا أديث لا تستسيغ نغم القيثارة الذي عشقته  
يوماً ؟ »

فأجابت أديث قائلة : « إنها تشكر بلندل على أغنيته ، وتضاعف الشكر لركة  
قريبها الذي أشار بها . »

وقال الملك : « إنك لغاضبة يا ابنة عمي ، غاضبة لأنك سمحت بامرأة أشد  
منك عناداً ، ولكنك لن تغفلني مني — سوف أسير معك بصنع خطوات نحو

«مبيتك من سرادق الملكة — ينبغي أن تشاور معاً قبل أن يشحب ظلام الليل ويسطم نور النهار» .

وكانت الملكة ووصيفاتها إذ ذاك قد نهضن على أقدامهن ، وانسحب الضيوف الآخرون من فسطاط الملك ، وكان ينتظر برنجاريا خارج السرادق رتلٌ من الناس يحملون المشاعل الوهاجة ، وحرس من رماة السهام ، وسرعان ما كانت في طريقها إلى بيتها ؛ وسار رتشارد إلى جوار قريته كما اقترح وأكرهها على أن تقبل ذراعه متكأً لها حتى يستطيعا أن يتحدآ دون أن يسمعهما أحد .

وقال رتشارد : « أى جواب إذن أرد به على السلطان النبيل ؟ إن الملوك والأمراء ينصرفون عني يا أديث ؛ وهذا النزاع الجديد قد باعدهم عني ثانية ، إني قد أستطيع أن أقوم بيمض الواجب نحو القبر المقدس بالاتفاق إن لم يكن بالظفر ؛ وتتوقف — واحسرتاه ! — فرصة قيامي بهذا على امرأة ؛ والله خير لى أن أنازل بحربة واحدة عشرة من خيرة الرماحين في العالم المسيحي من أن أجادل امرأة عنيدة لا تعرف صالح نفسها . أى جواب يا ابنة العم أرد به على السلطان ؟ ينبغي أن يكون الجواب حامياً » .

فقالت أديث : « قل له إن أفقر بنات بلاتاجنت خير لها أن تزوج من البؤس والشقاء من أن تقترن بالشرك والكفران » .

فقال الملك « أو (بارق) يا أديث ، والله ما أظن إلا أن هذا أقرب إلى ذهنك » . فأجابت أديث قائلة : « ليس هذا مجال الشك الذى تشير إليه بهذه النظلة ؛ إن استرقاق الجسم قد يدعو إلى الإشفاق ، ولكن استرقاق الروح يستثير التحقير والازدراء ؛ هار عليك يا ملك أنجلترا الطروبة ! لقد استعبدت فارساً جسماً وروحاً ، وكان يوماً يكاد لا يقل عنك صيتاً وذكرآ » .

فرد عليها الملك وقال : « هلا ينبغي لى أن أمنع قريبتى عن شرب السم ، فألوث الإماء الذى يحتويه ، إن لم أر وسيلة أخرى تفزها من الشراب القاتل ؟ »

فأجابت أديث وقالت : « إنما هو أنت الذى تدفع بى إلى شرب السم لأنه يقدم إلىَّ فى كأس من الذهب » .

وقال رتشارد : « أى أديث ، إني لا أستطيع أن أقسرك على البت قسراً ، ولكن حذار من إغلاق الباب الذى تفتحه السماء ؛ إن ناسك عين جده ، الذى يمتدحه البابا وتعتبره المجامع رسولا ، قد استطلع النجم ، ورأى أن قرانك سوف يصلح ما بينى وبين خصم قوى ، وأن زوجك سوف يكون مسيحياً ، ولذا فالأمل قوى فى أن زواجك من السلطان سوف يؤدى إلى اعتناقه المسيحية والإتيان بأبناء إسماعيل إلى حظيرة الكنيسة . هيا ، هيا ، إنما ينبغي أن تقدمى بعض الفداء ، ولا تقفى فى سبيل مثل هذا الطمع السعيد » .

فقالت أديث : « قد يضضى الرجال بالأكباش والماعز ، لا بالشرف والضمير . وقد نما إلىَّ أن الأعراب ما دخلوا أسبانيا إلا عن سبيل عار فتاة مسيحية ؛ وليس عار الأخرى بالسبيل التى يرجى منها إخراجهم من فلسطين » .

فقال الملك : « هل ترين من العار أن تبتقى طاهلة ؟ »

« إنما عار وخزى أن تنتهك حرمة السر المسيحى المقدس بأن ندخل فيه مشركاً لا يرتبط به ؛ وأقول إنه عار وشنار أن أبيت — راضية — وأنا سلية أميرة مسيحية ، على رأس حريم من الإماء المشركت » .

فسكت الملك قليلاً ثم قال : « إذن ينبغي لى يا قريبتى أن لا أشتبك معك فى الجدل ، وإن كنت أظن أن اعتمادك على كان ينبغي أن على عليك الطاعة أكثر من ذلك » .

فأجابت أديث قائلة : « مولاي ، إن جلالتك قد ورثت بحق كل ما كان لبيت بلاتاجنت من ثروة وجاه وملك ، فلا تضنن على قريبتك المسكينة بنصيب زهيد من عزم وفخارهم » .

فأجابها الملك وقال : « أقسم أيتها المرأة لقد أنزلتنى من عليائى بهذه الكلمة ؛ إذن فلنتصافح وليقبل أحدا الآخر ؛ سوف أبعث بجوابك قريباً إلى صلاح الدين .

ولكن بعد هذا كله ، ألم يكن خيراً يا ابنة العم أن تملق جوابك حتى تريه ؟  
فإن الرجال يقولون عنه إنه فائق الملاحظة والظرف » .  
فقلت أدب : « ليست هناك يا مولاي فرصة للقائنا » .

وقال الملك : « وحق القديس جورج إن اللقاء لا بد منه ، فإن صلاح الدين  
لا مرء في أنه سوف يعطينا ميداناً طلقاً نقوم فيه بهذه المعركة الجديدة ، معركة  
العِلم ، وسوف يشهدها بنفسه ، وإن برنجاريا لتتحرق شوقاً لرؤياها ؛ وأقسم  
أنسكن ، رفيقاتها ووصيفاتها ، سوف لا تتخلف منكن ريشة — أنت في  
مقدمتهن جميعاً يا ابنة العم الحسنة ؛ ولكن دعينا من هذا وهيا بنا ، لقد بلغنا  
السراشق وينبى أن نفترق ، بل وأن نفترق على غير عداء — كلا بل يجب أن  
تؤيدى يا أدب ، يا ذات الحسن ، مودتنا بشفتيك وبكلتي يدك — إنه من حق  
كذلك أن أقبل أتباعي من ذوات الحسن » .

وعانقها بإقبال ومحبة ، وعاد خلال المعسكر والقمر يسطع ، وهو يهمهم لنفسه .  
بضع فقرات مما يذكر من أنشودة بلندل .

ولما بلغ السراشق خف إلى إنشاء رسائله إلى صلاح الدين ، وأسلمها إلى النوبي ،  
وأمره أن يرسل عند منبثق النهار عائداً إلى السلطان .

## الفصل السابع والعشرون

طرق التكبير منا الأذان —  
والتكبير ما يطلقه الأعراب على نداء المجهوم ،  
حينما يهللون بصوت عال  
يدعون الله أن ينصرهم —  
حصار دمشق

وفي صباح اليوم التالي دعا فيليب ملك فرنسا رتشارد إلى لقائه ، ولما التقيا  
أبلغ فيليب رتشارد بعد دياجة طويلة من التقدير السامى لأخيه ملك إنجلترا ،  
وفي عبارة غاية في الرقة ، ولكنها جد صريحة لا يخطئ معناها السامع ، أبلغه  
بمزمه المؤكد على عودته إلى أوروبا ، وإلى شؤون مملكته ، لأنه يتس كل اليأس  
من النجاح في النهاية مما شرعوا فيه بمد ما تضعضعت قواهم ودب النزاع بين  
صفوفهم ، وعارضه رتشارد ولكن دون جدوى ؛ ولما انتهيا من المقابلة ، تلقى  
رتشارد بنير دهشة إخطاراً من دوق النمسا وكثير غيره من الأمراء ، يعلنون فيه  
عزماً كعزم فيليب ، وبمبارة ليس فيها شيء من التهوين ، وقد عزوا ارتدادهم عن  
قضية الصليب ، إلى أطاع رتشارد الفرطة وسيطرته وتحكمه ؛ فضاغ بمد هذا كل  
رجاء في متابعة القتال مع الأمل في الفوز بالنصر آخر الأمر ، وتحدث الدمع المرير  
من رتشارد على خيبة آماله في الظفر والمجد ، ولكنه تعزى قليلاً حيناً ذكر أن  
الفشل يرجع بعضه إلى الزايا التي منحها خصومه بسجيته التمجلة وقلة رويته .

فقال لدى قو : وهو في مرارة غضبه وحنقه : « إنهم ما كانوا ليجسروا على  
هجران أبي هكذا ، وما كان العالم المسيحي يصدق أنهم يلفظون هذا القذف في  
وجه ملك حكيم مثله ؛ أما الآن — وما أشد غفاتي ؟ — فإنني لم أيسر لهم الحجة  
لهجراني فحسب ، بل لقد أعطيتهم كذلك سبيلاً لإسناد الملامة على هذا الشقاق إلى  
نقائصي وميوبي » .

وكانت هذه الخواطر شديدة الإيلام على نفس الملك حتى أن دى فو استبشر حينما وصل من صلاح الدين سفير حول تفكيره إلى مجرى آخر .

هذا الرسول الجديد كان أميراً له لدى السلطان احترام كبير ، واسمه عبد الله الحاج ، وهو ينسب إلى أسرة كريمة ، وكان يلبس عمامة كبيرة خضراء إشارة إلى نسبه ، وقد أدى الحج إلى مكة ثلاث مرات فاتصف (بالحاج) ، ولكن عبد الله — رغم هذه المظاهر التي تدل على قداسته — كان في نظر الأعراب نديماً يحب القصص المرح ، وينزع عن نفسه الرزاة إلى حد يجترع معه كأس الخمر — وهو يطفح بشراً — إذا ما تخفى تخفياً يكفل له كتمان الفضيحة ؛ وكان إلى ذلك سياسياً أفاد صلاح الدين من كفاءته في مفاوضات عدة مع الأمراء المسيحيين ، وبخاصة مع رتشارد الذي كان يعرف (الحاج) معرفة شخصية ويستظرفه ، وما إن علم رتشارد من رسول السلطان بإذعانه عن طيب خاطر لتقديم ميدان للنزال على أرض محايدة ، ولقيادته كل من أراد أن يشهد المبارزة آمناً إلى هناك ، مقدماً نفسه ضماناً لصدقه ، حتى امتلأ بالحياة ، ونسى آماله المحطمة ، وإذ ان العصبية المسيحية بالأنحلال ، واسترسل في البحث المتع الذي يسبق النزال في ميدان المبارزة .

وُضرب المكان الذي يعرف (بدرة الصحراء) ملقى للنضال ، لأنه يكاد يتوسط بين معسكر المسيحيين ومعسكر الأعراب ، وأتفق على أن يظهر كفراد منتسرا المهتم ومؤيداه أرشدوق النمسا وكبير رجال المعبد هناك في اليوم الذي حدد للمبارزة ، ومعهم مائة من الأتباع المسلحين ليس غير ، وأن يحضر رتشارد ملك إنجلترا وأخوه سولزبرى الذي يؤيد الاتهام ومعهما هذا المدد عينه من الرجال لحماية بطل الملك ، وأن يأتي السلطان ومعه حرس من خمسمائة من خيار الأتباع ، وهي فرقة لا ترجح — رغم عديدها — المائتي مسيحي من رماة الرماح ؛ أما ذوو المكانة من الرجال الذين يختارهم أى الفريقين للدعوة لمشاهدة النزال ، فكان عليهم ألا يصطحبوا سلاحاً غير سيوفهم ، وأن يأتوا بغير دروع للدفاع ؛ وتعهد السلطان بإعداد

الأما كن وشهى الطعام من كل لون لسل من يحضر هذا الحفل المهب ؛ وقد عبر فى رسائله بكل رقة عن السرور الذى يرتقبه من الأمل فى مقابلة الملك . وتشارد مقابلة شخصية سلمية ، وعن رغبته الشديدة فى أن يجعل استقباله لائقاً بقدر ما يستطيع .

وبعد ما تم التمهيد ، وعلم بذلك التهم وأعوانه ، دخل عبد الله الحاج فى مقابلة خاصة استمع فيها لأغاني بلنل وانشرح لها صدره ؛ وقد أخفى عن الأبصار أول الأمر عمامته الخضراء بكل عناية ، واستبدلها بتقية إغريقية ، ثم رد على موسيقى المنشد النورماندية بأغنية شراب فارسية ، واجترع كأساً من نبيذ قبرص حتى ثمالها كى يثبت أن فعاله تتفق ومبادئه ؛ وفى اليوم التالى ظهر بمظهر الرصانة والصحو كأنه « مرجب » الذى لم يشرب سوى الماء ، وانحنى ببجائه إلى الأرض . لدى موطنى قديم صلاح الدين وسرد للسلطان بياناً عن سفارته .

وفى اليوم الذى كان يسبق اليوم المحدد للنزال فصل كتراد وصحابه عند مطلع النهار يقصدون المكان المين ، وترك رتشارد المعسكر فى ذات الوقت ولنفس الغرض ، ولكنه سلك فى رحيله طريقاً أخرى كما أنفق من قبل ، وهى حيلة رؤيت ضرورتها لمنع إمكان شبوب النزاع بين أتباعهم المسلحين .

ولم يكن الملك الصالح نفسه على أهبة للقتال مع أى كان ؛ وما كان لينزيد من سروره وتطلعه إلى المباراة الدامية المستقلة فى ساحة النزال إلا أن يكون بشخصه الملكى أحد المتبارزين ؛ واسترد بعض رضا النفس ثانية ، وهذأت ثأرته حتى نحو كتراد منتسراً ، وسار يترنخ يميناً ويساراً ، خفيف السلاح ، نفيس اللباس ، منشرحاً كالعريس ليلة زفافه ، إلى جوار محفة الملكة برنجاريا ، مشيراً لها إلى المناظر المدينة التى كانا يتخللنها ، ومُدخلاً بالقصص والفناء بعض البهجة على صدر القفر المجدب القاحل ؛ وكانت الطريق التى سلكت الملكة من قبل فى حجبها إلى عين جدة على الجانب الآخر من سلسلة الجبال ، فكان السيدات غريبات على هذا الجانب البادى من الصحراء ؛ وكانت برنجاريا تعلم ميل زوجها حق العلم ،

وتحاول أن تظهر حبها لما كان يسره من قول أو غناء ، إلا أنها — رغم ذلك — لم يسمعها إلا أن تستوصل في بعض مخاوف نسوية ، حيناً ألقت نفسها في قفر بلقع مع قليل من الخفراء كانوا يبدون كذرة متحركة على صدور السهل ، وحيناً أدركت كذلك أنهم على مقربة من معسكر صلاح الدين ، وأن هذا الوثني قد تبلغ به الخيانة . أنت ينتهز هذه الفرصة فيبعث بجيش قوى من فرسانه خفاف الحركة يباغتهم ويسحقهم في لحظة واحدة ؛ ولكنها ما إن ألعت إلى رتشارد بهذه الريب حتى دواها غاضباً مزدرياً وقال : « إنه لشر من نكران الجليل أن ترتاب في صدق نية السلطان الكريم . »

ولكن هذه المخاوف والشكوك عادت أكثر من مرة لا إلى عقل الملكة الهيوب وحده ، ولكن إلى نفس أديث بلاساجنت كذلك ، وهى أشد ثباتاً وأكثر صراحة ، ولم تبلغ بها الثقة في إخلاص المسلمين مبلغاً تطمئن معه إلى هذا الحد ، إن هى باتت في قبضتهم ؛ ولو كان ما حواليا من أرض يباب يردد صدى النداء « بالله » على حين غرة ، ثم تنقص عليهم عصاة من فرسان العرب كما تنقص التسور على الفريسة ، لكانت دهشتها من ذلك أقل من رعبها بكثير ؛ ولم تفتر هذه الشكوك حيناً قبل المساء ، ورأوا فارساً عربياً — يتميز بمامته ورمحه الطويل — يحوم على حافة جبل ناثى كالصقري يحلق في الهواء ، وقد انطلق في الحال عند ما ظهر الملك وأتباعه انطلاق الطائر حيناً يشق الريح ويختفى وراء الأفق .

فقال الملك رتشارد : « لا بد وأن نكون قد اقتربنا من المكان ، وذلك الفارس أحد طلائع صلاح الدين — يخيل لى أنى أسمع أصوات الأبواق والصنوج الغريبة ؛ رتبوا صفوفكم يا أجباء قلبي ، واصطفوا حول السيدات واشتبوا نبات الجنود . » وفي خلال كلامه خف كل فارس وتابع ونبال على عجل إلى مكانه المعين ، وساروا في صفوف متلاصقة أشد التلاصق حتى بدا عيديهم قليلاً ، وحقاً إن لم يسر بينهم الخوف ، فقد تملكهم الجزع وحب التطلع وهم يتسمعون منصفين



إلى أنغام الموسيقى المغربية وهي تصدح ، وتبلغهم الحين بعد الآخر واضحة من الجهة التي اختفى فيها الخيال العربي .

وقال دى قو همسا : « أما كان خير لنا يا مولاي أن نبعث برسول إلى قبة هذه الارية الرملية ؟ أم هل تريدنى أن أسبق إلى الأمام ؟ يخيل لى من كل هذا الضجيج وذاك الطنين أنه إن لم يكن هناك ما يربو على خمسة رجل وراء الكتبان الرملية ، فلا بد وأن يكون نصف حاشية السلطان من الطبالين واللاعين بالصنوج — هل لى أن أسبق ؟ » .

وشد البارون على جواده بزمامه ، وأوشك أن يحفره بمهمازه ، لولا أن صاح به الملك « كلا ، لو أعطيت ملك الدنيا ؛ إن مثل هذا الحذر يدل على الرية ولن يحول دون انقضاءهم علينا ، وهو أمر لا أخشاه » .

وتقدم الجمع بعد هذا فى نظام محكم متقاربن ، حتى تحطوا الكتبان الرملية المنخفضة ، وابتوا على مرأى من المكان المقصود ، فإذا بانتظارهم مشهد رائع جليل ، ولكنه يثير الرعب فى النفوس .

كانت (درة الصحراء) إلى عهد قريب عينا منعزلة لا يميزها وسط القفار سوى عدد من أشجار النخيل المتباعدة ، ولكنها الآن محط لحيام عديدة مضروبة ، وعليها أعلام مزركشة وزينات من الذهب تتألق تألقا شديدا وتنعكس ألوانها من الألوان الزاهية ، والشمس تسطع عليها وهي مائلة للغروب . وكانت السراقات الضخمة منقطة بأزهى الألوان ، من قرمزية إلى أصفر قاقع ، إلى أزرق شاحب ، وغير ذلك من الأصباغ ذات الرونق والسناء ، وأعلى عمدتها — أو قوائم الخيام — كانت عملة برمان من الذهب ، وأعلام صغيرة من الحرير ؛ ولكن إلى هذه السراقات المتميزة كان هناك ، على ما رأى توماس دى قو ، عدد كبير من خيام العرب المألوفة السوداء ، تكفى — على ظنه — لإيواء جيش من خمسة آلاف رجل على الطريقة الشرقية ؛ وكان هناك عدد من الأعراب والكرد يتناسب واتساع الخيم ، يتجمعون على عجل ، وكل منهم يقود جواده بيده ، ويصحب

حشدهم فجيح يكاد يصم الأذنان ، يصدر عن آلاتهم الصخابة التي كانوا يضربون عليها موسيقاهم العسكرية ، والتي أشعلت في العرب طوال العصور حماس الحرب والقتال .

وسرعان ما تجمعوا أمام خيامهم في حشد مضطرب شديد الزحام من الفرسان المترجلين ، وما إن أشير إليهم بصيحة عالية تملو رنين الموسيقى ، حتى خف كل فارس إلى ظهر جواده ، وثار النقع سحبا حينما قاموا بهذه الحركة العسكرية ، فاخفى عن ناظر رتشارد وأتباعه المسكر والنخيل وحافة الجبل البعيدة ، كما اختفى الجنود الذين أثاروا سحب التراب بحركتهم المبالغية ؛ وارتفع النبار فوق رؤوسهم ، واتخذ أشكالا عجبية من عمد ملتوية وقباب ومآذن ، وارتفعت صيحة عالية أخرى منبعثة عن صدر هذا الهيكل المنشأ من سحب التراب ، وكانت هذه الصيحة إشارة للفرسان بأن يتقدموا ؛ وقد فعلوا ، راكضين بأقصى سرعة . وكل ساروا إلى الأمام اسطفوا محيطين بالمقدمة والجناحين والمؤخرة من حراس رتشارد القليلين ، وقد باتوا محاصرين ، ويكادون يختنقون بسحب التراب الكثيفة التي تنسجهم من كل جانب ، والتي كانت تبين من خلالها حيناً وتختفي حيناً آخر جسام الأعراب الكالحة ، ووجوههم البربرية ، وهم يلوحون برماحهم ، ويهزون بها في كل متجه مهللين هاتفين ، ولا يمسكون بزمام خيولهم إلا غراراً ، وذلك حينما يبيتون على قيد رمح من المسيحيين ؛ بينما كانت مؤخرتهم تخطر على رؤوس الفريقين وأبلا من السهام ، وقد أصاب أحدها الحفة التي كانت تجلس فيها الملكة ، فعلا صياحها واهر جبين رتشارد في لمح البصر .

فصاح مذعوراً : « وحق القديس جورج ليكون لنا مع هذه الطغمة من الكفار شأن ! » .

أما أديث التي كانت محفها على كعب ، فقد أطلت برأسها ، وأمسكت بإحدى يديها نبلة وصاحت : « أي رتشارد المليك ، حذار مما أنت فاعل ! أنظر ، إن هذه السهام بغير رؤوس ! » .

فصاح بها رتشارد : « ما أنيك وأحكك من امرأة ! والله إنك لتخجلينا جميعاً بسرعة خاطرك ونفاذ بصرك » — وصاح بأتباعه : « لا تتحركوا يا أغراء قلبي من الإنجليز ، إن سهومهم ليس لها رؤوس ، وإن رماحهم كذلك تنقصها أطراف الحديد . إنما جاءونا مرحبين ترحيا وحشياً على طريقهم البربرية ، ولكنهم رغم هذا — لا مرءاء — يتهجون إذا رأونا مرتاعين أو مضطربين ؛ سيروا إلى الأمام بتؤدة وثبات » .

فسارت الكتيبة الصغيرة قُدماً ، يصحبها الأغراب من كل جانب ، وهم يصيحون صياحاً نافذاً أجش ؛ وحملة القسي يمرضون حذقهم وخفقهم فيرمون بسهامهم على قيد شجرة من رؤوس المسيحيين دون أن يصيبوهم بأذى ، والراماحون يتقارعون بغلظة بأسلحتهم الكليية ، حتى كثر منهم من فقد سرجه وكاد يفقد حياته في هذا اللعب الممجى ؛ وقد أرادوا بهذا كله إلى التعبير عن ترحابهم ، ولكن ظاهر الأمر كان مريباً في أعين أبناء أوروبا .

وما إن بلغوا منتصف الطريق نحو المسكر ، والملك رتشارد وأتباعه يؤلفون النواة التي تجمع حولها هذا العدد الصخاب من الخيالة ، مهالين هاتفين ، ومناوشين ومهطلين ، وهم على صورة من الاضطراب لا يحيط بها وصف ، حتى انبعثت صيحة عالية أخرى ، كر لسمعها الجنود المختلون ، الذين كانوا بالمقدمة وعند الجناحين من الكتيبة الأوروبية الصغيرة ، وألفوا من أنفسهم صفا طويلاً عريضاً ، وساروا في مؤخرة عسكر رتشارد ، وهم أكثر نظاماً وأزيم صمتاً ؛ وبدأ التراب الآن ينقش أمامهم حيناً تقدم للقائهم خلال ذلك الحجاب القاتم جماعة من الفرسان يختلفون عنهم هيئة ويفوقونهم نظاماً ، مسلحين إلى الأطراف بأسلحة الدفاع والمهجوم ، يليق بهم أن يكونوا حراساً لأكثر ملوك الشرق صلفاً وكبراً ؛ وهذه الفرقة الفاخرة كانت تتألف من خمسمائة رجل ، وكل جواد من جيادهم يليق فداء لرجل شريف ؛ والركبان رقيق من أهل جورجيا أو جراكسة في ريمان الشباب ، وخوذاتهم وقمصانهم المصنوعة من الزرد كلها من حلق الحديد ، شديدة البريق ،

تتألف كالفضة ، ونطقهم مجدولة بالحرير والذهب ، وعمائمهم الغالية مرصعة بالريش والجواهر ، وسيوفهم وخناجرهم من الصلب المحلى بالفضة ، مزينة بالذهب واللازلي على مقابضها وأغمدتها .

تقدم هؤلاء الجند ذؤو الأزياء الفاخرة على أنغام الموسيقى العسكرية ، ولما التقوا بفرقة المسيحيين فتحوا صفوفهم يمينا ويسارا ، وأدخلهم بينهم ، واتخذ رتشارد الآن مكانة في طليعة جنده ، وهو يعلم أن صلاح الدين نفسه يدنو . ولم يمض زمن طويل حتى أقبل السلطان وسط حرسه ، وكأنه بملاحه وهيئته رجل كتبت الطبيعة على جبينه ( هذا ملك ) ، وأحاط به خدومه من الضباط وأولئك الزوج السيمين الذين يخفرون الحرم في الشرق ، والذين زاد قبح أشكالهم رعبا نفاسة ملبسهم . وصلاح الدين بعمامته الناصعة البياض ، وصداره وسراويله الشرقية الفضفاضة ، ونطاقه الحربرى القرمزى ، دون أية زينة أخرى ، ربما كان أكثر من حرسه سداجة في لباسه ؛ ولكنك إن دنوت منه وأمنت فيه ، رأيت في عمامته تلك الجوهرة التى لا تقدر ، والتى سماها الشعراء ( بحر النور ) ؛ واللؤلؤة المنقوشة باسمه ، والتى كان يلبسها في خاتمه ، ربما كانت تساوى في قيمتها كل ما بالتاج الإنجليزى من جواهر ، والياقوت الذى ينتهى به مقبض سيفه لا يقل عنها في قيمتها كثيرا ؛ وفوق ذلك كان السلطان يلبس نوعا من القناع يتصل بعمامته ، ويحجب عن الأنظار جانبا من ملاحه النيلية ، وذلك إما وقاية له من التراب الذى يشبه في جوار البحر الميث أدق الرمال ، أو ربما كان ضربا من الكبرياء الشرقى ؛ وكان يمتطى حصانا عربيا ناصع البياض ، يحمله وكأنه يحس ويفخر براكبه النبل .

ولم تكن هناك حاجة إلى مقدمة جديدة ، فلقد نزل الملكان الشهبان — وحقا لقد كانا كذلك — عن ظهري جواديهما توا ، ووقف الجند ، وسكنت الموسيقى بقتة ، وتقدما للقاء في صمت رهيب ، وبعد ما انحى كل منهما بجاملة تماقا كأخوين وثنين ؛ ولم تعد الآبهة والظهر لى أيهما لتجتنب النظر ، إذ لم ير

أحد شيئاً غير رتشارد وصلاح الدين ، ولما ير أحدهما غير الآخر ، ولكن النظرة التي كان يرمى بها رتشارد صلاح الدين كانت أكثر إيمانا وتطلعا من نظرات السلطان التي صوبها نحوه ؛ وكان السلطان كذلك أول من شق ما كان يسود من سكون .

وقال : « إن صلاح الدين يرحب بالملك رتشارد كما يرحب بالماء لهذه الصحراء ! وإنى على يقين من أنه لا يرتاب في هذا العدد العديد من الجنود ، فإذا استنفت العبيد المسلحين من حاشيتي ، فإن أولئك الذين يحيطونك بنظرات من العجب والترحاب هم جميعاً — حتى أكثرهم خضوعاً — من النبلاء ذوي المسكاة في القبائل الألف التي تبغى ؛ إذ من ذا الذي يكون له حق المشول ويلبث في بيته ، والأمير القادم رتشارد ، وهو الذي يخاف اسمه — حتى فوق رمال اليمن — تدلل المرضعة الوليد ويخضع العربي جواده الجوح ! »

فأجاب رتشارد وقال : « وكل هؤلاء نبلاء من الأعراب ؟ » وتلفت حواليه ، ووقع بصره على جسم خشن ، ورجال متلفعين بالثياب ، اسودت من حرارة الشمس ملامحهم ، وأسنانهم بيضاء كالعاج ، وعيونهم السود يتألق فيها بريق نافذ غير طبيعى تحت ظلال عمامتهم ، ولباسهم على الجملة ساذج بل وضيع . فقال السلطان : « أجل إن لهم لهذه المرتبة ، وهم وإن يكونوا عديدين إلا أنهم يخضعون لشروط المعاهدة ، ولا يحملون سلاحاً غير السيوف — وحتى حديد رماحهم فد خلفوه وراءهم » .

فتمتم دى ثو بالإنجليزية قائلاً : « إنى أخشى أن يكونوا قد خلفوه حيث يتيسر لهم إن أرادوه سريعاً — إنى أقر بأنهم مجلس من الشيوخ جليل ، وربما ضاقت بهم قاعة وستمنستر » .

وقال رتشارد : « صه يادى ثو — إنى أمرك بالصمت » ثم قال : « أيها السلطان ، إنك والشك لا توجدان على أرض واحدة » وأشار إلى المحفات وقال : « ألا ترى أنى كذلك قد أتيت مى يعض الأبطال ، ولكنهم مسلحين ؛ ولربما

كان في ذلك إخلال بالاتفاق ؛ ولكن العيون النجل ، والملاح الفاتنة ، أسلحة لا نستطيع أن نخلفها وراءنا .

فالتفت السلطان نحو المحفات ، وطأطأ رأسه إجلالا كأنه يولى وجهه شطر مكة ، ولثم الرمال إشارة على الاحترام والتبجيل .

وقال رتشارد : « كلا ، إنهن يا أخى لا يخشين لقاء أقرب من هذا . هلا ركب صوب محفاتهن ، وسترفع الستر بعد زمن وجيز ؟ » .

فقال صلاح الدين : « حرام على هذا ! وليس للعربى أن ينظر إلى النساء ، وعار على السيدات التبيلات أن يبدن وجوههن بغير قناع » .

فأجاب رتشارد : « إذن لتراهن في خلوة يا أخى المليك » .

فأجاب صلاح الدين محزوناً وقال : « لم أراهن ؟ لقد كانت رسالتك الأخيرة لأمالى التى أشدت كالماء للنار ، فالى بعد هذا أشعل لهيباً قد يحرق قلبى ولا يدخل السرور على نفسى ؟ — ولكن هلا سار أخى إلى الفسطاط الذى أعده له خادمه ؟ إن عبدى الأسود الخاص قد تلقى الأمر للقاء الأميرات — وسوف يستقبل الضباط من حاشيتى تابميك ، وسأقف بنفسى على خدمة رتشارد المليك » .

وعلى إثر هذا شق طريقه إلى سراق نغم أعد به كل طريف من ترف الملوك ، وكان دى فو حاضراً فأزال عباءة الركوب الطويلة التى كان يلبسها رتشارد ، ووقف الملك أمام صلاح الدين فى لباسه الضيق الذى أبان عن متانة قوته وجمال اتساق جسمه ، وهو يبين كل التباين الثياب الفضفاضة التى كانت تستر جسم الملك الشرقى التحيل ؛ وكان أشد ما استرعى انتباه الملك العربى سيف رتشارد الطويل ذو المقبضين ، وظبانه العريضة المستقيمة التى يمتد طولها الفارط من كتف حامله إلى عقبه .

فقال السلطان : « والله لولا أنى رأيت هذا المهند يتألق فى طليعة المعركة كسيف عزرائيل لما كدت أصدق أن ذراعاً بشرية تستطيع أن تهز به ، وهل لى أن ألتبس رؤية الملك رتشارد وهو يضرب به ضربة واحدة سلمية لمحض امتحان قوته ؟ » .

فأجابه رتشارد : « لك هذا منى راغباً أيها السلطان النبيل » ؛ وتلفت حواليه يبحث عن شيء يختبر به قوته ، فوقعت عينه على صولجان من الصلب يمسك به أحد الواقفين ، له مقبض كذلك من الصلب ، قطره نحو بوصة ونصف البوصة ، فأخذه ووضعه على كتلة من الخشب .

وأدى بدى ثو جزعه على شرف سيده أن يهمس بالإنجليزية قائلا : « وحق العذراء البتول ، حذار مولاي مما أنت مقدم عليه ! إنك لم تسترد بمد كامل قواك . لا تسمت فيك هذا الكافر » .

فقال رتشارد وقد ثبت في مكانه ورنا حواليه بنظرة حادة : « أنصت أيها الغافل ، أفتظن أنني أحبط في حضرة ؟ » .

وأمسك مهنده المريض البراق بكنتا يديه ، ورفع عاليًا إلى كتفه اليسرى ، وأداره حول رأسه ، وهوى بقوة كأنه قوة آلة مروعة ، فتدحرج القضيب الصلب فوق الأديم وقد قصمه نصفين كما يتر الحاطب الشجيرة بفأسه .

فأخذ السلطان القضيب الصلب الذى انكسر شطرين ، وغصه بدقة وإمعان ، وقال : « والله إنها لضربة محيية ! » ، وكانت ظباة السيف من اللين بحيث لم يبد عليها أقل إشارة إلى تأثرها بالعمل الجليل الذى أنجزته ؛ ثم تناول يد الملك وحدث في حجمها وقواها العضلية التى بدت عليها ، وضحك حيناً وضعها بجانب يده الضامرة الهزيلة التى لا تدانيها قوة ولا عصياً .

وقال دى ثو بالإنجليزية : « أجل ، انظر وأمن في النظر ، إن أصابعك التى تشبه أصابع القرد لن تستطيع أن تقوم بمثل هذا العمل الباهر بسيفك هذا الرقيق المموء بالذهب » .

فقال رتشارد : « ازم الصمت يا دى ثو ، أقسم بالمنراء إنه قد يدرك أو يتخبرص بما تعنى — وإنى أرجوك أن لا تكون فظاً كذلك » .

وحقا لقد أسرع السلطان بقوله : « إنى أريد أن أحاول أمراً ، ورغم أن الضعيف ليس له أن يظهر ضعفه أمام القوى ، إلا أن لكل بلد ما ألف من مران ،

وقد يكون هذا جديداً على الملك رتشارد . وبعد ما أتم حديثه رفع عن الأديم وسادة من الحرير والرغب ، ووضعها مستقيمة على أحد أطرافها ، وقال للملك رتشارد : « هل تستطيع بسلاحك يا أخى أن تقصم هذه الوسادة ؟ » .

فأجاب الملك : « كلا ، وإيم الحق ، وما على الأرض سيف — حتى ولا حسام الملك آرثر — يستطيع أن يقطع شيئاً لا يثبت لوقع الضربة الراسخة » .

فقال صلاح الدين : « إذن فانظر إلى » وشمر عن ساعده ، فبدت منه ذراع نحيلة ، هزيلة حقاً ، ولكنها من أثر المران تصلبت وباتت كتلة ليس بها غير العظام والمضلات والأعصاب ؛ ثم جرد سيفه الأحذب من غمده ، وهو نصل منحني ضيق ليس له بريق سيوف الفرنجة ، وإنما لونه أزرق قاتم ، عليه عشرة ملايين من الخطوط المتوية ، مما يدل على أن صانعه أحى المعدن بالنار وطرقه بكل عناية ؛ ووقف السلطان مرتكزاً بثقله على قدمه اليسرى ، وقد قدمها إلى الأمام قليلاً ، وهز بسلاحه وظاهره الضمف إذا قيس بمهند رتشارد ، وارتن السلطان قليلاً كأنه يريد أن يثبت من هدفه ، ثم خطا إلى الأمام بفتة وجذب الأحذب فوق الوسادة مطبقاً شفرته عليها بحذق وبقليل من الجهد ، حتى لكأن الوسادة قد انقسمت من تلقائها شطرين ولم عمزقها العنف والقوة .

فانطلق دى فو إلى الأمام ، واختطف نصف الوسادة التي انقسمت كأنه يريد أن يثبت من صدق ما وقع ، وقال : « إن هذه إلا حيلة مشعوذ ، وإن في هذا لسحراً » . ويظهر أن السلطان قد أدرك قوله ، لأنه أزال ذلك الضرب من اللثام الذى كان يتلثم به حتى آتخذ ، ونزعه عن وجهه ، وعلقه بطرف سيفه ، ومد حسامه في الجو مستعرض الشفرتين ، وجذبه بفتة من خلال اللثام رغم تعلقه بالظباة مرسلاً غير موثوق ، فمزق اللثام كذلك نصفين ، وتطاير في ناحيتين مختلفتين في الفسقاط ، مبيناً كذلك عن لين السلاح وحدته الفائقة ، ومهارة حامله مهارة رائعة .

وقال رتشارد : « والآن وإيم الحق يا أخى إنك في حيل السيف لا تبارى ، وإنك لجذ خطر لمن يلاقيك ! ولكنى ما زلت رغم هذا أثق ببعض الثقة في الضربة



الإنجليزية القاسمة ، فإن ما لم نستطع بالدهاء نديره بالقوة ، وعلى ذلك فخا إنك في ثلم الجروح لحاذق حذق حكيمى النطاسى فى ضمدها ؛ إنى أعتقد أنى سوف أرى الطبيب العالم — إنى على له لشكر آ جزىلا ، وقد أتيت له بهدية صغيرة .

وبينا هو يتكلم ، استبدل صلاح الدين عمامته بتقبة قترية ، وما إنى فعل ذلك حتى ففردى قو فى الحال فه المريض وعينه الكبيرتين المستديرتين ، وحلق رتشارد بما لا يقل عن ذلك دهشة ، بينا أخذ السلطان يتكلم بصوت رزين متغير ويقول : « يقول الشاعر ما معناه : إنى المريض ما دام عليلا يعرف طبيبه بخطاه ، ولكنه إنى عوفى لا يعرف منه حتى وجهه حينما ينظر إليه » .

فصاح رتشارد : « إنها لمعجزة ! — إنها لمعجزة ! »

وقال توماس دى قو : « معجزة من فعل محمد ولا مرأه » .

وقال رتشارد : « كيف لى أن أفتقد حكيمى النطاسى لمجرد غياب تقيته وثوبه ، ثم أجده ثانية فى شخص أخى المليك صلاح الدين ! » .

فأجابه السلطان : « هذه حال الدنيا فى كثير من الأحيان ؛ إنى الثياب البالية لا نتم عن الدرويش فى كل حين » .

فقال رتشارد : « وإذن لقد كنت الوسيط فى نجاة فارس النمر من الموت ، وبمحبتك كانت عودته إلى المعسكر متفكرا ؟ » .

قال صلاح الدين : « أجل ، لقد كان ذلك ؛ وقد علمنى طبي أن جراح شرفه الدامى ، إنى لم تلتئم ، فإن أيام حياته سوف لا تطول ؛ ولقد كان كشف تنكره أيسر مما توقعت لنجاح تنكرى » .

فقال الملك رتشارد : « إنى حادثا قد وقع حدا بى أول الأمر إلى أن أدرك أن بشرته كانت ملونة بلون مصطنع (وربما يشير بهذا إلى النظرف الذى دفعه إلى أن يطبق شفثيه على جرح النوبى المزعوم) ، وما إنى أدركت هذه الإشارة حتى أصبح كشف الأمر سهلا ميسورا ، فإن هيئته وجسمه لا يفيدان عن الذكر ، وإنى على ثقة من أنه سوف يتقدم للأنزال فى الند » .

فقال السلطان : « إنه على تمام الأبهة وعلى أمل عظيم ، فلقد أعددت به بالسلاح والحصان لأنى أحسن به الظن بما رأيت وأنا متخف فى مختلف الأزياء » .

فقال رتشارد : « وهل يعرف هو الآن لمن هو مدين ؟ » .

فأجاب العربى : « أجل فلقد اضطررت إلى الاعتراف له بشخصى حينما كشفت له عن غرضى » .

فقال ملك انجلترا : « وهل أقر لك بشيء ما ؟ »

فأجاب السلطان : « لم يقر بشيء صراحا ، ولكن من كثير مما دار بيننا ، أدركت أن حبه معقود بفتاة من بيت كريم أرفع من أن ينتهى وإياها إلى السعادة والرفاهية » .

فقال رتشارد : « وهل تعلم أن حبه هذا الوقح الجرىء يتعارض ورغبتك ؟ »

فقال صلاح الدين : « قد يبلغ بى الظن إلى هذا الحد ؛ ولكن حبه قد ظهر إلى حيز الوجود قبل أن تنشأ فى الرغبة — وبينى أن أقول إن حبه أبقى على الزمن من حبى ، وإن شرفى لا يسمع لى بأن أتقيم لخيتى ممن لم تكن له يد فيها ، ولئن كانت هذه الكريمة النسب تحبه أكثر مما يحبنى فمن ذا الذى يقول إنها لم تنصف فارساً من دينها كله شرف ونيل ؟ » .

فقال رتشارد شاخا بأنفه : « ولكنه من ذرية أوضع من أن تختلط بدم بلاتناجنت » .

فأجابه السلطان : « ربما كانت هذه مبادئكم فى بلاد الفرنجة ، أما نحن فشعراؤنا من أهل الشرق يقولون بأن الحادى المقدام جدير بتقبيل ثغر الملكة الحسنة ، أما الأمير النذل فليس قينا بأن يحبى أهذاب ثيابها — ولكنى أستاذذك أخى النبيل فى أن أفارقك الآن ، كى أستقبل دوق النمسا وذلك الفارس النصرانى ، وهما أقل منك حقاً بالأكرام ، ولكننا يبنى لنا أن نحسن لقاءهم ، لا لإجلالهم ، ولكن احتفاظاً بشرفى — ولقد قال فى ذلك الحكيم لقمان : (إن الطعام الذى تقدمه للغريب

لا يضيع ، فإن اشتد به جسمه وقوى ، ارتفع اسمك عزه وشهرة .

ثم فصل الملك العربي عن سراق الملك رتشارد ، وبعد أن أوماً إليه بالإشارة لا بالكلام عن المكان الذي ضرب به سراق الملك ووصيفاتها ، ذهب للقضاء صر كيز منتسراً وحاشيته الذين أعد لهم السلطان كذلك أما كن يستقرون فيها ، توازي ما أعد لغيرها أبهة وعظمة ، ولكن بقلب أقل ترحيباً . وقُدِّم الطعام الوفير على الطريقة الشرقية وعلى النمط الغربي لضيوف صلاح الدين من الملوك والأمراء ، كل في سراقه الخاص ؛ وكان السلطان شديد التنبيه لمادات زأريه وأذواقهم ، فأوقف رفيقاً من اليونان يقدمون لهم كؤوس الخمر ، وهي حرام على المسلمين ، وقبل أن يفرغ رتشارد من طعامه دخل (عبد الله) الذي كان قد حمل رسالة صلاح الدين إلى معسكر المسيحيين ، ومعه خطة الطقوس والرسوم التي سوف تتبع في اليوم الذي يلي يوم الزلزال ؛ وكان رتشارد يعرف هوى صاحبه القديم ، فدعاه لأن يشاركه في قدح من نبيذ (شيراز) ، ولكن (عبد الله) أوماً إليه — وعلى وجهه سيماء الحزن والأسى — بأن إنكار اللذات في الظرف الراهن أمر يتعلق بحياته ، لأن صلاح الدين — رغم تسامحه في كثير من الشؤون — كان يري شريعة النبي وينفذها بالمقوبة القاسية .

فقال رتشارد : « إذن إن كان لا يجب الخمر — وهي ذلك الشراب الذي يخفف عن قلب الإنسان — فإن اعتناق المسيحية لا أمل فيه ، ولسوف تذهبن نبوءة كاهن عين جندة المجنون أدراج الرياح . »

ثم شرع الملك يعد أدوات المبارزة ، واستغرق في ذلك وقتاً طويلاً ، إذ كان إذما عليه أن يتشاور في بعض الأمور مع الفريق المنازل ومع السلطان .

وأخيراً تم بينهم الاتفاق في كل شيء ، وسووا ما بينهم في ميثاق بالفرنسية والعربية ، وقع عليه صلاح الدين كحكم في ميدان القتال ، ورتشارد وليوبولد كضامين

للمتبارزين ؟ ودخل دى فو و(عبدالله) يستأذن من الملك رتشارد بالانصراف نهائيا ذلك المساء .

وقال دى فو : « إن الفارس الكريم الذى سوف يشترك فى النزال غدا يرجو أن يعرف إن كان يجوز له هذه الليلة أن يقدم ولاءه لمتبوعه الملك ؟ » .

فقال الملك باسما : « وهل رأيته يادى فو ؟ وهل عرفت فيه صديقا قديما ؟ » . فأجابه دى فو « أقسم بسيدة (لانركست) إن بهذه البلاد من المفاجآت والتنويرات الكثيرة ما يضطرب له عقل الضيف . والله ما كدت أن أعرف السر كنت الاسكتلندى حتى جاءنى كلبه الصالح ، الذى لبث تحت رعايتى زمنا قصيرا ، وتمسح بى ؟ وحتى حينئذ ما عرفت الكلب إلا باتساع صدره واستدارة قدمه وأسلوب نباحه ، فلقد كان الكلب المسكين مصطبغا بالألوان كماهرات البندقية » . فقال الملك : « إنك فى معرفة الحيوان أحق منك فى معرفة الرجال يادى فو » . فقال دى فو : « لا أنكر أنى كثيرا ما ألفتهم أكثر الفريقين أمانة وإخلاصا ، وفوق ذلك فإن جلالتك قد يسرك أحيانا أن تدعونى بالوحش ، وفضلا عن هذا فإنى أخدم الأسد الذى يعترف له الرجال جميعا بأنه ملك الوحوش » .

فقال الملك : « أقسم بالقديس جورج إنك حقا هنا قد كسرت رحلك على جبلى (أى غلبتى) ، لقد كنت أبدا أقول إن لديك شيئا من الفطنة يادى فو . ولكن يبنى المرء أن يضربك بالمطرقة قبل أن يتطاير منها الشرر ، أما هذا الترس ... قل لى هل الفارس الكريم كامل التسليح والعدة ؟ » .

فأجابه دى فو : « أجل ، مولاي ، وإنه لكامل النبل كذلك ؟ إنى أعرف الدقة جيدا ، إنها تلك التى قدمها إلى جلالتك رسول البندقية قبل مرضك بقليل نظير خمسمائة ينزطة » .

« وقينا لقد باعها السلطان المشرك ورجح فيها بضع دانير وتسلم الثمن فوراً ؛ والله إن أهل البندقية هؤلاء لييمين القبر المقدس ذابا ! » .

فقال دى فو « إن الدقة لن تحصل فى أمر أنبل من هذا » .

وقال الملك : « والفضل في هذا لنيل العربي لا لجشع البندق » .  
فقال دى ثو وهو قلق : « إني لأرجو الله أن تكون جلاتك أشد حذراً ،  
وها نحن وقد هجرنا أحلافنا لإساءة لحقت بهذا أو بذاك ؛ إنما لأمل لنا في  
النجاح برا ، وإذا اشتبكنا مع الجمهورية البرية البحرية فسوف نفقد سبيل  
التراجع بجرأ » .

فأجاب رتشارد جازعاً وقال : « سوف أحذر ، ولكن لا تقف منى موقف  
المعلم بمد هذا ، وإنما قل لى هل لدى الفارس قسيس ؟ فإن هذا الأمر يهمنى » .  
فأجاب دى ثو قائلاً : « أجل ، وذلك هو ناسك عين جدة الذى قام له بهذه  
الخدمة من قبل وهو يتأهب للموت ، وهو يقف بجانبه في هذا الظرف ، وقد أتت  
به إلى هنا شهرة البارزة » .

فقال رتشارد : « نعم الخبر ، والآن ماذا يطلب الفارس ؟ قل له إن رتشارد  
سوف يقابله بمد ما يقوم بواجبه بجانب (درة الصحراء) تكفيراً عن إثمه بجانب  
جبل القديس جورج ؛ وإذا ما مرت بالمسكر فقل للملكة إني سوف أزور  
سرادقها ، وقل لبندل أن يلقاني هناك » .

وفصل دى ثو ، وبعد نصف ساعة تلفع رتشارد بماءه ، وأخذ يده حمامه ،  
وسار في طريقه إلى سرادق الملكة ، ومر به كثير من الأعراب ، ولكنهم كانوا  
دائماً ينصرفون عنه بوجوههم ، ويمقدون بالأديم أبصارهم ؛ ومع ذلك فقد استطاع  
أن يرى أنهم جميعاً كانوا يتبعونه بالنظر متطلعين ، بمد ما يتأى عنهم ؛ وقد حدا به  
هذا إلى الظن حقاً بأن شخصه كان مروعاً لهم ، ولكنهم تحاشوا أن يبدو  
عليهم أنهم يراقبون ملكاً أراد أن يفكر ، إما لأمر من صلاح الدين أو  
لأدائهم الشرقية .

ولما بلغ الملك سرادق الملكة ، ألغاه مخفوراً بأولئك الضباط الأشقياء الذين  
توقفهم الفيرة الشرقية على حراسة الحرم ، وكان لبندل يسير لدى الدخل ، ويتعنى  
بين الفينة والأخرى بأسلوب يجعل هؤلاء الإفريقيين يبرزون أسنانهم العاجية ،

ويقومون بحركاتهم الغريبة مهللين بأصواتهم المجلجلة العجيبة .  
فقال الملك : « ماذا تريد من هذا القطيع من الماشية السوداء يا بلندل ؟ ولماذا لا تدخل السراشق ؟ » .

فأجابه بلندل وقال : « لأن صناعتى لا تغني عن رأسى ولا عن أصابعى ، وهؤلاء المغاربة السود الأمناء هددونى بتقطيعى إرباً إرباً إن أنا تقدمت إلى الأمام » .  
فقال الملك : « إذن فلتدخل معى وسوف أكون لك حارساً » .

ثم نكس هؤلاء السود حراهم وسيوفهم لإجلال الملك رتشارد ، وطأطأوا رؤوسهم كأنهم لا يليق بهم أن ينظروا إليه . وفى داخل السراشق ألقى الملك توماس دى فو قائماً على خدمة الملكة ؛ وبينما برنجاريا تحب بلندل ، انتحى رتشارد وقرينته الحسنة ناحية ، وأخذ يحادثها سراً فترة من الزمن .  
وقال لها همساً « أو ما زلنا بعد هذا خصوصاً يا أديث الحسنة ؟ »

فكانت أديث بصوت خافت لا يمارض الموسيقى : « كلا يا سيدى ، إن أحداً لن يسمعه أن يحمل فى نفسه العداوة للملك رتشارد ، وهو يتمطف علينا بالكرم والنبل ، وهما من شيمته حقاً ، كما أنه رجل شهم كريم » .

وما إن فرغت من حديثها حتى مدت يدها إليه ، فلتحتها الملك إيماء إلى الثناء القلوب ثم قال :

« إنك تحبين يا ابنة عمى الحسنة أنى كنت أتكلف الغضب فى هذا الأمر ؛ كلا ، لقد خدعتك نفسك ؛ إن العقوبة التى وقعت على هذا الفارس كانت عادلة ، ومهما بلغ به الإغراء يا ابنة عم الفاتنة فلقد خدعنا فيما وكلنا إليه من ثقة ؛ ولكن سرورى كسرورك عظيم بأن الغد سوف يهبى له الفرصة ليكسب المعركة ويرد العار — الذى التصق به زمناً — إلى السارق والخائن الحق . كلا ! إن المستقبل قد يعذل رتشارد على تهوره وحمقه ، ولكنهم سوف يقولون إنه فى حكمه كان يعدل حين تجب العدالة ، ويرحم حينما يجد إلى الرحمة سبيلاً » .

فقال أديث : « لا تسبح بحمد نفسك يا ابن عمي ، فربما رأوا في عدالتك القسوة ، وفي رحمتك الهوى » .

فقال لها الملك : « وأنت لا تفخري بنفسك ، كأن فارسك الذي لم يعتش سلاحه قد أخذ ينزعه بعد الظفر والانتصار — إن كثراد منتسرا معروف بمهارته في الضرب بالرمح ، فإذا لو خسر الأسكتلندي في النزال ؟ »

فأجابت أديث مؤكدة متبينة وقالت : « هذا محال ! لقد شهدت بعيني رأسي كثراد هذا وهو يرتعد ويتغير لونه كاللص الذيء . إنه آثم — وامتنحانه بالمبارزة احتكام إلى عدالة السماء — لو كان لي أنا نفسي أن أنزله في مثل هذا الأمر لنزلته بغير وجل » .

فقال الملك : « وحق القديس إني لأظنك تستطيعين ذلك أيها المرأة ، ثم توقعين به الهزيمة ؟ فما تنفس من أبناء بلاتاجنت من هو أسدق منك قولا » .  
وسكت قليلا ثم قال في نعمة الجد الصارم : « ولكني أوصيك أن تذكرى أبدا ما يجب لكرم منبتك » .

فقال أديث : « وماذا تعني بهذا النصيح الذي تنصحني به في هذه اللحظة جادا ؟ هل أنا من خفة الطبع بحيث أنسى اسمي — وحالي ؟ »

فأجابها الملك قائلا : « سوف أكلك صريحا يا أديث ، وكما يكلم الصديق الصديق — ما شأن هذا الفارس بك لو أنه خرج من هذه المبارزة ظافرا ؟ »  
فاشتد احمرار أديث خجلا وغضباً وقالت : « شأنه بي ؟ ماذا عساه أن يكون لي أكثر من فارس كريم ، قمين بما قد توليه الملكة برنجاريا من رضا وعطف ، لو أنه اختارها سيدة له بدلا من انتقائه من هي أقل منها قدرا ؟ » ثم قالت وهي تفخر : « إن أدنى فارس قد يكرس نفسه لخدمة الماهلة ، ويكفيه منها عظمها جزاء » .  
فقال الملك : « ولكنه قد قام بخدمتك وعانى من أجلك كثيرا » .

فأجابته أديث بقولها : « ولقد جازيته على خدماته شرفاً وثناءً ، وعلى آلامه

دموعاً وبكاءً ؟ فلئن كان يطمح إلى غير هذا من ثواب فن الحكمة أن يعقد حبه  
بقناة من مرتبته .

فقال لها الملك وتشارد : « إنك إذن لا تلبسين قميص الليل الدامى من أجله ؟ »  
فأجابته أديث قائلة : « كلا ، وما كان لى أن أطلب إليه أن يستهدف بحياته  
للخطر بعمل فيه من الجنون أكثر مما فيه من الشرف » .

فقال الملك : « هكذا أبدأ تكلم المذارى ؟ وإذا ما تقدم المشيق المحبوب  
يطلب يد فتاته تهتد وقالت له إن نجمها يحكم بغير هذا » .

فأجابت أديث عزيزة النفس وقالت : « إن جلالتك الآن تهتدى للمرة الثانية  
بتأثير طالى ؛ صدقى ، مولاي ، إنه مهما يكن من سلطان النجوم ، فإن قريبتك  
المسكينة لن تقترن بكافر أو مناصر مجهول — إسمح لى أن أصنى إلى موسيقى بلندل ،  
لأن نعم تحذيرك الملكى لا يشنف الآذان » .  
ولم يحدث بقية المساء ما يستحق الذكر .



## الفصل الثامن والعشرون

هل سمعت ضجيج الحركة وضوضاءها  
حينما يكسر النصال على النصال ، ويلتقي بالجواد الجواد ؟  
جراى

ورؤى نظراً لحرارة الجو أن تم المبارزة الحاصمة التى بعثت على اجتماع هذا  
الحشد من الأمم العديدة عند (درة الصحراء) بعد مشرق الشمس بساعة ،  
وكانت أرض الزال الفسيحة التى تم إعدادها تحت إشراف فارس النمر تضم  
مساحة من الرمل الصلب ، طولها مائة وعشرون ذراعاً وعرضها أربعون ، وكانت  
تتمدد طولاً من الشمال إلى الجنوب حتى تهبط للفريقين الارتفاع بإشراق الشمس  
على السواء ، وأقيم الكرسي الملكي لصالح الدين فى الجهة الغربية من الخطيرة فى  
قلب المكان ، حيث كان ينتظر من المتبارزين أن يلتقيا فى منتصف المراك ، وأقيم  
تجاه هذا رواق من حجرات مقلعة أنشى بحيث تستطيع السيدات اللائى أقيم  
لأيوأتهن أن يرين القتال دون أن يتعرضن للنظر ، وفى نهايتى أرض الزال  
أقيمت الحواجز التى يمكن فتحها أو إغلاقها حسبما يريد المرء ، وأقيمت كذلك  
العروش ، ولكن لما رأى الأرشدوق أن عرشه أسفل من عرش رتشارد أبى أن  
يشغله ؛ أما قلب الأسد الذى كان على أهبة لأن يسلم بالكثير حتى لا يقف الرسوم  
فى سبيل الزال فقد رضى لساعته أن يبق الكفيلان — كما كان يطلق عليهما —  
على ظهري جواديهما أثناء القتال ؛ وفى طرف من أطراف الميدان وقف أتباع  
رتشارد تقابلهم بحبة كزاد ؛ وحول المرش الذى أعد للسلطان اصطاف حرسه  
الفاخر من أهل جورجيا ، وشغل بقية الساحة النظارة من النسيجين والمسلمين .  
وقبل منبثق النهار بوقت طويل أحاط بساحة الزال عتدمن الأعراب أكثر  
مما رأى رتشارد فى المساء السالف ، ولما أشرقت فوق الصحراء من قرص الشمس  
البهى خيوط الشعاع الأولى ، قام السلطان نفسه ينادى : « حى على الصلاة » .

حتى على الصلاة ! » بصوته الجمهورى ، فأجابہ الآخرون الذين تخول لهم مرتبتهم وتدفيعهم حماسهم إلى النداء مؤذنين ، وكان مشهداً رائعاً أن تراهم جميعاً وقد خروا على الأرض سجداً يكررون دعواتهم مولين شطر مكة ، ولكنهم ما إن نهضوا من السجود حتى بدت أشعة الشمس — وسرعان ما اشتد اتقادها — وكأنها تؤيد ما زعم اللورد جلزلاند في الليلة السابقة ، فلقد انعكس ضياؤها من رؤوس الحراب العديدة ؛ ولا مريبة في أن رماح الأمس الجرداء لم تعد كما كانت بغير سنان ، فأشار دى فو لسيده إلى هذا ، وأجابہ الملك جازعاً إنه يثق كل الثقة في إخلاص السلطان ونزاهته ، ولئن كان دى فو يرتاع لجسمه الضخم فلينسحب .

وسرعان ما علا بعد هذا صوت اللق على المزاهر ، وما إن طرق هزيعها أسمع الفرسان حتى نزلوا جميعاً عن ظهور خيولهم ، واستلقوا على وجوههم كأنهم يصلون الصبح ثانية ، وإنما كان ذلك تهيئة الفرصة للملكة وأديث ووصيفاتها كي يخرجن من السرادق إلى الرواق الذى أعد لهن ؛ وقد خفرن خمسون حارساً من سراى صلاح الدين شاهرى السلاح ، وقد أمروا أن يمزقوا إرباً إرباً كل من يجرؤ — أميراً كان أو حقيراً — على النظر إلى السيدات وهن سائرات ، أو يحاول أن يرفع رأسه ، حتى يملن سكوت الموسيقى للرجال جميعاً أنهن قد أوين إلى رواقهن حيث لا تراهن العيون للتطلعة .

هذه الرعاية الشرقية لاحترام الجنس اللطيف رعاية لا يتصورها العقل ، حدث بالملكة رنجارياً أن تنفوه يعض النقد والقدح الشديد في صلاح الدين وبلده ، ولكن عرينهن — كما أطلقت على الرواق الملكة الحسناء — كان مغلقاً في أمن ، ووقف على حراسته أتباعهن السود ، فاضطرت إلى القناعة بأن ترى وتناست إلى حين حبها لأن ترى ، وهو إلى نفسها أشهى .

وحينئذ ذهب كفيلاً البطلين — كما يحتم عليهما الواجب — ليطمئنا على تمام تسليح رجليلهما واستعدادهما للقتال ؛ ولم يسارع أرشدوق النمسا إلى تأدية هذا الجانب من طقوس الحفل إذ أنه كان قد أدمن في شراب نبيذ شيراز في الليلة

السالفة إيماناً شديداً لم يألوه ، ولكن كبير رجال المبد ، وقد كان أكثر منه اهتماماً بنتيجة الزال ، بكر إلى خيمة كفراد منتسرا ، ولشد ما كانت دهشته حيناً أنكر عليه الأتباع الدخول .

فقال لهم كبير رجال المبد وقد اشتد به الحق : « ألا تعرفون أيها الأوغاد ؟ » . فأجاب خادم كفراد وقال : « إنا نعرفك أيها الرجل الشجاع البجل ، ولكن حتى أنت لا يجوز لك الدخول الآن — إن الركيز قد أوشك أن يقر بما في نفسه » .

فصاح رجل المبد في نعم اختلط فيه الدعر بالدهشة والازدراء وقال : « كيف يقر بما في نفسه ؟ ولمن ؟ ناشدتك الله إلا خبرتوني » .

فقال الخادم : « لقد أمرني سيدي أن أكتم السر » ؛ وما إن سمع كبير رجال المبد هذا حتى دفعه وخلفه وراءه ودخل الفسطاط عنوة .

فألقي مركيز منتسرا جاثياً لدى قدى ناسك عين جدة وهو يوشك أن يعترف . فقال كبير رجال المبد : « ما ذا تعني بهذا أيها الركيز ، هيا وانهض واستمع وإلا فإن كان لا بد لك من الاعتراف ، فهأنذا » .

فأجاب كفراد بوجه شاحب وصوت متهيج وقال : « لقد اعترفت لك كثيراً قبل الآن ، فناشدتك الله أيها الرئيس الأعظم أن تمرزب ، ودعني أكشف عن مكنون نفسي لهذا الرجل الطاهر » .

فأجابه رئيس الفرسان وقال : « فيم هو أظهر مني ؟ أيها الناسك ، أيها المجنون — قل لي إن كنت تجسر على القول ، فيم أنت تفضلني ؟ » .

فأجابه الناسك قائلاً : « أيها الرجل الوقح الدنيء ، أعلم أنني كالنافذة الشبكية ، ينفذ النور إلا أنه خلالي لصالح الآخرين وليس لي — واحسرتاه — فيه خير ، وما أنت إلا كالعمامة الصلبة لا تتلقى لنفسها النور ولا تبلمه غيرها » .

فقال كبير رجال المبد : « لا تهذر لي بهذا ، إن الركيز لن يعترف هذا الصباح إلا إن كان الاعتراف لي لأنني لن أفارق جانبه » .

فقال الناسك لكتراد : « هل هذه مشيتك ؟ ولا تظن أنى سوف أصدع بأمر هذا الرجل المتكبر إن كنت ما زلت ترغب فى معونتي » .  
فقال كتراد مترددا : « ياويلي ! ماذا تريدنى أن أقول ؟ — استودعتك الله الآن ، فسوف تتحدث فى هذا الشأن بعد حين » .

فصاح الناسك : « قاتل الله التسويف ! إنه يقتل النفس ! — وداعا أيها الرجل التمس — وداعا ، لا إلى حين ، ولكن إلى أن يلتقى كلانا حينما كان ثم التفت إلى كبير رجال المبد وقال : « أما أنت (فلترجف) ! » .  
فأجابه صاحب المبد مزدريا وقال : « (أرجف) ! والله إن أردتُ هذا ما استطعته » .

ولكن الناسك كان قد فصل عن الفسطاط فلم يستمع إلى جوابه .  
وقال الرئيس الأعظم : « تعال ! إلى هذا الترس على عجل ؛ وما دمت تريد أن تؤدى هذا العمل الطائش فاستمع إلى ؛ أظننى أعرف أكثر مواطن الضعف فى نفسك عن ظهر قلب ، وإذن فلنفض الطرف عن التفصيل فقد يطول ، ولنبدأ بالغفران ؛ لا طائل من سرد الآثام الدنسة ونحن نقدم على إزالتها من أيدينا » .  
فقال كتراد : « إنك تعرف من أنت ، فمن الكفر بالله أن تتحدث عن مغفرة الآخرين » .

فقال صاحب المبد : « إن هذا لا يتفق ونص الكتاب يا سيدى المركز ؛ إنك أكثر وسوسة من الأرثوذكس ؛ إن غفران القس اللئيم له من الأثر كالأثر لو كان قديسا — وإلا فاللهم ارحم التائب المسكين ! من هذا الجريح الذى يسأل إن كان الجراح الذى يضمده جراحه طاهر اليدين ؟ — تعال وهيا بنا إلى هذا الميث » .  
فقال كتراد : « كلا ، والله لخير لى أن أموت بغير اعتراف من أن أهزا بالسر المقدس » .

فقال صاحب المبد : « تعال أيها المركز النبيل ، استنهض شجاعتك ، ولا تقل بهذا القول ، إنك سوف تقف بعد ساعة ظافرا فى ساحة النزال ، أو

تعترف وأنت في خوذتك كما يعترف الفارس القدام .  
 فأجاب كتراد قائلاً : « يا الوليل أيها الرئيس الأعظم ؛ إن كل شيء في هذا الشأن كان مشئوماً ، وما اكتشف الكلب بفرزته عن الأمر هذا الكشف المجيب — وإعادة الفارس الاسكتلندي إلى الحياة ، ومجيئه إلى ساحة النزال كالطيف — ما هذا إلا من علام الشر . »  
 فقال صاحب المبد : « ما هذا الهراء ! لقد رأيتك وأنت تصوب رمحك نحوه جسوراً وأنا تلهوان ، وقد تمالنا في الظفر — فاحسب أنك في مباراة ، ومن ذا الذي يقف في ميدان الطمان خيراً من وقفك ؟ تمالوا أيها الحشم وخدام السلاح ؛ إن سيدكم ينبغي أن يتأهب لميدان القتال . »  
 فدخل الخدم على إثر ذلك وشرعوا في تسليح المركيز .  
 وقال كتراد : « كيف جو الصباح في الخارج ! » .  
 فأجابه أحد الخدم قائلاً : « لقد أشرقت الشمس معتمة . »  
 فقال كتراد : « ها أنت ذا ترى أيها الرئيس الأعظم أن لا شيء يسم لي . »  
 فأجابه صاحب المبد وقال : « لسوف يكون قتالك أكثر جرأة يا بني ، واحد الله الذي خفف من حدة شمس فلسطين كي توائم ما أنت مقبل عليه . »  
 وهكذا كان يمزح الرئيس الأعظم ، ولكن نكاته فقدت تأثيرها على عقل المركيز المضطرب ، ورغم أنه حاول أن يظهر بالابتهاج ، إلا أن صاحب المبد قد أدرك كآبته .  
 ففكر في نفسه : « إن هذا التزل سوف يخسر المعركة للحض وهنه ، وخو قلبه الذي يسميه رقة الضمير . كان ينبغي لي أنا — وأنا لا يهزني خيال ولا طيرة ، ثابت في مرماي ثبوت الصخر — أن أقاتل في المعركة بنفسى ؛ وددت والله لو أن الاسكتلندي ضربه الضربة القاضية وقضى عليه في حينه ؛ فما بعد فوزه بالنصر ما هو خير من هذا ، ولكن مهما يكن من شيء ، فينبني أن لا يكون له قس غيرى يعترف له ، فإن إثمى شديد الاشتباك بإثمه ، وقد يقر بذنبي في إثر ذنبه » :

وبينا هذه الخواطر تلعب برأسه ، كان يواصل معونة المركيز على التسليح وهو صامت .

وأخيراً حانت الساعة ونفخ في الأبواق ، ونزل الفارسان في ساحة الزال راكبين مسلحين إلى الأطراف ، وكانا على ظهري جواديهما أشبه برجلين أوشكا أن يشتبكا في معركة في سبيل شرف أمة بأسرها ، ورفعا خوذتيهما وطوفا بالمسدان ثلاثاً عرضاً للتأطرين ، وكان كلاهما جميل الحيا ، ولكن الاسكتلندي كانت على جبينه مسحة من ثقة الرجولة — أمل مشرق تكاد تبتهج له النفس ؛ بينما كانت تخيم على جبين كزاد سحابة من اليأس المشثوم ، رغم أن كبريائه وتكلفه قد أعادا إليه كثيراً من شجاعته الطبيعية ، وحتى جواده كان يسير على صوت البوق وهو أقل نشوة وسروراً من الحصان العربي النبيل الذي كان يغطي صهوته السر كنث ؛ وهز المحدث برأسه حيناً رأى أن المدعي يطوف بعيدان الزال مع مسير الشمس — أى من اليمين إلى اليسار — بينما كان التهم يدور الدورة نفسها ولكن من اليسار إلى اليمين ؛ وهو مسير مشثوم في عقيدة كثير من البلدان .

وأقيم تحت الرواق الذي تشغله الملكة مباشرة محراب مؤقت ، وقف الناسك إلى جانبه في زى طائفته كقس من كرمل ، وكان بين الحاضرين كذلك غيره من رجال الكنيسة ؛ وإلى هذا المحراب سيق المدعي والمهم كلاهما ، متتابعين ، يتقدم كلا منهما كفيله . ولما بلغا المحراب ترجلا ، وأقر كل منهما بعدالة قضيته ، وأقسم بأصحاب الإنجيل يميناً منفلطة ، وذعابه أن يصيب من النجاح بمقدار ما في قسمه من حق أو باطل ، وأقسم كذلك أنهما أتيا للقتال في لباس الفروسية وبالأسلحة المعتادة ، وأنكر كل منهما استخدام الرق والتأثم والحيل السحرية لاستمالة النصر إلى جانبه ؛ ونطق المدعي اليمين بصوت ثابت مسترجل ، وطلعت عليها سببا الجراءة والبهجة ؛ ولما فرغا من هذه الطقوس ، تطلع الفارس الاسكتلندي إلى الرواق ، وطأ برأسه نحو الأرض إجلالا لذلك الجلال المستتر الذي كان محتجبا في الداخل ، ثم وثب وهو مثقل بالسلاح على ظهر جواده دون أن يستخدم الركاب ، واستحث

الحصان على أن يسير به تارة عن يمين وطوراً عن شمال ، حتى يبلغ به موقفه في الطرف الشرقى من الميدان ؛ وتقدم كتراد كذلك نحو الحراب وفيه من الإقدام الكفاية ، ولكن صوته وهو يقسم اليمين كان أجوف كأنه يسبح في خوذته ، ودعا الله أن يحكم بالنصر للقضية المادلة بشفتين أخذتا تشعبان وهما تلفظان بهذه السخرية الكافرة ؛ ولما أن عطف على جواده يركبه ، دنا منه الرئيس الأعظم واقترب كأنه يريد أن يصلح شيئاً في وضع درعه وهمس في أذنه : « ما أنذلك وما أغفلك ! استجمع حواسك وأدلى هذه المباراة بشجاعة ، وإلا فوالله لو نجوت منه لما نجوت منى ! » .

وربما كان في النعمة القاسية التي همس بها الرئيس في أذن الركيز تمة اضطراب أعصابه ، إذ أنه زل وهو يمتطي الحصان . وحقا لقد أعاد قدميه إلى الثبوت ، ووثب على ظهر الجواد برشاقة المهودة ، وأبدى حذقه في ركوب الخيل وهو يتخذ مكانه أمام الملقى ، إلا أن الزلة لم تغب عن أعين أولئك الذين وقفوا يترقبون الطيرة التي قد تسكنهم بقضاء ذلك اليوم . .

ودعا القساوسة ربهم خاشعين أن يحصص الحق في النزاع ، ثم فصلوا عن الميدان ؛ ونفخ في بوق المهاجم عالياً ، ونادى مناد مدحج بالسلاح في الطرف الشرقى من الحلبة وقال : « هنا يقف فارس كريم ، هو السركنث الإسكتلندى ، بطل نائب عن الملك العظيم رتشارد ملك إنجلترا ، الذي يتهم كتراد مركيز منتسرا بالخيانة الشنعاء ويجرح عزته . »

ولما ذكر النداء « كثنث الإسكتلندى » فأعلن بذلك اسم البطل وصفته — وما كانت العامة تعرفهما حتى ذلك — انبثت عن أتباع الملك رتشارد هتاف عال مريح ، وما كادوا يطيقون سماع جواب التهم رغم الأوامر المتكررة بالترام الصمت ؛ أما التهم فقد أعلن بطبيعة الحال براءته وتقدم للقتال ؛ ثم دنا أتباع التبارزين وقدم كل فريق لسيد درعه ورحمه ، معينا إياه على تعليق الفرع برقبته بحيث تبقى كلتا يديه طليقتين ، إحداها لتمسك بالترام ، والأخرى لتضرب بالرمح .

وكان يظهر على درع الاسكتلندى « النمر » شعاره القديم ، مزيد عليه طوق وسلسلة محطمة إشارة إلى أسرته في الأيام الأخيرة ؛ أما درع المركز فكان يحمل صورة جبل صخري ناثى\* إيماء إلى لقبه [منت = جبل ، سرا = ناثى\*] ، وهز كل منهما برمحه فوق رأسه كأنه يريد أن يتثبت من وزن السلاح الضخم وصلابته ، ثم أقره في غمده ثانية ، وتراجع الكفيلان والمنادون والأتباع بعدئذ إلى الحواجز ، وجلس التضاربان متقابلين وجهاً لوجه برماح منكسة وخوذات مسترخية ، وجسداهما مستتران كل التستر ، حتى لقد كانا إلى تماثيل من الحديد المسبوك أقرب منهما إلى مخلوقين من اللحم والدم ، وساد بين الحشد صمت الانتظار — وغلظت أنفاس الرجال ، وباتت أرواحهم وكأشها في عيونهم جائعة ، ولم يعل صوت غير نفخ الجوادين الكرميين بالمتخزين ونبشهما بالحوافر ، وقد أحس الجوادان بما أوشك أن يقع ، فكانا على قلق لأن يندفعا إلى المراك ؛ ووقفوا كذلك نحواً من ثلاث دقائق إلى أن صدرت عن صلاح الدين إشارة ما ، فشق الهواء مئين الآلات بجلجلتها النحاسية ، وحفز كل بطل حصانه بالهراز وأرخی الزمام ، وعدا الجوادان عدوا سريعاً ، والتقى الفارسان وسط الميدان يهزان الأرض كالرعد القاصف ؛ وما كان في الظفرية — كلا ، ولم يكن ثمة لحظة من شك ، فلقد كان يبدو على كتراد حقاً أنه مقاتل مدرب ، إذ أنه ضرب خصمه ضربة الفارس وسط درعه ، وهو يحمل رمحه مستقيماً مسدداً ، حتى لقد سقط الرمح محطماً من رأسه الصلب إلى طرف القفاز ؛ وكر حصان السر كنه متراجماً ذراعين أو ثلاث ، وسقط على عجزه ، ولكن راكبه خف إلى إلهاضه بيده وعنانه ؛ أما كتراد فنزل ولم ينهض ، لأن السر كنه طعنه برمحه فاخترق الدرع ثم زرداً عموهاً من صلب « ميلان » ثم ستره من حلق الحديد تحت الررد ، وجرحه في صدره جرحاً بليفاً ، ثم رفعه عن ظهر جواده تاركاً قتاة الرمح في الجرح راسخة ؛ وجينئذ احتشد حول الجرح الكفيلان والمنادون وصلاح الدين نفسه بعد أن نزل عن عرشه ؛ أما السر كنه فقد جرد سيفه ، قبل أن يدرك أن خصمه قد بات عاجزاً كل العجز ، وأمره



حينئذ أن يقر بإثمه ، فرفع الرجل الجريح خوذته على عجل ، وحدق بصره في السماء وأجاب : « ماذا تريد مني أكثر من ذلك ؟ لقد حكم الله بالعدل — أنا آثم ، ولكن بالمسكر من هم شر مني خيانة — آتوني بالقس إشفاقاً على روحي ! » .  
وعادت إليه الحياة وهو ينبس بهذه الكلمات .

فقال الملك رتشارد لصلاح الدين : « بالتميمة — بذلك العلاج الناجع ، يا أخي الملك ! » .

فأجاب السلطان قائلاً : « إنما أخلق بالخائن أن يُجذب من عقبه ويُبعد عن الميدان إلى المقصلة ، لا أن ينتفع بجزاياه » . ثم قال بعد ما حدق بصره في الرجل الجريح : « وإن في نظرتي لمثل هذا القضاء ، لأن جرمه قد يشفي ، ولكن عزرائيل قد ختم على جبين اللئيم » .

فقال رتشارد : « ورغم هذا ، فإني أؤسل إليك أن تقوم له بما تستطيع ، حتى يتسع له الوقت للاعتراف على الأقل ؛ لا تقتل فيه الروح والجسد ! إن نصف ساعة من الزمن قد تعادل حياة أكبر البطارقة سنّاً عشرة آلاف مرة » .

فقال صلاح الدين : « سأطيع إرادة أخي الملك . أيها العبيد ، احملوا هذا الرجل الجريح إلى مرادقنا » .

وكان صاحب المعبد حتى آنئذ واقفاً مكتئباً ينظر في صمت فقال : « لا تفعلوا ذلك ، إني ودوق النمسا الملكي لا تقبل أن يأخذ العرب هذا الأمير المسيحي التمس ، ويختبروا فيه تمامهم ؛ نحن التكفلين به نطلب إيداعه تحت رعايتنا » .

فقال رتشارد : « أي أنكم تأييان هذه الوسيلة بعينها التي تقدم لشفائه ؟ » . فقال الرئيس الأعظم وقد استجمع نفسه : « كلا ، ليس الأمر كذلك . إذا كان السلطان يستخدم أدوية شرعية فإنه يستطيع أن يعنى بالريض في خيمتي » . فقال رتشارد للسلطان : « أؤسل إليك يا أخي الكريم أن تفعل ذلك ، وإن يكن الإذن قد صدر بفظاظة وخشونة — والآن هلم بنا إلى عمل أجل من هذا — انفضخوا في الأبواق — واهتفوا يا أبناء الإنجليز — إجلالاً لبطل انجلترا ! » .

فدقت الطبول وفتح في الأبواب ، وضربت الصنوج في الحال ، وعلت الأصوات بالهتاف المتواصل ، وهو طريقة التهليل الانجليزية التي ألفوها دهوراً ، وذلك وسط صياح الأعراب المجلجل الذي لا يسير على ترتيب ، كما ترن أنغام الأرغن وسط عويل العواصف ، وأخيراً ساد الصمت بين الحاشدين .

وواصل قلب الأسد حديثه وقال : « أي فارس النمر الشجاع ، لقد بينت لنا أن الأتيوبي قد يبدل جلداً غير جلده ، والنمر الأرقط سمات غير سماته ، وذلك رغم أن السمكة لا يعرفون من المستحيلات إلا ما جاء في الكتاب المقدس ، ولكني أريد أن أحدثك حديثاً آخر حينما أسير بك إلى حضرة السيدات وهن خير حكم وخير من يمازى أعمال الفروسية » .

فانحنى فارس النمر انحناء القبول .

« وأنت أيها الأمير صلاح الدين سوف تمثل لديهن كذلك ، وإني أؤكد لك أن ملكتنا لن تحسب أنها على الرحب إلا إذا تهيأت لها الفرصة لشكر مضيفها الملك لاستقبالها هذا الاستقبال الفاخر » .

فطأطأ صلاح الدين رأسه برشاقة ولكنه رفض الدعوة .

وقال : « إنما يجب أن أعنى بالرجل الجريح ، إن الطبيب لا يترك مريضه إلا كما يترك البطل ساحة الوغى ، حتى وإن دُعي إلى غدع كخضاع الفردوس . وفوق هذا ، أيها الملك رتشارد ، لتعلمن أن دم الشرق لا يتدفق هادئاً في حضرة الجمال كدم أبناء بلادكم ، ولقد قيل : ( إن عيني المرأة كظباء السيف ، فمن ذا الذي يستطيع أن يحدق فيهما ؟ ) . من أراد أن لا يحترق ، فليتنجب أن يسير على النار الحامية . إن عقلاء الرجال لا ينشرون الكتان أمام اللهب المتقد ، ويقول الحكماء : « من أضع كنزاً ، فليس من الحكمة أن يتطلع إلى الخلف كي يلا منته ناظره » .

ونعتقد أن رتشارد قدر هذه الدوافع الرقيقة التي انبعثت عن خلق يختلف عن خلقه ، ولم يلح في مطلبه بعد ذلك .

وهم السلطان بالرحيل وهو يقول : « أُملي أن تقبلوا جميعاً دعوتي إياكم إلى الطعام في منتصف النهار تحت الخيمة السوداء المصنوعة من جلد الجمل ، وهي خيمة زعيم من زعماء كردستان » .

وأذيعت هذه الدعوة بين المسيحيين ، وشملت كل من كانت له من المكاة ما يكفيهِ لأن يجلس على مائدة أعدت للأمراء .

وقال رتشارد : « أنصتوا ! إن الزاهر تعلن أن ملكتنا ووصيفاتها خارجات من رواقهن ؛ وانظر إلى المأم ترها وقد غاصت في الأرض كأن ملكاً من ملائكة الهلاك قد ضرب فوقها ؛ لقد انكبوا جميعاً على وجوههم كأن نظرة واحدة من عين العربي تطفئ بريق خدود السيدات ! هيا بنا إلى السراق ، وسيروا برجلنا الظافر إلى هناك منتصرين — والله إني لأشفيق على هذا السلطان النبيل الذي لا يعرف عن الحب إلا الكا يعرف من هم أدنا منه طبعاً » .

وضرب (بلندل) على قيثارته أعلى أنفاسها ترحيباً بمقدم الظافر إلى سراق الملكة برنجاريا ، وقد دخل مستنداً يميناً ويساراً على ضامنيه رتشارد وتوماس لنجسود ، ثم جثا خاشعاً أمام الملكة ، ولكن أكثر من نصف الولاء كان موجهاً في صمت إلى أديث التي كانت تجلس إلى يمينها .

وطفحت نفس الملك بشراً ، وأراد أن يقوم بتقاليد الفروسية فقال : « جردوه عن سلاحه ، سيداتي ، وليشرف الجملُ الشهامة ! انزعى عنه مهمازيه يا برنجاريا ؛ إنك ملكة ، ولكنك تدنين له بكل شارة من شارات الرضا بوسك أن تمنحها إياه . حلّ رباط خوذته يا أديث — حلّ يدك حتى وإن كنت أشد ذرية بلا تاجت كبراً ، وكان هو أفقر فارس على وجه البسيطة ! » .

وصدع السيدتان بالأمر الملكي — وشرعت برنجاريا تعمل بمشابة واهتمام ، حريصة على أن تشبع رغبات زوجها ، وأدِيث تنتابها حمرة الحياء حيناً والشحوب المتزايد حيناً آخر ، وهي تفك بتؤدة واضطراب — يماونها لنجسود — الروابط التي كانت توثق الخوذة بالزرد .

ولما نزع الخوذة عن السركنت بدت للعيان طلعتة ، ووجهه ينبض بالجهد الذى يذل حديثاً ، كما ينبض — بما لا يقل عن ذلك شدة — بالعاطفة الثائرة فى نفسه إذ ذاك ، فقال رتشارد : « ماذا تنتظرون من وراء هذا الرداء الحديدى ؟ ماذا ترون فيه أيها الشجعان وأيتها الحسان ؟ » ثم قال : « هل هو يشبه العبد الأتيوبى ، أم هل يبدى وجه مغامر مجهول غير ذائع الصيت ؟ كلا ومهندي الكريم ! — هنا نهاية تنكره على ضروبه المختلفة ، لقد جئنا أمامك وما تعرفين عنه غير فضله ، ولينهض كذلك مبرزاً بكرم أرومته وبجسده طالمة ، لينهض الفارس الجرىء ( كنت ) باسم ( دافيد إيرل هنتنجدن ) أمير اسكتلندا الملكى ! » .

فساد بين الجميع العجب والدهشة ، وسقطت من يد أدith الخوذة التى أمسكت بها منذ حين .

وقال الملك : « أجل ، سادى ، إنه كذلك . إنكم تعرفون كيف أن أسكتلندا قد خدعتنا حيناً ارتأت أن تيمث إلينا بهذا ( الايرل ) الجسور يصحبه جماعة من الشجعان من خيار أبنائها ونبلائهم ليعاونوا جيوشنا فى هذه الحملة على فلسطين ، ثم أخلت بوعدها ؛ ولكن هذا الشاب النبيل ، الذى كان على الصليبيين الاسكتلنديين أن يسيروا تحت لوائه ، أدرك أن من خفى المار أن يمسك سلاحه عن الحرب المقدسة ، فانضم إلينا فى صقلية ومعه ثلة صغيرة من الأتباع النبورين المخلصين ، انضم إليها الكثير من مواطنيه ، الذين كانوا يجهلون مرتبة قائدهم ؛ وقد حصد الموت كل من يثق فيهم الأمير الملكى سوى تابع واحد مسن ، فى وقت كاد سره المحتفى فى طي الكتمان أن يدفعنى إلى أن أقطع — فى شخص مغامر أسكتلندى — أملاً من أنبل آمال أوروبا . لم تذكّر مرتبتك يا هنتنجدن النبيل ، وأنت محفوف بخطر أحكامى المأجلة الشديدة الانفعال ؟ هل كنت تحسب رتشارد بمستطيع أن يسىء استخدام ماله من فضل على وريث ملك كثير ما ألقاه معادياً له ! » .

فأجاب (إيرل هنتنجدن) وقال : « إني لم أصمك بهذا العسف أيها الملك رتشارد ، ولكني لم أطق أن أقر بأن أمير اسكتلندا كي أنجو بحياتي — وقد استهدفت للخطر لتقصيري في واجب في الولاء — وفوق ذلك فإني كنت قد أقسمت أن أبقى صرته بتي مجهولة حتى تنتهي الحرب الصليبية ، وما ذكرتها إلا وأنا أناهب للوث وأعترف لهذا الناسك الواقف هناك » .

فقال رتشارد : « إذن فلقد كانت معرفة هذا السرمي التي حدثت بالرجل الكريم أن يتمجلى في الرجوع عن حكمي الشديد الذي حكمت ؟ ما كان أجدره أن يقول لي إن هذا الفارس الكريم لو سقط من جراء حكمي لوددت فيما بعد لو أن الحادث لم يقع حتى وإن كلفني ذلك شلواً من أشلائي — شلواً ! كلا بل لوددت أن لم يقع حتى وإن كلفني حياتي — مادام العالم لا بد قائل إن رتشارد قد أساء إلى مآل وريث اسكتلندا — وقد وثق الرجل في كرمه » .

فقال الملكة رينجاربيا : « ومع ذلك فهل لنا أن نعرف من جلالتك بأية صدفه عجيبه سميده أنجل هذا اللفز بمد لآي ؟ » .

فقال الملك : « وردت إلينا الرسائل من إنجلترا ، وعلنا منها من خلال ما حلت من أنباء أخرى غير سارة أن ملك اسكتلندا قد ألقي القبض على ثلاثة أو أربعة من نبلائنا وهم يحجون إلى القديس « نفيان » ، وذريعتهم في ذلك أن وريثه الذي ظن الناس أنه يقاتل في صفوف الفرسان التوتون ضد المناققين في « بروسة » هو في الحقيقة في معسكرنا وتحت سلطاننا ؟ ولذا فقد رأى ولم أن يقبض على هؤلاء النبلاء رهناً لسلامته ، فرمى لي هذا الحادث الشماع الأول على مرتبة فارس النمر الحق ، وأيد شكوكي دي فو ، الذي عاد من عسقلان ومعه خادم إيرل هنتنجدن الأوحده ، وهو رقيق صلب الرأي ، سار مع دي فو ثلاثين ميلاً كي يفشوله سراً كان ينبغي له أن ييوح لي به » .

فقال لورد جلزلاند : « التمسوا المذرة « لستروخان » المجوز ، فلقد علمته التجارب أن قلبي أشد ليئاً من قلوب بلا تاجحت » .

فصاح به رتشارد : « قلبك لين ؛ كيف هذا وأنت سلعة من الصلب العتيق ، أو حجر من صوان ( كبرلاندا ) ! » . ثم التفت إلى ابنة عمه وتكلم بأسلوب صعد منه الدم في وجنتيها ، وقال : « إننا نحن ، يا أدith ، أبناء بلانتاجنت ، الدين نفخر بالقلوب اللينة الحساسة ؛ هات يدك يا ابنة عمي الحسنة ، وأعطني يدك يا أمير أسكتلندا » .

فتراجعت أدith وجاهدت أن تخفي اضطرابها ، وهي تزعم أنها تحاول المزاح بسلامة طوية قريبها الملك ، وقالت : « أقلع عن هذا مولاي ؛ ألا تذكر أن يدي قد كتبت عليها أن تهدي صلاح الدين السلم العربي — وكل جيوشه من ذوى العالم — إلى الدين المسيحي ؟ » .

فاجابها رتشارد قائلا : « أجل ، ولكن ريح التنبؤ قد انقلبت ، وهي الآن تهب من ركن آخر » .

فتقدم الناسك وقال : « لا تسخر وإلا اشتد إثمك ؛ إن ملائكة السماء لا تكتب غير الحق في سجلها النير ؛ إنما هو بصر الإنسان الذى بلغ به الوهن أن لا يقرأ ما سطروا صواباً ؛ أعلم أنى حينما هجع صلاح الدين العربي وكنت في مبارقي ، طالعت النجم وعلمت أن تحت سقيفتي أميراً ، هو عدو رتشارد الطيبى ، وأن حياة أدith بلانتاجنت معقودة بحياته ، فما كان لى أن أشك فى أن ذلك هو صلاح الدين الذى كنت بمكاته عليا ، لأنه كثيراً ما أتى لزيارتي بالكهف بمحاذثي فى دورات الأجسام السماوية ؛ ثم هدتنى بعد ذلك أنوار الكون إلى أن الأمير ، زوج أدith بلانتاجنت ، سوف يكون مسيحياً ، وأنا فى تأويل النجوم ضعيف ساذج ، فاستنبطت إذ ذاك اعتناق السلطان النبيل للمسيحية ، وهو رجل كثيراً ما مالت به صفاته الكريمة نحو الحق . إن إحسامى بضئى قد أذل أنقى إلى الرغام ، ولكنى فى الرغام وجدت راحة الضمير ؛ إنى لم أصب مطالعة أقدار الآخرين — ومن يدرينى لعلى كنت أخطئ حساب نجمى أنا نفسى ؟ إن الله لا يريدنا أن نسطو على حقوق الملائكة أو نستطلع أسراره الخفية . إنما واجبنا أن

نتنظر يوم الدين ساهرين خاشعين يغمر قلوبنا الخوف والأمل . لقد أتيت إلى هنا رسولا متشفعا ، ونبيا شاعكا ، أجيده - حسب ظني - إرشاد الأمراء ، وقد وهبني الله قوى غير طبيعية ، وأتقلى بحمل حسبت أن لا يطيقه غير عاتق ، ولكن مواتيقي قد تقطعت ! فلأعودن من هنا متواضعا في جهالتى ، نادما ، ولكنى لست قانعا بغير أمل .

وبعد ما أتم هذا الحديث انسحب من الجمع ؛ ويسجل التاريخ أن نوبات الجنون قل أن عاودته من منذ ذلك الحين ، وأن كفارته باتت من الضرب الخفيف ، مصحوبة بأمل فى المستقبل خير من أملة السالف ؛ وكان لديه من الاعتداد بالرأى - حتى فى جنونه - الشيء الكثير ، حتى إنه لما أيقن أنه كان يرحب بنبوءة لا أساس لها - بل ويبشر بها بحماسة شديدة - كان لذلك على نفسه أثر كأثر الدم يفيض من جسم الإنسان فيلطف من حرارة الذهن ويخفف عنها .

ولا حاجة بنا إلى أن نتتبع بالبيان المفصل مؤتمرات السراى الملكى ، أو أن نعرف هل « دايفيد إيرل هنتنجدن » كان فى حضرة أدبى بلاتاجنت صامتا صمته حينما كان مضطرا إلى العمل وهو متتكر فى شخص مناصر مجهول لا اسم له ؛ ويجوز لنا أن نعتقد صوابا أنه كان فى هذا المقام يعبر بالحماسة اللاتقة عن عاطفته التى كثيرا ما تمسر عليه من قبل أن يلبسها ثوب الكلام .

واقتربت الظهيرة ، ولبت صلاح الدين ينتظر أمراء العالم المسيحى فى خيمة لا تختلف كثيرا عن الخيام المألوفة بين عامة الكرد والعرب ، اللهم إلا فى ضخامة حجمها ؛ ومع ذلك فقد أعدت تحت طرفها الأسود الفسيح مأدبة على أغر طراز فى الشرق ، ومُدت على بسط من أنفاس الأنواع ، ثمرت عليها الوسائد للزائرين ؛ ولكننا لانستطيع أن نقف بالقارى ونصف له مخائف الذهب والفضة - والتفويى الفاخر بالنقوش العربية - وشملات الكشمير - وحرير الهند ، التى كانت منشورة هناك بكل جلالها وجلالها ؛ كما أنا لانستطيع ألبة أن نتحدث عن أصناف الحلوى العديدة ، والطعام المحفوف بالأرز الملون على أشكال عدة ، وكل ما لا وطاب

من غير ذلك من ألوان الطهي الشرقى ، من خراف مشوية بأسرها ، وصيد وطير  
وطهي بالأرز واللحم والتوابل ، مكسداً في أوان من ذهب ومن فضة وخزف ،  
ومختلطاً بأقداح من جلو الشراب المبرد بالثلج والجليد من كهوف جبل لبنان ؛  
وكان على رأس المائدة كدس عظيم من الوسائد كأنه أعد لصاحب الوليمة ، ولمن  
يدعوهم من أصحاب المقام الرفيع لأن يتخذوا مكانهم في ذلك الموضع المميز ؛ وكـم  
من راية وعلم ، وكـم من شارة من شارات الظفر في الحروب وقهر الممالك والدول  
كانت ترفرف فوق الخيمة في كل ناحية ، وبخاصة فوق هذا المقعد الرفيع الشأن .  
ولكن بين هذا كله ، وفوق هذا كله ، كان هناك رمح طويل يتعلق به كفن ،  
هو علم الموت ، وقد كتبت عليه هذه العبارة القوية : « صلاح الدين ملك الملوك  
— صلاح الدين قاهر القاهرةين — صلاح الدين يجب أن يموت » ووسط هذا  
الإعداد ، وقف العبيد — الذين أعدوا ألوان الطعام — برؤوس منكسة وسواعد  
مطبوقة ، صامتين لا حراك بهم كأنهم تماثيل للذكرى ، أو شخص آلية تنتظر  
ممن الفنان لتتحرك .

وكان السلطان يمتد — كغيره — في الكثير من خرافات زمانه ، فوقف —  
وهو ينتظر اقتراب زائريه الأمراء — يستطلع بروج السماء وييده كتاب مسطور  
يبحث به إليه ناسك عين جدة حينما فصل عن المعسكر .

وتتم لنفسه قائلاً : « ما أعجب هذا العلم وما أغمضه ! إنه يزعم أنه يكشف  
عن المستقبل الحجاب ، ولكنه يُضِل أولئك الذين يتظاهرون بإرشادهم ، ويُظلم  
النظر الذي يزعم إضاءته ! من ذا الذي كان لا يقول أنى كنت ألد خصوم رتشارد  
بوأشدم عليه خطراً ، وأن عداوته سوف تنتهى بالزواج من قريبته ؟ ولكن الآن  
يظهر أن اقتران ذلك (الايـرل) الشهم بالنسيدة ، سوف يؤدي إلى الصداقة بين  
رتشارد واسكتلندا ، وهى بلد أشد مـنى عداوة وخطراً ، فهى كالكقط الوحشى فى  
الغرفة يُخفى بأسه أكثر من الليث فى الصحراء النائية ... » ، ثم وسوس  
لنفسه قائلاً : « ولكن النجم كان يشير إلى أن هذا الزوج سوف يكون مسيحياً



وسكت قليلا وكرر الكلمة وقال : « أجل ، مسيحيا ؛ ولقد بثت ذلك في النجم  
التهوس المجنون الأمل في احتمال ارتدادى عن ديني ! ولكن ما كان هذا  
ليخدعنى أنا ، أنا ذلك التابع المخلص للثبي » ، ثم رمى بالكتاب تحت أكدهس  
الوسائد وقال : « البت هنا أيها المكتوب الخفي الغامض ، ما أعجب ما نبأت به ،  
وما أشده على النفوس وقعا ، ما دمت — حتى إن صدقت فيها جاء بك — لن  
تصيب من يحاول حل رموز معانيك إلا بكل أثر من آثار الباطل — ماذا  
يقصد هذا القادم ؟ » .

وقد وجه عبارته الأخيرة هذه إلى القزم نكتبائس الذى اندفع إلى داخل  
الخيمة وهو يرتعد اضطرابا ، وكل لحظة من ملاحظه المجيبة ، التى لا نسق فيها ،  
قد التوت فزعا ورعبا ، حتى صار شديد القبح ، فارط الكتابة — وفه فاعمر ،  
وعيناه محمقتان ، ويداه ممدودتان ذعرآ ، وأصابه ممسوخة مجمدة .

فقال السلطان جابسا : « ما وراءك ؟ » .

فأجابه القزم متأوها وقال : « خذ هذه » .

فقال صلاح الدين : « ماذا تقول ؟ » .

فأجابه هذا المخلوق المذمور قائلا : « خذ هذه » ، ورعبا كان لا يدرك أنه  
إنما يكرر اللفظ بعينه .

فقال الباهل : « عني ، إن أعصابى الآن لا تتحمل الهزل » .

فقال القزم : « وما أنا الآن بهازل ، إلا إن كان هزلى يماون فطننى على  
كسب القوت ، وأنا ذلك اليائس البائس ! استمع إلى ، واصغ لى أيها السلطان  
الأعظم ! » .

فقال صلاح الدين : « إن كان لديك مظلمة عادلة تشكوها — جادا كنت أم  
هازلا — فلك الحق فى بثها إلى أذنى ملك ؛ تراجع معى إلى هنا » وسار به إلى  
الفسطاط الداخلى .

ومهما يكن الأمر الذى تباحثا فيه ، فلقد ارفض اجتماعهما على عجل حينما

نمت إليهما أصوات الأبواق التي أعلفت مقدم الأمراء المسيحيين الميدين ، الذين رحب بهم صلاح الدين إلى فسطاطه بملاطفة ملكية تليق بمكانتهم ومكانته ؛ ولكنه حيا (إيرل هنتنجدن) الشاب نجمة خاصة وأسرف له في الهبة بالأمانى التي أحرزها ، والتي تقف في سبيل آماله السالفة وتخيم عليها .

وقال السلطان : « ولكن لا تحسبن أيها الشاب النبيل أن أمير اسكتلندا أكثر قبولا لدى صلاح الدين من (كنث) لدى (الضريم) حينما التقيا في الصحراء ، أو من الأيوبي المنكود لدى الحكيم (أدنبك) ؛ إن طبيعته سمحة مقدامة — كطبيعتك — لما قيمة مستقلة عن الحسب والنسب ، كما أن هذا الشراب البارد الذى أقدم إليك الآن لتذيق المذاق من قذح الخنزف كما هو من كأس الذهب » .

فأجابه (إيرل هنتنجدن) بما يليق ، واعترف شاكرًا بالخدمات العديدة التي أداها له السلطان الكريم ، ولكنه لما تناول كأس الشراب السائغ التي قدم إليه السلطان ، وهم بأن يشرب نجبه ، لم يسمعه إلا أن يقول مبتسما : « إن الفارس الشجاع (الضريم) لم يعرف كيف يتكون الجليد ، ولكن السلطان السخي يريد رحيقه بالثلج » .

فقال السلطان : « أفتريد أن يكون العربى أو الكردى عاقلا كالحكيم ؟ من يعمل متكررا ينبئ له أن يوفق بين ما فى قلبه من هوى وما فى عقله من علم ، وبين اثرى الذى يرتدى ؛ لقد أردت أن أعرف ما ذا يصنع الفارس الفرنجى الجسور الخالص الطوية فى الجدل مع زعيم من الزعماء ، كما كان يدل ظاهرى ؛ وقد أثرت الشك فى صدق حقيقة ذائعة معروفة ، كي أعرف بأى الحجج أنت تؤيد مزاعمك » . وبينما هما يتحدان سمع أرشدوق النمسا — وكان قريبا منهما — ذكر الشراب السائغ للثلج ، فدهش لذلك ، وتناول الكأس المترعة مقتبطا مقبلا وإيرل هنتنجدن يوشك أن يردّها إلى مكانها .

وبعد ما احتسى جرعة كبيرة ، ضاعفت من لذة مذاقها حرارة الجو والحرى التي عقبته دعارة اليوم السابق ، صاح قائلا : « ما ألهما ؟ » وتهدأ وهو يتناول

الكأس رئيس رجال المعبد الأعظم ، وأشار صلاح الدين إلى القزم ، فتقدم وقال بصوت أجش : « خذ هذه » ، ففزع صاحب المعبد ، كالخصان يرى ليثاً تحت شجيرة على جانب الطريق ، ولكن سرعان ما تاب إلى ثباته ، وربما أراد أن يخفى اضطرابه فرفع كأس إلى شفثيه — ولكنهما لم يحسا حافة كأس ، ووجد صلاح الدين سيفه عن غمده وسله كما يُسل البرق من السحاب ، وهز به في الهواء — ثم تطوح رأس الرئيس الأعظم إلى أقصى الخيمة ، بينما بقي الجذع مكانه لحظة ، والكأس ما تزال مثبتة في قبضته ، ثم سقطت كأس ، واختلط الشراب بالسماء التي كانت تتدفق من العروق .

فعم الصباح بالغيابة والنذر ، وتقهقر مذعوراً دوق النمسا ، وكان صلاح الدين يقف على مقربة منه ، والسيف في يده يقطر دماً ، وكأن الدوق كان يحشى أن تدور عليه الدائرة ، ووضع رتشارد والآخرون أيديهم على سيوفهم .

وقال السلطان مطمئناً كأن لم يحدث شيء : « لا تخف شيئاً يا دوق النمسا النبيل ، ولا تقضب يا ملك الإنجليز مما شهدت ؛ ما لتكرار الحياة منه ، ولا من أجل المؤامرة التي دبر للقضاء على حياة الملك رتشارد — كما يقر بذلك خادمه الخاص — ولا لأنه طاردني وأمير اسكتلندا في الصحراء ، وما أتى لنا من سبيل للنجاة بحياتنا إلا خفة جوادينا — ولا لأنه حث (الارونيين) على مهاجمتنا في هذا الظرف عينة ، لولا أني أتيت عفواً بكثير من الأعصاب حتى ماتت الحيلة في مهدها — ما من إحدى هذه الجرائم ولا من أجلها جميعاً ترونها هناك بجندلا ، وإن تكن كل واحدة منها تستحق هذا القضاء — وإنما لأنه منذ أقل من نصف ساعة — قبل أن يفسد علينا حفلنا بمقدمه كما تسم السموم الجو — طمن بمنجزه زميله وصاحبه كتراد منقسرا خشية أن يعترف بالمؤامرات التي اشتغل بها معاً » .

فصاح رتشارد : « كيف هذا ! أقتل كتراد ؟ — ويعد الرئيس الأعظم ، وليه وصديقه ! أيها السلطان النبيل ، إنى لا أشك فيما تقول ، ولكن هذا الخبر يجب إثباته ، وإلا . . . » .

فقال صلاح الدين وقد أشار إلى القزم المذعور : « هنالك يقف الشاهد والدليل ، إن الله الذى يرسل الجبابرة كى تضىء بالليل ، يستطيع أن يكشف عن خفى الجرائم بأحقر الوسائل وأدناها » .

ثم أخذ السلطان يقص قصة القزم ومؤداها ما يلى : — اشتد بنكبتاناس حب الاستطلاع الطائش أو — كما أقر تنويرها — فكر فى النهب والاختلاس ، قتلل إلى خيمة كنزاد بعد أن هجرها أتباعه ، وقد خلف بعضهم المسكر ليحملوا خبر انكساره إلى أخيه ، وأخذ بعضهم الآخر يفتنم ما أعد صلاح الدين للقصف والمرح ؛ واستغرق الرجل الجريح فى النوم تحت تأثير تميمه صلاح الدين المصيبة ، فستحت للقزم الفرصة أن يتجسس كما يشاء ، حتى سمع خطى ثقيلة فارتاع واختفى ، وتوارى خلف ستار بحيث يستطيع أن يرقب حركات الرئيس الأعظم ويسمع إلى كلماته ، وقد دخل الرئيس وأسدل غطاء السرادق خلفه بحرص وحذر ، فهب من النوم فريسته ، ويظهر أن الرجل ارتاب فى الحال فى أغراض صاحبه القديم ، فسأله وفى صوته نغمة الاءعر لماذا جاء يزججه ؟

فأجابه الرئيس الأعظم قائلاً : « جئت لتعترف لى وأبجيك » .

ولم يذكر القزم الخائف من حديثهم بعد هذا كثيراً ، سوى أن كنزاد توسل إلى الرئيس الأعظم ألا يقضى على رجل جريح ، وأن صاحب المبد طعنه فى قلبه بمنجبر تركى وقال له : « خذ هذه » وهما كلمتان أخذتا بعد هذا مدة تتابان الخيال المرتاع ، خيال الشاهد المتوارى .

ثم قال صلاح الدين : « ولقد أمرت بفحص الجثة ، وتحققت من صدق القصة ؛ وجملت هذا المخلوق البائس ، الذى بعثه الله ليكشف عن الجريمة ، يكرر فى حضرتكم الكلمات التى لفظها القاتل ، ولقد شهدتم بأنفسكم الأثر الذى تركت على فؤاده » .

وسكت السلطان قليلاً ثم شق ملك أنجلترا الصمت السائد وقال :

« إن كان هذا صدقاً — وهو ما لا أشك فيه — فلقد شهدنا عملاً جليلاً من

أعمال العدل ، وإن يكن إلى الموت لا إلى الحياة ، ولكن لم كان ذلك في هذا الحفل ولم كان بيدك ؟ » .

فقال صلاح الدين : « كنت رسمت لنفسى خطة أخرى ، ولكن لو أننى ما سارعت إلى قتله لا تقلبت نهايته كل منقلب ، لأننى لو كنت سمحت له بارتشاف كأمى — كما أوشك أن يفعل — فكيف كان يسعى ، دون أن أصم نفسى بوصمة الخيانة للضيف في إقرائه ، أن أنزل به الموت الذى يستحق ؟ لو أنه قتل أبى ثم شاركنى بعد ذلك في طعامى وشرابى ، ما كان لى أن أؤذى شجرة من شجرات رأسه ، ولكن دعونا منه — ولنبعد من بيننا جثته وذكره » .

فقلبت جثته وحببت علامات القتل أو ووريت بمخزق وعلى عجل ، مما كان يدل على أن أمثال هذا الحادث كانت مألوفة معهودة ، حتى أن أعوان صلاح الدين والضباط من خاشيته لم يصمق منهم أحد .

ولكن الأمراء المسيحيين أحسوا بأن المنظر الذى شهدوا كان شديد الوقع على نفوسهم ، وقد اتخذوا مقاعدهم فى المأدبة نزولا عند دعوة السلطان ومجاملته لهم ، إلا أن ذلك قد تم فى صمت الشك والبهشة ؛ ولم تمل على كل أسباب الريبة والارتباك نفس غير نفس رتشارد وحده ، ومع ذلك فقد بدا عليه كأن خاطراً طراً له يجب أن يسوقه فى أسلوب مقبول شديد الإيحاء على قدر ما يستطيع ، وأخيراً احتسى قدحاً كبيراً من النبيذ حتى ثمأته ، ووجه الخطاب إلى السلطان ، وأراد أن يعرف إن كان حقاً أن (إرلر هنتنجن) قد تشرف بتنازله .

فأجاب صلاح الدين باسمًا وقال : إنه امتحن حصانه وسلاحه مع وريث اسكتلندا ، كما يفعل الفرسان عادة فيما بينهم حيناً يلاقى فى الصحراء بعضهم بعضاً ؛ ثم قال متواضعاً إن الضراب لم يكن حاسماً قاطعاً ، إلا أنه من ناحية ليس لديه سبب قوى يحمله على أن يفخر بنفسه فى هذا الحادث ؛ وأنكر الاسكتلندى من ناحية أخرى هذا الفضل الذى نسب إليه ، وأراد أن يمزوه إلى السلطان .

فقال رتشارد : « حسبك ما نلت من شرف في هذا النزال ، وإنى لأحسدك على هذا أكثر مما أحسدك على سمات أدب بلا تاجنت ، وإن كان أحد الأمرين يكفى جزاء على جهد يوم دامر — ولكن ماذا أنتم قائلون أيها الأمراء الأشراف ؛ هل يليق بمملكة ملكية من الفرسان كهذه أن تنفض دون أن تعمل شيئاً لمستقبل الأيام تتحدث به ؟ ما نبذ خائن ، وما قتله ، لهذه الجماعة الشريفة النبيلة الحاشدة في هذا المكان ، والتي ينبغي أن لا تتفرق دون أن تشهد شيئاً جديراً باعتبارها ؟ ماذا تقول أيها السلطان المليك — ماذا لو فصلنا الآن أمام هذه الجماعة الطيبة في الإشكال الذى طال عليه النزاع ، إشكال هذه الأرض ، أرض فلسطين ، فتختم في الحال هذه الحروب الشاقة ؟ ها هي ذى الرحبة على استعداد ، ولن يطمح الإسلام إلى بطل خير منك ، ولسوف أرمين بقفازى نيابة عن العالم المسيحي ، إلا إن تقدم من هو أجدر منى ، وفي حجة الشرف نترك عمرا كافاصلا لحيازة بيت المقدس » .

وساد صمت عميق ارتقابا لجواب السلطان ، وعلت الحمرة الشديدة جبينه وخديه ، وظن الكثير من الحاضرين أنه تردد في قبول المبارزة ، وأخيراً قال : « إن أنا قاتلت في سبيل المدينة المقدسة ، في وجه من نراهم من الوثنيين وعبداء الأخشاب والحجارة والتماثيل المنحوتة — وإنى على يقين من أن الله سوف يشد أزرى — ولئن سقطت تحت حسام الملك رتشارد ، فإنى لن أنتقل إلى الفردوس بمئة أشراف من هذه ، ولكن الله قد أعطى بيت المقدس للمسلمين المؤمنين ؛ وإنه لمن الكفر برب النبي أن أسوق إلى المخاطر — رهنا بقوتى وحذق — ما أملك . مطبشاً بفوق جيوشى » .

فقال رتشارد بنعمة من يطلب الرضا من صديق حميم : « إن لم يكن من أجل بيت المقدس ، إذن فلنتبارز حبا للشرف ثلاث مرات على الأقل برماح مسنونة » .

فايتسم صلاح الدين قليلا لهذا الشغف القوي بالنزال عند قلب الأسد وقال :

« وحتى هذا ليس لى شرعا أن أفعله ؟ إن السيد يضع الراعى على رأس القطيع ، لا من أجل الراعى ، ولكن من أجل النعم ؛ لو كان لى ابن يحمل الصولجان بعد سقوطى لكنت لى الحرية — كما أن لى الإرادة — فى مجابهة هذا النزال الجرىء ، ولكن لقد جاء فى إنجيلكم ذاته أنه إذا ضرب الراعى تشتتت الرعية » .

فالتفت رتشارد إلى (إرل هنتنجدن) وتهد وقال : « لقد فزت بكل توفيق ، والله إنى لأعطى خير سنى حياتى لنصف ساعة بجوار (درة الصحراء) ! » .

وحرك فرط الفروسية فى رتشارد نفوس الحافلين ، ولما نهض أخيراً للرحيل تقدم صلاح الدين ، وأمسك قلب الأسد من يده .

وقال : « أى ملك أنجلترا النبيل ، إنا نفترق الآن على غير لقاء ، وإنى أعرف جيداً — كما تعرف أنت — أن عصابتك قد تفككت عراها ولنى تلتئم ، وأن جيوش بلدك قليل عديدها ، ولا تمكنك من مواصلة ما شرعت فيه ؛ إنى لا أستطيع أن أسلم لك بيت المقدس هذا الذى تتحرق شوقاً إلى حيازته ، فهو لنا — كما هو لكم — بلد مقدس ، ولكن أية شروط أخرى يطلب رتشارد إلى صلاح الدين أسلم لك فيها راغباً كما تتدفق المياه من تلك العين ؛ أجل ، ولسوف يهب صلاح الدين كما تهب العين ، بغير مواربة ، حتى وإن وقف رتشارد فى الصحراء ، وما يتبعه غير اثنين من رماة السهام ! » .

\*\*\*

وشهد اليوم الثانى عودة رتشارد إلى معسكره ، وبعد فترة وجيزة تروج (إرل هنتنجدن) الشاب من (أديث بلاتاجنت) ، وبمث السلطان (بالطلمس) الشهير هدية بمناسبة القران ؛ ولقد تم به شفاء الكثيرين فى أوروبا ، غير أنه لم ينجح فى أيهم ، ولم يشتهر أمره ، نجاحه وشهرته فى أنجز صلاح الدين ؛ وهو ما يزال على قيد البقاء ، فلقد ورثه (إرل هنتنجدن) فارساً شجاعاً من أبناء اسكتلندا ، هو (السر سيمنى لى) ، وما تزال أسرته العريقة ، صاحبة الشرف

الرفيع ، تحتفظ به ، ورغم أن الحجارة المسحورة قد نُيِّدَت من علم الصيدلة الحديث ، إلا أن فضائل هذا الطلسم ما زالت تستخدم في إيقاف الدم ، وفي حالات الجنون الكلي .

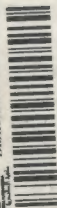
وهنا تنتهى قصتنا ، إذ أن الشروط التى كف من أجلها رتشارد عن غزواته مبسطة فى كل كتاب من كتب التاريخ عن ذلك العهد .

---





Bibliotheca Alexandrina



0402822